

## **موقف اليمن**

### **من الحروب الصليبية**

**خلال القرنين السادس والسابع الهجريين/  
الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين**



# موقف اليمن من الحروب الصليبية

خلال القرنين السادس والسابع الهجريين/  
الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين

تأليف

جابر عبده علي عبدالله حنيف

تقديم

الأستاذ الدكتور

عبدالرحمن عبدالواحد محمد الشجاع

أستاذ التاريخ والحضارة - جامعة صنعاء

حقوق هذه الطبعة محفوظة لـ



الجمهورية اليمنية / عدن

هاتف بيج ٣٩٧٧٧٦ / ٢ / ٠٠٩٦٧ (فاكس بيج ٣٩٧٧٧٥ / ٢ / ٠٠٩٦٧)

Email: drwfaq@gmail.com

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

رقم الايداع في المكتبة الوطنية/ عدن

٢٠١١/٧٨٩م

تنويه

أصل هذا الكتاب دراسة علمية نال بها الباحث درجة الماجستير  
قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة عدن، عام ٢٠٠٨م - ١٤٢٩هـ



عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله استقبل بي الشام وولى ظهري اليمن وقال: يا محمد إني جعلت ما تجاهك غنيمَةً ورزقاً، وخلف ظهرك مدداً".

أخرجه أبو نعيم والطبراني وصححه الألباني

## الإهداء

إلى والديَّ اللذين رعياني ورباني صغيراً، وتعهدا  
جسمي وعقلي وروحي بالغذاء من عرقهما وسهر الليالي،  
والدعاء، أسأل الله العلي القدير أن يوفقني لكسب رضاءهما.

إلى من قاسمتني همومي وآلامي وشاطرتني طموحي  
وأحلامي؛ إلى زوجتي الغالية الصبورة، إلى أم عبدالرحمن.  
.. جابر ..



## شكر وتقدير

أتقدم بخالص الشكر والامتنان لكل من ساعدني في إنجاز هذا العمل، وأخص أولاً كل أساتذتي في مرحلتي الليسانس والسنة التحضيرية للماجستير وأخص بالذكر أستاذي المشرف على رسالتي الأستاذ الدكتور رعد الموسوي الذي أظهر لي من الاهتمام والصبر وطول الأناة ما يوازي صبر الوالد على ولده، وكذلك أستاذي وشيخي الأستاذ الدكتور عبدالرحمن الشجاع الذي بسط لي من وقته وعلمه وماله ما لا يجازيه به إلا الله.

كما أتقدم بخالص الشكر والتقدير والعرفان لأساتذتي الدكتور خليل الكبيسي والدكتور سالم محل والدكتور محمد صالح بلعفير والدكتور شايف سعيد والدكتورة إيمان بيضاني الذين كانت إرشاداتهم لبنات ساهمت في إنجاز هذا العمل.

ولا أنسى أن أشكر كلاً من عميد كلية الآداب بجامعة عدن الدكتور حسين باسلامة، ورئيس قسم التاريخ الدكتور نصر سالم هادي، وموظفي إدارات الكلية كافة، وأخص بالذكر الأخ الفاضل الأستاذ لطفي شهاب، على تعاونهم وتذليلهم للصعاب في وجه الباحث.

وكذلك أتقدم بالشكر الجزيل لأمناء المكتبات التالية: المكتبة العامة بالحديدة، مكتبة كلية الآداب بجامعة الحديدة، المكتبة المركزية بجامعة صنعاء، مكتبة كلية الآداب بجامعة صنعاء، المكتبة الوطنية بالحديدة ومكتبة

أبي ذر الغفاري بعدن.

وفي الختام أسأل الله العلي القدير أن يجزي عني خير الجزاء كل من  
قدم لي يد العون والمساعدة - وهم كثر- ولا يتسع المقام لذكرهم.

والله ولي التوفيق.

الباحث

## تقديم

الأستاذ الدكتور

عبدالرحمن عبدالواحد محمد الشجاع  
أستاذ التاريخ والحضارة - قسم التاريخ  
كلية الآداب - جامعة صنعاء

يعد التاريخ الإسلامي منظومة واحدة، وجسدًا واحدًا عبر القرون، ومهما قامت كيانات سياسية هنا أو هناك، فإن وحدة العقيدة، ووحدة مصدر التلقي لأنظمة المجتمع وقوانينه، ووحدة الهوية، والتوجه. كل هذا يجعل كيان المجتمع الإسلامي كيانًا واحدًا مهما تعددت أسماء أجزائه. ولهذا كانت تسمى هذه البلاد (دار الإسلام)، وكان المسلم ينتقل من أقصى دار الإسلام غربًا إلى أقصاه شرقًا ومن أطرافه شمالاً إلى منتهى حدوده جنوبًا فلا يجد من يمنعه من التحرك والانتقال. بل كان يمكنه أن يتولى مناصب في المناطق المختلفة، وتحت كيانات سياسية متعددة.

لقد أطلق على تاريخ هذه الرقعة الواسعة تاريخ الأمة الإسلامية، وأفرز مظاهر حضارية متعددة، رغم تباعد البلدان إلا أن الشَّبه كان ملحوظًا في عناصره سواء كليًا أو جزئيًا. والمقاربات كانت ملموسة وكان جسم دار الإسلام يتفاعل مع الأحداث التي يتعرض لها كما يتفاعل جسم الإنسان لأي شوكة يشاكرها.. وتجد التجاوب الذاتي، والشخصي لأفراد الأمة لا يتوقف، بل يبرز إلى حد أنه يصبح ظاهرة مؤثرة على الأنظمة الحاكمة

للكيانات السياسية المتصارعة فيما بينها، فتدفعها تلك الظاهرة لاتخاذ مواقف تدفع عن جسم الأمة الإسلامية ما يتعرض له من تحدٍ، أو تهديد.

وكانت (الخلافة) رغم أنها كانت (رمزية) في أوقات كثيرة.. إلا أنها كانت القطب الذي يدور حوله رحى الأمة الإسلامية، وقد فرح أعداء الأمة الإسلامية وربما شجعوا وجود أكثر من مركز للخلافة، وكان هذا بداية للتمزيق والتفتيت لكيان الأمة الإسلامية، ورغم هذا ظلت الهوية الإسلامية واحدة.. فالجميع ينضون تحت راية واحدة وهي راية الإسلام في مواجهة كل من يريد الإضرار بالإسلام والمسلمين في جهاد مستمر، سواء في ظل خلافة الأندلس، أو خلافة مصر - رغم توجهاتها المشبوهة - أو خلافة بغداد التي تعد هي الخلافة الشرعية التي ينبغي أن ينضوي تحتها الجميع بحكم إجماع الأمة عليها.

وقد حرص أعداء الأمة على اجتثاث هذه (الخلافة)، فداهمت القوات المغولية دار الإسلام، ودمرت كل شيء، وقتلت الخليفة العباسي المستعصم بالله في سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) ظنا منها وممن تأمر معها من الشيعة الإسماعيلية أن هذه هي نهاية الخلافة الإسلامية، ولكن الإسلام بحكم طبيعته المرنة لا يمكنه الاختفاء ولكنه يتجدد كلما آمن به قوم من الناس، فقد ظهرت قوة ليست من أبناء العباسيين، وليست من أبناء العرب، وإنما هم مسلمون وكفى، وربما لا يعرف لهم حسب ولا نسب أولئك الذين عرفوا بـ (المماليك) الذي حموا بيضة الإسلام، وهذا يؤكد أن الإسلام لا يعتد بقيمة الحسب والنسب، والوطن، واللون ولا يجعل لتلك القيم أي وزن، بينما يجعل العقيدة هي الأصرة التي تجمع البشر وليست مقومات

الحظيرة الحيوانية، فالإنسان أكرم من أن يعامل كما تعامل قطعان الحيوان. لقد عُرِفَ الحكام الذين احتضنوا الخلافة، وعملوا على إحيائها ولو بشكل رمزي، عُرِفُوا بالمماليك، وأعادوا الولاء للخلافة، وظلت الأمة الإسلامية تشعر أن لها آخية ترتبط إليها، هي آخية الخلافة وبقيت مقومات الدولة الإسلامية قائمة، في قواعدها، ومصدر تلقيها لتلك القواعد، والراية التي ترفعها في مواجهة القوى التي تحارب المسلمين هي راية الإسلام. إلى أن قامت الدولة العثمانية، على حساب الدولة البيزنطية (الرومية) لقد ظلت الدولة العثمانية تقتطع من أجزاء الدولة البيزنطية، وتحاصرها حتى أصبح شرق أوروبا جزءاً من هذه الدولة الناشئة، ثم إذا بها تحتضن منصب الخلافة، ويتجمع المسلمون تحت راية دولة لا هي من قريش، ولا هي من العرب، وهذا أيضاً يبرهن على أن لا اعتبار - في الإسلام - للتمييز العرقي أو النسبي، وأن الذي يجمع المسلمين هو العقيدة وحدها. فهي أصرة التجمع.

إلا أن تكالب أعداء أمة الإسلام - من يهود ونصارى ووثنيين - استغلوا ضعف المسلمين، وخورهم، وتخليهم عن مقومات وجودهم، ودخول الوهن إلى نفوسهم وتعلقهم بمظاهر الدنيا وزخرفها فسعوا بكل خططهم الظاهرة، والباطنة، لإسقاط الخلافة الإسلامية.. لأنهم قرروا بعد هزيمتهم في الحروب الصليبية ألا يرفعوا راية مُقَاتَلَةَ الإسلام باسم الصليب أو غيره، ولذا اتخذوا راية المصالح الاقتصادية، ودخلوا بلاد الإسلام تحت شعار (الاستعمار) هذا الشعار الخادع الذي روجوه لإعمار البلاد الإسلامية، وفي الحقيقة كانت عملية غزو متعدد الأغراض والأهداف، واستخدمت له كل الوسائل الخارجية والداخلية، ووصلت نهاية هذه العملية

إلى إسقاط الخلافة الإسلامية ممثلة بالدولة العثمانية سنة ١٣٤٣هـ / ١٩٢٤م ليبدأ عهد جديد من التجزئ، والتقسيم لجسم البلاد الإسلامية على أساس قيم جديدة، ومقررات غريبة عن الإسلام، وكانت مصاغة بناءً على وثائق دولية، عقدتها وقررتها القوى الدولية المناوئة للإسلام والمسلمين ..

ومن هنا ظهرت الدراسات التاريخية التي تعمل على تجزئ تاريخ الإسلام، وتعطيه صفات مجزئة ممزقة لا يمت إلى أساسه بشيء، وانبثقت على أساس ذلك تعصبات، وانحيازات. إما طائفية، أو مناطقية، أو عرقية، أو عشائرية، أو أسرية.

وبدلاً من أن يعرض التاريخ الإسلامي على أنه تاريخ كيان واحد إذا به يعرض على أساس أنه كيانات، ومزقٍ متباينة، ومتباعدة. وهذا لا شك يخدم أعداء الأمة، ويحقق مخططاته.

ومما يؤسف له أن (دراسات) من هذا النوع ظهرت، ومازالت تظهر - بعضها بسوء نية وأكثرها بحسن نية غير منتبهة لمخاطرها - رغم أن الوقت قد حان للتحرر من ربة الدراسات الموجهة لصالح أعداء الأمة. ولا تخدم تاريخ المسلمين بأي حال من الأحوال.

\* \* \* \* \*

وهنا لا يسعني إلا أن أبادر إلى القول: بأن الدراسة التي أقدم لها هذا التقديم المعنونة بـ (اليمن والحروب الصليبية خلال القرنين السادس والسابع الهجريين - الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين) هي من الدراسات التي تسعى لإيجاد اللحمة التاريخية للأمة الإسلامية.

فرغم أن اليمن إقليم بعيد عن مسرح الأحداث التي دارت عليه الحروب الصليبية، وفيه كيانات سياسية غير منضوية بصورة مباشرة تحت قيادة القوى التي كانت تجابه الصليبيين إلا أن الدراسة أبانت مدى التأخي بين المسلمين، ومدى الترابط بين أجزاء كيان الأمة الإسلامية، سواء على المستوى الشخصي الذاتي، أو المستوى الرسمي للكيانات السياسية القائمة.

وقد سعدت بهذه الدراسة، وسعدت بالباحث النابه، الواعد / جابر عبده علي عبدالله حَيْنَفَ، الذي تنبى قواه الذهنية، ومثابته العِصَامِيَّة على أن باحثاً صاعداً يتصدر منصة البحث العلمي الجاد ليخرج لنا بحوثاً تزين لوحة التاريخ الإسلامي وتضيء جوانبها، ولا تعمل على قضمها، أو قصصتها إلى جزئيات.

فقد برهن في دراسته تلك على أنه يسير في خط وحدة الأمة في تاريخها وحضارتها، وكان موفقاً أي توفيق، رغم ما عاناه من قلة المعلومات نتيجة غفلة مؤرخينا المعاصرين للأحداث - غفر الله لهم -، أو نتيجة ضياع تاريخ الأمة تحت أنقاض الأيدي العابثة - بقصد أو بدون قصد -.

ورغم هذه الندرة في المعلومات إلا أن الباحث (جابر) استطاع أن يجعل لبحثه محاور أربعة:

المحور الأول: جعله للموقف السياسي الرسمي من قبل الكيانات السياسية القائمة في اليمن من الحروب الصليبية.

والمحور الثاني: جعله للدعم المالي والعسكري الرسمي للقوى المواجهة لمحاربة الصليبيين.

والمحور الثالث: جعله لدور اليمن الاقتصادي في دعم المسلمين في حروبهم مع الصليبيين.

والمحور الرابع: جعله للموقف الشعبي سواء أكانوا من الوجهاء أو من الأفراد أو من النساء، ودعمهم المباشر وغير المباشر في حرب الصليبيين.

وقد استطاع الباحث أن يجمع المعلومات من مظانها، وغير مظانها في المصادر المختلفة، واستطاع أيضًا - بحكم أن اسمه جابر!! - أن (يُجبر) النقص، ويملاً الفراغات بما لديه من إطلاع واسع عن طبيعة العصر، والأشخاص، والتوجهات، والخلفيات التصورية لكل الأطراف لأن أي عمل أو سلوك فرع عن تصوره. وهذا منهج علمي جاد.

وحتى لا أُطيل فإنني أشيد بجهد الباحث، وبهذا العمل العلمي المثمر، أملاً وداعياً لله له أن يأخذ بيده لكي يتحفنا ببحوث قادمة تسد جوانب ما زالت في حاجة إلى من يملأها..

سدد الله خطاه ووقفه،



## المقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، الحمد لله الذي علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على من أرسله ربنا رحمة للعالمين الرحمة المهداة سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

سَجَّلَ القرآن الكريم لنا قصة نبي الله سليمان عليه السلام وملكة سبأ، وكيف كان اهتمام ذلك النبي الكريم بأرض سبأ وهداية أهلها إلى دين الله القويم من بين كثير من الممالك الوثنية المجاورة لمملكته عليه السلام، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على الدور السياسي والحضاري الذي اضطلعت به اليمن في المنطقة، لدرجة أن نبي الله هدد بإرسال جنود لا قبل لهم بها إن لم يذعنوا لدعوة الله ويتبعوا دينه الحق.

وإذا تأملنا فيما أورده الأخباريون عن ملوك اليمن (التبابعة) من قصص وأساطير عن حروبهم في الجزيرة العربية ومصر والشام وبلاد المغرب وانتصاراتهم في المشرق؛ فإن كل ذلك يكشف في جلاء ووضوح إحساس اليمنيين بانتمائهم إلى هذا العالم الواسع وتصورهم حجم المشاركة التي يمكن أن يسهموا بها في الأحداث التي شهدتها العالم آنذاك، ولا غرابة في ذلك فاليمينيون شعب متمدن ذو خلفية ثقافية واسعة، وتتمتع بلادهم بموقع جغرافي متميز في الجنوب الغربي من الجزيرة العربية، وتتخللها تضاريس عديدة من سهول وجبال وهضاب جعلت أرض اليمن منيعة كل المنعة في وجه الغزاة والمحتلين، ولكن هذا الموقع الجغرافي وهذه الطبيعة التضاريسية لم تكن في يوم من الأيام عائقاً في وجه أبناء اليمن عن التواصل الحضاري مع العالم

الخارجي أو الإسهام الإنساني مع الممالك والشعوب المجاورة.

وجاء القرن السابع الميلادي لتشهد اليمن تحولاً جذرياً في تاريخها وذلك بظهور الإسلام ودخول أهل اليمن في دين الله أفواجاً، فمنذ ذلك الحين صار أهل اليمن مدداً للدولة الإسلامية وقواتها المجاهدة في أنحاء الأرض حتى أصبحت اليمن عنصراً فعالاً في رفق دولة الإسلام ثقافياً واقتصادياً وعسكرياً، وانتشر أهل اليمن في أنحاء الأرض دعاة وفاتحين لأجل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه العظيم.

وقد سجلت كتب التاريخ بحروف من نور مواقف مشرفة لأهل اليمن في الذود عن الأمة الإسلامية ودينها بكل ما يستطيعونه من جهد ومال وفكر، حيث تكون لديهم - شأنهم شأن كل العرب المسلمين - شعور بأهميتهم وإدراكُ بأنهم أصحاب رسالة عالمية حتى وإن لم يستهدف العدوان أرض اليمن نفسها.

ومع نهاية (القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي) تعرضت ديار الإسلام إلى استهداف صليبي عنيف أدخل الأمة في حرب ضروس دامت زهاء قرنين من الزمان عرفت في التاريخ بـ(الحروب الصليبية) التي استنزفت موارد الأمة وطاقاتها لمواجهة ذلك الاستهداف الصليبي.

وفي خضم تلك الأحداث الحاسمة في تاريخ الأمة الإسلامية كان لأهل اليمن دورهم في دعم الجهاد ضد الصليبيين وحلفائهم في المنطقة بمختلف الصور والأشكال من الدعم السياسي والمالي وفي بعض الأحيان المساندة العسكرية، كما أن من أهل اليمن - لا سيما العلماء والأدباء - من أتاحت لهم فرصة الوجود في مراكز الجهاد الإسلامي في الشام ومصر والعراق، فقدموا إسهامات سطرتها كتب التاريخ والتراجم نظراً لأهميتها النوعية في دعم مسيرة الجهاد ضد الصليبيين.

## أهمية الدراسة:

تأتي أهمية هذه الدراسة من كونها تتناول الدور الذي قامت به اليمن في دعم الجبهة الإسلامية الموحدة والجهاد الإسلامي ضد الوجود الصليبي، وبيان موقعها في تلك الاستراتيجية التي وضع لبناتها عماد الدين زنكي (ت ٥٤١هـ/ ١١٤٨م) وولده نور الدين محمود (ت ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م)، وبلغت الذروة في التطبيق خلال حقبة تزعم صلاح الدين الأيوبي (ت ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م) للجبهة الإسلامية فصارت الأمة صفا واحدا في مواجهة الصليبيين في الشام ومن خلفهم ممالك أوروبا كلها. ولم يكن اهتمام صلاح الدين باليمن خلال احتدام الصراع مع الصليبيين إلا دليلاً واضحاً على أهمية اليمن لتحقيق التكامل في الجبهة الإسلامية الموحدة سياسياً واقتصادياً وعسكرياً، كما أن الدولة الرسولية التي خلفت الأيوبيين في حكم اليمن رغم انشغالها بإخماد الفتن الداخلية كانت لها أيضاً مواقفها في دعم الجهاد ضد الصليبيين، وهو دعم يستحق منا البحث والتقصي حول انعكاساته على العلاقات بين (تعز) عاصمة الرسوليين و(القاهرة) عاصمة الأيوبيين والمماليك من بعدهم.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الدعم الذي قدمته اليمن للقوى المتصدية للصليبيين في مصر وبلاد الشام هو دعمٌ يمثل اليمن أرضاً وشعباً على الرغم من أنه تم على يد ملوكٍ غير يمنيين (الأيوبيين والرسوليين)، فالأيوبيون الذين حكموا دولةً امتدت من برقة غرباً إلى الموصل شرقاً، ومن الفرات شمالاً إلى اليمن والنوبة جنوباً، لم يكن ما قاموا به سوى توحيد لجهود المسلمين في هذه الأقطار في مواجهة التحدي الصليبي، فصارت القوة

السياسية والعسكرية والاقتصادية لهذه الشعوب موحدة تحت راية الأيوبيين حكام هذه الدولة المترامية الأطراف، وأما بنو رسول الذين حكموا اليمن حكمًا مستقلًا عن أي شكلٍ من أشكال التبعية للأيوبيين والمماليك، فلم تكن جهودهم في نصرة إخوانهم المجاهدين إلا تجسيدًا لإحساس اليمنيين القوي بواجبهم نحو الأمة الإسلامية.

### الدراسات السابقة:

لقد توافر بين أيدينا عدد من الدراسات تناولت (دور أهل اليمن في الجهاد خلال الفتح الإسلامي) كالدراسة التي قدمها الدكتور نزار الحديثي (أهل اليمن في صدر الإسلام دورهم واستقرارهم في الأمصار)، ودراسة الدكتور عبدالرحمن الشجاع (اليمن في صدر الإسلام)، وقد تناولتا الدور الذي قام به أهل اليمن في نصرة الدعوة الإسلامية في مهدها، والتصدي للمرتدين، وإسهامهم الفاعل في فتح الأمصار وإدارتها وغير ذلك من إسهامات أهل اليمن خلال القرن (الأول الهجري/ السابع الميلادي)، ولكن بالنسبة إلى موضوعنا وهو موقف اليمنيين من الحروب الصليبية فإنه لم يتوافر بين أيدينا حتى الآن مرجع يتحدث عن ذلك الموضوع بشكل مستقل عدا بعض الإشارات التي لا تتعدى الأسطر القليلة في بعض الكتب مثل (موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية) للدكتور أحمد شلبي، وبعض تعليقات الأستاذ محمد بن علي الأكوخ في هوامش كتاب (قرة العيون في أخبار اليمن الميمون)، وعمومًا فإن هذا الصمت من قبل المؤرخين عن موقف اليمنيين من الحروب الصليبية شكّل أبرز الصعوبات التي واجهت الباحث خلال مراحل إعداد هذه الرسالة.

## حدود الدراسة:

ينحصر زمن هذه الدراسة بين القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، وهذا التحديد الزمني هو لأجل حصر الموضوع بزمن الحروب الصليبية التي بدأت في سنة ٤٩١هـ / ١٠٩١م وبلغت ذروتها بتأسيس مملكة القدس اللاتينية في سنة ٤٩٦هـ / ١٠٩٦م، وانتهت بالقضاء على الوجود الصليبي في بلاد الشام عام ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م.

وأما جغرافياً فهي تقتصر على اليمن والمناطق التي دانت لها بالولاء في الجزيرة العربية وكلاً من البحر الأحمر والبحر العربي، وكذلك تتبع إسهام اليمنيين الذين أقاموا في بعض مواطن الجهاد ضد الصليبيين، وبيان الدور الذي قاموا به في دعم الجهاد ضد الصليبيين.

## خطة الدراسة:

نظراً لتنوع صور الدعم وأشكاله الذي قدمته اليمن في سبيل الجهاد ضد العدو الصليبي، وعدم ارتباط الدعم بكيان سياسي معين دون آخر، اتبع الباحث في هذه الدراسة التقسيم الآتي:

قُسمت الدراسة على خمسة فصول مهدنا لها بالحديث عن الأوضاع السياسية في بلاد الإسلام خلال القرنين السادس والسابع الهجريين واجتياح الصليبيين لمدينة الساحل الشامي وفلسطين مع عرض موجز عن الصراع بين القوى الإسلامية والصليبية.

أما الفصل الأول فقد كان التركيز فيه من خلال المبحث الأول على الأوضاع السياسية في اليمن خلال القرنين السادس والسابع الهجريين/

الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين وحالة التفكك التي عاشتها اليمن جراء الصراع بين القوى السياسية آنذاك، في حين يتناول المبحث الثاني الأهمية السياسية والجغرافية لليمن وأهميتها الاقتصادية في المنطقة.

وتناول الفصل الثاني مظاهر الدعم السياسي الذي قدمته اليمن لمشروع الجبهة الإسلامية الموحدة التي أرسى دعائمها عماد الدين زنكي وولده نور الدين ونهض بها صلاح الدين الأيوبي، أولاً من خلال دعم نفوذ الخلافة العباسية في المنطقة، والقضاء على الجيوب الفاطمية، وبسط السيادة الأيوبية على البحر الأحمر؛ وثانياً من خلال المراسلات السياسية بين السلطات الأيوبية في القاهرة والقائمين على إدارتهم في اليمن، أو بين سلاطين المماليك في مصر والشام وسلاطين الدولة الرسولية في اليمن.

وتمحور الفصل الثالث حول صور الدعم المالي الذي قدمته اليمن سواءً أكان - تحت الحكم الأيوبي - من خلال الأموال المرسلة إلى القاهرة من نوابهم في اليمن، أم الهدايا التي أرسلها سلاطين الدولة الرسولية إلى نظرائهم في مصر، وهو ما يتناوله المبحث الأول؛ وكذلك الدعم العسكري الذي قدمته اليمن في سبيل نصره إخوانهم المجاهدين في مصر والشام عن طريق التعاون بين الأنظمة الحاكمة في مصر واليمن وذلك من خلال إرسال المؤن والعتاد وكذلك الجند، وهو مضمون المبحث الثاني؛ وأخيراً دور اليمن العسكري في تأمين حماية الحجاز والبحر الأحمر.

أما الفصل الرابع فقد حُصص المبحث الأول منه للحديث عن الأهمية الاقتصادية لليمن بثرواتها الطبيعية ومميزات موقعها التجاري وبيان مخططات الصليبيين في المنطقة، أما المبحث الثاني فقد تناول اهتمام الأيوبيين بضم

اليمن إلى دولتهم واستثمار إمكاناتها التجارية ومواردها للنهوض باقتصاد الجبهة الإسلامية الموحدة من خلال استثمار ثرواتها الطبيعية وتطوير الخدمات التجارية في موانئ اليمن وتأمين الحركة الملاحية في البحر الأحمر والمحيط الهندي؛ الأمر الذي يصب في صالح اقتصاد الجبهة الإسلامية ويؤدي إلى تضيق الخناق الاقتصادي على الصليبيين، ومن ثم اختراق تحالفهم مع المدن التجارية الإيطالية وإضعاف القدرة القتالية لآلتهم العسكرية.

وتناول الفصل الخامس ما جادت به مصادرنا التاريخية وبعض كتب التراجم من أدوارٍ قام بها بعض اليمنيين في سبيل دعم الجهاد ضد الصليبيين من أمثال الشيخ سفيان الأبيني، والشيخ عبدالرحمن اليمني؛ وهي على ندرتها فإنها تمثل مواقف بالإمكان اعتبارها نماذج للدور الفردي والشعبي لأهل اليمن، لعل الأيام تكشف لنا فيما بعد ما يمكن أن يُضاف إلى هذه المواقف من معلومات ومن ثم يُعزز ما ذهبنا إليه.

ونظراً لتنوع مادة البحث وضآلة المعلومات في بعض المواضع سنحاول اتباع المنهج التحليلي لغرض فرز المادة العلمية التي قدمتها المصادر وتحليلها، والإفادة منها في إثراء موضوع الرسالة من خلال محاولة استقراء ما خلف نصوص المصادر.

### الصعوبات:

ولقد واجه الباحث خلال مراحل إعداد الدراسة بعض الصعوبات، كان من أبرزها سكوت مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي عن الحديث عن الحروب الصليبية وموقف اليمن منها، إلا من إشارات بسيطة كانت الأساس

الذي اعتمدنا عليه في تقصي الدعم الذي قدمته اليمن في سبيل نصره إخوانهم المجاهدين ضد الوجود الصليبي، كما أن بُعد اليمن الجغرافي عن مواطن الأحداث جعل اهتمام المؤرخين في مصر وبلاد الشام منصباً على العمليات العسكرية للزنكيين والأيوبيين والمماليك من بعدهم، الأمر الذي شكّل صعوبة بالغة في استقراء موقف اليمن من الحروب الصليبية من بين ثنايا تلك المؤلفات.

وقد اعتمد الباحث في إعداد هذه الرسالة على عدد من المصادر والمراجع كان من أبرزها:

\* (الكامل في التاريخ) لعزالدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني المعروف بابن الأثير (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م) الذي أولى حملة توران شاه إلى اليمن اهتماماً بالغاً، متناولاً خط سير تلك الحملة والغرض منها والصعوبات التي واجهتها أكثر من غيره من المؤرخين في مصر وبلاد الشام، فضلاً عن معاصرته الأحداث التي أتاحت له أن يقدم عدداً من الآراء التي أفادت البحث أيما إفادة، على الرغم من المآخذ المسجلة عليه حول موقفه من صلاح الدين الأيوبي ومدى حياديته فيما كتبه عنه، حيث إن ابن الأثير كان قد خدم في دولة آل زنكي وعندما قام صلاح الدين بالتحرك لردع محاولة تفكيك دولة نور الدين اتهمه الأمراء النورية بالخروج على أولياء نعمته والاستحواذ على ملكهم، وكان ابن الأثير ممن صدق تلك الدعاية الموجهة ضد صلاح الدين.

\* (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية) لأبي شامة شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٨م)، وتكمن أهمية هذا الكتاب في أنه يحتوي على معلوماتٍ في غاية الأهمية عند

اعتماده على مصادر معاصرة للأحداث، تُعد اليوم مفقودة، ولعل أهمها البرق الشامي للعماد الأصبهاني (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م)، والفتح القدسي، كما تضمن الكتاب أيضاً معلومات هائلة استقاها أبو شامة من اطلاعه على (مجلدات من الرسائل الفاضلية) والمقصود هي رسائل القاضي الفاضل (ت ٥٩٦هـ / ١١٩٩م)، وقد قدم لنا هذا الكتاب معلومات قيمة عن علاقة اليمن بسلاطين الأيوبيين في مصر وبلاد الشام.

\* (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) لابن واصل محمد بن سالم الحموي (ت ٦٩٦هـ / ١٢٩٨م) الذي كان خبيراً بشؤون الأيوبيين من خلال مؤلفاته مثل (مفرج الكروب) و(في تأريخ الأيوبيين) وكذلك معاصرتة لكثير من الحوادث التاريخية مثل حصار دمياط، مما أفادنا بمعلومات قيمة عن علاقة الأيوبيين باليمن وبالذات في أواخر سني حكمهم في مصر وبلاد الشام.

\* (السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن) للأمير بدر الدين محمد بن حاتم اليامي الهمداني (ت ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م) وهو من أوائل المؤرخين الذين أرخوا لتاريخ الدولتين الأيوبية والرسولية في اليمن، وعلى الرغم من أن الكتاب يُعد من أوسع المصادر لتاريخ الدولة الرسولية خلال عهدي السلطانين نور الدين عمر وابنه المظفر يوسف فإنه أرخ كتابه من سنة (٥٦٩هـ / ١١٧٤م)؛ أي منذ الفتح الأيوبي لليمن، وتكمن أهمية الكتاب في كون مؤلفه من المعاصرين لأغلب الأحداث ومشاركاً فيها، وقد أفدنا منه في بيان كثير من خطوط العلاقة بين الأيوبيين وحكمهم لليمن.

\* (العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية) لأبي الحسن الخزرجي (ت ٨١٢هـ / ١٤٠٩م) الذي يعد بحق مؤرخ الدولة الرسولية، وقد أتاح له قربه

من البلاط الرسولي الاطلاع على كثيرٍ من خطوط العلاقة بين اليمن ومصر خلال تلك المدة، فقدم لنا معلومات قيمة عن علاقة بني رسول بالمماليك والدعم الذي قدمته اليمن ولا سيما خلال حكم السلطان المظفر الرسولي.

\* (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) لأحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) الذي يعدّ إرشيماً للعديد من الكتب والرسائل المتبادلة بين ملوك الدول الإسلامية وحكامها على مر العصور، وقد أمدنا ذلك الكتاب بعدد من النصوص للكتب المتبادلة بين الأيوبيين ونوابهم في اليمن، وكذلك بين المماليك والرسوليين، ويدور موضوعها حول قضايا الجهاد وأشكال الدعم الذي من الممكن أن تقدمه اليمن.

\* (تاريخ الحروب الصليبية) لستيفن رنسيمان، تلك الموسوعة المهمة لتاريخ الحروب الصليبية، وما يتميز به مؤلفها من سلاسة الأسلوب وقوة الربط بين الأحداث، وذلك الكم الهائل من المصادر والمراجع التي اطلع عليها، ومنها بعض المصادر الكنسية والوثائق الصليبية المهمة.

\* (الحركة الصليبية) للدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور الذي تميز باهتمامه بأهداف الحروب الصليبية وتحليلها، فضلا عن إلمامه بالأوضاع السياسية والاقتصادية والعسكرية للقوى السياسية في العالم الإسلامي.

وفي الختام أسأل الله العلي القدير أن يهدينا إلى الخير والصواب، ويتجاوز عن السهو والخطأ، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، إنه على ما يشاء قدير.

## التمهيد

### القوى السياسية في ديار الإسلام خلال القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين والغزو الصليبي

تعاظمت في أوروبا مع نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ردود الفعل إزاء الانتصارات التي حققها السلاجقة على الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى، وارتفعت الأصوات في أوساط الكنيسة منادية بإعلان حرب صليبية هدفها الاستيلاء على القبر المقدس، ومن ثم إنشاء قوة موالية لهم في المنطقة تأخذ في التوسع على حساب القوى المحلية وتتحكم بالمناطق الحيوية تمهيداً للقضاء على قوة المسلمين وإنهاء الحكم الإسلامي فيها، ولم تكن الدعوة إلى الحرب الصليبية إلا انبعاثاً جديداً للحرب بين الدولة الإسلامية والقوى المعادية والمتربصة بها، ولكن كان هناك ما يميز الحروب الصليبية التي شنتها ممالك غرب أوروبا عن تلك الحملات التي شنّها البيزنطيون والأرمن من قبل؛ وهو ما عرف لدى مؤرخي العصور الوسطى بـ(الحروب الصليبية) التي كانت أكثر تنظيماً وأشدّ عنفاً وهولاً، وإن كانت تعرف في المصادر الإسلامية بحرب الفرنجة.

أما بالنسبة إلى الأوضاع السياسية في دارالإسلام خلال تلك الحقبة فقد كانت في غاية التدهور والتردي على المستويين السياسي والعسكري، فالمؤامرات السياسية والصراع والتنافس العسكري كانت هي السمة الغالبة التي تطغى على العلاقات بين الدول والإمارات الإسلامية، وذلك كما سيتم

بيانه فيما يأتي :

\* القوى السياسية في ديار الإسلام قبيل الغزو الصليبي.

أولاً: الخلافة العباسية:

أخذت الخلافة العباسية تفقد سلطانها ونفوذها الفعلي منذ أن بدأ تسلط العناصر التركية في الجيش على قصر الخليفة وتحكمهم بالبلاد ومصائر الخلفاء وذلك مع نهاية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، ونتيجةً لذلك تسرب الضعف والانحلال إلى مرافق الدولة كافة، وكذلك الأقاليم التي سارع المتغلبون عليها إلى الاستقلال الفعلي عن بغداد رغم ما أظهره من مظاهر الولاء للخليفة العباسي<sup>(١)</sup>.

كما أدى ضعف السلطة المركزية إلى ظهور الانحلال والبدع بين كثير من أفراد المجتمع، وانتشار الطوائف والفرق الضالة، مثل بعض جماعات الإسماعيلية التي أخذت تعمل على زرع الفتنة والصراعات بين المسلمين سنة وشيعة بل حتى بين السنة أنفسهم<sup>(٢)</sup>، وأصبحت الخلافة العباسية بسبب

(١) ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني): الكامل في التاريخ، تح: مكتب تحقيق التراث بمؤسسة التاريخ العربي، مؤسسة التاريخ العربي - بيروت، ط ٤ - ١٩٩٤م، مج ٦/ ص ١٠، ٢٢؛ ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر): البداية والنهاية، تح: لجنة تحقيق التراث بمؤسسة الهدى، دار التقوى - القاهرة، ط ١ - ١٩٩٩م، ج ١١/ ص ٣٢-٥٥؛ العبادي (أحمد مختار): في التاريخ العباسي والفاطمي، مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية، د.ط - ٢٠٠٢م، ص ١٢٦، ١٢٩، ١٥٠.

(٢) الذهبي (شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان): العبر في خبر من غبر، تح: أبو هاجر محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية - بيروت، د.ط - د.ت، ج ٢/ ص ١١١؛ ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٢/ ص ٤٠، ٧١؛ ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تقديم وتعليق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط - ١٩٩٢م، =

ضعف خلفائها عرضةً لتسلط بعض القوى عليها بحجة الذود عنها؛ ابتداءً بالبويهيين (٣٣٤هـ / ٩٤٥م - ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م) الذين على الرغم من تعصبهم للمذهب الشيعي أظهروا قدرًا من الاحترام لشخص الخليفة، في حين أنهم بتسلطهم قضوا على ما تبقى من سلطان للخلافة حتى صار العباسيون عاجزين عن التصدي لمطامع الفاطميين ورجلهم البساسيري<sup>(١)</sup>؛ الذي استغل سقوط دولة بني بويه وانشغال السلاجقة بالصراع فيما بينهم فأقام الخطبة للمستنصر الفاطمي<sup>(٢)</sup>، في محاولة للقضاء على الخلافة العباسية من دون أن يقوى أحد على رده، لولا تدخل السلاجقة الذين أخذت قوتهم الصاعدة في انتزاع أقاليم بني بويه خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي وذلك في بلاد فارس ثم

= ج ٥ / ص ٥١-٥٢؛ الجزوري (علية عبدالسميع): الحروب الصليبية (المقدمات السياسية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، د.ط - ١٩٩٩م، ص ٢٢٦.

(١) البساسيري (أبو الحارث الملقب بالمظفر ملك الأمراء أرسلان التركي، لُقّب بالبساسيري نسبةً إلى تاجر باعه من أهل فسا، ترقّت به الأحوال إلى أن نابذ الخليفة وخرج عليه، وكتب صاحب مصر المستنصر فأمدّه بأموال وسلاح فوثب على بغداد ففر منها الخليفة القائم، وأقام البساسيري الدعوة بالعراق للمستنصر سنة كاملة إلى أن تصدى له السلطان السلجوقي طغرل بك وقتله سنة ٤٥١هـ / ١٠٥٩م؛ انظر: الذهبي (أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان)، سير أعلام النبلاء، تح: شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ٩ - ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م، ج ١٨ / ص ١٣٢ - ١٣٣.

(٢) المستنصر بالله (٤٢٧هـ / ١٠٣٥م - ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م): أبو تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله علي بن الحاكم بأمر الله، ولي الأمر بعد أبيه وله سبع سنين فامتدت أيامه ستين سنة، وفي دولته خطب له ببغداد واليمن، وتوالت حملاته على الشام، وفي أيامه ظهر القحط بمصر والغلاء المفرط وتفاقت الفوضى حتى قدم - بطلب منه - بدر الجمالي، توفي المستنصر سنة (٤٨٧هـ / ١٠٩٤م)؛ انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٥ / ص ١٨٦ - ١٩٦.

القضاء على الحكم البويهى في بغداد في (٤٤٧هـ / ١٠٥٥م)<sup>(١)</sup>.

وهكذا تسلط السلاجقة على الخلافة العباسية من سنة (٤٤٧هـ / ١٠٥٥م - ٥٥٢هـ / ١١٥٧م)، وقد أثبت سلاطينهم العظماء كفاية سياسية وحربية عالية في الذود عن الخلافة العباسية ضد مطامع الفاطميين، وتصديهم بالاسل للبيزنطيين في (ملاذكرد) سنة ٤٦٣هـ / ١٠٧٢م<sup>(٢)</sup> - على الرغم من أن ذلك لم يوقف تدهور الخلافة العباسية وضياع سلطانها - حتى كانت سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م التي اغتيل فيها نظام الملك<sup>(٣)</sup> وزير السلطان ملكشاه<sup>(٤)</sup> ثم وفاة

(١) ابن الأثير: الكامل، مج ٦/ ص ١٧٩، ١٩٩؛ الذهبي: العبر، ج ٢/ ص ٢٨٩، ٢٩١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥/ ص ٦٤.

(٢) ملاذكرد: معركة فاصلة بين السلاجقة بقيادة السلطان ألب أرسلان والبيزنطيين بقيادة الإمبراطور رومانوس الرابع، انتهت بهزيمة البيزنطيين وأسر إمبراطورهم، وقد أحدثت تلك المعركة دويًا هائلًا في الغرب الأوروبي حتى إنها كانت إحدى الأسباب غير المباشرة للحروب الصليبية؛ انظر: الذهبي، دول الإسلام، تح: فهيم محمد شلتوت و محمد مصطفى إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، د. ط - ١٩٧٤م، ج ١/ ص ٢٧١؛ رنسيما (ستيفن): الحضارة البيزنطية، تر: عبدالعزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، ط ٢- ١٩٩٧م، ص ٥٢.

(٣) الوزير الكبير نظام الملك قوام الدين أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، عاقل سائس خبير، كان أبوه من دهاقين بيهق فنشأ وتعلم القرآن والنحو، تعانى الكتابة والديوان وخدم بغزنة وتنقلت به الأحوال إلى أن وزر للسلطان ألب أرسلان ثم لابنه ملكشاه، فدبر ممالكة على أتم ما ينبغي وخفف المظالم ورفق بالرعايا وبنى الوقوف والمدارس، استمر وزيرًا عشرين سنة، قتل سنة (٤٨٥هـ / ١٠٩٢م)؛ انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٩/ ص ٩٤ - ٩٦.

(٤) السلطان الكبير جلال الدولة أبو الفتح ملكشاه بن السلطان ألب أرسلان (٤٦٥هـ / ١٠٧٢م - ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م)، تملك بعد أبيه فخرج عليه عمه قاروت فكسره ملك شاه، تملك من المدائن ما لم يملكه سلطان قبله وكان حسن السيرة بعيدًا عن اللهو مغرمًا بالعمائر وحفر الأنهار وتشيد القناطر والأسوار، أبطل المكوسات والخفارات في سائر بلاده؛ انظر: الذهبي، المصدر نفسه، ج ١٩/ ص ٥٦.

الأخير في العام نفسه، فاندلعت بين أفراد البيت السلجوقي حرب وراثية ضروس استهلكت معظم ما بقي من عمر دولتهم التي ضعفت عن صد غارات القبائل التركية، واستمر تدهورها إلى وفاة آخر سلاطينهم سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م<sup>(١)</sup>.

وبالنسبة إلى الخلافة العباسية فقد كانت صراعات البيت السلجوقي فرصة مناسبة لمحاولة إعادة نفوذ الخلافة إلى ما كان عليه وتسلمها زمام الأمور، فخلال ٦٧ سنة حاول عدد من الخلفاء العباسيين التخلص من السيطرة السلجوقية، ووصل الأمر إلى حدوث صدامات ومعارك عنيفة راح ضحيتها عدد من خلفاء بني العباس أنفسهم<sup>(٢)</sup>، وعندما بدأ الاجتياح الصليبي لديار الإسلام لم تكن الخلافة العباسية حينئذٍ قادرة على الذود عن ديار الإسلام، ولا السلاجقة المنشغلون بصراعاتهم وحروبهم على العرش رغم نداءات الاستغاثة التي وجهت إليهم من الأمراء والعلماء<sup>(٣)</sup>.

ولكن مع انبعاث حركة الجهاد ضد الغزاة على يد الزنكيين ثم الأيوبيين، عاد للخلافة العباسية بعض هيبتها وقوتها متزامنة مع ضعف السلاجقة، ونتيجة

(١) السلطان محمد بن سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان، أقام في الملك نيماً وستين سنة، أسره الغزنويون من خمس سنين ثم هرب منهم وعاد إلى ملكه بمرو، توفي سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م؛ ابن الأثير: المصدر السابق، مج ١/ ص ٣٤٦، ٣٧٥، ٣٨٦-٣٩٢، ج ٧/ ص ٢٧؛ الذهبي: العبر، ج ٢/ ص ٣٥٠-٣٥١، ٣٥٣-٣٥٤، ج ٣/ ص ٨-١٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٦/ ص ٦٤٩-٦٥٢، مج ٧/ ٩-١٠، ١٤٦-١٤٧؛ الذهبي: العبر، ج ٢/ ص ٣٥٤-٣٥٠، ٣٩٢-٣٩٣، ٤٣٢-٤٣٦.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢/ ص ١٦٩-١٧٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥/ ص ١٤٦-١٥٠.

لسعي كل من نورالدين زنكي<sup>(١)</sup> وصلاح الدين الأيوبي إلى بسط نفوذ الخلافة على الأقاليم كسبًا لدعمها الروحي والمادي في جهادهم ضد الصليبيين، سواءً أكان ذلك بالقضاء على الخلافة الفاطمية في القاهرة - المنافس الرئيس للعباسيين - أم بإعادة نشر لواء الدولة العباسية على بلاد وأقاليم لم يخطب لها فيها منذ دهر، ولكن هذه الإفاقة العباسية كانت محدودة النفوذ والسلطان، ولم يكتب لها أن تستمر طويلاً، إذ سرعان ما أنهى الزحف المغولي الرهيب دولة بني العباس في بغداد في (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م)، ولكن نظرًا إلى حاجة الأمة إلى رمز تلتف حوله، وكذلك حاجة القوى السياسية في مصر والشام إلى ما يدعم شرعية حكمهم، جاءت فكرة إعادة إحياء الخلافة العباسية في القاهرة على يد المماليك في عام (٦٥٩هـ / ١٢٦١م)<sup>(٢)</sup>.

### ثانيًا: الأوضاع السياسية في بلاد الشام:

عاشت بلاد الشام خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي مرحلة من الفوضى السياسية والصراع حول النفوذ بين الموالين للخلافة العباسية وآخرين يناصرون الخلافة الفاطمية، وكان الولاء يتغير تبعًا للمصلحة السياسية؛

(١) نور الدين محمود الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن عماد الدين زنكي (٥٤١هـ/١١٤٦م - ٥٦٩هـ/١١٧٤م): ملك حلب بعد استشهاد والده، استولى على دمشق سنة (٥٤٩هـ / ١١٥٤م)، اكتملت وحدة مصر وبلاد الشام في زمنه، استرد كثيرا من الحصون من الصليبيين، وكان مهيبًا مجاهدًا محبًا للخير والصدقات، توفي بعلبة الخوانيق في دمشق سنة (٥٦٩هـ / ١١٧٤م)؛ انظر: ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، د.ط - د.ت، ج ١/ ص ١٨٤-١٨٨.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣/ ص ٢٣٤؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧/ ص ٩٨-١٠٣.

فعلى سبيل المثال كان المرदाسيون<sup>(١)</sup> الذين يسيطون سلطانهم على شمال الشام غير ثابتي الولاء، فتارةً مع العباسيين وأخرى يخطبون للفاطميين<sup>(٢)</sup>، إلى أن حصل تغير جوهرى في ميزان القوى حين بدأ السلاجقة - بعد خضوع بغداد لهم - يزحفون باتجاه الغرب فجاء انتصارهم في (ملاذكرد) (٤٦٣هـ / ١٠٧١م) متزامناً مع انتصارات قواتهم واستيلائها على حلب وفلسطين، ولم يدخل عام ٤٧٠هـ / ١٠٧٨م حتى كانت سيطرة السلاجقة على بلاد الشام وسواحلها مستحكمة، على الرغم من الهزيمة التي ألحقت بهم على يد الفاطميين قرب الحدود مع مصر<sup>(٣)</sup>، مما تطلب أن يتولى زمام القيادة في ممتلكاتهم في الشام تاج الدين تتش بن ألب أرسلان<sup>(٤)</sup>، فكان ذلك فاتحة عصر سلاجقة الشام الذين دخلوا في صراع ضد الفاطميين المتفوقين بفضل أسطولهم القوي الذي مكّنهم من استعادة موانئ بلاد الشام من السلاجقة في (٤٨٢هـ / ١٠٨٩م)<sup>(٥)</sup>.

(١) المرदाسيون: أسرة حاكمة أسسها صالح بن مرداس الكلابي استقرت في إمارة حلب وما يتبعها منذ العقد الثاني من القرن (الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي)، وكانت إمارتهم متذبذبة الولاء بين الفاطميين والسلاجقة والبيزنطيين، استمر حكمهم إلى أوائل العقد الثامن من القرن المذكور؛ انظر: أبو سعيد (حامد غنيم)، الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية، مكتبة الشباب - المنيرة، ط ١ - ١٩٧١م، ص ٤٢ - ٤٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل، مج ٦ / ص ٢٤٥-٢٤٨؛ الذهبي: العبر، ج ٢ / ص ٢٩٧، ٣١٣.

(٣) ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢ / ص ١٢٨؛ الجنزوري: الحروب الصليبية، ص ١٩٩-٢٠١.

(٤) الملك تاج الدولة تتش بن السلطان أبي شجاع ألب أرسلان، كان شجاعاً مهيباً جباراً ذا سطوة، وله فتوحات تملك عدة مدائن وخطب له ببغداد، تولى الشام وجرت له حروب مع الفاطميين، سار في سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م ليتملك بلاد العجم فقتل في المصاف بالري؛ انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٩ / ص ٨٣ - ٨٥.

(٥) ابن الأثير: المصدر السابق، مج ٦ / ص ٣١٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥ / ص ١٢٦.

بعد وفاة السلطان ملكشاه دخل تتش في حرب الوراثة ضد أبناء أخيه، إلا أنه لقي مصرعه خلالها فصارت دمشق لولده دقاق (٤٨٨هـ/ ١٠٩٥ - ٤٩٧هـ/ ١١٠٤م)، وحلب لولده الآخر رضوان (٤٨٨هـ/ ١٠٩٥ - ٥٠٦هـ/ ١١١٣م)، وقد دخل الأخوان في صراع مرير بعضهما ضد بعض حتى استعان أحدهما بالفاطميين والحشاشين<sup>(١)</sup> ضد الآخر<sup>(٢)</sup>.

كانت هذه الصراعات والفتن سبباً في إضعاف قوة المسلمين أمام الصليبيين الذين طرقت أبواب الشام في سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م، وذلك في وقت توزعت فيه ممتلكات السلاجقة بين عدد من الإمارات والأتابكيات<sup>(٣)</sup> كان أبرزها أتابكية دمشق (٤٩٧هـ/ ١١٠٣م - ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م)، الموصل

(١) الحشاشون: فرقة تنسب إلى الإسماعيلية الباطنية، أنشأها الحسن بن الصباح لتكون بمثابة الأداة الفاعلة لتنفيذ مآربه، وذلك عبر نشر الرعب وممارسة الاغتيالات ضد القادة الذين يشكلون خطراً على سلطانه، وقد اشتهرت هذه الفرقة بتفانيها في خدمة زعيمها وتنفيذ أوامره وإن كلفهم ذلك حياتهم، وقد امتد نشاطهم الهدام عبر بلاد فارس والعراق إلى بلاد الشام ومصر، وراح ضحية غدرهم كثير من الخلفاء والأمراء والعلماء، حتى صار اسمهم مرتبطاً بالاغتيال حتى في عصرنا هذا؛ إذ يعتقد أن مصطلح Assassin بمعنى قاتل مستوحى من كلمة حشاشين؛ انظر: عاشور (سعيد عبدالفتاح)، الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة، ط ٤ - ١٩٨٦م، ج ١/ ص ٤٣٠ - ٤٣٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل، مج ٦/ ص ٣٣٨، ٣٧٥؛ الذهبي: العبر، ج ٢/ ص ٣٥٠-٣٥١، ٣٥٣-٣٥٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢/ ص ١٦٢-١٦٣، ١٦٧.

(٣) الأتابكيات: أصلها أتابك، وهو لفظ تركي معناه "الأب الأمير"، ويقصد به المرابي لابن السلطان، ثم أصبح لقباً تشريفياً يمنح لكبار القادة، ويعتقد أن أول من لقب بهذا اللقب الوزير السلجوقي نظام الملك، وقد أقام عددٌ من هؤلاء الأتابكة إمارات عرفت بالأتابكيات، مستندين إلى وصايتهم على أبناء السلاطين والأمراء السلاجقة؛ انظر: العبادي (أحمد مختار)، في التاريخ الأيوبي والمملوكي، مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية، د. ط - د. ت، ص ٣٦.

٥١٦هـ / ١١٢٣م - ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م)، أرمينية - سلاجقة الروم -  
 (٤٩٣هـ / ١٠٩٩م - ٦٠٤هـ / ١٢٠٢م) وحوارزم (٤٩٠هـ / ١٠٩٦م -  
 ٦٢٨هـ / ١٢٢٦م)، وعلى الرغم من محاولات لم شمل هذه الكيانات  
 وتوحيدها من قبل بعض السلاطين، فإن قوة العداوات واستحكامها جعل  
 من الصعب إيجاد قوة إسلامية موحدة لدرء الخطر الصليبي بسبب الصراع  
 فيما بينهم حتى إن بعضهم تحالف مع العدو ضد إخوانه في الدين<sup>(١)</sup>.

### ثالثاً: الخلافة الفاطمية:

شغلت خلافة المستنصر بالله الفاطمي معظم القرن الخامس الهجري/  
 الحادي عشر الميلادي، وشهدت خلافته أحداثاً مهمة وصراعاً عنيفاً حول  
 النفوذ بين الوزراء وقادة الجيش، وعلى الرغم من أن المد الفاطمي وصل  
 في عهده إلى أقصاه بإقامة الخطبة لهم في بغداد في أثناء تمرد البساسيري،  
 وكذلك في اليمن؛ فإن دولة الفاطميين شهدت في عصره انكماشاً وتراجعاً  
 خطيراً أفقدها كثيراً من ولاياتها، كما تعرضت مصر في زمنه إلى أزمة  
 اقتصادية خانقة كانت لها آثارها السلبية على الدولة الفاطمية بقية عمرها  
 وهي ما عرف في التاريخ بـ(الشدة العظمى)<sup>(٢)</sup>.

(١) الذهبي: العبر، ج ٢/ ص ٣٨٩ - ٤٠٠؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢/  
 ص ١٨٧، ١٩٠، ١٩٤.

(٢) اسم عرفت به الأزمة الاقتصادية التي شهدتها مصر ودامت سبع سنين بسبب قصور  
 مستوى مياه النيل، وشبهت بسني يوسف عليه السلام، وبلغت حال الناس معها من سوء  
 درجة تسابق المؤرخون في وصفها، وكان من الممكن تجنب آثارها لولا الانفلات  
 الأمني والصراع بين العسكر الذي تخللها مما زاد الأوضاع سوءاً، ولمزيد من  
 التفاصيل عنها انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢/ ص ٢٩١؛ ابن تغري بردي:  
 النجوم الزاهرة، ج ٥/ ص ٤-٥، ١٨-٢٢.

كما أن الصراع بين الأمراء وما يتبعهم من فئات الجيش المتنوعة جعل البلاد تعيش في دوامة من العنف والفوضى، تمكن المستنصر من إيقافها - مؤقتًا - باستدعاء والي عكا بدر الجمالي<sup>(١)</sup> ليصبح الوزير أمير الجيوش وذلك سنة ٤٦٦هـ / ١٠٧٤م، الذي تمكن من إعادة النظام والانضباط إلى الجيش والدولة من جديد وصد هجوم السلاجقة على مصر، ودخل في حرب ضدهم حتى تمكن من استرداد موانئ بلاد الشام منهم<sup>(٢)</sup>.

توفي بدر الجمالي في سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م وهي السنة نفسها التي توفي فيها المستنصر بالله، ولكن ذلك الوزير أحدث تغييرًا خطيرًا في نظام الوزارة عند الفاطميين، حين جعل الوزارة لابنه الأفضل شاهنشاه<sup>(٣)</sup>، الذي واصل سياسة أبيه في إبقاء الخلافة الفاطمية ضعيفة لا حول لها من دون وزيرها، كما تدخل الأفضل في مسألة وراثة المستنصر ونقل الخلافة إلى ابنه

(١) أمير الجيوش بدر بن عبدالله الأرمني الجمالي نسبة إلى جمال الملك بن عمار الطرابلسي الذي اشتراه، ترقى به الأحوال في دولة الفاطميين حتى وزر لهم حين استدعاه المستنصر الفاطمي ليضبط البلاد والجند، وكان بطلاً شجاعاً مهيباً، مات بمصر سنة (٤٨٧هـ / ١٠٩٤م)؛ انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٩ / ص ٨١ - ٨٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٦ / ص ٢٦٩-٢٧١؛ الذهبي: دول الإسلام، ج ٢ / ص ٣-٤، ١١؛ الجوزوري: الحروب الصليبية، ص ٢٠٧.

(٣) الوزير الملك الأفضل أبو القاسم شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي الأرمني (٤٨٧هـ / ١٠٩٤م - ٥١٥هـ / ١١٢١م)، كان أبوه نائباً على عكا، ثم أسهم في إصلاح ما فسد من دولة المستنصر، فاستولى على الوزارة ودانت له البلاد والعباد إلى وفاته، فخلفه ابنه الأفضل، وعظم شأنه، وأهلك نزاراً بن المستنصر وولى أخاه المستعلي الخلافة، وكان الأفضل بطلاً شجاعاً وافر الهيبة عظيم الرتبة، ولما تولى الأمر الخلافة عمل على قتل الأفضل وتم له ذلك سنة (٥٠٥هـ / ١١٢١م)؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٩ / ص ٥٠٧ - ٥٠٨.

المستعلي<sup>(١)</sup> من دون أخيه الأكبر نزار الوريث الشرعي حسب المذهب الإسماعيلي، فبقي الأفضل مسيطراً على مقاليد الحكم وإن جرّ ذلك على الخلافة الفاطمية انقسامات سياسية كانت سبباً في تضعف حكمها وانهاره<sup>(٢)</sup>.

وفي عصر الأفضل اجتاح الصليبيون ديار الإسلام فحاول التحالف معهم ضد السلاجقة، إلا أن المذبحة التي قام بها الصليبيون في بيت المقدس ثم استيلاءهم عليها جعله يتخذ سياسة مغايرة معهم إذ قام بإرسال العديد من الحملات لاستعادة فلسطين براً وبحراً، وعلى الرغم من الفشل الذريع الذي منيت به القوات الفاطمية فإنها استطاعت أن تطيل أمد الصمود لدى أهم المدن الساحلية مثل طرابلس وصيدا وعكا وصور<sup>(٣)</sup>.

إلا أن كل هذه الجهود ذهبت سدى حين اغتيل الأفضل في سنة ٥١٥هـ/ ١١٢٢م بتدبير من الخليفة الأمر بأحكام الله<sup>(٤)</sup>؛ انتقاماً لأبيه المستعلي الذي

(١) المستعلي بالله (٤٨٧هـ / ١٠٩٤م - ٤٩٥هـ / ١١٠٢م): أحمد بن المستنصر بالله، قام بعد أبيه، وفي أيامه وهنت الدولة العبيدية واختلت قواعدها وانقطعت الخطبة لهم من أكثر مدائن الشام، وفي أيامه قدم الإفرنج إلى الشام، ولم يكن له مع أمير الجيوش حل ولا ربط، هرب في دولته أخوه نزار إلى الإسكندرية وبويع فحاصره الأفضل وقتله؛ انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٥ / ص ١٩٦ - ١٩٧.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، مج ٦ / ج ١٢ / ١٦١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥ / ١٣٧ - ١٣٨، ١٤٠ - ١٤٣؛ العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ٣٠٦ - ٣٠٧، ٣٠٩.

(٣) الذهبي: العبر، ج ٢ / ص ٣٧٤؛ ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج ٥ / ص ١٥١، ١٦٩، ٢٣٨؛ السيد عبدالعزیز سالم، سحر عبدالعزیز: معالم التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية، د. ط - ٢٠٠٥م، ص ١٠٦ - ١٢٢.

(٤) الأمر بأحكام الله (٤٩٥هـ / ١١٠٢م - ٥٢٤هـ / ١١٣١م): أبو علي منصور بن المستعلي، كان متظاهراً بالمكر واللغو والجبروت، ولي صغيراً فلما كبر قتل الوزير الأفضل، وفي أيامه أخذ الإفرنج ساحل الشام، قتل سنة (٥٢٤هـ / ١١٣١م)؛ =

دس له الأفضل السم، فعادت حلقة العنف لتجتاح البلاد من جديد بسبب مؤامرات الوزراء في ظل الخلفاء الضعاف حتى تعاقب على الوزارة أكثر من ثمانية وزراء وذلك خلال المدة من (٥١٥هـ / ١١٢٢م - ٥٥٨هـ / ١١٦٣م)<sup>(١)</sup>.

وهكذا صارت مصر الفاطمية مسرحًا للصراع بين الوزراء الطامعين في السيطرة على البلاد، في حين تطلع الإفرنج لاحتلال مصر لأجل القضاء على أية وحدة إسلامية بين الشام ومصر، وكذلك للاستئثار بموارد مصر وإمكاناتها الهائلة، وقد تزامن ذلك مع انفجار صراع دموي في القاهرة حول الوزارة بين أميرين من أمراء الخليفة العاضد<sup>(٢)</sup> هما شاور<sup>(٣)</sup>

= انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٥ / ص ١٩٧-١٩٩.

(١) ابن الأثير: الكامل، مج ٧ / ١٠٢، ١٠٦، ١٤٦، ١٥٧؛ الذهبي: دول الإسلام، مج ١ / ج ٢ / ٦٥-٦٦، ٧١-٧٣؛ طقوش (محمد سهيل): تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام، دار النفائس - بيروت، ط ١- ٢٠٠١م، ص ٣٨٨-٣٩٣، ٣٩٤-٤٢٧.

(٢) العاضد (٥٥٥هـ / ١١٥٩م - ٥٦٧هـ / ١١٧١م): أبو محمد عبدالله بن الأمير يوسف بن الحافظ لدين الله، أقامه طلائع بن رزيك خليفة بعد الفائز تحت الحجر لا حل لديه ولا ربط، فتأمر العاضد عليه حتى قتله، وفي أيامه تفاقم الصراع بين وزرائه، حتى تدخل نور الدين وتم له حكم مصر، ولى العاضد صلاح الدين الوزارة فتلاشى أمره معه حتى خطب لبني العباس بمصر سنة (٥٦٧هـ / ١١٧١م)؛ توفي بعدها العاضد بأيام قلائل فكان آخر خلفاء الفاطميين، انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٥ / ص ٢٠٧-٢١٥.

(٣) شاور (٥٥٨هـ / ١١٦٢م - ٥٦٤هـ / ١١٦٩م): أبو شجاع شاور بن مجير بن نزار السعدي، ولاء الصالح بن رزيك الصعيد الأعلى، وكان ذا شهامة ونجابة وفروسية، انتزع الوزارة من بني رزيك، ولكن ضرغام عارضه وطرده من القاهرة وحل مكانه، فاستنجد شاور بنور الدين محمود الذي أمده بأسد الدين شيركوه، ولكن شاور انقلب عليه وتحالف مع الصليبيين، وفي سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٩م قتل شاور على يد شيركوه الذي تولى الوزارة مكانه بعد ثلاث حملات قادها على مصر؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج ٢ / ص ٤٣٩-٤٤٢.

وضرغام<sup>(١)</sup>؛ نتج عنه هروب شاور إلى نور الدين محمود في دمشق مستنجدًا به، فوجد نور الدين في ذلك فرصة ليسبق العدو إلى مصر، فأرسل ثلاث حملات بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين وذلك في (٥٥٩هـ / ١١٦٤م)، (٥٦٢هـ / ١١٦٦م)، (٥٦٤هـ / ١١٦٩م)، وتمكن أسد الدين في الأخيرة من طرد الإفرنج والقضاء على شاور<sup>(٢)</sup>.

عين الخليفة العاضد شيركوه وزيرًا له لكنه توفي فجأة فعين صلاح الدين خلفًا له، وبذلك بدأ عصر جديد تمكن فيه صلاح الدين من الذود عن مصر ضد الأطماع الخارجية والمؤامرات الداخلية إلى أن تمكن في (٥٦٧هـ / ١١٧١م) من إنهاء الخلافة الفاطمية وإقامة الخطبة للعباسيين في القاهرة<sup>(٣)</sup>.

وأما بالنسبة للمشرق الإسلامي فلم يكن حاله ينبئ بالاستقرار في ظل الصراع المحتدم بين الغزنويين الذين انحسر نفوذهم في شمال الهند وأفغانستان وبين السلاجقة الذين تمكن أحد مماليكهم وهو محمد أنوشتكين من إقامة الدولة الخوارزمية التي حكمت وسط آسيا من (٤٩٠هـ / ١٠٩٦م -

(١) ضرغام (٥٥٨هـ / ١١٦٢م - ٥٥٩هـ / ١١٦٣م): الملك المنصور أبو الأشبال ضرغام بن سوار اللخمي، كان نائبًا على الباب ثم خرج على شاور وطرده وتولى الوزارة مكانه، تمكن خلال وزارته من صد هجوم الصليبيين على مصر، قتل سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٣م عندما دخل شاور القاهرة بمساعدة شيركوه؛ انظر: ابن خلكان: المصدر السابق، مج ٢/ ص ٤٤٠-٤٤٢.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق، مج ٧/ ص ١٧٢، ١٨٨-١٩٠، ١٩٥-٢٠٣؛ الذهبي: دول الإسلام، ج ١/ ص ٧٢-٧٧؛ العبر، ج ٢/ ص ٢٦-٤٥.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢/ ص ٢٨١-٢٨٢؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥/ ص ٣٦٢-٣٦٥.

٦٠٢هـ / ١٢٢٨م) حتى سقوطها على يد المغول<sup>(١)</sup>، كما تمكن الغوريون (٥٤٣هـ / ١١٤٩م - ٦٠٢هـ / ١٢٠٦م) من القضاء على الدولة الغزنوية وورثوا أراضيها إلى أن تطرق الضعف إلى دولتهم، حيث انفرد مماليتهم بالحكم وأقاموا دولة المماليك في الهند (٦٠٢هـ / ١٢٠٤م - ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م)، وقد تمكن هؤلاء المماليك من الذود عن دولة المسلمين في الهند أمام الزحف المغولي حتى استطاعوا الحصول على تفويض من الخلافة العباسية بحكم الأقاليم التي تحت أيديهم وذلك في (٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)<sup>(٢)</sup>.

وأما المغرب الإسلامي فبعد الاستقرار النسبي الذي عاشته المنطقة تحت حكم المرابطين (٤٤٧هـ / ١٠٥٤م - ٥٤١هـ / ١١٤٧م) وانتصارهم في الزلافة<sup>(٣)</sup> (٤٧٩هـ / ١٠٨٦م)؛ قامت حركة الموحدون الذين دخلوا في حرب ضروس ضد المرابطين انتهت بالقضاء على حكم الأخيرين في (٥٤١هـ / ١١٤٧م)<sup>(٤)</sup>، وقد ورث الموحدون ممتلكات المرابطين في المغرب والأندلس وبذلوا جهودًا بالغة في الذود عنها، وقد استمرت دولتهم

(١) ابن الأثير: الكامل، مج ٦ / ص ٣٧٤؛ الساداتي (د. أحمد محمود): تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، مكتبة الآداب - القاهرة، د. ط - د. ت، ج ١ / ص ٨١-١٠٥.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢ / ص ٢٤٢، ج ١٣ / ص ٤٥؛ الساداتي: المرجع نفسه، ج ١ / ص ١١٢-١٤٩.

(٣) الزلافة معركة فاصلة بين المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين والقشتاليين بقيادة الفونسو العاشر، إنتهت بهزيمة القشتاليين وإنقاذ الحكم الإسلامي في الأندلس، الجمل: شوقي، المغرب العربي الكبير، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات - القاهرة، ط ٢-١٩٩٧م، ص ١٨-٢٠.

(٤) الذهبي: دول الإسلام، ج ٢ / ص ٤٦؛ الجمل: المرجع نفسه، ص ١٨-٢٢.

متماسكة حتى سحق جيشهم على يد الإسبان في موقعة العقاب (٦٠٩هـ/ ١٢١٢م)، فأخذت دولتهم في التداعي في المغرب والأندلس وحل مكانها عدد من الكيانات السياسية المتفرقة<sup>(١)</sup>.

### \* الحروب الصليبية ورد الفعل الإسلامي.

شهد القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي انتصارين عظيمين للأمة الإسلامية هما: (ملاذكرد) (٤٦٣هـ/ ١٠٧١م) و(الزلاقة) (٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م) بفضل روح الجهاد الذي أحياء في المسلمين سلاطين السلاجقة في المشرق وأمراء المرابطين في المغرب.

ومن جهةٍ أخرى أحدثت تلك الانتصارات دويًا هائلًا في أوروبا نجم عنه تولد رغبة محمومة في الانتقام والقضاء على المسلمين الذين باتوا يهددون أوروبا من كل جانب، وقد استغل عدد من رجال الدين والأمراء المتحمسين تلك الأحداث لبث روح الانتقام والحماسة الدينية لدى الملوك والأمراء وعامة الناس، وكان على رأس هؤلاء الدعاة لشن حرب صليبية مقدسة على المسلمين البابا أوربان الثاني (٤٨٠هـ/ ١٠٨٨م - ٤٩١هـ/ ١٠٩٩م)، وقد أخذت تلك الدعوة تتعاضم وتنتشر على طول الساحة الأوروبية حتى توجت بمؤتمر كليرمونت (٤٨٧هـ/ ١٠٩٥م) الذي استغل فيه البابا عواطف العامة تجاه الأراضي المقدسة فدشن فيه مشروعه ببدء الحرب الصليبية على المسلمين وضرورة إنقاذ قبر المخلص، وعقب ذلك المؤتمر قام بعدد من الجولات في مدن أوروبا كرر فيها دعوته

(١) الجمل: المرجع السابق، ص ٢٢-٣٣.

للحرب الصليبية<sup>(١)</sup>.

أخذت الجموع تحتشد من المدن والأرياف الأوروبية كافة للانضمام إلى الحملة المقدسة، وقد أسهمت مجموعة من العوامل الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في تفعيل الاستجابة لهذه الحرب الصليبية، إلا أنه من بين كل تلك الدوافع والعوامل كان الباعث الديني دائماً هو الأهم والمحرك الأساسي للحروب الصليبية، حيث كانت الحماسة الدينية لدى عامة الناس وبعض الأمراء والملوك هي القوة الدافعة الحقيقية للحروب الصليبية، والوتر الذي عزف عليه البابا أوربان الثاني ودعاته في أنحاء أوروبا، كما أن حرص البابا على تعيين مندوب له في الأراضي المقدسة يدل على رغبته في ضمان ارتباط ممتلكات الصليبيين هناك بالبابوية، ولا ننسى التأثير السحري لصكوك الغفران والمسامحات التي أصدرتها البابوية على جمهور الناس مما دفعهم للمشاركة في تلك الحروب المقدسة.

وعموماً فقد سارت الجموع الصليبية قاطعة أوروبا إلى القسطنطينية

(١) عاشور: الحركة الصليبية، ج١/ ص ١٠٥-١٠٧؛ قاسم عبده، ماهية الحروب الصليبية، سلسلة عالم المعرفة الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، العدد: ١٤٩- شوال ١٤١٠م/ مايو ١٩٩٠م، ص ١٠٩-١٢٠؛ حاطوم: نور الدين، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، دار الفكر- دمشق، د. ط ١٤٠٢/ ١٩٨٣، ص ٨٣٠- ٨٣٤؛ هامرتون: السير جون، تاريخ العالم. تر إدارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة، ط ٢- د. ت، ج ٥/ ص ١٧٣- ١٧٤؛ رنسيما: ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية، نقله إلى العربية: السيد الباز العريني، دار الثقافة- بيروت، د. ط- ١٩٩٧م، مج ١/ ص ١٥٦- ١٦٠؛ وانظر للمؤلف نفسه: الحملات الصليبية من كلير مونت إلى أورشليم، تر: نور الدين خليل، الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة، د. ط- ١٩٩٤، ج ١/ ص ١٤٦، ١٥٢-١٥٣.

ومنها إلى آسيا الصغرى، حيث اشتبكت مع السلاجقة - سلاجقة الروم - في عدد من المعارك سقطت فيها بعض المدن التي سلمت للبيزنطيين<sup>(١)</sup>، وواصلت تلك الجموع زحفها حتى وصلت بلاد الشام في (٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م)، وبدؤوا هجومهم على أنطاكية التي سقطت في (٤٩١هـ/ ١٠٩٨م)، ولم تفلح الحملة التي أرسلها السلاجقة لاستعادة المدينة بل لقيت هزيمة شنعاء بسبب اختلاف أمراء حلب وحمص ودمشق فيما بينهم<sup>(٢)</sup>، وواصلت جموع الصليبيين تقدمها جنوباً باتجاه بيت المقدس، وقد تعاملوا مع السفارة التي أرسلها الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي بنوع من المرونة مبدين رغبتهم في التحالف معه ضد السلاجقة، ولكن نياتهم تكشفت للأفضل حين ضربوا الحصار على بيت المقدس الخاضعة لحكم الفاطميين، وشددوا الهجوم عليها حتى سقطت المدينة في أيديهم في عام (٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م) مرتكبين فيها مذبحه من أفضع ما سجله التاريخ وأبشعه<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥ / ص ١٤٤ - ١٤٥؛ عاشور: الحركة الصليبية، ج ١ / ص ١٢٧ - ١٢٩؛ قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص ١٢٠ - ١٢٤؛ رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، مج ١ / ص ٢١١ - ٢٧٦؛

Peters, Ed: The first Crusade-The Chronicle of Fulcher of Chartres and other source materials, Univ. of Pennsylvania Press, 1971, pp. 2-16.

(٢) ابن الأثير: الكامل، مج ٦ / ص ٣٧٥ - ٣٧٩؛ الذهبي: العبر، ج ٢ / ص ٣٦٤؛ رنسيان: الحملات الصليبية، ج ١ / ص ٣٠٣ - ٣٥٢؛ قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص ١٢٥ - ١٢٦.

(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه، مج ٦ / ص ٣٨٣؛ الذهبي: دول الإسلام، ج ٢ / ص ٢١؛ رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ١ / ص ٣٩٣ - ٤٠٦.

إثر سقوط المدينة أعلن الصليبيون قيام مملكة بيت المقدس اللاتينية، وكانت تضم في البدء ثلاث إمارات كبيرة هي (بيت المقدس - أنطاكية - الرها)، وعلى الرغم من الأخطار المحدقة بمملكتهم من كل جانب تمكن الملوك الأوائل لهذه المملكة من التحرك بخطى مدروسة وثابتة بقصد توفير مقومات البقاء لمملكتهم الوليدة، فشنوا على مدى أكثر من ربع قرن غارات وحروباً توسعية تمكنوا خلالها من السيطرة على ساحل بلاد الشام كله: عكا (٤٩٧هـ / ١١٠٤م)، طرابلس وبيروت وجبيل (٥٠٣هـ / ١١٠٩م)، صيدا (٥٠٤هـ / ١١١٠م)، صور (٥١٨هـ / ١١٢٤م)؛ وذلك بهدف تأمين الاتصال التجاري والعسكري بين مملكتهم وسائر أوروبا، وفي الوقت نفسه بذلوا جهودهم للسيطرة على المواقع والمنافذ الاستراتيجية في المنطقة بهدف قطع أي تواصل بين الإمارات والدول الإسلامية، ومنع أي تعاون فيما بينها سياسياً وعسكرياً، وضمان سيطرتهم المطلقة على المعابر والطرق التجارية في المنطقة ودفعها لتصب في موانئهم التي اهتموا بها كثيراً ولا سيما عكا<sup>(١)</sup>.

كما أدرك الصليبيون أنه من أجل الحفاظ على تلك المكاسب التي حققوها ولتوسيع رقعة ممتلكاتهم على حساب جيرانهم يجب عليهم ضمان تفوقهم العسكري والاقتصادي في المنطقة، وذلك عبر إبقاء تلك الإمارات والدول الإسلامية معزولة بعضها عن بعض، وعدم اتخاذ سياسة معادية معها جميعاً في آن واحد، تمهيداً للانفراد بكلٍ منها على حدة، كما توسعوا في

(١) عاشور: الحركة الصليبية، ج ١/ ص ٢٣١، ٢٣٧، ٢٥٧-٢٥٨، ٣٨٣؛ سالم (السيد عبدالعزيز) وسحر السيد عبدالعزيز: دراسة في تاريخ الأيوبيين والمماليك، مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية، د.ط - ١٩٩٩م، ص ٢٤-٢٥.

إقامة القلاع والحصون في العمق الإسلامي<sup>(١)</sup>.

وخلال النصف الأول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي تقدم الصليبيون في تنفيذ خططهم مستفيدين من حال التمزق والصراع في بلاد الإسلام، الأمر الذي انعكس بدوره على محاولات التصدي لهم التي قام بها السلاجقة والفاطميون - كل على حدة - حيث كانت تفتقر إلى التنظيم أو وجود استراتيجية معينة للتصدي للعدو، وتوج الصليبيون خططهم بالاستيلاء على عسقلان في (٥٤٨هـ / ١١٥٣م)<sup>(٢)</sup>، وبذلك تمهدت الطريق إلى مصر التي كانت أضعف من أن تتصدى لهم في ظل الصراع الدموي على السلطة الذي كانت تعيشه البلاد.

ولكن من جهة أخرى، فإن الضربات التي تعرضت لها الأمة الإسلامية أثارت حمية عدد من الأمراء ممن كان لهم فضل في بث روح الجهاد بين المسلمين وفق استراتيجية سياسية وعسكرية منظمة، وعلى رأسهم عماد الدين زنكي<sup>(٣)</sup> وولده نور الدين محمود اللذين نجحا في التصدي للصليبيين

(١) عاشور: الحركة الصليبية، ج ١/ ص ٢٠٨-٢٠٩، ٢٥٧-٢٥٨؛ رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢/ قسم ٢/ ص ٢١، ١٥٩-١٦١.

(٢) الذهبي: دول الإسلام، ج ٢/ ص ٦٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢/ ص ٢٤٨؛ قاسم (قاسم عبده): في تاريخ الأيوبيين والمماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية - القاهرة، ط ١- ٢٠٠١م، ص ١٦-١٨.

(٣) عماد الدين زنكي (٥٢١هـ/ ١١٢٩م - ٥٤١هـ/ ١١٤٨م): أبو الجود عماد الدين زنكي بن آق سنقر بن عبدالله، كان والده من أمراء الدولة السلجوقية، فوض إليه السلطان محمود ولاية بغداد والموصل سنة (٥٢١هـ/ ١١٢٩م) بتدخل من الخليفة العباسي المسترشد، عرف زنكي بالأتابك لأنه كلف بتربية ولدي السلطان، استولى على ما والى الموصل من بلاد، وفتح الرها سنة (٥٣٩هـ/ ١١٤٦م)، استشهد في أثناء حصاره قلعة جعبر سنة (٥٤١هـ/ ١١٤٨م)؛ انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢/ ص ٣٢٧-٣٢٩.

وتكوين جبهة إسلامية موحدة تضم محاور (الموصل - حلب - دمشق)، مما أسبغ على الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين زخمًا تمكنوا من خلاله من توجيه ضربات موجعة للصليبيين، كان أعظمها استعادة الرها في (٥٣٩هـ / ١١٤٤م)، فضلا عن نجاحهم في التصدي للحملة الصليبية الثانية (٥٤٣هـ / ١١٤٧م - ٥٤٤هـ / ١١٤٨م)<sup>(١)</sup>، وبذلك صار واضحًا لدى الصليبيين أن هناك قوة تتعاضد في المنطقة تحيط بهم، مما دفعهم إلى التعجيل بالهجوم على مصر التي تسابق الطرفان - الزنكيون والصليبيون - في الاستيلاء عليها، حتى تم الأمر لنور الدين محمود على يد قائده أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، فدخل الجهاد ضد الصليبيين مرحلة جديدة تجلت فيها مظاهر التعاون والوحدة السياسية والعسكرية بين الأقطار الإسلامية - ومن بينها اليمن - والاستفادة من إمكانات الأمة الإسلامية في بناء قوة عسكرية مدربة ومعدة للتصدي للصليبيين ومن خلفهم أوروبا كلها، وكذلك تحقيق التكامل في المنظومة الاقتصادية للمسلمين لخلق الاقتصاد الصليبي ومن ثم إضعاف آتته العسكرية مقابل التفوق الاقتصادي للمسلمين.

وقد تجلت مظاهر تطبيق هذه الاستراتيجية خلال مراحل الجهاد ضد الصليبيين طوال عصر الدولة الأيوبية وصدر الدولة المملوكية، مما مكن الأمة الإسلامية من توجيه ضربات قاصمة للصليبيين في حطين (٥٨٣هـ / ١١٨٧م)، ودعم القوة الدفاعية لدى الأمة للتصدي لثلاث حملات صليبية ضخمة: الحملة الثالثة (٥٨٧هـ / ١١٩١م - ٥٨٨هـ / ١١٩٢م)، والحملة

(١) ابن الأثير: الكامل، مج ٧/ ص ٤٧؛ الذهبي: العبر، ج ٢/ ص ٤٦٠، ٤٦٣؛ رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢/ قسم ١/ ص ٣٧٧ - ٣٨١، ٣٩٧ - ٤٦٢.

الخامسة (٦١٥هـ / ١٢١٧م - ٦١٩هـ / ١٢٢١م)، والحملة السابعة (٦٤٧هـ / ١٢٤٩م - ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م)، التي كانت كل واحدة منها كفيلة بالقضاء على السيادة الإسلامية في مصر وبلاد الشام لولا القوة الضاربة لدى كل من الأيوبيين والمماليك، والتي مكنتهم بفضل تعاون سائر الأقاليم الإسلامية سياسياً وعسكرياً واقتصادياً من التصدي لتلك الحملات، وعزل الصليبيين عن القوة المتعاطفة معهم في المنطقة - الأرمن، النوبة، الحبشة، المغول - حتى أتيح للمسلمين طرد الصليبيين نهائياً من ديار الإسلام في (٦٩٠هـ / ١٢٩١م)<sup>(١)</sup>.



(١) ابن الأثير: المصدر السابق: مج ٧ / ٤٧؛ ابن واصل (أبو عبدالله محمد بن سالم بن نصر الله المازني الحموي): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تح: عمر عبدالسلام تدمري، المكتبة العصرية - بيروت، ط ١ - ٢٠٠٤م، ص ٦١ - ٦٨.



## الفصل الأول

### الأوضاع السياسية في اليمن وأهميتها في المنطقة

- **المبحث الأول:** الأوضاع السياسية في اليمن خلال القرنين (السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين).

أولاً: القوى السياسية في اليمن قبيل الحكم الأيوبي.  
ثانياً: الدولة الأيوبية.  
ثالثاً: الدولة الرسولية.

- **المبحث الثاني:** اليمن وأهميتها السياسية والاقتصادية في المنطقة.

أولاً: أهمية اليمن السياسية في المنطقة.  
أ - أهمية موقع اليمن وأثر ذلك في علاقتها بدول الجوار.  
ب - اليمن ودورها في الملاحة البحرية.  
ج - اليمن والحجاز.

ثانياً: أهمية اليمن الاقتصادية.  
أ - الزراعة.  
ب - الصناعة والتعدين.  
ج - التجارة.



## المبحث الأول

### القوى السياسية في اليمن خلال القرنين السادس والسابع الهجريين / الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين

منذ أن أخذ سلطان الخلافة العباسية على الأقاليم في الانكماش تحت وطأة ضعف السلطة المركزية في بغداد، وتزايد حدة الحركات المناهضة لها في الأقاليم<sup>(١)</sup>؛ تناوب على حكم اليمن عدد من الدول والأسر الحاكمة في آن واحد، منها دول قامت على أسس فكرية ومذهبية مناوئة للعباسيين ومخالفة لهم كالإمامة الزيدية التي قامت في النصف الأخير من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، وتقلبت بها الأحوال بين توسع وانكماش إلى العصر الذي ستحدث عنه، وهناك دعاة الإسماعيلية في اليمن الذين نجحوا في تأسيس دولة لهم مع نهاية القرن الثالث ومطلع القرن الرابع الهجريين، ولكنها سرعان ما انهارت أمام تحالف القوى الأخرى، فكانت ضربة قاصمة للدعوة الإسماعيلية في اليمن جعلتهم يواصلون الدعوة سرًا لأكثر من قرن من الزمن حتى تصبح الظروف مناسبة لإقامة دولتهم.

ومن جهة أخرى كانت هناك دول قامت على أسس قبلية مثل الدولة اليعفرية والشرايين وآل الكرندي، التي كان الصراع القبلي وتنافس زعماء القبائل فيما بينهم سببًا في إضعافها والقضاء عليها، على الرغم من اعترافها الاسمي بالولاء للعباسيين وجهودها في التصدي لخطر القرامطة في اليمن<sup>(٢)</sup>.

(١) تدخل الأتراك، انفصال بعض دويلات المغرب الإسلامي، الحركات المناهضة للخلافة العباسية في المشرق الإسلامي.

(٢) عمارة (نجم الدين عمارة بن علي الحكمي): المفيد في أخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها وأعيانها وأدبائها، تح: محمد بن علي الأكوغ، المكتبة اليمنية للنشر =

كما قامت في اليمن دول تدين منذ نشأتها بالولاء للعباسيين كالزياديين والنجاحيين من بعدهم، وقد افتقرت تلك الدول إلى ظهير قبلي يساندهم فعوضوا عن ذلك بتجنيد العبيد من النوبيين والأحباش للذود عن ملكهم<sup>(١)</sup>.

ونتيجةً لهذه الانقسامات السياسية وتأجيجها للفتن المذهبية دخلت اليمن في دوامة من الصراع السياسي والصدام العسكري، وهي صورة تعد انعكاسًا لما كانت تعيشه بلاد الإسلام في تلك الحقبة. وستناول فيما يأتي الأوضاع السياسية في اليمن خلال زمن هذه الدراسة القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين.

### أولاً: القوى السياسية في اليمن قبيل الحكم الأيوبي:

#### ١- الزيدية:

عاشت الإمامة الزيدية في اليمن ركودًا وضعفًا بعد وفاة مؤسسها الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين سنة (٢٩٨هـ/ ٩١٠م) وحكم أبنائه من بعده<sup>(٢)</sup>، وقد جاء ذلك نتيجةً لاستمرار التنافس بين الزيدية حول الإمامة،

= والتوزيع - صنعاء، ط١- ١٩٨٥م، ص ٦٥، ٧٥؛ الشجاع (عبدالرحمن عبدالواحد): تاريخ اليمن في الإسلام في القرون الأربعة الهجرية الأولى، مكتبة الإحسان - صنعاء، ط٥ - ٢٠٠٤م، ص ١٦٤ - ١٧٣.

(١) عمارة: المصدر السابق، ص ٦٥، ٧٥.

(٢) الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، ولد بالرس من جبال المدينة سنة (٢٤٥هـ/ ٨٥٧م)، واشتغل بطلب العلم حتى صار متضللاً في سائر العلوم والفنون فضلاً عن رحلاته إلى العراق وطبرستان، قدم اليمن سنة (٢٨٠هـ / ٨٩٢م) بدعوة من قبائل منطقة صعدة ولكنه لم يلق استجابة فعالة فعاد إلى الرس، وفي سنة (٢٨٤هـ/ ٨٩٦م) عاد إلى اليمن حيث التفت حوله القبائل وأسس دولة الزيدية في اليمن بعد =

مما جعلهم في حال من الضعف لم يستطيعوا معها التصدي لقوة الصليحيين - دعاة الفاطميين - الصاعدة، فحاول حمزة بن أبي هاشم<sup>(١)</sup> القيام محتسباً من دون الإقدام على الدعوة لنفسه بالإمامة ولكنه قتل سنة (٤٥٩هـ/ ١٠٦٧م)<sup>(٢)</sup>.

وقد فشلت محاولات الزيدية تنظيم صفوفهم في مواجهة الصليحيين والقبائل الموالية لهم بسبب الصراع المستحكم بين الزيدية أنفسهم في ظل غياب إمام متفق عليه، إلى درجة أن أرسل أحد الزيدية الداعين لأنفسهم ببلاد الجبل والديلم والمعروف بالهاروني (ت ٥٢٠هـ / ١١٢٨م) إلى أحد أحفاد الهادي وهو الأمير المحسن بن أحمد بن المختار بن الناصر

= حروب كثيرة. انظر: الواسعي (عبدالواسع بن يحيى): تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، دار اليمن الكبرى - صنعاء، ط ٢- ١٩٩٠م - ١٩٩١م، ص ١٨٥-١٨٦.

(١) حمزة بن أبي هاشم بن الحسن بن عبدالرحيم، من أحفاد القاسم بن إبراهيم الرسي، قدم مع والده من الحجاز سنة (٤١٨هـ/ ١٠٢٦م)، حيث دعا الإمام أبو هاشم لنفسه في حصن ناعظ من بلاد حاشد، واستمرت محاولاته للاستيلاء على صنعاء إلى وفاته، ولم يكن ابنه حمزة مؤهلاً للإمامة، ولكنه على الرغم من ذلك قام بدور سياسي انتهى بهزيمته على يد الصليحيين ومقتله سنة (٤٥٨هـ/ ١٠٦٧م)، وعرف أبناءه وأحفاده بالحمزات. انظر: العمري (حسين عبدالله): الموسوعة اليمنية، مؤسسة العفيف الثقافية - صنعاء، ط ٢- ٢٠٠٢م، مج ٢/ ص ١١٩٢.

(٢) المحلي (حسام الدين حميد بن أحمد): الحدائق الوردية في مناقب أئمة الزيدية، مخطوطة مصورة، توزيع السيد حسين السياني الحسني - صنعاء جوار جامع النهدين، ج ٢/ ص ١٣٦؛ الكبسي (محمد بن إسماعيل)، اللطائف السنوية في أخبار الممالك اليمنية، تح: خالد أبو زيد الأذرع، مكتبة الجيل الجديد - صنعاء، ط ١- ٢٠٠٥م، ص ٦٨- ٧١؛ العرشي (القاضي حسين بن أحمد): بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولى ملك اليمن من ملك وإمام، نشره: الأب أنستانس الكرمل، دار إحياء التراث العربي - بيروت، د.ط - ١٩٣٩م، ص ٣٤-٣٦.

(ت ٥١١هـ / ١١١٧م) يعينه داعياً له في اليمن، ولكن هذه المحاولة انتهت بمقتل الأمير المحسن على يد الحدادين بصعدة سنة (٥١١ هـ / ١١١٧م)<sup>(١)</sup>. وفي سنة (٥٣١هـ / ١١٣٦-١١٣٧م) قام أحد ذرية الهادي ويدعى علي بن زيد بن إبراهيم محتسباً - على الرغم من قلة تحصيله العلمي - وانتهت محاولته بمقتله في شظب<sup>(٢)</sup> في العام نفسه<sup>(٣)</sup>، وسرعان ما دعا أحد أتباعه أحمد بن سليمان لنفسه، ودعا الناس إلى بيعته إماماً سنة (٥٣٢هـ / ١١٣٨م)، وتلقب بالمتوكل على الله، ونظراً لما يتمتع به من مؤهلات علمية وقيادية تابعه كثير من الناس، في وقت ضعفت فيه قوة الصليحيين وغيرهم من القوى المجاورة له، فأخذ يوسع من نفوذه ليشمل صعدة ومخاليفها ونجران والجوف والظاهر<sup>(٤)</sup>، وقد شن الإمام المتوكل حرباً على بني حاتم

(١) انظر: يحيى بن الحسين (يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي)، غاية الأمانى في أخبار القطر اليماني، تح: سعيد عبدالفتاح عاشور، دار الكاتب العربي - القاهرة، د.ط - ١٩٦٨م، ج ١/ ص ٢٨٨؛ الكبسي: المصدر نفسه، ص ٨٣-٨٤؛ الواسعي: المصدر السابق، ص ١٩٢-١٩٣؛ علي محمد زيد: تيارات معتزلة اليمن في القرن السادس الهجري، المركز الفرنسي للدراسات اليمنية - صنعاء، ط ١- ١٩٩٧م، ص ٤٢.

(٢) شظب: جبل فوق مدينة السودة غربي مدينة خمر من بلاد حاشد، تنسب إليها السودة فيقال (سودة شظب)، وهو جبل فيه مزارع وقرى؛ انظر: المقحفي (إبراهيم بن أحمد)، معجم البلدان والقبائل اليمنية، دار الكلمة - صنعاء، د.ط - ٢٠٠٢م، ج ١/ ص ٨٦٦.

(٣) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى، ج ١/ ص ٢٩٤-٢٩٥؛ الكبسي: المصدر السابق، ص ٨٤-٨٥؛ زيد: المرجع السابق، ص ٤٢.

(٤) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى، ج ١/ ص ٢٩٦؛ الكبسي: اللطائف، ص ٨٦؛ الواسعي: فرجة الهموم، ص ١٩٤. والظاهر: يقصد بها المنطقة الممتدة من غرب محافظة صعدة وتتصل جنوباً بأطراف محافظة حجة؛ انظر: المقحفي، المرجع السابق، ج ١/ ص ٩٧١.

حتى انتزع منهم صنعاء<sup>(١)</sup>، كما استنجد به بنو نجاح في زبيد على علي بن مهدي ومن معه فنزل إلى تهامة سنة (٥٥٣هـ / ١١٥٩م)، إلا أنه قرر الانسحاب أمام التفوق العسكري لعلي بن مهدي<sup>(٢)</sup>.

وقد حفلت مدة إمامته بكثير من الأحداث، مثل حروبه المتكررة مع بني حاتم حول صنعاء، وحربه ضد المطرفية<sup>(٣)</sup>، وكذلك حروبه ضد منافسيه من الزيدية إلى أن وقع أسيراً في أيديهم إلى أن سعى السلطان علي بن حاتم لفكأكاه، فاعتزل الناس وعمي آخر عمره وتوفي سنة (٥٦٦هـ / ١١٧٣م)<sup>(٤)</sup>، ولم يتول قيادة الزيدية من بعده إمام كفؤ وقوي نظراً لانشغالهم بالصراع فيما بينهم في وقت قدم فيه الأيوبيون إلى اليمن، فسيطروا على معظم البلاد وشكلوا ضغطاً مباشراً على الزيدية إلى سنة (٥٨٣هـ / ١١٨٧م) حين قام

(١) الخزرجي (شمس الدين أبو علي بن الحسن بن أبي بكر): العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك، مخطوط مصور، نشر وزارة الإعلام والثقافة - صنعاء، - ١٩٨١م، ص ٧٤-٧٥؛ ابن الديبع (وجيه الدين عبدالرحمن بن علي): قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تح: محمد بن علي الأكوغ، بساط للنشر- بيروت، ط ٢- ١٩٨٨م، ص ٢٠٨.

(٢) عمارة: المفيد، ص ١٨٨؛ ابن عبدالمجيد (تاج الدين عبد الباقي): بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تح: مصطفى حجازي، دار الكلمة - صنعاء، ط ٢- ١٩٨٥م، ص ٧٤.

(٣) المطرفية: فرقة تنسب إلى مطرف بن شهاب، كانوا من المخالفين للزيدية في كثير من الأمور، فمن ذلك أنهم بعد ما بايعوا الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة ظهرت منهم أقوال تخالف الزيدية لا سيما أقوالهم حول الإمام، فقاتلهم الإمام عبدالله بن حمزة متهمًا إياهم بالكفر والزندقة وذلك في عامي (٦٠٩هـ / ١٢١٢م) و(٦١١هـ / ١٢١٤م)؛ انظر: ابن دعثم (أبو فراس فاضل بن عباس): السيرة المنصورية، تح: عبدالمغني محمود عبدالعاطي، دار الفكر المعاصر- بيروت، ط ١- ١٩٩٣م، ج ٣/ ص ٩٢٥-٩٦١؛ زيد: تيارات، ص ١٩٠-١٩٢.

(٤) الخزرجي: العسجد، ص ٨٢-٨٣؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص ٢١٦؛ الكبسي: المرجع السابق، ص ٩٥.

الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة داعياً لنفسه بالإمامة<sup>(١)</sup>، وهو من أبرز الأئمة الزيدية خلال تلك الحقبة من حيث اطلاعه وغزارة علمه وهمته العالية في السياسة والحرب، فضلا عن المؤلفات الكثيرة التي خلفها<sup>(٢)</sup>.

ولكنه وعلى الرغم من الإجماع على كفاءته القيادية ومؤهلاته العلمية، فإنه لم يستطع التوسع بسبب قوة الأيوبيين في اليمن خلال حكم سيف الإسلام طغتكين بن أيوب، الذي تعرض حكم الأيوبيين بعد وفاته لموجة من الفوضى بسبب تمرد الجند نتيجةً لسوء سياسة ولده المعز إسماعيل، الأمر الذي أتاح للإمام عبدالله بن حمزة فرصة التحرك مستعيناً بدعم القبائل التي بايعته ومن انضم إليه من جند المعز، فاستولى على كثير من المناطق ومنها صنعاء<sup>(٣)</sup>، وقد شكلت دعوته تهديداً مباشراً للوجود الأيوبي في اليمن، كما شن حرباً على المطرفية قتل فيها كثيراً من علمائهم وشرذ الباقين.

غير أن كفة الأيوبيين عادت للرجحان بعد مقتل المعز بزويد سنة (٥٩٨هـ / ١٢٠٢م)، وتولي الأتابك سنقر إدارة دولة الناصر أيوب بن طغتكين، فعاد كثير من الجند المتمردين إلى صفوف الأيوبيين، الذين استعادوا صنعاء وكثيراً من المناطق التابعة للإمام، الذي ظل يقاتل في عدة

(١) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى، ج ١ / ص ٣٢٩-٣٣٠؛ الحداد (محمد يحيى): التاريخ العام لليمن، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء، د.ط - ٢٠٠٤، مج ٢ / ص ٤٤١.

(٢) المحلى: الحدائق الوردية، ج ٢ / ص ١٤٠؛ الواسعي: المرجع السابق، ص ١٩٧؛ الوجيه (عبدالسلام بن عباس): أعلام المؤلفين الزيدية، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية - عمان، ط ١ - ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، ص ٥٧٨-٥٨٥.

(٣) ابن دعثم: السيرة المنصورية، ج ٢ / ص ٢٢٢-٢٢٤؛ الكبسي: اللطائف، ص ١٠٦-١١٠.

جبهات ضد الأيوبيين، والقبائل المعارضة له، والمنافسين له من الزيدية<sup>(١)</sup>.  
انتعشت آمال الإمام مرة ثانية بعد وفاة الأتابك سنقر سنة (٦٠٨هـ/  
١٢١٠م)، ثم مقتل الملك الناصر أيوب سنة (٦١١هـ/ ١٢١٤م) والفوضى  
التي تلت مقتله، غير أن حملة الملك المسعود يوسف بن الكامل الأيوبي  
غيرت موازين القوى فاضطر الإمام إلى التقهقر والانسحاب من صنعاء أمام  
قوات الأيوبيين، ولكن الأجل لم يمهله ليكمل ما بدأه إذ توفي في كوكبان  
سنة (٦١٤هـ/ ١٢١٧م)<sup>(٢)</sup>.

وقد خلف الإمام المنصور عددًا من الأولاد، ولكن لم يبلغ أي منهم  
مرتبة الإمامة، فدعا الأمير عز الدين محمد بن المنصور لنفسه محتسبًا بعد  
أبيه، ولكن التنافس الذي تفاقم بين الأشراف بعد وفاة الإمام، وكذلك قوة  
الأيوبيين في اليمن ورجال دولتهم من بني رسول؛ جعلت من العسير على  
الأمير عز الدين مواصلة مسيرة والده إذ فشل في الاستيلاء على صنعاء، مما  
اضطره لعقد صلح مع المسعود الأيوبي<sup>(٣)</sup>.

حظي أبناء المنصور وإخوته وأبناؤهم بمكانة ونفوذ كبيرين بين الزيدية،  
وعلى الرغم من عدم تمكنهم من الفوز بالإمامة لأنفسهم فإن رغبتهم في  
التمسك بذلك النفوذ الذي ورثه لهم الإمام المنصور جعلهم يقفون موقفًا  
معاديًا من كل من تسول له نفسه الدعوة لنفسه إمامًا ما لم يكن متفقًا معهم

(١) ابن دعثم: المصدر السابق، ج ٣/ ص ٩٢٥-٩٦١؛ زيد: تيارات، ص ١٩٠-١٩٢.

(٢) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص ٨١-٨٣؛ الكبسي: المصدر السابق، ص ١١٦-١٢٢.

(٣) ابن عبدالمجيد: المصدر نفسه، ص ٨٣؛ يحيى بن الحسين: غاية الأمانى، ج ١/ ص ٤٠٩.

ومراعياً مصالحهم، فلما قام أحد ذرية الإمام الهادي ويدعى يحيى بن محسن بن محفوظ داعياً لنفسه بالإمامة سنة (٦١٤هـ / ١٢١٧م) وتلقب بـ(المعتضد بالله)، شن الأشراف أبناء المنصور حرباً ضده لم تهدأ بموت عز الدين محمد بن المنصور سنة (٦٢٤هـ / ١٢٢٧م)<sup>(١)</sup>، فقد كان أخوه شمس الدين (المتوكل على الله) أشد على الإمام (المعتضد بالله) يحيى بن محسن من أخيه، ولما عرف الإمام المعتضد ضعف جانبه خلد إلى السكون واعتزل الناس إلى أن توفي سنة (٦٣٦هـ / ١٢٣٨م)<sup>(٢)</sup>.

عقد السلطان المنصور نور الدين عمر بن رسول مؤسس الدولة الرسولية صلحاً مع الأشراف في سنة (٦٢٨هـ / ١٢٣٠م) حتى يتسنى له ترتيب شؤون دولته الجديدة، ولم يعكر صفو الصلح إلا محاولة الأمير تاج الدين محمد بن يحيى بن حمزة الاستيلاء على بعض الحصون التابعة للسلطان في سنة (٦٣٤هـ / ١٢٣٦م)، الأمر الذي أثار غضب السلطان المنصور، فشن عليهم هجوماً جعلهم يعيدون الحصون ويجددون الصلح معه<sup>(٣)</sup>.

وفي سنة (٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) ظهرت دعوة الإمام أحمد بن الحسين بن القاسم بن عبدالله بن القاسم، وفي العام التالي قتل السلطان المنصور نور الدين عمر، وشغل ابنه المظفر بالحرب ضد أبناء عمومته وإخوته، والقضاء

(١) الخزرجي: العسجد، ص ١٨٤ - ١٨٥؛ الكسي: المصدر السابق، ص ١٢٥.

(٢) الواسعي: فرجة الهموم والحزن، ص ١٩٨؛ الحداد: التاريخ العام، مج ٢/ ص ٤٤٦ - ٤٤٧.

(٣) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص ٨٥؛ الخزرجي (أبو الحسن علي بن الحسن): العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تصحيح: محمد بسيوني عسل، دار صادر - بيروت، د.ط - د.ت، ج ١/ ص ٥٨ - ٦١؛ ابن الديبع: قررة العيون، ص ٣٠١، ٣٠٣ - ٣٠٦.

على الاضطرابات التي تلت مقتل أبيه، مما أتاح للإمام أحمد بن الحسين (الملقب بالمهدي لدين الله) فرصة مد نفوذه وسيطرته على المناطق التابعة للسلطان المظفر، وسانده في البداية الأشراف الحمزات والأمير أسد الدين محمد بن الحسن بن علي بن رسول نائب السلطان المظفر على صنعاء، فتمكن من السيطرة على كثير من المناطق التي سيطر عليها الإمام عبدالله بن حمزة من قبل، وقد تمكن السلطان المظفر من فض ذلك التحالف باستمالة الأمير أسد الدين إلى صفه وإرضائه، وبذل الأموال للأشراف الحمزات الذين انقلبوا على الإمام المهدي أحمد بن الحسين وشنوا حرباً عليه، إلا أنه استمر في حربه ضد بني رسول ومن والاهم، وكانت الحرب بينهم سجالاً، تخللتها معاهدات للصلح أفاد منها الجانبان<sup>(١)</sup>.

وفي عام (٦٥١هـ / ١٢٥٣م) تفاقم الخلاف بين الإمام المهدي أحمد بن الحسين وبعض مؤيديه، واندلعت بسبب ذلك حرب بين الزيدية فانضم الأشراف الحمزات إلى معارضي الإمام، ودعمهم السلطان المظفر بالمال والعتاد حتى قتل الإمام المهدي سنة (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) بعد أن انفض عنه رجاله<sup>(٢)</sup>.

بعد مقتل الإمام المهدي أحس الأمير داود بن الإمام المنصور - بعد فوات الأوان - بخطورة السلطان المظفر على نفوذ الأشراف الحمزات، فحاول التصدي له عبر دعم بعض من دعا لنفسه من الزيدية، إلا أن سياسته المتقلبة كانت سبباً في إفشال كل محاولة جادة في هذا الشأن، فقد دعا

(١) ابن عبدالمجيد: المصدر السابق، ص ٨٧-٩١؛ الخزرجي: العسجد، ص ٢٠٣-٢٠٧، ٢١١-٢١٧، ٢٢٤.

(٢) ابن عبدالمجيد: المصدر نفسه، ص ٩١؛ الخزرجي: العقود، ج ١/ ص ١٢٤؛ الواسعي: فرجة الهموم، ص ٢٠٣.

لنفسه الشريف الحسن بن وهاس في حياة الإمام المهدي، ولكن الأشراف الحمزات انقلبوا ضده رغم اعترافه بمناطق نفوذهم، فأسر وحبس عندهم ليظهروا ولاءهم للسلطان المظفر<sup>(١)</sup>.

وفي سنة (٦٥٩هـ / ١٢٦١م) دعا يحيى بن محمد بن أحمد المعروف بالسراجي لنفسه بالإمامة، ولكنه وقع بيد نائب المظفر على صنعاء الذي سمل عينه<sup>(٢)</sup>، كما قام المنصور بالله الحسن بن بدر الدين داعياً لنفسه عام (٦٦١هـ / ١٢٦٣م)، ولكنه لم يتمكن من تحقيق شيء يذكر بسبب تخاذل بقية الأشراف عن نصرته إلى أن توفي سنة (٦٧٠هـ / ١٢٧٢م)<sup>(٣)</sup>، فخلفه ابن أخيه الإمام المهدي لدين الله إبراهيم بن تاج الدين أحمد بن بدر الدين، الذي قامت بينه وبين السلطان المظفر حروب انتهت بأسره سنة (٦٧٤هـ / ١٢٧٦م) وحبسه في تعز حتى توفي سنة (٦٨٣هـ / ١٢٨٥م)<sup>(٤)</sup>، فقام بعده سنة (٦٧٦هـ / ١٢٧٨م) الإمام المتوكل على الله المطهر بن يحيى بن المرتضى بن المطهر بن القاسم، وسانده الزيدية كافة ما عدا الأشراف الحمزات بزعامة الأمير داود بن المنصور الذين عقدوا صلحاً مع السلطان المظفر، على الرغم من أنهم هم من دعوا الإمام المطهر بن يحيى إلى الخروج والدعوة لنفسه، وقد شهدت مدة إمامته حروباً طاحنة ضد السلطان

(١) الخزرجي: العسجد، ص ٢٣٢-٢٣٥؛ العقود، ج ١/ ص ١٣٦-١٣٧؛ الكبسي: اللطائف، ص ١٤٠.

(٢) الخزرجي: العسجد، ص ٢٣٩؛ الكبسي: المصدر نفسه، ص ١٤٠-١٤١، ٢٠٣.

(٣) يحيى بن الحسين: غاية الأمان، ج ١/ ص ٤٥٦؛ الواسعي: المصدر السابق، ص ٢٠٣.

(٤) الخزرجي: العقود، ج ١/ ص ١٨٠، ١٨٣-١٨٥؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص ٣٢٨.

المظفر وأبنائه من بعده حتى وفاته سنة (٦٩٧هـ / ١٢٩٩م)<sup>(١)</sup>، وقد خلفه ولده الإمام المهدي لدين الله محمد بن المطهر الذي واصل مسيرة والده حتى توفي بذي مرمر سنة (٧٢٨هـ / ١٣٣٠م)<sup>(٢)</sup>.

وهكذا استمرت الإمامة الزيدية في اليمن تكافح في سبيل إقامة دولة لهم طوال القرنين السادس والسابع الهجريين، ولكن نظراً لعدم توحيد جهودهم فضلاً عن شدة بأس خصومهم اضطروا إلى الانكفاء على أنفسهم في مناطق نفوذهم التي كانت تتوسع وتنكمش بين الحين والآخر.

## ٢- الإسماعيلية:

كان للدعوة الإسماعيلية في اليمن حضور قوي منذ النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، حين تمكن دعائهم الأوائل من التأثير في كثير من الناس واستمالتهم، وكادوا ينجحون في تكوين قاعدة قوية للإسماعيلية في اليمن لولا تطرف علي بن الفضل وغلوه الذي ظهر في سياسته ودعوته، مما أتاح الفرصة لتحالف (الزيديين - اليعفرين - الزياديين) للانقضاض عليه والإجهاز على دولته<sup>(٣)</sup>.

(١) الخزرجي: العسجد، ص ٢٥١، ٢٨٦؛ يحيى بن الحسين: غاية الأمانى، ج ١/ ص ٤٧٩؛ الكسي: اللطائف، ص ١٤٤ - ١٤٥.

(٢) الكسي: اللطائف، ص ١٤٨ - ١٥٠؛ الواسعي: فرجة الهموم، ص ٢٠٥.

(٣) تمكن علي بن الفضل الخنفري (القرمطي) أحد أبرز دعاة الإسماعيلية في اليمن من إقامة دولة الإسماعيلية الأولى في اليمن سنة (٢٩٩هـ / ٩٠٢م)، واجتاحت قواته صنعاء وزبيد، واتخذت من المذيخرة عاصمة له، وقد أظهر من التطرف والغلو في مذهبهم أشياء سببت حرجاً للفاطميين أنفسهم مما تسبب في انفضاض كثير من الناس عنه، وتمكنت القوى المتحالفة ضده من اغتياله سنة (٣٠٣هـ / ٩١٥هـ)، ومن ثم إسقاط دولته سنة (٣٠٤هـ / ٩١٦م)؛ انظر: ابن أبي القبائل (أبو عبدالله محمد بن =

ومنذ ذلك الحين اتخذ دعاة الإسماعيلية في اليمن أسلوب التقية والدعوة السرية، منتظرين توفر الظروف المناسبة لبيدؤوا تحركهم.

أ- الدولة الصليحية (٤٣٩هـ / ١٠٤٧م - ٥٥٨هـ / ١١٦٢م)

مع مطلع القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي تولى أمر الدعوة في اليمن علي بن محمد الصليحي، الذي وجد أن الظروف السياسية في اليمن قد صارت مواتية ليعمل على نقل الدعوة الفاطمية في اليمن من طور السر إلى طور العلن، وفي غضون بضع سنوات تمكن من إقامة الدولة الصليحية بعد حروب دموية خاضها ضد خصومه على الجبهات كافة، وحصل على تفويض المستنصر الفاطمي بحكم اليمن وما يتبعها<sup>(١)</sup>، واستمرت الدولة الصليحية مسيطرة على معظم أجزاء اليمن، بل امتد سلطانها إلى الحجاز<sup>(٢)</sup>، إلا أنه بعد وفاة المكرم أحمد بن علي الصليحي سنة (٤٨٤هـ / ١٠٩١م) واجهت الدولة الصليحية معضلة كبرى وهي عدم وجود رجل يتولى الحكم من ذرية علي بن محمد الصليحي، ولذلك قامت زوج المكرم السيدة بنت أحمد بتولي إدارة شؤون الدولة خلال مرض زوجها ومن بعده وصية على أبنائه - الذين توفوا فيما بعد صغارًا - إلى

= (مالك): كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، تح: محمد بن علي الاكوع، مركز الدراسات والبحوث اليمني - صنعاء، ط ١- ١٩٩٤م، ص ٩٤- ١١٥؛ عمارة: المفيد، ص ٥٩- ٦٠؛ الشجاع: تاريخ اليمن في الإسلام، ص ١٦٤- ١٧٣.

(١) ابن أبي القبايل: كشف أسرار الباطنية، ص ١١٦- ١٢٥؛ الجندي (أبو عبدالله محمد بن يوسف بن يعقوب): السلوك في طبقات العلماء والملوك، تح: محمد بن علي الاكوع، مكتبة الإرشاد - صنعاء، ط ٢- ١٩٩٥م، ج ٢/ ص ٤٨٥- ٤٨٦.

(٢) الجندي: المصدر نفسه، ج ٢/ ص ٤٨٥- ٤٨٧؛ ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص ٥٤- ٥٥؛ الخزرجي: العسجد، ص ٥٦- ٥٨.

وفاتها سنة (٥٣٢هـ / ١١٣٨م)<sup>(١)</sup>.

وقد استطاعت هذه السيدة بما امتازت به من قوة الشخصية ورجاحة العقل وحسن التدبير، أن تحفظ للصليحيين ملكهم، مستعينة بعدد من الرجال لأجل إدارة الدولة والذود عنها، من أمثال: الأمير أبي حمير سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحي الذي خاض عددًا من المعارك ضد النجاشيين في تهامة حتى توفي سنة (٤٩٢هـ / ١٠٩٩م)<sup>(٢)</sup>، وأما ابنه شمس المعالي علي بن سبأ فقد حاول أن يحل محل أبيه إلا أن مدبر دولة السيدة المفضل بن أبي البركات بن الوليد الحميري دس عليه من قتله بالسم سنة (٤٩٥هـ / ١١٠٢م)، وقد تمكن المفضل من ضبط شؤون الدولة وإعادة سيطرتها على بني زريع في عدن الذين قطعوا الخراج عن السيدة، فقاد حملة ضدهم حتى اتفق الجانبان على أن يؤدي بنو زريع لها نصف ما كانوا يؤديونه<sup>(٣)</sup>.

كما أنه استغل الصراع الذي دب بين أولاد الفاتك بن جياش في زبيد، فانضم إلى جانب المنصور بن فاتك في صراعه ضد أعمامه، وقاد جيشه إلى زبيد وقد عقد العزم على الغدر به بعد القضاء على خصومه، إلا أن ثورة قادها العلماء وتمكنوا خلالها من الاستيلاء على حصن التعكر جعلته يترك زبيد مسرعًا، حيث ضرب الحصار على الثوار، ولكنه انهار أمام ضياع هيئته

(١) عمارة: المفيد، ص ١١٣ - ١١٤، ١٤٧؛ ابن فيض الله (حسين بن فيض الله الهمداني): الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء، د.ط - ٢٠٠٤م، ص ١٥٦.

(٢) الجندي: المصدر السابق، ج ٢ / ص ٤٩٢؛ الخزرجي: المسجد، ص ٦٥، ٦٧؛ ابن فيض الله: المرجع نفسه، ص ١٦٣.

(٣) الجندي: المصدر نفسه، ج ٢ / ص ٤٩٣؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص ٢١٨.

فتجرع سماً في فص خاتمه ومات سنة (٥٠٤هـ / ١١٠٩م)<sup>(١)</sup>.

بعد موت المفضل أقامت السيدة مكانه ابن عمه الأمير أسعد بن أبي الفتوح، فقام بواجبه أحسن قيام إلى أن غدر به رجلان من أصحابه فقتلاه سنة (٥٢٤هـ / ١١٣٠م)<sup>(٢)</sup>، وكانت السيدة قد أرسلت إلى القاهرة تطلب منهم إرسال من يروونه مناسباً ليكون مستشاراً لها في أمور الحرب والدعوة، فأرسلوا إليها في سنة (٥١٣هـ / ١١٢٠م) الأمير الموفق علي بن إبراهيم بن نجيب الدولة بصحبة عشرين فارساً إلى اليمن، فأقام معها في ذي جبلة إلى أن قتل الأمير أسعد، فقدمت ابن نجيب الدولة وجعلته مدبر مملكتها، وكانت ترمي من وراء ذلك إلى اكتساب المزيد من الدعم من الفاطميين<sup>(٣)</sup>.

قاد ابن نجيب الدولة في سنة (٥١٨هـ / ١١٢٤م) هجوماً على النجاشيين في زبيد، إلا أنه هزم هزيمة نكراء، ومن جهة أخرى ساءت علاقة ابن نجيب الدولة بالسيدة، حيث حاول أن يحجر عليها، إلا أنها حرّضت القبائل على محاصرته في الجند حتى جعلته يعود إلى طاعتها، الأمر الذي لم يرض خصومه، حيث عملوا على الدس عليه عند الخليفة الأمر بتهمة الدعوة للنزارية<sup>(٤)</sup>، فأرسل إليه أميراً برفقة مائة فارس قبضوا

(١) عمارة: المفيد، ص ١٢٨ - ١٢٩؛ ابن عبدالمجيد: المصدر السابق، ص ٦١.

(٢) الجندي: المصدر السابق، ج ٢ / ص ٤٩٨؛ الكسي: اللطائف، ص ٨٣.

(٣) الجندي: السلوك، ج ٢ / ص ٤٩٨؛ الخزرجي: المسجد، ص ٦٨-٦٩.

(٤) النزارية: نسبة إلى نزار بن المستنصر الفاطمي الذي قتله الوزير الأفضل بن بدر الجمالي وجعل أخاه المستعلي خليفة بدلاً منه، الأمر الذي أحدث شرخاً خطيراً في الدعوة الفاطمية، حيث انحازت طائفة وعلى رأسها الحسن بن الصباح إلى نزار ودعوا له إماماً مستوراً، وتطورت المعارضة إلى العمل المسلح باغتيال الأمر بأحكام الله، مما جعل الخلفاء الفاطميين يتعقبون النزارية ودعاتها في كل مكان؛ انظر: العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ٣٠٦؛ ابن فيض الله: الصليحيون، ص ١٧٢-١٧٣.

عليه وأغرقوه عند باب المنذب رغم المواثيق التي أعطوها للسيدة وذلك في سنة (٥٢٤هـ / ١١٣٠م)<sup>(١)</sup>، بعد مقتل الأمر بأحكام الله حدث تغير كبير في علاقة الصليحيين بالفاطميين، حيث آلت الخلافة إلى الحافظ لدين الله (٥٢٤هـ / ١١٣٠م - ٥٤٤هـ / ١١٤٩م) على الرغم من أن زوجة الأمر كانت قد أنجبت له طفلاً أسماه الطيب يعد في المذهب الاسماعيلي هو الوريث الشرعي للخلافة، فلم تعترف السيدة بخلافة الحافظ، بل وضعت كل إمكاناتها في سبيل نصرة الإمام المستور الطيب<sup>(٢)</sup>.

أخذت الدولة الصليحية تسير نحو التفكك في ظل غياب رجال حازمين تستعين بهم السيدة في تدبير ملكها، حيث صار ولاية الأقاليم (السلطين) يعملون على الانفصال والاستقلال الفعلي عن الدولة الصليحية، وبوفاة السيدة سنة (٥٣٢هـ / ١١٣٨م) انتقل ما كان تحت يدها من ممتلكات الصليحيين من مدن وحصون إلى المنصور بن المفضل بن أبي البركات، فلما كبر وضعف مال إلى الدعة والسكون، فباع إلى الداعي محمد بن سبأ الزريعي أكثر من ٢٨ معقلاً ما بين حصن ومدينة منها إب وذي جبلة بمائة ألف دينار سنة (٥٤٦هـ / ١١٥١م)، وخلفه ابنه أحمد الذي قام مقامه إلى سنة (٥٥٨هـ / ١١٦٣م)، فباع إلى بني مهدي ما بقي من الحصون<sup>(٣)</sup>.

(١) الجندي: المصدر السابق، ج ٢ / ص ٤٩٩؛ ابن عبدالمجيد: المصدر السابق، ص ٦٢.

(٢) السروري (محمد عبده): الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن، وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء، د.ط - ٢٠٠٤م، ص ١٦٣ - ١٦٤؛ ابن فيض الله: المرجع السابق، ص ١٩٢ - ١٩٣.

(٣) عمارة: المفيد، ص ١٥٠ - ١٥١؛ الخزرجي: العسجد، ص ٧١؛ ابن الديبع: قرعة العيون، ص ٢٠٢.

ومع تدهور أوضاع الدولة الصليحية قامت في المقابل قوتان رئيسيتان وقع عليهما عبء حماية الممتلكات الإسماعيلية في اليمن هما: بنو حاتم و بنو زريع الهمدانيون؛ استقرت الأولى في صنعاء وما يتبعها، والثانية في عدن ونواحيها وإليها انتقل أمر الدعوة الفاطمية الحافظية بعد انشقاق الصليحيين بدعوتهم للإمام المستور الطيب بن الأمر بأحكام الله.

### ب- دولة بني حاتم (٤٩٢هـ / ١٠٩٩م - ٥٨٦هـ / ١١٨٩م)

بعد وفاة الداعي سبأ بن أحمد الصليحي تغلب على صنعاء وأعمالها السلطان حاتم بن الغشم المغلسي الهمداني، الذي تمتع بصفات قيادية عالية (ت ٥٠٢هـ / ١١٠٨م)، فخلفه ابنه عبدالله الذي قتل مسموماً بعد سنتين، فولى الأمر بعده أخوه معن الذي لم يكن بمستوى أبيه وأخيه في إدارة البلاد، فحصلت اضطرابات جعلت كبار شيوخ همدان وبمشورة قاضيها أحمد بن عمران يعزلون معنًا في سنة (٥٠٥هـ / ١١١١م) ويولون هشامًا وحماسًا ابني القبيب، وحوصر معن في صنعاء حتى خرج بأمان القاضي إلى حصن براش<sup>(١)</sup>.

استقام أمر همدان بتولي أبناء القبيب الإمارة، إلا أن الخلافات عادت من جديد بين خلفائهم، فلما كانت سنة (٥٣٣هـ / ١١٣٨م) اجتمعت همدان على تولية أمرها القاضي حاتم بن أحمد بن عمران بن المفضل اليامي الهمداني، فتولى الأمر في كفاءة وحزم<sup>(٢)</sup>، وفي أيامه تزايد نفوذ الأشراف

(١) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص ٦٤؛ الخزرجي: العسجد، ص ٧١-٧٣؛ الكيسي: اللطائف، ص ٨٢-٨٣.

(٢) ابن عبدالمجيد: المصدر نفسه، ص ٦٥؛ الكيسي: المصدر نفسه، ص ٨٣-٨٤، ٨٦.

الهادويين بظهور الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان، الذي أخذ نفوذه في التوسع حتى اصطدم بالسلطان حاتم فهزم السلطان ودخل الإمام صنعاء، إلا أن تقلب ولاء القبائل جعل كفة السلطان حاتم ترجح من جديد بعد بذله الأموال بسخاء، فاسترد صنعاء وعدداً من الحصون، ثم توفي سنة (٥٥٦هـ/ ١١٦١م)<sup>(١)</sup>، فخلفه ابنه علي بن حاتم الذي واصل الحرب ضد الأشراف؛ إلا أنه غير سياسته عندما عمل على فك أسر الإمام المتوكل، بل إنه وقف معه في حربه ضد خصومه، كذلك انضم إلى الحلف الذي دعا إليه بنو زريع ضد عبد النبي بن علي بن مهدي والذي تمكن من رده عما بقي من ممتلكات الإسماعيلية<sup>(٢)</sup>.

استمر بنو حاتم في رئاستهم همدان رغم محاولات التمرد عليهم في صنعاء وغيرها، حتى قدم الأيوبيون إلى اليمن، فواجهوا مشقة في حرب بني حاتم وإخضاع حصونهم المنيعة، فاضطر الجانبان إلى إبرام بعض المعاهدات التي تحدد العلاقة بين الجانبين، إلى أن تمكن طغتكين بن أيوب - بعد جهد كبير- من إبرام معاهدة مع السلطان علي بن حاتم تنص على حفظ مكانتهم ونفوذهم في المنطقة من دون أن يكون لهم أي سلطان سياسي، بل تكون السيادة للأيوبيين، وكانت هذه المعاهدة هي الأساس الذي بنيت عليه علاقة الأمراء من بني حاتم - في المرحلة التالية - مع القوى الرئيسة في اليمن، حيث عملوا دوماً على التوسط بالصلح بين

(١) الخزرجي: العسجد، ص ٧٤- ٨٠؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص ٢٠٥- ٢١٢.

(٢) ابن عبدالمجيد: المصدرالسابق، ص ٦٥؛ الخزرجي: العسجد، ص ٨٠- ٨٣،

الأيوبيين والرسوليين من بعدهم، وبين الزيدية<sup>(١)</sup>.

### ج- دولة بني زريع (٥٣٢هـ / ١٠٧٨م - ٥٦٩هـ / ١١٧٣م)

بعدها تمكن علي بن محمد الصليحي من السيطرة على مدينة عدن التي كانت تحت حكم بني معن تركهم عليها مقابل خراج سنوي معلوم، ولكن بقتل الصليحي قطع بنو معن الخراج المستوجب عليهم، فحاربهم المكرم أحمد بن علي الصليحي حتى طردهم من عدن، وأقام مكانهم العباس ومسعودًا ابني المكرم الهمداني، وكانت له سابقة في نصره الصليحي، وقسمت المدينة بينهما على أن يتقاسما دفع الخراج المحدد<sup>(٢)</sup>.

ظل بنو المكرم موالين للصليحيين بالمال والجند، فشاركوا في حملة المفضل على زبيد التي قتل فيها زريع بن العباس وعمه مسعود، ولكن مع تدهور أوضاع الدولة الصليحية بعد وفاة المكرم، أخذ بنو المكرم يعملون تدريجيًا على الاستقلال عن الصليحيين، فحاربهم المفضل حتى اتفق الجانبان على دفع نصف الخراج السابق، كما حاربهم أسعد بن أبي الفتوح فيما بعد وصالحهم على أن يدفعوا الربع<sup>(٣)</sup>.

وأما من ناحية أولاد زريع ومسعود فلم يسيروا بروح التعاون نفسه الذي سار عليه آباؤهم، إذ سرعان ما نشبت حرب أهلية بين علي بن أبي الغارات

(١) ابن حاتم (بدر الدين محمد بن حاتم الياامي): السمط الغالي في أخبار الملوك من الغز باليمن، تح: ركس سمث، لندن، د.ط - ١٩٧٦م، ص ٧٠، ٩٨، ١٠١ - ١٠٣؛ الكبسي: المصدر السابق، ص ١٣٢.

(٢) عمارة: المفيد، ص ١٤٠ - ١٤١؛ الجندي: السلوك، ج ٢/ ص ٥٠١.

(٣) عمارة: المصدر نفسه، ص ١٤١؛ الخزرجي: العسجد، ص ٨٤.

بن مسعود المتولي أمر البحر والمراكب وبين سبأ بن أبي السعود بن زريع المتولي بر عدن وما أحاط بها من حصون، وقد عرفت تلك الحرب بفتنة (الرعارع) دامت سنتين (٥٣٠هـ / ١١٣٦م - ٥٣٢هـ / ١١٣٨م)، أظهر خلالها سبأ بن أبي السعود كياسة ومرونة سياسية وعسكرية، فتمكن من كسب الرجال والتجار إلى جانبه حتى تم له النصر سنة (٥٣٢هـ / ١١٣٨م)، وصفت له عدن وما يتبعها، وفي الوقت نفسه استطاع كسب ثقة الفاطميين ودعمهم، فأقامه الحافظ داعياً له، بعد أن انشقت السيدة بنت أحمد الصليحي عنهم بدعوتها للطيب بن الأمر، إلا أن سبأ لم ينعم بانتصاره، إذ توفي سنة (٥٣٣هـ / ١١٣٨م) بعد انتصاره بسبعة أشهر<sup>(١)</sup>.

خلف الداعي سبأ ولده الأعز علي الذي مات بمرض السل سنة (٥٣٥هـ / ١١٣٤٠م)، فأقام وزيرهم ورجل دولتهم بلال بن جرير أخاه محمد بن سبأ الذي تزامنت توليته مع وصول سجل الحافظ بالتقليد بأمر الدعوة لأخيه، فأقام محمد بن سبأ داعياً، الذي تمكن من توسيع رقعة دولته حتى ضم إليه معظم ممتلكات الصليحيين ومنها ذي جبلة، وتوفي سنة (٥٤٨هـ / ١١٥٣م)<sup>(٢)</sup>، فتولى الداعي عمران بن محمد بن سبأ الأمر بعد أبيه، وتعرضت دولتهم إلى هجوم بني مهدي الذين انتزعوا منهم معظم المدن والحصون حتى لم يبق لبني زريع سوى عدن والدملوة<sup>(٣)</sup>، فصالح

(١) الخزرجي: المصدر السابق، ص ٨٤-٨٧؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص ٢١٨-

(٢) عمارة: المفيد، ص ١٤٧-١٥٢؛ الجندي: المصدر السابق، ج ٢/ ص ٥٠٢-٥٠٣.

(٣) الدملوة: قلعة منيعة من أمنع قلاع اليمن، تقع فوق قرية المنصورة من جبل الصلو (٦٠ ميلاً جنوب شرق مدينة تعز)، انظر: المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية،

الداعي عمران بن مهدي عنهما بخراج معلوم<sup>(١)</sup>.

توفي الداعي عمران سنة (٥٦٠هـ / ١١٦٥م)، وخلف ذرية صغاراً تولى الوصاية عليهم جوهر المعظمي أحد مواليه، وأما تدبير أمر الدولة فتولاه ياسر بن بلال بن جرير، فطمع عبد النبي بن علي بن مهدي في عدن، وشن هجوماً عليهم، الأمر الذي دعا ياسر إلى الاستنجاد ببني حاتم، وتمكن هذا التحالف من كسر بني مهدي، ولكن بني زريع لم ينعموا بذلك الانتصار طويلاً؛ إذ سرعان ما وصل الأيوبيون إلى اليمن، فقضوا على دولتهم سنة (٥٦٩هـ / ١١٧٣م)<sup>(٢)</sup>.

### ٣- دولة بني نجاح (٤١٢هـ / ١٠٢١م - ٥٥٤هـ / ١١٥٩م)

في سنة (٤١٢هـ / ١٠٢١م) تمكن نجاح أحد عبيد بني زياد وأبرز قائد عسكري في دولتهم من تحقيق النصر على منافسيه من عبيد القصر؛ بعد حرب أهلية دامت أكثر من خمس سنوات نشبت إثر مقتل آخر أمراء بني زياد، فاستقامت أمور زييد وتهامة وما يتبعها من معاقل وحصون تحت حكم نجاح، الذي بقي مرهوب الجانب حتى مات مسموماً على يد جارية أهداها له علي بن محمد الصليحي سنة (٤٥٢هـ / ١٠٦٠م)<sup>(٣)</sup>.

وكان قتل نجاح بداية سلسلة من الصراع بين بني نجاح والصليحيين الذين سيطروا على زييد وما يتبعها، فاشتعلت بينهم حرب الثأر التي قتل

(١) الجندي: المصدر السابق، ج ٢/ ص ٥٠٤ - ٥٠٥، ٥١٨؛ ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص ٦٤، ٧٤.

(٢) عمارة: المفيد، ص ١٥٣؛ الخزرجي: العسجد، ص ٩٥ - ٩٦، ١٣٨ - ١٤١.

(٣) عمارة: المصدر نفسه، ص ٩٨؛ الجندي: السلوك، ج ٢/ ص ٤٨٢، ٤٨٤ - ٤٨٦.

فيها علي بن محمد الصليحي ثم سعيد الأحول بن نجاح، وزبيد تارة بيد الصليحيين وأخرى مع النجاشيين إلى سنة (٤٨٢هـ / ١٠٨٩م) حين تمكن جيش بن نجاح (ت ٤٩٨هـ / ١١٠٥م) من استرجاع ملك أبيه<sup>(١)</sup>، وتعاقت ذريته على حكم زبيد وما يتبعها إلى سقوط دولتهم سنة (٥٥٤هـ / ١١٥٩م)، وهم: الفاتك بن جيش (ت ٥٠٣هـ / ١١١٠م)، وخلفه طفل له يدعى المنصور، إلا أن أعمامه نازعوه السلطان، فلجأ إلى الصليحيين الذين ساندوه حتى استرد حكمه، وكادوا ينقلبون عليه لولا انشغالهم بمشاكلهم الداخلية، وقد انفرد المنصور بالحكم إلى أن قتل مسموماً سنة (٥١٨هـ / ١١٢٤م)، فخلفه ابنه الطفل فاتك حتى سنة (٥٣١هـ / ١١٣٦م) حيث قتل هو الآخر مسموماً، وانتقلت الإمارة إلى ابن عمه الفاتك بن محمد بن فاتك الذي قتله عبيده سنة (٥٣٣هـ / ١١٥٨م)<sup>(٢)</sup>.

ومن ناحية أخرى فإن تولي أمراء صغار السن مقاليد الحكم جعل نفوذ وزرائهم قوياً وسلطتهم نافذة على جميع مرافق الدولة، وقد تمكن هؤلاء الوزراء من الذود عن ملك مواليهم ضد أطماع الصليحيين الذين هاجموا زبيد سنة (٥٠٤هـ / ١١١١م) وسنة (٥١٨هـ / ١١٢٤م)، إلا أن تعاظم نفوذ هؤلاء الوزراء جعلهم يعملون على التخلص من الأمراء الأقوياء، في حين سعى بعض الأمراء النجاشيين إلى التخلص من وزرائهم، فبدأت سلسلة من المؤامرات مات خلالها بعض أمراء بني نجاح إما مسمومين أو مقتولين،

(١) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص ٥٦-٥٨، ٦٥-٦٦؛ ابن الديبع (عبدالرحمن بن علي): الفضل المزيّد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، تح: يوسف شلحد، مركز الدراسات والبحوث اليمني- صنعاء، د. ط - ١٩٨٣م، ص ٥٦-٦٣.

(٢) عمارة: المفيد، ص ١٦٦-١٦٧؛ الجندي: المصدر السابق، ج ٢/ ص ٥٠٨-٥١٥.

كما قتل كذلك بعض وزرائهم<sup>(١)</sup>.

امتد سلطان النجاشيين على زبيد وتهامة، وهاجمت قواتهم بني زريع في عدن، وكانوا الوحيدين من بين القوى السياسية في اليمن آنذاك الذين أقاموا الخطبة للخلافة العباسية<sup>(٢)</sup>، إلا أن الأوضاع بدأت بالتردي إثر نشوب حروب بين الوزراء وبعض القادة العسكريين المنافسين لهم، مثل الحرب بين الوزير زريق الفاتكي والقائد مفلح الذي تنازل له زريق عن الوزارة رغم هزيمة مفلح في الحرب<sup>(٣)</sup>.

كما قامت حرب بين الوزير مفلح والقائد سرور، هزم فيها مفلح وتولى إقبال الفاتكي الوزارة، فتمركز مفلح في شمال تهامة واستولى على بعض الحصون المطلة على تهامة، وأخذ يشن الغارات على سرور وإقبال إلى أن توفي سنة (٥٢٩هـ / ١١٣٢م)<sup>(٤)</sup>.

انتهت الاضطرابات بتولي القائد سرور الفاتكي الوزارة سنة (٥٣١هـ / ١١٣٧م)، حيث تمكن من ضبط البلاد وإعادة سيادة النجاشيين على الأراضي التابعة لهم كافة، وازدهرت في أيامه الحياة العلمية في زبيد نظراً لاهتمامه الكبير بالعلم والعلماء، وكان حزمه وصرامته في تولي الأمور وقمع الفتن سبباً في تجنب الدولة النجاشية كثيراً من الفتن والحروب، ومنها

(١) عمارة: المفيد، ص ١٦٨ - ١٦٩؛ الجندي: السلوك، ج ٢/ ص ٤٩٧، ٥٠٨ -

٥٠٩؛ ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص ٦٧ - ٦٩.

(٢) الجندي: المصدر نفسه، ج ٢/ ص ٤٨٥، ٥٠٨؛ ابن الديبع: الفضل المزيدي، ص ٦٥.

(٣) عمارة: المفيد، ص ١٧٠، ١٧٢ - ١٧٣؛ الخزرجي: العسجد، ص ١١٨.

(٤) ابن عبدالمجيد: المصدر السابق، ص ٧٠ - ٧١؛ ابن الديبع: الفضل المزيدي،

حركة علي بن مهدي التي قمعت بشدة سنة (٥٣٨هـ / ١١٤٣م)، الأمر الذي جعل الأخير يرى ضرورة التخلص من سرور الفاتكي، حيث تكمن أحد رجال علي بن مهدي من اغتياله في مسجده سنة (٥٥١هـ / ١١٥٦م)<sup>(١)</sup>.

بعد مقتل الوزير سرور دب النزاع بين رجال الدولة حول من يحل مكانه، مما أتاح لعلي بن مهدي فرصة شن حرب استنزاف على النجاشيين، الذين صاروا أضعف من أن يتصدوا له وهم مختلفون، فاستنجدوا بالإمام المتوكل - كما بينا سابقاً - ولكنه اشترط عليهم قتل أميرهم فاتك فقتلوه، وعندما عجز الإمام عن التصدي لعلي بن مهدي انسحب إلى بلاده، تاركاً النجاشيين وحدهم وقد أرهقتهم حرب الاستنزاف التي شنّها عليهم علي بن مهدي، فضلاً عن الحصار المضروب على زبيد، فتمكن ابن مهدي من دخول زبيد سنة (٥٥٤هـ / ١١٥٩م) منهياً حكم بني نجاح<sup>(٢)</sup>.

#### ٤ - دولة بني مهدي (٥٥٤هـ / ١١٥٩م - ٥٦٩هـ / ١١٧٤م)

شكل بنو نجاح وعبيدهم نخبة عسكرية تحكم المنطقة، مما أثار سخط كثير من العامة الذين أخذت أوضاعهم المعيشية في التردّي في ظلّ الفتن التي شهدتها المنطقة، ومن قرية العنبرة - من قرى وادي زبيد - ظهر علي بن مهدي الرعيني الحميري من أسرة اشتغلت بطلب العلم، وقد تزود علي بن مهدي بقدر من المعارف من داخل اليمن وخارجها شكلت تصوره و فكره السياسي، فضلاً عما اتصف به من صفات الزهد والتسك وما أوتي من قوة الخطابة وفصاحة اللسان، فتمكن من جمع العديد من الأنصار من

(١) عمارة: المفيد، ص ١٨٠-١٨٥؛ ابن الديبع: الفضل المزيّد، ص ٧٠-٧٢.

(٢) الجندي: المصدر السابق، ج ٢/ ص ٥١٥؛ الخزرجي: المسجد، ص ١٢٨.

تهامة والجبال المحيطة بها، مستفيداً من الإمكانيات المادية التي توافرت له جراء المسامحة عن خراج أراضيه ومن يلوذ به التي منحها له أم الأمير الفاتك التي كانت تعتقد صلاحه وزهده<sup>(١)</sup>.

وقد بدأ علي بن مهدي تحركه سنة (٥٣١هـ / ١١٣٧م)، فجمع حوله الأتباع مستخدماً الوسائل كافة، حتى ادعاء المعرفة بالغيبات، وفي سنة (٥٣٨هـ / ١١٤٣م) بدأ تحركه العسكري معتمداً على كثرة أنصاره ومؤيديه، إلا أن حركته قمعت بشدة، فهرب إلى الجبال وبقي يتوحد إلى أم الأمير الفاتك ويستعطفها حتى عفت عنه سنة (٥٤١هـ / ١١٤٧م)، وأعدت عليه المسامحة التي أجرتها رغم معارضة رجال الدولة لذلك<sup>(٢)</sup>.

أعاد علي بن مهدي تجميع قواته، وحاول إيجاد حليف يدخل معه في الأمر، فزار الداعي محمد بن سبأ الزريعي في ذي جبلة، إلا أن عرضه قوبل بالرفض، فعاد إلى زبيد وقد اتخذ خطة جديدة بدأها باغتيال الوزير سرور الفاتكي وضرب وحدة النجاشيين، ثم أقام قاعدة له في أحد الحصون المطلة على تهامة، وبها يتجمع أنصاره، فأخذ يشن الغارات على القرى والحقول ثم ينسحب إلى مواقعه الحصينة، حتى عجز النجاشيون عن ردعه، وأخذت جموع الناس تنضم إليه رغبةً ورهبةً، حتى تمكن من الهجوم على زبيد<sup>(٣)</sup>، وصمد النجاشيون واستمرت المعارك بين الجانبين حتى استطاع علي بن مهدي دخول زبيد سنة (٥٥٤هـ / ١١٥٩م)، ولكنه توفي بعدها بأقل

(١) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص ٧٢؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص ٢٥٥-٢٥٦.

(٢) الخزرجي: العسجد، ص ١٢٩-١٣٠؛ ابن الديبع: المصدر نفسه، ص ٢٥٦.

(٣) عمارة: المفيد، ص ١٨٦-١٨٧؛ الجندي: السلوك، ج ٢/ ص ٥١٧-٥١٨.

من ثلاثة أشهر<sup>(١)</sup>.

تولى الأمر بعده ابنه مهدي الذي غزا ممتلكات الزريعيين حتى صالحوه بمال دفعًا لشره، وقد ارتكب العديد من الفظائع في الجَند، حتى قتل الناس المحتممين بجامعها وألقاهم في بئر الجامع الذي لم يسلم من الحريق، ولكنه سرعان ما توفي بمرض غريب أصابه سنة (٥٥٩هـ / ١١٦٤م)<sup>(٢)</sup>.

خلف عبد النبي أخاه مهدي، فأخذ يشن الغارات على بني زريع وبقايا الصليحيين مستوليًا على الحصون والمعازل بالقوة أو بالمال، كما غزا المخلاف السليماني وسفك فيه كثيرًا من الدماء ومنهم كبيرهم الشريف وهاس بن غانم، عاد بعدها إلى الضغط بقوة على الزريعيين محاولاً انتزاع عدن منهم، فاستنجد بنو زريع ببني حاتم، وقد تمكن هذا الحلف من التصدي لعبد النبي وإيقاف زحفه سنة (٥٦٩هـ / ١١٧٤م)، ثم عاد عبد النبي إلى زبيد لتنظيم أموره لجولة جديدة مع الزريعيين، وفي تلك الأثناء وصلت حملة توران شاه الأيوبي إلى زبيد، حيث دارت معركة كبيرة هزم فيها عبد النبي، فانسحب إلى زبيد ليتحصن بها، إلا أن قوات توران شاه تمكنت من اقتحام المدينة وأسر عبد النبي وباقي إخوته، فسقطت بذلك دولة بني مهدي، وأما عبد النبي وإخوته فقد اختلفت الروايات التاريخية حول مصيرهم<sup>(٣)</sup>.

(١) عمارة: المصدر السابق، ص ١٨٨؛ الخزرجي: المسجد، ص ١٣٥.

(٢) الجندي: المصدر السابق، ج ٢/ ص ٥١٨ - ٥١٩؛ ابن الديبع: الفضل المزيدي، ص ٧٦.

(٣) الجندي: السلوك، ج ٢/ ص ٥١٩ - ٥٢٠؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص ٢٦١ - ٢٦٥.

كانت دولة بني مهدي ذات نزعة عسكرية، قامت على أسس فكرية متطرفة أشبه بفكر غلاة الخوارج من حيث نظرتهن إلى المخالفين لهم وحكمهم فيهم، وإنشأؤهم مجتمعاً عسكرياً يضم جندهم وذويهم، من حيث إن كل ما يملكونه وينتجونه يوضع في خزائن علي بن مهدي وإسطبالاته ويذهب لصالح المجهود الحربي<sup>(١)</sup>.

فضلا عن القوى التي سبق ذكرها كان هنالك عدد من الزعامات القبلية التي بسطت سلطانها على عدد من المناطق والمخالفين اليمنية مثل بني الدعام في الجوف، وقبيلة جنب التي سيطرت على ذمار، وبني راشد في حضرموت<sup>(٢)</sup>، ولكنها لم تكن تملك من النفوذ مثل ما للقوى سابقة الذكر في مناطقها.

### ثانياً: دولة بني أيوب في اليمن (٥٦٩هـ / ١١٧٤م - ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)

أسهمت عوامل عديدة سياسية وعسكرية واقتصادية في لفت أنظار نور الدين محمود زنكي وصلاح الدين الأيوبي نحو اليمن، وعموماً فعلى الرغم من تضارب أقوال المؤرخين حول الأسباب التي جعلت صلاح الدين - نائب نور الدين على مصر - يرسل حملة بتلك القوة إلى اليمن، فإن تداعيات الأحداث وتسارع وتيرة الصراع بين القوى السياسية في اليمن، ولا سيما إثر ظهور دولة بني مهدي ونشاطها التوسعي العدواني وتهديدها أمن المنطقة، وأهمية اليمن بوصفه عمقاً استراتيجياً لجهود صلاح الدين في التصدي للصليبيين، فضلا عما لصلاح الدين من بعد نظر في تكريس طاقات

(١) عمارة: المفيد، ص ١٩٠-١٩١؛ ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص ٧٥.

(٢) عمارة: المصدر نفسه، ص ٦٦، ١٦٧؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص ٢٠٩، ٣٢٥.

الأمة كافة في جهاد العدو الصليبي ، كل تلك الاعتبارات شكلت بشكل عام الدافع الرئيس لأن يأمر صلاح الدين في سنة (٥٦٩هـ / ١١٧٤م) أخاه الأكبر توران شاه بالمسير إلى اليمن على رأس حملة عسكرية ، والقضاء على القوى المتصارعة فيها وبسط الحكم الأيوبي على اليمن ، فتوجه أولاً إلى مكة المشرفة ثم انطلق إلى شمال تهامة ، ثم تقدم إلى زيد ، فهزم بني مهدي ودخل المدينة ، ثم تقدم نحو عدن ، فحاصرها حتى تمكنت قواته من اقتحامها ، فملكها ، وسار بعدئذ إلى صنعاء التي انسحب منها بنو حاتم إلى معاقلم الحصينة<sup>(١)</sup> .

قام توران شاه بالاستيلاء على عدد من المعاقل والحصون المهمة ، ثم أقام نواباً له في الأقاليم الخاضعة له ، وهم : سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ في زيد ، وعز الدين عثمان الزنجيلي في عدن ، وياقوت التعزي في تعز ، ومظفر الدين قايمار في ذي جبلة . وقد استمر هؤلاء النواب يديرون المناطق التابعة للأيوبيين في اليمن حتى بعد عودة مولاهام توران شاه سنة (٥٧١هـ / ١١٧٦م) إلى الشام ، ثم وفاته في الإسكندرية سنة (٥٧٦هـ / ١١٨١م)<sup>(٢)</sup> .

بعد وفاة توران شاه نشب النزاع بين نوابه ، وامتنعوا عن إرسال الأموال إلى مصر ، وطمع بعضهم في الاستيلاء على مناطق الآخرين ، فقامت بينهم معارك شكلت تهديداً لحكم الأيوبيين في اليمن<sup>(٣)</sup> ، فأرسل صلاح الدين مملوكه صارم الدين خطباً على رأس حملة تمكنت من ضبط الأمور وإيقاف

(١) الجندي : السلوك ، ج ٢ / ص ٥٢٠ ؛ الخزرجي : العسجد ، ص ١٤٦ - ١٥١ .

(٢) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن ، ص ٧٧ - ٧٨ ؛ ابن الديبع : قرة العيون ، ص ١٦٧ - ١٦٩ .

(٣) ابن حاتم : السمط ، ص ٢٢ - ٢٣ ؛ الخزرجي : العسجد ، ص ١٥٧ .

الصراع، إلا أن وفاة خطلبا المفاجئة جعلت النزاع يتجدد، فاضطر صلاح الدين إلى إرسال حملة جديدة سنة (٥٧٩هـ / ١١٨٤م) بقيادة أخيه سيف الإسلام طغتكين الذي تمكن من التخلص من هؤلاء النواب، ودخل في سلسلة طويلة من المعارك تمكن خلالها من انتزاع معظم المعازل الحصينة المتبقية من بقايا الصليحيين وبنو زريع وبنو حاتم والزيدية، واستمر يحكم اليمن إلى وفاته سنة (٥٩٣هـ / ١١٩٨م)<sup>(١)</sup>، فتولى الأمر بعده ابنه المعز إسماعيل الذي كان شديداً وفظاً في تعامله مع قادته وجنده على الرغم من شجاعته وكفاءته العسكرية، فانضم عدد منهم إلى صفوف الإمام المنصور عبدالله بن حمزة الذي قامت بينه وبين المعز إسماعيل معارك ضارية، خسر المعز خلالها صنعاء وعدداً من المعازل المهمة، ولم يحاول المعز أن يحسن من سياسته بل بلغ به الغرور أن ادعى الخلافة، بل يبدو أن ذلك كان مسوغاً كافياً لجنده بأن ينقلبوا عليه ويقتلوه سنة (٥٩٨هـ / ١٢٠٢م)<sup>(٢)</sup>.

اجتمع قادة الجند وولوا الأمير الطفل الناصر أيوب بن طغتكين الذي خضع لوصاية أتابكه سيف الدين سنقر، الذي تمكن من قمع تمرد الجند وإيقاف تقدم الإمام المنصور، واستمر يحكم نيابة عن الملك الناصر أيوب إلى وفاته سنة (٦٠٨هـ / ١٢١٠م)<sup>(٣)</sup>، حينئذ استقل الناصر أيوب بإدارة ملكه، واتخذ لنفسه وزيراً هو غازي بن جبريل الذي وجد في الملك الشاب

(١) ابن عبدالمجيد: المصدر السابق، ص ٧٨-٧٩؛ الجندي: السلوك، ج ٢/ ص ٥٢٤-٥٣١.

(٢) ابن حاتم: المصدر السابق، ص ٤٤-٧١؛ با مخرمة (أبو محمد عبدالله الطيب بن عبدالله بن أحمد): تاريخ ثغر عدن، دار التنوير - بيروت، ط ٢-١٩٨٦، ص ١٩-٢٠.

(٣) ابن عبدالمجيد: المصدر السابق، ص ٨١؛ الخزرجي: العسجد، ص ١٧٥-١٧٨.

الطموح تهديدًا لنفوذه فدرس له السم في صنعاء خلال حملة له سنة (٦١١هـ / ١٢١٣م)، واستقل غازي بالملك وخطب لنفسه، إلا أن جند الناصر ثاروا لمقتل ملكهم فقتلوا غازي، وصار الأيوبيون في اليمن بدون ملك يدير أمورهم، فطمع فيهم الإمام المنصور فاستولى على صنعاء، وتقدمت قواته إلى ذمار، بل وصلت غاراته إلى لحج وضواحي عدن<sup>(١)</sup>.

وفي تلك الأثناء وصل إلى اليمن أحد أمراء البيت الأيوبي هو الأمير سليمان بن شاهنشاه بن تقي الدين عمر شاهنشاه بن أيوب، وكان قد عاش متنقلًا في زي الصوفية حتى وصل إلى اليمن، فوجد الأيوبيين بدون ملك، وعرضت عليه أم الناصر أن يتزوجها ويتولى الحكم ليحفظ ملك الأيوبيين، وتم له ذلك، لكنه لم يكن مؤهلًا للحكم، فزادت الأوضاع سوءًا، وكثر الخارجون على بني أيوب، في حين شغل ملكهم نفسه باللهو وسفاسف الأمور<sup>(٢)</sup>.

وصلت إلى السلطان العادل أنباء تدهور حكم الأيوبيين في اليمن، فأمر ولده الملك الكامل نائبه على مصر أن يرسل حملة إلى اليمن بقيادة ابنه الملك المسعود بن الكامل، فتوجه إلى مكة ومنها إلى اليمن فوصلها سنة (٦١٢هـ / ١٢١٤م)، وتمكن من عزل سليمان بن شاهنشاه بعد انضمام قادة الجند الأيوبي في اليمن إليه، ثم التفت إلى حرب الإمام المنصور، فدخل معه في معارك عنيفة استرد فيها المسعود معظم ما فقده الأيوبيون من مدن وحصون<sup>(٣)</sup>.

كما توجه المسعود إلى مكة لإخضاع أشرافها سنة (٦١٩هـ / ١٢٢١م)،

(١) ابن عبدالمجيد: المصدر السابق، ص ٨١-٨٢؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص ٢٨٩-

(٢) ابن حاتم: السمط، ص ١٥٩-١٦٣؛ الخزرجي: العسجد، ص ١٨٠.

(٣) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص ٨٢-٨٣؛ الخزرجي: المصدر نفسه، ص ١٨٠-١٨٣.

وعاد إلى اليمن حيث رتب أوضاعها وتجهز للمسير إلى مصر سنة (٦٢١هـ / ١٢٢٣م)، وأتاب عنه أتابك العسكر نور الدين عمر بن علي بن رسول الذي شغل بقمع التمردات في اليمن مثل حربه ضد مرغم الصوفي<sup>(١)</sup>، كما اشتبك مع الزيدية الذين هاجموا صنعاء بقيادة الأمير عز الدين بن الإمام المنصور، وقد تمكن نور الدين بمساعدة إخوته من هزيمتهم سنة (٦٢٣هـ / ١٢٢٥م)<sup>(٢)</sup>.

وفي سنة (٦٢٤هـ / ١٢٢٦م) عاد الملك المسعود إلى اليمن متفقدًا ملكه ورجاله، ثم قام بالقبض على أبناء علي بن رسول - ما عدا نور الدين عمر الذي أبقاه نائبًا له - وأرسلهم مقيدين إلى مصر، ثم توجه المسعود بعد ذلك إلى مكة المشرفة يريد مصر إلا أن المنية عاجلته في مكة سنة (٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)<sup>(٣)</sup>.

### ثالثًا: الدولة الرسولية (١٢١هـ / ١٢٢٨م - ٨٥٨هـ / ١٤٥٤م)

وستتناول فيما يلي نشأتها وأبرز الأحداث التي مرت بها وحكامها إلى نهاية القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي.

(١) مرغم بن منيف الصوفي الحميري، اشتهر بالزهد والتقشف والصلاح، ولم يكن ذا علم، بل كان أميًا، أخذ ينذر عشيرته ويحذرهم عاقبة الظلم والجور والخضوع للظلمة، وانتقل بدعوته إلى قرية (سحمر) من جبل بني مسلم في يحصب العلو، فناصروه وأيدوه، حيث أوهمهم أنه داع لإمام حق، فالتف حوله كثير من الناس، فشكل خطرًا على نفوذ الأيوبيين في اليمن، فخرج إليه نور الدين، فهزمه مرغم، وقد أدت سياسة الأخير الدموية وانكشاف سوء سريرته إلى انفضاض الناس عنه، وانتهى به الأمر هاربًا من بلد إلى آخر حتى توفي بوصاب؛ انظر: الخزرجي، العسجد، ص ١٨١ - ١٨٢.

(٢) ابن حاتم: المصدر السابق، ص ١٧٨ - ١٨٠؛ الخزرجي: العسجد، ص ١٨٣ - ١٨٥؛ الكبيسي: اللطائف، ص ١٢٥.

(٣) الخزرجي: المصدر نفسه، ص ١٨٨ - ١٨٩؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص ٢٩٨.

ينسب عدد من المؤرخين - أبرزهم الخزرجي - بني رسول إلى جيلة بن الأيهم الغساني<sup>(١)</sup>، وقد قدموا إلى اليمن صحبة الملك سيف الإسلام طغتكين بن أيوب، وكانوا يمتازون بالنباهة والبسالة والشجاعة وحسن التدبير، مما زاد من حظوتهم عند ملوك بني أيوب في اليمن، إلا أن بروزهم الحقيقي كان من خلال مساندتهم للملك المسعود خلال حملته على اليمن، حيث ساعده على تسلم زمام الأمور، فأكرمهم بأن أقطعهم بعض الإقطاعات، واستعملهم على بعض المناطق<sup>(٢)</sup>.

وكان أقربهم إليه نور الدين عمر بن علي بن رسول (٦٢٦هـ / ١٢٢٨م - ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م) الذي ولاه المسعود مكة المشرفة سنة (٦١٩هـ / ١٢٢١م)، ثم استنابه عنه في اليمن في عامي (٦٢٣هـ / ١٢٢٥م) و(٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)، وقد عمل نور الدين بعد وفاة الملك المسعود على تولية أنصاره ورجاله والتخلص من المنافسين له، فعقد صلحاً مع الزيدية مستغلاً الهدنة لأجل بسط

(١) جيلة بن الأيهم: آخر ملوك الغساسنة، وهي قبيلة يمنية نزحت من اليمن وأقامت دولة لها على مشارف بلاد الشام، وتذكر المصادر قصة إسلام جيلة ثم ارتداده إلى النصرانية، وقد ذكر الخزرجي مؤرخ الدولة الرسولية أن جيلة ندم على تنصره وأنه انتقل إلى آسيا الصغرى بولده، فعاشوا بين قبائل التركمان حتى اختلط نسبهم على الناس، فمن عرفهم نسبهم إلى جيلة بن الأيهم، ومن نكرهم نسبهم إلى التركمان، وأنه ظهر من ذرية جيلة رجل يدعى محمد بن هارون عمل في بلاط العباسيين رسولاً لهم في مصر والشام، وقد عرف بلقب (رسول) لأنه بلغ من ثقة الخليفة به أن صار يحمل الرسائل الشفهية عنه، ومن ذرية رسول هذا جاء بنو رسول الذين عمل أبوهم في خدمة الأيوبيين في مصر زمن صلاح الدين، وترقى هو وأبناؤه في خدمة بني أيوب حتى صاروا من أبرز أمراء الجيش الأيوبي في اليمن. انظر: الخزرجي، العقود، ج ١/ ص ١٢٥؛ الحداد: التاريخ، مج ٢/ ص ٤٤٩-٤٥١.

(٢) ابن حاتم: السمط، ص ١٦٧، ١٩٣-١٩٤؛ الخزرجي: العسجد، ص ١٨٤-١٨٥.

نفوذه على المناطق الخاضعة للأيوبيين كافة، وتلقب بالسلطان المنصور<sup>(١)</sup>. وكان السلطان المنصور قد أرسل إلى الخليفة العباسي المستنصر بالله سنة (٦٣١هـ / ١٢٣٣م) يطلب منه تشريفه بالنيابة عنه في السلطنة على اليمن، وقد وصلته التشريفات بالفعل سنة (٦٣٢هـ / ١٢٣٤م) مما زاد من قوة موقفه أمام مطالب الأيوبيين في اليمن<sup>(٢)</sup>.

شغل السلطان المنصور طوال حكمه بالحروب ضد الزيدية الذين انتزع منهم كثيراً من المعازل، وأرغمهم على طلب الصلح معه أكثر من مرة، فضلاً عن حروبه ضد الخارجين عليه من القوى القبلية حتى تمكن من إخضاع معظم اليمن لسلطانه<sup>(٣)</sup>، وقد تميز بكفاءة سياسية وعسكرية عالية، فتوسعت علاقاته السياسية خارج اليمن، وتفاوتت بين العلاقات الودية والتوترات السياسية لا سيما مع الأيوبيين في مصر<sup>(٤)</sup>.

وفي سنة (٦٤٧هـ / ١٢٤٩م) وبعد عودة السلطان المنصور نور الدين عمر من صنعاء إلى الجند قُتل على يد مماليكه؛ بتدبير من أبناء أخيه بدر الدين حسن وهما أسد الدين محمد وفخر الدين أبو بكر<sup>(٥)</sup>، مما عرض دولة بني رسول لمحنة كادت تعصف بما حققه السلطان المنصور خلال تلك السنوات،

(١) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص ٨٦-٨٧؛ الخزرجي: العقود، ج ١/ ص ٣٣، ٤٦-٤٧.

(٢) الخزرجي: العسجد، ص ١٩٥-١٩٦؛ بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص ١٧٦.

(٣) الخزرجي: العقود، ج ١/ ص ٥٨-٧٣؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص ٣٠١-٣٠٧.

(٤) ابن عبدالمجيد: المصدر السابق، ص ٨٧؛ الخزرجي: العسجد، ص ٢٠٠، ٢٠١-٢٠٧؛ بامخرمة: المصدر السابق، ص ١٧٦-١٧٨.

(٥) الخزرجي: العقود، ج ١/ ص ٨٢، ٨٨؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص ٣١٥، ٣١١.

لولا أن الأقدار هيأت لبني رسول رجلاً تصدى لتلك المحنة وهو :

السلطان المظفر يوسف بن عمر بن رسول (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م - ٦٩٤هـ/

١٢٩٦م)

كان المظفر على خلاف مع أبيه بسبب تقديمه أبناءه من زوجته الأخيرة وهما الفائز والمفضل على الرغم من أن المظفر هو أكبر أبناءه، وكان المظفر في المهجم حينما بلغته أبناء مقتل والده فتحرك بمن ساندته من العرب نحو زبيد، التي كاد أسد الدين يستولي عليها لولا استماتة شقيقه المظفر والمخلصين من رجاله في الدفاع عنها حتى قدوم المظفر، الذي كان لوصوله إلى زبيد دور في عودة المماليك إلى صفه وطلبهم العفو منه حتى قبضوا على المتآمرين تكفيراً عن فعلتهم، وقد أتاح ذلك للسلطان المظفر الوقت الكافي ليسيئ سلطاناه على لحج وعدن وتعز<sup>(١)</sup>.

وقد واجه السلطان المظفر عددًا من التحديات كان من أبرزها: تحكم زوجة أبيه وأبنائها بعدد من المعازل المهمة مثل الدملة مما شكل تهديدًا مباشرًا لوحدة الدولة، فعمل بالوسائل كافة ليستولي على تلك المعازل؛ ليجنب الدولة خطر اندلاع حرب أهلية تستنزف قواهم، فتمكن عن طريق الحيلة من الاستيلاء على الدملة سنة (٦٥٠هـ / ١٢٥٢م)<sup>(٢)</sup>.

ومن جهة الزيدية فقد حدث في سنة (٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) أي قبل مقتل السلطان المنصور بعام واحد أن أخذ هؤلاء ينظمون صفوفهم تحت راية الإمام المهدي أحمد بن الحسين، الذي شن على بني رسول حربًا عنيفة، فوصلت قواته

(١) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص ٨٨-٨٩؛ الخزرجي: العقود، ج ١/ ص ٨٨-٩٤.

(٢) ابن عبدالمجيد: المصدر نفسه، ص ٩٠؛ الخزرجي: العسجد، ص ٢٢١.

إلى صنعاء وذمار، أما المظفر فقد جدّ في حرب الإمام بكل إمكاناته من مال وجند، حتى نجح في شق صفوف الزيدية، مما تسبب في قيام حرب بين الزيدية أنفسهم بدعم من السلطان المظفر انتهت بمقتل الإمام<sup>(١)</sup>.

اتخذ السلطان المظفر نفس سياسة والده تجاه الحجاز والدول المجاورة، فأرسل عدة حملات للحفاظ على تبعية مكة للرسوليين، بل خرج على رأس جيشه وأسطوله سنة (٦٥٩هـ / ١٢٦١م)، فأكد تبعية مكة لبني رسول وقيامهم بأمرها<sup>(٢)</sup>، ولكنه تميز عن والده بالكياسة والتعقل في علاقته بالدول المجاورة ولا سيما دولة المماليك في مصر والشام، حيث خرج بعلاقة بني رسول معهم من دور التربص والعداء إلى علاقات سياسية واقتصادية وعسكرية مذهلة، تبادل الجانبان خلالها كثيراً من المراسلات والهدايا<sup>(٣)</sup>.

كما تمكن السلطان المظفر بفضل حسن سياسته والقوة العسكرية المتوافرة لديه من توسيع نفوذ مملكته، فاستولت قواته على براقش، وتمكنت من اجتياح صعدة<sup>(٤)</sup>، وكان أكبر انتصاراته استيلاءه على ظفار الحبوضي سنة (٦٧٨هـ / ١٢٨٠م)<sup>(٥)</sup>.

(١) الخزرجي: المصدر السابق، ص ٢٢٤، ٢٣٠-٢٣١؛ ابن الديبع قرّة العيون، ص ٣٢١-٣٢٤.

(٢) الخزرجي: العقود، ج ١/ ص ١٣٣-١٣٥؛ ابن الديبع: المصدر نفسه، ص ٣٢٢، ٣٢٧.

(٣) الخزرجي: المصدر نفسه، ج ١/ ص ١٦٩؛ محمد عبدالعال أحمد: بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما، الهيئة المصرية العامة للكتاب - الإسكندرية، د.ط - ١٩٨٠م، ص ٣٧٥.

(٤) الخزرجي: العسجد، ص ٢٤٠؛ الكبسي: اللطائف، ص ١٤٢.

(٥) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص ٩٥-٩٦؛ الخزرجي: العقود، ج ١/ ص ٢٠٧-٢١٣.

توفي السلطان المظفر سنة (٦٩٤هـ / ١٢٩٦م)، وخلفه على الحكم ولده السلطان الأشرف عمر، الذي تمتع بصفات قيادية عالية مكنته من التغلب على الانقلاب الذي قام به ضده أخوه المؤيد داود، حيث تمكن من هزيمته وأسرته، وكان حازمًا في مواجهة الخطر الزيدي في اليمن الأعلى؛ لا سيما الإمام المطهر بن يحيى، ولم تطل المدة بالسلطان الأشرف حيث توفي سنة (٦٩٦هـ / ١٢٩٨م)، وخلفه أخوه السلطان المؤيد الذي استمر في الحكم إلى سنة (٧٢١هـ / ١٣٢٢م)<sup>(١)</sup>.



(١) ابن عبدالمجيد: المصدر السابق، ص ٩٨-١٢٨؛ بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص ٧٢-٧٧، ١٨١-١٨٣.

## المبحث الثاني

### اليمن وثقلها السياسي والاقتصادي في المنطقة

تمتعت اليمن بعدد من المزايا والخصائص الفريدة بفضل موقعها الجغرافي المهم وسواحلها الطويلة المطلة على البحر الأحمر وبحر العرب، فضلاً عن عدد من الموانئ التي كان لها وزنها في التجارة الدولية، ومن جهة أخرى اشتهرت أرض اليمن بمواردها وثرواتها الزراعية والحيوانية والمعدنية التي بلغت شهرتها الآفاق، وقد أفاضت كتب الرحالة والجغرافيين في الحديث عن خيرات اليمن وثرواته، سواء أكانت بعض المنتجات التي تنتجها أرض اليمن، أم تلك التي تصب من مواطنها في شرق آسيا باليمن أولاً ومنها يتم إعادة تصديرها إلى الأقطار كافة، ولا ننسى توافر عدد كبير من الأيدي العاملة ذات الخبرة في اليمن مما يلقي بظلاله على جودة منتجات اليمن وتزايد الطلب عليها في أسواق المنطقة.

وسنتناول فيما يلي أبرز مظاهر أهمية اليمن السياسية والاقتصادية وانعكاساتها على الأوضاع في المنطقة:

#### أولاً: أهمية اليمن السياسية في المنطقة.

##### ١- أهمية موقع اليمن وأثر ذلك في علاقتها بدول الجوار:

إن موقع اليمن الاستراتيجي في الطرف الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية، وسواحلها المطلة على البحر الأحمر وبحر العرب، والخلفية الحضارية لسكان ذلك الجزء من الجزيرة العربية؛ كل ذلك أدى إلى ارتباط اليمن منذ القدم بعلاقات سياسية مع الدول ذات الأهمية السياسية

والاقتصادية في العراق ومصر وبلاد الشام.

وقد ظلت اليمن محل اهتمام القوى الأجنبية التي غزت المنطقة، حيث تعاقبت الرحلات الاستكشافية التي أرسلها الإسكندر والبطالمة من بعده إلى بحر القلزم وبحر فارس في محاولة للوصول إلى جنوب الجزيرة العربية<sup>(١)</sup>، وكان الرومان الذين خلفوا البطالمة في حكم مصر أجراً منهم وأكثر طمعاً في السيطرة على جنوب الجزيرة العربية، فأرسلوا حملتهم بقيادة إليوس جالوس حاكم مصر الروماني، إلا أن الحملة منيت بفشل ذريع في مجاهل اليمن سنة (٢٤ ق.م) على الرغم من كبر حجمها وكثرة استعداداتها<sup>(٢)</sup>.

كما أن حملات الأحباش على اليمن لم تكن لمجرد التوسع العسكري، في حين كان بإمكانهم التوسع داخل القارة الإفريقية بجهود أقل كلفة من المواجهة مع شعب متمدن مثل سكان جنوب شبه الجزيرة العربية، بل جاءت تلك الحملات انطلاقاً من إدراكهم أن اليمن هي المدخل الجنوبي للجزيرة العربية، التي مثلت ميدان تنافس بين أكبر قوتين في المنطقة الفرس والبيزنطيين - حلفاء الحبشة - اللتين وقفتا عاجزتين عن القيام بأي عمل عسكري داخل الجزيرة العربية لصعوبة اختراق الصحاري المطوقة لها من الشمال والشرق، فكانت اليمن أفضل مجال لاختراق الجزيرة العربية ونشر

(١) الشيبة (عبدالله حسن): دراسات في تاريخ اليمن القديم، مكتبة الوعي الثوري - تعز، ط١ - ١٩٩٩م - ٢٠٠٠م، ص١٧ - ١٨؛ فخري (أحمد): اليمن ماضيها وحاضرها، المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع - صنعاء، ط٢ - ١٩٨٨م، ص١١٤ - ١١٥.

(٢) الجرو (أسمهان سعيد): التاريخ السياسي لجنوب الجزيرة العربية (اليمن القديم)، مؤسسة حمادة للخدمات الجامعية - إربد، د.ط - ١٩٩٦م، ص١٩٥ - ٢٠١؛ فخري: المرجع نفسه، ص١١٥.

النصرانية فيها، ولم يكن رد الفعل الفارسي إزاء ذلك إلا دليلاً على إدراك القوى الكبرى المتنافسة في المنطقة مدى أهمية موقع اليمن ومجالها الحيوي<sup>(١)</sup>.

ولذلك فإن الإنجاز الذي حققه سيف بن ذي يزن سنة (٥٧٥م) بطرد الأحباش من اليمن - رغم حلول الفرس محلهم - لقي ترحيباً من العرب في أرجاء الجزيرة العربية كافة، فجاءت الوفود إلى صنعاء - وعلى رأس وفد قريش عبد المطلب بن هاشم جد النبي ﷺ - مهنتاً بذلك النصر الذي حققه اليمنيون حماة المدخل الجنوبي للجزيرة العربية<sup>(٢)</sup>.

وبعد ظهور الإسلام ودخول أهل اليمن في دين الله أفواجاً اكتسبت الدولة الإسلامية قوة تمكنت بها من فتح العراق وبلاد الشام ومصر وإفريقية والأندلس، مما أكسب اليمن وأهلها مكانة عالية في جميع الأقطار الإسلامية، نظراً لجهودهم في الذود عن الإسلام ونشره<sup>(٣)</sup>، وقد ظل الخلفاء الراشدون والأمويون والعباسيون يولون اليمن اهتماماً بالغاً لإدراكهم أهمية اليمن بالنسبة للجزيرة العربية وضمن أمن الحجاز وولائه، وهو الأمر

(١) الشيبة: دراسات، ص ٣٠-٣٤؛ صادق عبده علي: الهوية السياسية والحضارية لليمن في التاريخ القديم والإسلامي، وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء، د.ط - ٢٠٠٤م، ص ١٤٩-١٥٠، ١٦٧، ١٩٢.

(٢) المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين): مروج الذهب ومعادن الجوهر، تنقيح: يوسف البقاعي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ١- ٢٠٠٢م، ج ٢/ ص ٣١٠؛ الجرو: المرجع السابق، ص ٣١٥-٣١٧.

(٣) الشجاع (عبدالرحمن عبدالواحد): تاريخ اليمن في صدر الإسلام، دار الفكر - دمشق، ط ١- ١٩٨٧م، ص ٢٩٩-٣٠١، ٣١٥، ٣٣٠؛ الحداد: التاريخ، مج ٢/ ص ٣٧-٤٢.

الذي أدركه كذلك الخارجون على الخلافة من الخوارج والشيعة، فلجأت جموع كثيرة منهم إلى اليمن مستفيدين من بعدها عن دار الخلافة<sup>(١)</sup>، وما التهديد الذي شكله كلٌّ من القيل عباد الرعيني الحميري<sup>(٢)</sup>، وطالب الحق الخارجي<sup>(٣)</sup> على الدولة الأموية وسيادتها على اليمن والحجاز إلا مثلاً واضح على أهمية اليمن وثقلها في المنطقة.

وقد ظلت ثورات اليمن تؤرق مضجع الخلافة العباسية طوال القرنين الثاني والثالث الهجريين/ الثامن والتاسع الميلاديين، وتستنفد كثيراً من وقتها ومجهودها العسكري، في الوقت الذي كانت في حاجة إلى كل قواتها لمواجهة الأخطار التي تواجهها على الجبهة البيزنطية<sup>(٤)</sup>.

## ٢- اليمن ودورها في الملاحة البحرية:

تطل اليمن على بحرين (بحر القلزم وبحر العرب)، وتمتلك شريطاً

(١) ابن كثير: البداية والنهاية: ج٨/ ص١٥٩.

(٢) القيل عباد الرعيني: ثار على الدولة الأموية في خلافة هشام بن عبد الملك، واستولى على عدد من النواحي في اليمن، إلا أنه هزم على يد والي الأمويين على اليمن يوسف بن عمر الثقفي؛ انظر: الخزرجي، المسجد، ص٢٣؛ الحداد: التاريخ، مج٢/ ص٥٤-٥٩.

(٣) طالب الحق اسمه عبدالله بن يحيى الكندي زعيم الإباضية الخوارج في اليمن، لقب نفسه بـ(طالب الحق)، وقاد ثورة أهل حضرموت ومن انضم إليهم من أنحاء اليمن ضد الدولة الأموية عام (١٢٩هـ/ ٧٤٧م)، فاستولى على حضرموت وصنعاء ومعظم مناطق اليمن، كما استولت قواته على مكة والمدينة، وأخذت تستعد للهجوم على الشام لولا أن جيوش بني أمية باغتها وتمكنت من القضاء على ثورته التي استمرت سنة وأربعة أشهر. انظر: ابن الديبع، قرة العيون، ص٨٦-٨٧.

(٤) الخزرجي: المسجد، ص٢٩-٣٥؛ ابن الديبع: المصدر السابق، ص٩٤، ٩٩-

ساحلياً طويلاً (حوالي ٢٠٠٠ كم)، كما توافرت في اليمن المواد الأولية اللازمة لصناعة المراكب ومستلزماتها من أخشاب وحبال وشحم وغيرها من المواد اللازمة لتلك الصناعة، فضلاً عن أن هناك العشرات من الجزر اليمنية في البحر الأحمر وبحر العرب التي تمتعت بمميزات طبيعية كثيرة جعلت منها صالحة لرسو السفن الماخرة عباب تلك البحار<sup>(١)</sup>.

ومن جهة أخرى برع سكان السواحل والجزر اليمنية في شؤون الملاحة والسفر عبر البحار، مستفيدين من موقع بلادهم المهم على ملتقى طرق الملاحة الجنوبية، فوصلت مراكبهم إلى بلاد الرافدين ومصر وسواحل الهند الشرقية منذ أقدم العصور<sup>(٢)</sup>. وقد أبحر الحميريون في أساطيل تجارية تجوب البحار مستعينين ما لديهم من دراية بالأمور الملاحية، فتمكنوا من السيطرة على حركة الملاحة في المياه الجنوبية<sup>(٣)</sup>. وفي العصر الإسلامي صارت ضرائب المراكب التجارية الواصلة من جميع الأقطار تجبى إلى أمراء بني زياد الذين بسطوا سلطانهم على سواحل اليمن الغربية خلال منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي<sup>(٤)</sup>.

كما أن إطلالة اليمن المباشرة على باب المنذب المدخل الجنوبي للبحر

(١) الحبيشي (حسين علي): اليمن والبحر الأحمر الموضع والموقع، دار الفكر المعاصر - بيروت، ط ١- ١٩٩٢م، ص ٣٠- ٣١؛ شهاب: عدن فرضة اليمن، مركز الدراسات والبحوث اليمني - صنعاء، ط ١- ١٩٩٠م، ص ٤٨- ٥٤.

(٢) شهاب: المرجع نفسه، ص ١٠- ١٢؛ الحبيشي: المرجع نفسه، ص ٣٨- ٣٩؛ السروري: الحياة السياسية، ص ٤٨٤.

(٣) صادق: الهوية السياسية، ص ٨٤؛ بافقيه (محمد عبدالقادر): تاريخ اليمن القديم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، د. ط - ١٩٨٥، ص ١٧٩- ١٨٣.

(٤) عمارة: المفيد، ص ٥٣- ٥٤؛ الخزرجي: العسجد، ص ٩٨- ٩٩.

الأحمر جعل من المستحيل على القوى السياسية والعسكرية في المنطقة إسقاط اليمن من حساباتها، وهذا ما اتضح جلياً من خلال تطور العلاقات اليمنية الحبشية عبر التاريخ، حيث سعى الأحباش إلى الاستفادة من مميزات السواحل اليمنية سواءً كان ذلك ببسط سيطرتهم على سواحل اليمن الغربية مستغلين الفتن الداخلية في اليمن، أو بخطب ود حكام اليمن الأقوياء الذين عرفوا كيف يجعلون من اليمن قوة مرهوبة الجانب في المنطقة<sup>(١)</sup>.

وفي العصر الإسلامي شكّل دعم الفاطميين القوي لقيام الدولة الصليحية في اليمن جزءاً من مخططاتهم ضد العباسيين الذين دخلوا في صراع عنيف ضد الخلافة الفاطمية، استخدم الطرفان فيه الوسائل السياسية والعسكرية والاقتصادية كافة لأجل تقويض نفوذ الآخر في المنطقة<sup>(٢)</sup>، فتمكن الفاطميون بمساعدة حلفائهم الصليحيين من بسط نفوذهم عبر البحار وصولاً إلى عمان والهند، مما مكنهم من تطويق الخلافة العباسية وتحويل طريق التجارة الشرقية من بحر فارس إلى المحيط الهندي عبر الموانئ اليمنية - وأبرزها عدن - ومن ثم إلى مصر، الأمر الذي أدى إلى ازدهار اقتصاد الدولة الفاطمية على حساب الدولة العباسية، وعلى الرغم من ذلك فإن تحقيق ذلك التعاون والتكامل الاقتصادي بين الفاطميين والصليحيين لم يكن قوياً بما فيه الكفاية ليسيّط على التجارة الشرقية سيطرة كاملة<sup>(٣)</sup>.

(١) عمارة: المصدر السابق، ص ٦٥؛ صادق: الهوية السياسية، ص ١٢٧ - ١٥٠.

(٢) ابن فيض الله: الصليحيون، ص ٢٢٨ - ٢٢٩.

(٣) السروري: الحياة السياسية، ص ٤٩٧؛ صادق عبده علي: التطور التاريخي للهوية الوطنية اليمنية، وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء، د.ط - ٢٠٠٤م، ص ٧٥؛ ابن فيض الله: الصليحيون، ص ٢٢٨ - ٢٣١.

وكما تبين لدينا مدى أهمية اليمن بالنسبة للملاحة البحرية في المنطقة، فإن علاقة اليمن بالحجاز شكلت مظهرًا مهمًا من مظاهر الأهمية الاستراتيجية لليمن في المنطقة.

### ٣- اليمن والحجاز:

ظلت الحجاز مهوى أفئدة المسلمين في أرجاء الأرض ومحل اهتمام خلفاء المسلمين على مر العصور، نظرًا لأنها تضم الحرمين الشريفين رمز وحدة المسلمين واجتماعهم ومحل تفكرهم في مبدأ دعوة الإسلام وما عاشته الدعوة الإسلامية من أحداث.

ولم تكن علاقة اليمن بالحجاز مجرد تقارب جغرافي أو تواصل ثقافي أو تسلسل إداري، وإنما كانت الروابط قوية لدرجة أن صار ارتباط الحجاز باليمن أقوى من ارتباطه بأي جزء آخر من الجزيرة العربية، حيث إن عدم توافر حواضر مستقرة في نجد وشمال الجزيرة العربية جعل الحجاز يعتمد على اليمن ظهيرًا اقتصاديًا ورافدًا ثقافيًا وحضاريًا، وأكبر دليل على ذلك أن إحدى رحلتي قريش المشهورتين قبل الإسلام كانت إلى اليمن، ومن جهة أخرى فإنه في ظل ظروف خاصة - في الحجاز واليمن على السواء - كانت الحجاز واليمن أشبه بوحدة إدارية واحدة، مثال ذلك عندما جمعت للحجاج بن يوسف ولاية الحجاز مع اليمن - إضافة للعراقين - وكذلك الأمير داود بن علي العباسي الذي أسندت إليه ولاية الحجاز واليمن، بل إنه في كثير من الأحيان كان والي اليمن يتولى ضبط الأمور بالحجاز<sup>(١)</sup>.

(١) الخزرجي: العسجد، ص ٢٢، ٢٧؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص ٨٧-٩٤، ٧٩.

وعندما بدأ الضعف يحل بكيان الدولة العباسية نتيجةً لظهور الانقسامات والكيانات المستقلة، ومنها الكيانات المستقلة في اليمن، بقي الحجاز على تبعيته للعباسيين، وذلك لعدم وجود قوة سياسية كبرى منافسة لهم إلى منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، حين استولى الفاطميون على مصر وأخذوا ينازعون العباسيين السيادة على ما بقي تحت أيديهم من أقاليم كاليمن والشام والحجاز، وكانوا يعدّون حصولهم على ولاء الحجاز تنويجاً لحربهم ضد العباسيين، ولكنهم اضطروا بسبب تذبذب ولاء حلفائهم من القرامطة في شرق الجزيرة العربية واضطراب أحوالهم، فضلاً عن ضعف حال دعواتهم في اليمن ولجوتهم إلى التستر والتقية أمام القوى السياسية المناوئة لهم آنذاك؛ اضطروا الفاطميون إلى دخول سباق مع العباسيين للفوز بولاء الأشراف في مكة والمدينة عبر إغداق الأموال والهدايا وإرسال الطعام والمؤن، وهو ما مكن الفاطميين من الحصول على ولاء أشراف مكة وإقامة الخطبة لهم، على الرغم من أن ذلك الولاء كان مرتبطاً بحال الخزينة عند الطرفين المتنافسين<sup>(١)</sup>.

وصار لزاماً على من أراد كبح جماح الحجاز أن تكون له قوة عسكرية في مكة أو قريبة منها، ولم تكن القاهرة أو بغداد مستعدة لإرسال جندها إلى مكة وتحمل تكاليف إقامتهم بشكل دائم، فكان من الطبيعي أن تتوجه الأنظار إلى اليمن التي كانت منقسمة على نفسها آنذاك بين عدد من القوى والكيانات السياسية، دان بعضها بالولاء للعباسيين مثل الزياديين (٢٠٤هـ/ ٨١٨م - ٤١٢هـ/ ١٠٢٢م) في تهامة، ثم مواليهم من بني نجاح، إلا أنهم

(١) ابن فيض الله: الصليحيون، ص ٢٢١، ٢٢٨-٢٣٠؛ طقوش: تاريخ الفاطميين، ص ٣٧٢-٣٧٥.

لم يكونوا من القوة في ظل الصراع السياسي والعسكري الذي شهدته اليمن خلال تلك المرحلة بحيث يعتمد عليهم في فرض الولاء الدائم للعباسيين على أشرف مكة.

إلا أنه خلال منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي تمكن علي بن محمد الصليحي أبرز دعاة الفاطميين في اليمن من إقامة دولة شملت أجزاء اليمن كافة، ونجح سنة (٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م) في بسط سلطانه على مكة، وأخضع أشرفها للدولة الفاطمية<sup>(١)</sup>، وهكذا وجد الفاطميون في الصليحيين ضالته، حيث شكلوا أكبر مركز للدعوة الفاطمية في الجزيرة العربية، ومنها يتم الإشراف على الدعوة في عمان والهند<sup>(٢)</sup>، وقد تجلّى اعتماد الفاطميين على الصليحيين في ضمان ولاء أشرف مكة لهم من خلال ما عانته مصر خلال الشدة المستنصرية، حيث أرسل الخليفة الفاطمي المستنصر بالله إلى الملك المكرم أحمد بن علي الصليحي يأمره بإنفاذ الطعام إلى مكة التي أصابها المجاعة بانقطاع الميرة من مصر<sup>(٣)</sup>.

ويتضح لنا مما سبق مدى التأثير الذي مارسته اليمن على الحجاز نتيجة الترابط الكبير بينهما وتأثير اليمن المباشر في الأحداث في الحجاز.

### ثانياً: أهمية اليمن الاقتصادية.

حوت أرض اليمن من الثروات الطبيعية ما جعلها مصدر إثراء للكثير ممن أتبع لهم التحكم بتلك الموارد واستثمارها الاستثمار الأمثل، وقد أسهبت

(١) السروي: الحياة السياسية، ص ٥٢-٥٣.

(٢) ابن فيض الله: المرجع السابق، ص ٢٢١-٢٢٧.

(٣) طقوش: المرجع السابق، ص ٣٧٥.

المصادر في الحديث عن الثروات التي تمتعت بها اليمن عبر العصور، حتى إن مقدار ما كان يصل إلى حاضرة الخلافة العباسية من أموال اليمن زمن تبعيتها للخلافة العباسية بلغ في بعض الفترات ستمائة ألف دينار سنوياً<sup>(١)</sup>، علمًا بأن سيطرة العباسيين لم تكن شاملة كل أجزاء اليمن في تلك المرحلة التي تقسمت فيها اليمن بين عدد من القوى والكيانات سياسية، ولم يبق للعباسيين من نفوذ إلا ما تمثل فيما قدمته الدولة الزيدية من فروض الولاء والطاعة<sup>(٢)</sup>، بل إن معدل الأموال التي كانت تحصل من تهامة فقط بلغت في بعض الفترات ألف دينار سنوياً، وذلك في عهد أبي الجيش إسحاق بن زياد<sup>(٣)</sup>، وكذلك في عهد الصليحيين حين بلغت الأموال المحصلة لهم من تهامة ألف دينار سنوياً ومن عدن مائة ألف دينار<sup>(٤)</sup>.

وفيما يأتي سنتناول بعض ما ذكرته المصادر التاريخية ولا سيما كتابات الجغرافيين والرحالة عما تحويه أرض اليمن من ثروات وأبرز عائداتها:

١- الزراعة:

شكلت الزراعة المصدر الرئيس للدخل في اليمن، وذلك لاشتغال السواد الأعظم من اليمنيين بها، كما أن الضرائب المحصلة منها بأنواعها تحت مسمى

(١) ابن خرداذبه (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله): المسالك والممالك، تح: محمد محرم، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ١- ١٩٨٨م، ص ١٢٣.

(٢) عمارة: المفيد، ص ٥٥؛ الخزرجي: المسجد، ص ٩٨، ١٠٤.

(٣) ابن المجاور (أبو الفتح يوسف بن يعقوب الشيباني): صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسمى (تاريخ المستبصر)، تح: أوسكار لوفجرين، دار التنوير للطباعة والنشر - بيروت، ط ٢- ١٩٨٦م، ص ١٨٤.

(٤) عمارة: المفيد، ص ١٠٢، ١٤١؛ ابن الديبع: الفضل المزيد، ص ٥٧.

(الخراج) كانت في مجموعها تمثل المورد الرئيس لخزينة الدولة في اليمن<sup>(١)</sup>. ونظرًا لتوافر الظروف المناخية الملائمة للزراعة، وخصوبة التربة في اليمن، فضلًا عن تمرُّس اليمنيين في الزراعة عبر العصور كما تدل الآثار اليمنية القديمة<sup>(٢)</sup>؛ كل ذلك أدى إلى وفرة المنتجات الزراعية اليمنية وتنوعها تنوعًا يندر أن تجود به كثير من البلدان الزراعية. وقد أبدى الجغرافيون العرب إعجابهم بالخيرات التي تنتجها أرض اليمن، فيقول ابن الفقيه الهمداني: "... باليمن من أنواع الخصب وغرائب الثمر وطرائف الشجر ما لا ينبت في بلاد الأكاسرة والقياصرة..."<sup>(٣)</sup>. واكتسبت منتجات اليمن الزراعية أهمية بالغة بالنسبة لاقتصاد المنطقة لا سيما الحجاز الذي لم يكن يتمتع بظهير زراعي يوفر له احتياجاته من الحبوب بأنواعها.

وقد أفاض الرحالة والجغرافيون في وصف تنوع المنتجات الزراعية اليمنية، حيث زرعت الحبوب بمختلف أنواعها كالقمح والشعير، كما زرعت الذرة الصفراء والبيضاء والحمراء، والدخن<sup>(٤)</sup> والأرز في بعض مناطق اليمن<sup>(٥)</sup>، ومن المنتجات الزراعية الفواكه والخضروات مثل الحمضيات بأنواعها والتفاح والمشمش والإجاص والكمثرى والعنب

(١) السروري: الحياة السياسية، ص ٥١٥ - ٥١٦.

(٢) الشيبه: دراسات، ص ٣٩ - ٤٠، ١٠٠؛ الجرو: التاريخ السياسي، ص ٩٩ - ١٠٣.

(٣) ابن الفقيه الهمداني (أبو بكر أحمد بن إبراهيم): مختصر كتاب البلدان، تح: دي جويه، ليدن - ١٨٨٤م، ص ٣٤.

(٤) الهمداني (أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب): صفة جزيرة العرب، تح: محمد بن علي الأكوع، مركز الدراسات والبحوث اليمنية - صنعاء، ط ٢ - ١٩٨٣، ص ٣١٧.

(٥) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص ٦٣.

والموز، كما انتشرت زراعة اللوزيات<sup>(١)</sup>، واشتهرت اليمن بزراعة النخيل ولا سيما في حضرموت وتهامة، والذي كان يشكل موردًا ضخمًا من موارد خزينة الدولة نظرًا للأرباح الهائلة التي يجنيها أربابها من النخيل ومنتجاته<sup>(٢)</sup>.

كما انتشرت في كثير من المناطق اليمنية زراعة النباتات العطرية ذات الروائح الطيبة، التي استخدمت في عمل الطيب والعطور مثل الرياحين، والنرجس، والياسمين، والبنفسج، والورد، والزعفران، والحناء، والكاذي، والورس<sup>(٣)</sup>. وزرعت كذلك نباتات ذات خصائص علاجية استخدمت في صناعة العقاقير الطبية مثل دم الأخوين، والصبر، والقرص - الذي استخدم في الدباغة -، واللبان الذي اشتهرت به أرض اليمن<sup>(٤)</sup>.

## ٢- الثروة الحيوانية (البرية والبحرية):

اهتم اليمنيون بتربية مختلف أنواع الماشية لتلبية احتياجاتهم الزراعية والحياتية، فقد اهتموا اهتمامًا بالغًا بتربية الأبقار التي اشتهرت أنواع منها كالجبلانية - نسبة إلى جبلان وهي منطقة في المرتفعات بين وادي رمع وسهام -، وكذلك تربية الأغنام والماعز<sup>(٥)</sup>، كما لقيت تربية الإبل رواجًا

(١) ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر): الأعلاق النفيسة، مطبعة بريل - لندن، د.ط - ١٨٩١م، ص ١١١؛ الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ٣١٤.

(٢) ابن المجاور: المصدر السابق، ص ٧٨-٨١، ٩١-٩٢.

(٣) الرازي (أحمد بن عبدالله بن محمد الصنعاني): تاريخ مدينة صنعاء، تح: حسين العمري، صنعاء، ط ٢- ١٩٨١م، ص ١٨٥، ١٩٦.

(٤) ابن الفقيه الهمداني: مختصر كتاب البلدان، ص ٣٦؛ ابن المجاور: المصدر السابق، ص ٢٦٦.

(٥) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص ١١٢؛ الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ٢٦٩، ٣١٦، ٣٢٠.

نظراً لمنافعها المتعددة ولا سيما في مجال نقل السلع والبضائع، واشتهر كثير من أنواع الإبل مثل المهريّة، والصيعرية - نسبةً لقبائل الصيعر -<sup>(١)</sup>.

أما الخيل فقد كانت تتمتع بمكانة خاصة لدى اليمنيين فهي مركوب الفرسان والأمراء، وعلى الفرسان يكون الاعتماد في كسب المعارك والفوز فيها، فزاد الطلب عليها داخلياً وخارجياً ولا سيما الهند<sup>(٢)</sup>، واشتهرت الخيول اليمنية بعراقتها حتى إنها كانت تستخدم في السباق<sup>(٣)</sup>، وقد انتشرت تربية الخيول في تهامة ولدى القبائل القاطنة في المرتفعات من صنعاء إلى صعدة إلى سهول الجوف<sup>(٤)</sup>.

وهناك كثير من المنتجات الحيوانية ذات القيمة الاقتصادية في اليمن مثل العنبر الذي يستخدم في صناعة العقاقير الطبية ولا سيما في عدن التي اشتهرت بصناعة العطور في أرجاء الأرض كافة<sup>(٥)</sup>، وهناك العسل اليمني بأنواعه المتعددة، الذي لقي رواجاً داخل اليمن وخارجها لفوائده الغذائية والطبية<sup>(٦)</sup>، وأما بالنسبة للمنتجات البحرية فقد أفاد اليمنيون من الشواطئ الطويلة لبلادهم التي تزخر بطيبات البحر كافة، فعمل معظم سكان السواحل اليمنية في صيد الأسماك واستخراج زيت الحوت، فضلاً عن الغوص

(١) المسعودي: مروج الذهب، ج ١/ ص ١٠٣؛ ابن المجاور: المصدر السابق، ص ٢٦٦.

(٢) ابن المجاور: تاريخ المستنصر، ص ١٤٤.

(٣) ابن بطوطة (محمد بن عبدالله بن محمد اللواتي): رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تح: د.علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ٤ - ١٤٠٥هـ، ج ١/ ص ٣٦٤.

(٤) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ٣٢٠.

(٥) المسعودي: مروج الذهب، ج ١/ ص ١٠٣.

(٦) ابن المجاور: المصدر السابق، ص ١٢١.

لاستخراج اللؤلؤ، حتى صارت مغاص اللؤلؤ إحدى مصادر الدخل في الدولة الزيدية<sup>(١)</sup>.

### ٣- الصناعة والتعدين :

أفاد اليمنيون من الثروات الطبيعية التي تزخر بها بلادهم، فظهرت جماعات من الصنّاع والحرفيين اليمنيين في المجالات كافة منذ أقدم العصور، وذلك من خلال ما قدمته لنا الآثار والنقوش التي تزخر بها المتاحف وتحمل دلالة واضحة على مهارة الصانع اليمني ومدى إتقانه لعمله حتى صارت بعض الصناعات ترتبط باليمن كالعقيق اليمني. ومن أبرز الصناعات اليمنية :

#### صناعة الأقمشة والملابس :

عمل أهل اليمن في صناعة الملابس والأقمشة منذ عصر الدويلات اليمنية القديمة، وقد استمرت تلك الصناعة في العصور الإسلامية حتى اشتهر كثير من تلك المنتجات بجودتها وفخامتها، ولقيت سوقاً رائجة خارج اليمن، ومن أبرز تلك المنتجات: البرود والعمائم والأردية والفوط والأزر. وتفنن اليمنيون في تزيين منتجاتهم بالألوان والتطريز (الوشي)<sup>(٢)</sup>.

#### صناعة السلاح :

في مجتمع عاش منذ أقدم عصوره في فتن وحروب داخلية وخارجية لقيت صناعة الأسلحة وتجارها رواجاً هائلاً سواء في الأسواق المحلية أو

(١) عمارة: المفيد، ص ٦٤.

(٢) ابن رسته: الأعلام النفيسة، ص ١١٢؛ ابن المجاور: المصدر السابق، ص ٢٥٣.

الخارجية، حيث اشتهرت أنواع من الأسلحة اليمنية كالسيوف والدروع والتروس والخناجر والرماح والنصال والسكاكين<sup>(١)</sup>.

### التعدين:

عمل اليمنيون منذ أقدم العصور على استخراج المعادن التي تزخر بها بلادهم، وهي كثيرة متنوعة، فقد ذكر الهمداني كثيراً من مناجم الذهب مثل جبل سرواح قرب بيحان وقفاعة في صعدة من أرض خولان<sup>(٢)</sup>، وأما الفضة فقد كثرت مناجمها في أرض بني مذحج وكذلك في منطقة ما عرف بقرية (المعدن) التي اشتهرت بوفرة إنتاجها<sup>(٣)</sup>، كما استخراج الحديد من نغم وغمدان وصعدة وعدن<sup>(٤)</sup>، وهناك معادن الشب اليماني والرصاص والمرمر والملح الصخري<sup>(٥)</sup>.

ويعد العقيق أشهر المعادن المنسوبة إلى اليمن حيث ظهرت منه أنواع عديدة تختلف من حيث الجودة والإتقان، وأبرز مناطق استخراج العقيق هي

(١) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ٣٢٢؛ المؤلف نفسه: الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير، تح: محمد بن علي الأكوخ، وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء، ٢٠٠٤م، ج ٢ / ص ٣٩.

(٢) الهمداني (أبو محمد الحسن بن علي): كتاب الجوهريتين العتيقتين المائعتين من الصفراء والبيضاء، تح: كريستوفر تول، تر: يوسف محمد عبدالله، وزارة الإعلام والثقافة - صنعاء، ط ٢ - ١٩٨٥م، ص ٢٣ - ٢٦؛ ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص ١٩٩.

(٣) الهمداني: الجوهريتين، ص ١٢٧، ١٢٩. وقرية المعدن: قرية خاربة في بلاد نهم اشتهرت بوفرة إنتاجها من الفضة؛ انظر: المقحفى، المعجم، مج ١ / ص ١٥٧٤.

(٤) ابن المجاور: المصدر السابق، ص ١٠٦.

(٥) ابن الفقيه الهمداني: مختصر كتاب البلدان، ص ٣٧؛ ابن المجاور: المصدر نفسه، ص ١٩١.

جبال صنعاء وذمار وشهارة<sup>(١)</sup>، وهناك الجزع الذي ظهرت منه أنواع كثيرة كالفارسي والمعرق ويستخرج من سعوان ووادي عشار ومنها يستخرج البلور<sup>(٢)</sup>، وتكمن أهمية العقيق والجزع في أنهما استخدما بكثرة في تزيين الخواتم فصوصًا وتزيين الأواني والأدوات المنزلية، وتزيين مقابض السيوف والخناجر، فقد ذكر أن علي بن محمد الصليحي أرسل إلى الخليفة الفاطمي المستنصر هدية فاخرة من بينها سبعون سيفًا قوائمها من العقيق<sup>(٣)</sup>.

فضلا عن ذلك، فقد أتقن أهل اليمن استخدام الحجر بأنواعه في البناء والصناعات الأخرى منذ القدم، حيث صنعت بعض الأواني والأقداح من الحجر الذي يشبه الرخام<sup>(٤)</sup>، وقامت كذلك صناعة الزجاج في ضواحي عدن مثل اللخبة<sup>(٥)</sup>.

كما أن توافر تلك الأعداد الهائلة من الثروة الحيوانية أدت إلى ازدهار الصناعات الجلدية من الدباغة وعمل السروج وتزيينها، وصناعة النعال وأدم الكتابة، وجلود الفرشة والدروع<sup>(٦)</sup>، وتجليد الكتب<sup>(٧)</sup>.

فضلا عن ذلك، فإن كثرة الغابات باليمن أمد أعمال البناء وصناعة السفن بكميات كبيرة من الأخشاب، التي استخدمت كذلك وقودًا للأفران

(١) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ٣٢١-٣٢٢؛ الإكليل، ص ٥٨-٥٩.

(٢) الهمداني: الإكليل، ج ٨/ ص ٥٩. (٣) الخزرجي: العسجد، ص ٥٧.

(٤) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ٣٢٢.

(٥) ابن المجاور: المصدر السابق، ص ١٤٨.

(٦) السروري: الحياة السياسية، ص ٤٧٥-٤٧٦.

(٧) المقدسي (شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر): أحسن التقاسيم في

معرفة الأقاليم، مطبعة بريل - ليدن، ط ٢- ١٩١٩م، ص ٩٨.

التي تحتاجها الصناعات الأخرى<sup>(١)</sup>.

#### ٤- التجارة:

إن تميز موقع اليمن كما أوضحنا من قبل جعل منها أبرز محطة في المياه الجنوبية للتجارة بين الشرق والغرب، الأمر الذي أدى إلى انتعاش الحركة التجارية وازدهار الموانئ اليمنية ولا سيما ميناء عدن الذي صار أكبر موانئ الجزيرة العربية عموماً، وأهم محطة للتجارة الشرقية القادمة من الهند والصين وغيرها من شعوب شرق آسيا<sup>(٢)</sup>.

وقد أظهر اليمنيون براعة فائقة في استثمار المزايا الاقتصادية والتجارية لموقع بلادهم، فحاضوا بمراكبهم عباب المحيط الهندي طلباً لمتاجر الهند والصين حتى وصلوا إلى سواحل الهند الغربية والجنوبية، بل إن التجار اليمنيين وصلوا إلى سواحل سرنديب (سيلان) والصين<sup>(٣)</sup>، مما يدل على اطلاع أهل اليمن على فنون الملاحة وإتقانهم إياها كي يتمكنوا من السفر عبر البحار في مواسم معينة ومسالك معروفة<sup>(٤)</sup>.

ونتيجةً لذلك حقق أهل اليمن نجاحاً باهراً في التجارة البحرية والبرية، وتوسعت بذلك صلاتهم التجارية لتشمل الشعوب كافة التي تمكنوا من التواصل معها منذ أقدم العصور؛ فقالوا: "...أبعد الناس نجعة في الكسب بصري وحميري، ومن دخل فرغانه القصوى والسوس الأقصى فلا بد أن

(١) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص ٦٣.

(٢) قائد: التطور التاريخي، ص ٥٤ - ٥٥.

(٣) ترسيبي (عدنان): بلاد سبأ وحضارات العرب الأولى، دار الفكر المعاصر - بيروت، ط ٢- ١٩٩٠م، ص ٤٢-٤٣؛ السروري: الحياة السياسية، ص ٤٨٤-٤٨٦.

(٤) ابن المجاور: المصدر السابق، ص ١١٧؛ السروري: المرجع نفسه، ص ٤٨٦.

يرى فيها بصرياً أو حميريًا...<sup>(١)</sup>. وقد عثر على عدد من الآثار اليمنية القديمة في مناطق متعددة من الشرق القديم بل حتى في بعض الجزر اليونانية<sup>(٢)</sup>، وفي مصر البطلمية عثر على ناؤوس -تابوت حجري - لتاجر معيني كانت له مراكب تسافر عبر البحر الأحمر لتجلب السلع من اليمن وغيرها<sup>(٣)</sup>.

وكانت المتاجر الشرقية تصب في موانئ اليمن مثل قنا (بئر علي) وعدن وموزا (المخا)، ومنها تحملها القوافل التجارية إلى المحطات التجارية المهمة في الجزيرة العربية كنجران والفاو والعللا، حيث تواصل السير نحو غزة أو عبر سيناء إلى مصر<sup>(٤)</sup>، وفي الوقت نفسه كان طريق تجاري من حضرموت وظفار يسير عبر أطراف صحراء الربع الخالي ثم الساحل الشرقي للجزيرة العربية وصولاً إلى جنوب العراق، وقد استمر هذا الطريق حتى بعد الإسلام بقرون عديدة<sup>(٥)</sup>.

هذا بالنسبة إلى الطريق البري، أما الطريق البحري فقد كان أقصر الطرق التجارية على الرغم من مخاطره، فضلاً عن أن السفن مكنتهم من نقل قدر أكبر من السلع والبضائع والوصول بها إلى أماكن متفرقة من موانئ

(١) ابن الفقيه الهمداني: مختصر كتاب البلدان، ص ٥١.

(٢) الشيبه: دراسات، ص ٤٨؛ الجرو: التاريخ السياسي، ص ١٨٢.

(٣) الشيبه: المرجع نفسه، ص ٤٧-٤٨؛ الجرو: المرجع نفسه، ص ١٨٢.

(٤) السروري: المرجع السابق، ص ٤٨٧؛ الشيبه: المرجع نفسه، ص ٤٧.

(٥) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص ٢٦٣-٢٦٤؛ يحيى بن الحسين: أنباء الزمن في تاريخ اليمن، نسخة مصورة عن المخطوط في مكتبة الدكتور عبدالرحمن الشجاع، ص ١٩٧؛ المطاع (أحمد بن أحمد بن محمد): تاريخ اليمن الإسلامي من سنة ٢٠٤هـ إلى سنة ١٠٠٦هـ، تح: عبدالله محمد الحبشي: شركة دار التنوير - بيروت، ط ١- ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م، ص ٢٩٦.

بلاد فارس وجزر المحيط الهندي والبحر الأحمر وكذلك موانئ شرق إفريقيا ومصر<sup>(١)</sup>.

وقد أدى اشتغال اليمنيين بدور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب، فضلاً عما تنتجه بلادهم من سلع ومنتجات؛ أدى ذلك إلى توسيع صلاتهم التجارية في المنطقة حتى صار "... للنشاط التجاري في اليمن أثر كبير في قيام دويلات عربية على تخوم الشام والعراق في عصر الجاهلية منها دولة الأنباط، والتدميين، ومملكة المناذرة في الحيرة..."<sup>(٢)</sup>.

ومن جهة أخرى فقد كان موقع بلاد اليمن التجاري المهم وثرواتها الهائلة وخصوبة أراضيها سبباً رئيساً في سعي شعوب المنطقة إلى توطيد علاقاتها الاقتصادية - التجارية بالذات - باليمن، وإن تطلب ذلك استخدام القوة العسكرية وغزو بلادهم والسيطرة عليها، إذ يقول (إسترابون) إن السبب الرئيسي للحملة الرومانية على اليمن هو رغبة الإمبراطور (أغسطس أوكتافيوس) في السيطرة على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، وأن ما سمعه عن ثروة أهل اليمن جعلته يحدد سياسته مع العرب بالتعامل معهم بوصفهم "... أصدقاء أغنياء، وإما أن يتغلب على أعداء أغنياء..."<sup>(٣)</sup>.

وهكذا فقد تمكن الحميريون بفضل مراكبهم التجارية المتنقلة بين موانئ اليمن وموانئ الهند والصين والصومال وسومطرة، وقوافلهم التي عبرت

(١) صادق: التطور التاريخي، ص ٥٥-٥٦؛ ترسيبي: بلاد سبأ، ص ٤٢، ٩٢.  
 (٢) سالم (السيد عبدالعزيز): تاريخ الدولة العربية، مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية، د.ط - ٢٠٠١م، ص ٦.  
 (٣) العبادي (أحمد صالح محمد): اليمن في المصادر القديمة اليونانية والرومانية (٤٨٥ق.م - ١٠٠م)، وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء، ٢٠٠٤م، ص ١٧٧.

الجزيرة العربية شرقاً وغرباً إلى بلاد الرافدين وفلسطين ومصر، من جنبي مكاسب هائلة من التجارة سواءً كانت دخلاً للدولة على هيئة المكوس والضرائب أو مكاسب تجارية، فقد ذكرت المصادر الكلاسية أن السبئيين والجرهائيين كانوا من أغنى شعوب المنطقة بسبب تحكمهم بالتجارة الشرقية، واحتكارهم تجارة المر واللبان والبخور المستخدمة في الطقوس الدينية في العصور القديمة مما عاد عليهم بمكاسب بلغت مئات الدنانير على حمل الجمل الواحد<sup>(١)</sup>.

وفي العصور الإسلامية ظلت اليمن محافظة على مكانتها الاقتصادية في مجال التجارة رغم تغير الأوضاع السياسية في المنطقة، والتطورات الاقتصادية والتجارية، فقد توسع الجغرافيون العرب في وصف الحركة التجارية في اليمن لا سيما ميناء عدن، فقد ذكر ابن خرداذبة عدن قائلاً: "... بها العنبر والعود والمسك ومتاع السند والهند والصين والزنج والحبشة وفارس البصرة وجدة والقلزم..."<sup>(٢)</sup>، أما المقدسي فيصف عدن بأنها "... دهليز الصين وفرضة اليمن، وخزانة المغرب، ومعدن التجارة..."<sup>(٣)</sup>، ويتحدث ابن المجاور عن حركة التجار والمراكب من وإلى عدن والأقطار التي تبحر إليها الأمر الذي يدل على السمعة التجارية لليمن في العصر الإسلامي<sup>(٤)</sup>. ومع ظهور الدولة الفاطمية ازدهرت الحركة التجارية في البحر الأحمر ازدهاراً ملحوظاً، الأمر الذي أدى إلى ازدهار

(١) بافقيه: تاريخ اليمن، ص ١٧٣.

(٢) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص ٦١.

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٨٥.

(٤) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص ١٤٤.

الحركة التجارية في الموانئ اليمنية نظراً لاهتمام الفاطميين بتجارة البحر الأحمر وحماية السفن التجارية فيه، وكذلك ظهور جماعة تجار الكارم<sup>(١)</sup> الذين كان لهم دور بارز في التجارة بين الشرق والغرب بفضل نشاطهم المتزايد في هذا الطريق البحري<sup>(٢)</sup>، وتؤيد كتابات الإدريسي وياقوت

(١) الكارم: لفظ أو اصطلاح أطلق على طائفة من التجار المشتغلين بتجارة التوابل، ثم عم ليشمل المشتغلين بالتجارة مع الشرق في العصر الإسلامي، وقد اختلف حول أصل تلك التسمية بين عدد من الآراء أبرزها:

- أ - أنها مشتقة من كانم وهي منطقة في السودان الغربي تقع بين بحر الغزال وبحيرة تشاد، ثم انتشر الاسم وحُرِّف إلى كارم ليشمل المشتغلين بتجارة البهار.
- ب - هناك من يعتقد أن اسم كارم من لفظة "كاراراما" Kuararima، وهي لفظة أمهرية تعني "الخبهان"، وهو نوع من التوابل التي كانوا يتجرون فيها، ثم صحفت إلى كارم وأطلقت على التجار.
- ج - أنها من أصل هندي، فكلمة "كارم" الهندية "Karyma" تعني الأعمال الحرة، ويقصد بها الأعمال المرتبطة بين سكان الساحل الغربي من الهند وتجار الشرق.

د - هناك من يفسرها بأنها كلمة من مقطعين "كار" و"يم" أي عمل أو حرفة البحر فتصبح "كاريم" تجارة البحر.

ومهما يكن أصل الكلمة فإن التاجر الكارمي اصطلاح على أنه التاجر الذي يشتغل بالتجارة الشرقية بوجه عام والتوابل على وجه الخصوص، ويعود أول ذكر لهم إلى أيام الفاطميين الذين خصصوا قطعاً من أسطولهم في البحر الأحمر لحماية تجار الكارم، الأمر الذي يدل على المكانة الاقتصادية لتلك الطائفة التجارية في الدولة الفاطمية. لمزيد من التفاصيل عن تجار الكارم انظر: قائد حميد عثمان، تجارة الكارم.. ودور مدينة عدن في النشاط التجاري الدولي منذ عهد الزريعيين حتى نهاية حكم بني رسول (٥٣٢هـ / ١١٣٧م - ٨٥٨ / ١٤٥٤م)، مجلة اليمن، مركز البحوث والدراسات - جامعة عدن، العدد ٢٣ - جمادى الأولى ١٤٢٧هـ / مايو ٢٠٠٦م، ص ٤٩-٥٠.

(٢) الفلقشندي (أحمد بن علي): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرح وتعليق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١ - ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ج ٣ / ص ٥٢٠، ٥٢٤.

الحموي ما لعدن من أهمية ونشاط تجاري بالغين في القرنين السادس والسابع الهجريين<sup>(١)</sup>.

وقد بلغ ازدهار التجارة اليمنية ونموها حدًّا أن صارت تشكل مصدرًا مهمًّا من مصادر الدخل لدى كثير من الكيانات السياسية في اليمن، حتى ذكر عمارة أن ضرائب الأمير الزيادي أبي الجيش شملت "... مراكب الهند من الأعواد المختلفة والمسك... ضرائب العنبر على السواحل... ضرائبه على معادن اللؤلؤ وعن ضرائبه على صاحب جزيرة دهلك..."<sup>(٢)</sup>.

### السلع التجارية:

#### ١- الصادرات:

صدّرت اليمن العديد من السلع ذات الأهمية في تجارة العصر الإسلامي، كان من أبرزها الأحجار الكريمة كالعقيق والجزع، والأسلحة كالسيوف والرماح والخناجر، ولقيت المنسوجات اليمنية رواجًا في الأسواق الخارجية لا سيما البرود والثياب المطرزة التي اشتهرت بها اليمن<sup>(٣)</sup>، وهناك مواد الصباغة التي كان الإقبال عليها كبيرًا في أرجاء العالم كالورس والفضة<sup>(٤)</sup>.

(١) الإدريسي (أبو عبدالله محمد بن محمد بن إدريس الحسني): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب - بيروت، ط١- ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م، ج١/ ص٥٤؛ ياقوت (ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي): معجم البلدان، دار الفكر - بيروت، د.ط - د.ت، ج٢/ ص٨٩.

(٢) عمارة: المفيد، ص٦٤. (٣) السروري: الحياة السياسية، ص٤٨٩.

(٤) ابن المعجور: تاريخ المستبصر، ص١٤٠، ١٧٤-١٧٥؛ السروري: المرجع نفسه، ص٤٨٣.

وبالنسبة إلى الحيوانات فقد كانت البغال والحمير والجمال من ضمن الصادرات، أما الخيول اليمنية التي اشتهرت بأصالتها وخفتها فإن الطلب عليها كان كبيراً لا سيما في الهند<sup>(١)</sup>. يقول المقدسي عن الصادرات اليمنية: "... اليمن معدن العصائب، والعقيق والأدم، والرقيق، فإلى عمان تخرج آلات الصيادلة والعطر كله حتى السمك المجفف والزعفران واليقم والساج،... واللؤلؤ، والديباج، والجزع واليواقيت، والأبنوس، والنارجيل، والعنبر، والاسكندروس، والصبر والحديد والرصاص والخيزران،... والصندل والبلور والفلفل وغير ذلك..."<sup>(٢)</sup>، وإن المتأمل للقائمة التي ذكرها المقدسي يلاحظ أن من بين السلع المذكورة أشياء لا تنتجها اليمن بل تصلها من بلدان أخرى كالعاج وخشب الساج وغيرها<sup>(٣)</sup>.

## ٢- الواردات:

كانت اليمن تستورد عددًا من المواد، بعضها لتلبية احتياجات السوق اليمنية كالسكر والأرز والصابون، وزيت الزيتون، والزيتون المملح ومعظمها تستوردها اليمن عبر مصر<sup>(٤)</sup>، وبعضها الآخر للمتاجرة بها مع بلدان أخرى مثل سلع الهند، فكانت اليمن تتاجر بمعظم ما تستورده من الهند من الحلبي كالأساور والخرز، والغلمان، وحطب القرنفل والصندل والكافور والفلفل وأنياب الفيل، ومن الصين تستورد اليمن الحرير والكيمنخت والمسك والعود

(١) ابن المجاور: المصدر السابق، ص ١٤٤.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٩٦-٩٧.

(٣) السروري: الحياة السياسية، ص ٤٩١.

(٤) ابن المجاور: المصدر السابق، ص ١٤٢.

والسروج والحديد والخزف الصيني والأبنوس<sup>(١)</sup>، ومن سرنديب وسيلان الياقوت والماس والدر والبلور<sup>(٢)</sup>، ومن جنوب شرق إفريقيا الذهب والعاج والشمع وقشر السلحفاة وقرن الكركدن وكميات من جوز الهند والرقيق والجواري<sup>(٣)</sup>.

ويتضح مما سبق مدى ازدهار تجارة اليمن الخارجية والداخلية في العديد من المدن كصنعاء وزبيد وصعدة، أما عدن فقد ظلت بلا منازع أكبر ميناء في الجزيرة العربية وحلقة الوصل بين التجارة الشرقية والغربية، يقصدها التجار من الأنحاء كافة لعلمهم بأنها سوق رائجة للسلع كافة ومحطة رئيسة في الطريق إلى مصر، فضلا عن ثراء اليمن بثرواتها الطبيعية والزراعية، وإنتاجها الصناعي والحرفي، وإمكاناتها التجارية، وذلك في ظل الاستثمار الأمثل لتلك الموارد، مما أهل اليمن لتقوم بدور مهم في الحرب الاقتصادية التي شنّها صلاح الدين الأيوبي ضد الوجود الصليبي في المنطقة.



(١) ابن خرداذبه: المصدر السابق، ص ٧١.

(٢) ابن خرداذبه: المصدر نفسه، ص ٧١.

(٣) السروري: الحياة السياسية، ص ٤٩٢.



## الفصل الثاني

### الموقف السياسي (الرسمي)

#### • المبحث الأول: موقف اليمن قبيل الحكم الأيوبي

أولاً: موقف القوى السياسية في اليمن قبيل الحكم الأيوبي  
ثانياً: تداعيات الأوضاع في اليمن وانعكاساتها على أمن المنطقة

أ. دولة بني مهدي ونشاطها العسكري

ب. القرصنة البحرية وتهديدها للملاحة في المنطقة

ج. محاولات الصليبيين النفاذ إلى البحر الأحمر والحجاز

#### • المبحث الثاني: موقف اليمن السياسي تحت الإدارة الأيوبية

أولاً: أسباب اهتمام الأيوبيين باليمن .

أ - روايات المؤرخين حول أسباب حملة توران شاه على اليمن

ب - استقراء الأسباب التي جعلت صلاح الدين يعمل على ضم

اليمن إلى سلطانه.

ثانياً: النتائج السياسية لتولي الأيوبيين زمام الإدارة في اليمن

#### • المبحث الثالث: موقف اليمن السياسي خلال

#### الحكم الرسولي

أولاً: علاقة بني رسول السياسية بمصر وبغداد .

ثانياً: المراسلات.

ثالثاً: دور اليمن في عزل الحبشة عن القوى الصليبية.



### الموقف السياسي (الرسمي)

مع مستهل القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي تمكن الصليبيون (الفرنج) من تأسيس مملكة القدس اللاتينية، وتوسيع نفوذها في ظل الفرقة والانقسام الذي تعيشه بلاد الإسلام، والخلافات السياسية والصراع العسكري اللذين استحوذا على العلاقات بين المسلمين في ظل خلافتين متصارعتين على النفوذ، وعدد من الكيانات السياسية المتأرجحة الولاء تبعاً لمصالحها السياسية والعسكرية.

وقد جر انقسام بلاد الإسلام وتفرقها على الأمة من الولايات والحروب ما كانت في غنى عنه في ظل الوجود الصليبي في المنطقة، فقد نتج عن الصراع بين الخلافتين العباسية والفاطمية عدم وجود قيادة موحدة تتولى مسؤولية الدفاع عن الأمة الإسلامية ضد العدوان الصليبي، وتتوحد في ظلها مختلف القوى السياسية والإمكانات الاقتصادية والعسكرية في بلاد الإسلام.

ونتيجةً لذلك فإن جهود الأقاليم الإسلامية تفرقت تبعاً لنوع الولاء الذي تدين به تلك الأقاليم، فقد كانت دولة السلاجقة والأتابكيات التابعة لها غارقة في خضم حروب بين السلاجقة أنفسهم، وقد بلغت شدة تلك الصراعات السياسية والنزاعات المسلحة حدًا باءت معه الجهود التي بذلها سلاطين السلاجقة وقادة جيوشهم في سبيل دحر العدو الصليبي وتحرير الأراضي التي احتلوها من ديار الإسلام؛ باءت بالفشل - رغم النجاح النسبي الذي حققته بعض تلك الحملات - وذلك بسبب عمق العداوات بين السلاجقة، ومن ثم الشرخ الذي أحدثته في سلسلة الأتابكيات

والإمارات التابعة لهم<sup>(١)</sup>.

وأما بالنسبة إلى الدولة الفاطمية فإن الجهود التي بذلها الوزير الأفضل بن بدر الجمالي لاسترداد بيت المقدس والدفاع عن الموانئ الشامية؛ كانت تفتقر إلى أقل قدر من الانضباط العسكري على الرغم من ضخامة استعداداتها وذلك بسبب توزيع ولاءات الجند بين عدد من القيادات في الدولة الفاطمية، وهو ما ظهر جلياً في الخلاف الذي نشب بين أمير الأسطول وأمير الجيش في حملة سنة (٤٩٥هـ / ١١٠٢م) الذي تسبب في فشل تلك الحملة وانتهائها بكارثة<sup>(٢)</sup>، فضلاً عن أن تلك السلطات الفاطمية في إرسال الإمدادات العسكرية والمؤن إلى المدن الساحلية المحاصرة - والتي كانت نداءات استغايتها لا تنقطع عن القاهرة - تسبب في سقوطها أخيراً في يد الصليبيين<sup>(٣)</sup>.

ولم تكن الصراعات والعداوات الناتجة عنها لتسمح بنجاح أي عمل عسكري فاعل ضد الصليبيين، سواء المحاولات التي قامت بها الخلافة العباسية - متمثلة في دولة السلاجقة - وكذلك الخلافة الفاطمية كل على حدة، بل حتى التحالف الذي تم بين أتابكية دمشق بقيادة الأتابك طغتكين -

(١) محمد مؤنس عوض: الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية - القاهرة، ط ١ - ١٩٩٩م - ٢٠٠٠م، ص ١٥٠-١٥١، ١٥٥؛ رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢ / قسم ١ / ص ٢٢؛ عاشور: الحركة الصليبية، ج ١ / ص ١٤٩ - ١٥٠.

(٢) رنسيما: المرجع نفسه، ج ٢ / قسم ١ / ص ١٢٤-١٣٠؛ طقوش: تاريخ الفاطميين، ص ٤٤٥-٤٤٦؛ عاشور: المرجع نفسه، ج ١ / ص ٢٣٤-٢٣٦.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥ / ص ١٦٨-١٦٩؛ طقوش: المرجع نفسه، ص ٤٤٧، ٤٥٤.

التي تمثل دولة السلاجقة - وبين الدولة الفاطمية ممثلة في أمير جيوشها الأفضل بن بدر الجمالي انتهى بهزيمة قوات التحالف سنة (٤٩٨هـ/ ١١٠٥م)<sup>(١)</sup>.

وكانت تجمعات الحشاشين (الباطنية) في المنطقة تراقب عن كثب تحركات القوى الإسلامية، ويدهم تطال قادة الجهاد الإسلامي وسلاطين السلاجقة والخلفاء العباسيين والفاطميين لكي لا يشكلوا خطراً على نفوذهم في المنطقة، الذي اكتسبوه من خلال نشرهم الرعب بين المسلمين والصليبيين على السواء عبر سلاح الاغتيال الرهيب، الذي أجادوه واستخدموه بفاعلية في تنفيذ مآربهم للتخلص من خصومهم السياسيين، أو القادة الذين قد يشكلون خطراً عليهم، بل حتى العلماء لم يسلموا منهم، ولا يتسع المقام لتعداد جرائم الاغتيال التي قاموا بها ضد رموز الأمة وقادتها<sup>(٢)</sup>.

ولم تكن جرائمهم مصدر رعب وإرهاب في المنطقة فقط بل تجاوز خطرهم إلى وأد كل محاولة جادة في سبيل التصدي للصليبيين وطردهم، وذلك عبر استهداف أبرز قادة الجهاد الإسلامي، مما أخرج مسيرة الجهاد عقوداً بسبب الاضطرابات التي سببتها طعنات خناجرهم في ظهر الأمة، فضلاً عن تحالفهم الفاضح مع الصليبيين ضد المسلمين في كثير من

(١) ابن الأثير: الكامل، مج ٦/ ص ٤٥١-٤٥٢؛ عاشور: الحركة الصليبية، ج ١/ ص ٢٣٩-٢٤٠؛ رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢/ قسم ١/ ص ١٤٤-١٤٧.

(٢) الصلابي (علي محمد): دولة السلاجقة، دار المعرفة - بيروت، ط ١- ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص ٦٥٢-٦٥٦؛ عوض: الحروب الصليبية، ص ١٥٥-١٥٦.

الأوقات، مما جعل عددًا من العلماء يقدمون قتالهم على قتال الصليبيين بسبب مكرهم وكيدهم للأمة<sup>(١)</sup>.

وهكذا صار واضحًا استحالة التصدي للعدو الصليبي الذي تقف من ورائه أوروبا كلها في ظل الأوضاع السياسية المتردية التي تعيشها الأمة والمتجسدة في الآتي:

أ/ الانقسام والتمزق السياسي الذي تعيشه الأمة في ظل الخلافة العباسية المستضعفة من قبل سلاطين السلاجقة وقادتهم، التي ظلت تكافح في سبيل استعادة مكانتها وزعامتها الفعلية على ديار الإسلام، ولم يملكوا لمواجهة الغزو الصليبي إلا بذل الوعود بالنصرة وندب الفقهاء ليحثوا الأمراء المتصارعين الذين لا يدينون إلا بالولاء الاسمي لبغداد بأن يهبوا للذود عن ديار الإسلام<sup>(٢)</sup>.

وكذلك الخلافة الفاطمية التي لم تكن بأحسن حالاً من الخلافة العباسية بسبب تسلط وزرائهم عليهم، الذين كانوا أشد تعصباً ضد السنة من الفاطميين أنفسهم، كما أن الصراع السياسي بين الوزراء، والفوضى الضاربة أطنابها وسط الجيش، فضلاً عن انعدام الانضباط العسكري؛ كل ذلك أدى إلى عدم تمكن الفاطميين من التصدي بفاعلية وقوة للصليبيين، على الرغم من الموارد الهائلة التي وفرتها لهم مصر وتجارة البحر الأحمر.

(١) ابن تيمية (شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني): مجموعة الفتاوى، تخريج: عامر الجزار وأنور الباز، مكتبة العبيكان - الرياض، ط١ - ١٩٩٧م، ج٢٦ / ص ٢٦٢ - ٢٦٥.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق، مج٦ / ٣٨٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢ / ١٦٩ - ١٧٠.

ب/ الخلافات السياسية العميقة بين أمراء السلاجقة في العراق والشام حتى صار الشك والتآمر هما السمة المسيطرة على العلاقات فيما بينهم، مما جعل التنسيق مستحيلاً للعمل معاً ضد العدو الصليبي، بل إن بعضهم كان يکید للآخر خلال حربه للصليبيين<sup>(١)</sup>.

ج/ الانفلات الأمني الناجم عن الفوضى السياسية، مما جعل عناصر مخربة مثل الحشاشين تسيطر على عدد من القلاع والحصون، مؤسسين شبكة إجرامية غطت المنطقة كلها وقدمت خدماتها لمن يدفع لها حتى ولو كان الصليبيون أنفسهم، فشكلت بذلك عائقاً أمام مسيرة الجهاد ضد العدو الصليبي، وتحتم بذلك على أية قيادة جادة في جهاد العدو ومنازلته أن تتصدى لهم وتقضي على معاقلهم والجيوب التابعة لهم ومراكز تمويلهم.

يتبين مما سبق لنا مدى ضراوة المعركة السياسية التي يجب على أية قيادة إسلامية خوضها في سبيل توحيد المسلمين تحت راية خلافة واحدة، ومن ثم تستمد شرعيتها من الدعم الذي تتلقاه منها فتصبح جديرة بالتفاف المسلمين حولها في جبهة واحدة، تتوحد فيها جميع طاقات الأمة وإمكاناتها بعيداً عن الخلافات السياسية والمذهبية التي عصفت بالأمة الإسلامية واستنزفت إمكاناتها وثرواتها.

وستتناول فيما يلي الدور السياسي الذي لعبته اليمن - سلباً أو إيجاباً - في الصراع السياسي الذي عاشته الأمة، وأهميتها بالنسبة لاستراتيجية الجبهة الإسلامية الموحدة التي اتبعتها الزنكيون والأيوبيون من بعدهم.

(١) الصلابي: دولة السلاجقة، ص ٦٢٩؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية: ج ٢/ قسم ١/ ص ١٨٤، ٣٩٢؛ عاشور: الحركة الصليبية، ج ١/ ص ٣٥٤ - ٣٥٥.

## المبحث الأول

### موقف اليمن قبيل الحكم الأيوبي

فيما يلي سنتحدث عن طبيعة موقف اليمنيين السياسي من الخطر الصليبي الذي واجهته الأمة الإسلامية، وذلك من خلال محاولة استقراء الأوضاع السياسية في اليمن منذ أن بدأ الغزو الصليبي لديار الإسلام إلى سنة (٥٦٩هـ / ١١٧٤م) حين وصلت حملة توران شاه بن أيوب إلى اليمن.

### أولاً: موقف القوى السياسية في اليمن قبيل الحكم الأيوبي.

#### ١- الزيدية:

لقد ظلت الإمامة الزيدية في اليمن قائمة بذاتها منفصلة عن أئمة طبرستان، باستثناء بعض من دعوا لأنفسهم بالإمامة ولم يحالفهم الحظ في طبرستان وبلاد الديلم فقصدوا اليمن داعين لأنفسهم مثل الإمام الناصر أبو الفتح الديلمي<sup>(١)</sup>، إلا أنه مع مطلع القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي حصل تطور مهم في العلاقة بين الزيدية في اليمن وخارجها، وذلك أنه في سنة (٥٠٢هـ / ١١٠٩م) قام أبو طالب يحيى بن أحمد بن الحسين بن

(١) الإمام أبو الفتح الناصر بن الحسين بن محمد بن عيسى بن محمد بن عبد الله المعروف بالديلمي، ولد ونشأ بقرى الديلم من بلاد إيران، وأقام دعوته هناك، ولكنه لم يوفق، فقدم إلى صعدة سنة (٤٣٧هـ / ١٠٤٥م)، فانتشرت دعوته، والتف حوله كثير من الناس، ولكنه اصطدم بقوة الصليحيين الصاعدة فهزم وقتل سنة (٤٤٤هـ / ١٠٥٢م)؛ انظر: يحيى بن الحسين (الإمام يحيى بن الحسين الهاروني): الإفادة في تاريخ الأئمة السادة، صورة من المخطوط على قرص صلب من مكتبة الدكتور رعد الموسوي، ورقة (٣٨ أ)؛ الحداد: التاريخ، مج ٢/ ص ١٥٤-١٥٦.

الإمام المؤيد داعياً لنفسه بالإمامة في جيلان وبلاد الجبل واشتهر بالهاروني، وقد قام بخطوة جريئة إذ أرسل أحد أتباعه إلى اليمن داعياً له وذلك في سنة (٥١١هـ / ١١١٧م)، وقد لقيت دعوته ترحيباً من كثير من رجال الزيدية ووجهائها في اليمن، وعهد ذلك الداعي إلى أحد ذرية الهادي ويدعى المحسن بن الحسن بن عبدالله بن المختار بن الناصر القيام بأمر الدعوة له في اليمن، إلا أنه قتل بصعدة في العام نفسه كما بينا في الفصل السابق.

ولم يكن هذا التطور في علاقة الزيدية في داخل اليمن وخارجها، وذلك النجاح الذي أحرزته دعوة الإمام أبو طالب نتيجة للفراغ السياسي الذي عاشته الزيدية في اليمن خلال تلك المدة فقط، ولكن إذا تأملنا في الأحداث التي عاشتها بلاد الإسلام آنذاك من تزايد خطر الباطنية في وقت تواجه فيه الأمة الغزو الصليبي، فكان الحشاشون في خراسان وبلاد فارس ومراكزهم الأمامية في بلاد الشام كلها شكلت معوقات خطيرة في تفعيل المقاومة الإسلامية ضد الغزو الصليبي، بل صار قتال الباطنية مقدماً على قتال الصليبيين عند كثير من العلماء<sup>(١)</sup>.

وعلى الرغم من أن دعوة الإمام أبي طالب قد قامت بعيداً عن مواطن الجهاد ضد الصليبيين، فإنه قام بعمل في غاية الأهمية بالنسبة لقضية الجهاد الإسلامي، وذلك أنه منذ أن دعا لنفسه انتهج سياسة محاربة الباطنية، فتذكر المصادر أن أكثر حروبه ضد الباطنية، فقتل في يوم واحد (١٤٠٠) قتيل، وصلب منهم (٣٠٠) أحياء<sup>(٢)</sup>، وغزا في البحر إلى قرية لهم، فأخذها

(١) ابن تيمية: الفتاوى، ج٢٦ / ص٢٦٤.

(٢) المحلي: الحقائق الوردية، ج٢ / ص١٠٩؛ يحيى بن الحسين: الإفادة، ورقة (٣٨) أ، ب.

بالحصار حتى صالحه كبارهم، وافتتح من قلاعهم ثمانى وثلاثين قلعة<sup>(١)</sup>.  
لقد أسهمت جهود الإمام أبي طالب وحروبه ضد الباطنية بشكل غير مباشر في تخفيف الضغط على السلاجقة، الذين شغلوا منذ وفاة السلطان ملكشاه بالصراع فيما بينهم من جهة وحروبهم ضد الباطنية من جهة أخرى، لا سيما في مدة الاستقرار النسبي التي مروا بها مثل حكم السلطان محمد بن ملكشاه<sup>(٢)</sup>، الذي تفرغ بكليته لحرب الباطنية حتى قاد بنفسه حملة ضد قلعة أصبهان التابعة لهم، التي تشرف على حاضرة ملكه وذلك سنة (٥٠٠هـ / ١١٠٧م)<sup>(٣)</sup>.

ولم تكن الحرب ضد الباطنية بالأمر الهين حتى على دولة السلاجقة على الرغم من قوتها العسكرية الضاربة، فكيف بإمام زيدي يحكم مقاطعة متواضعة، تمكن من توجيه ضربات موجعة لهم منتزعاً منهم كثيراً من القلاع والحصون<sup>(٤)</sup>، وكان أول أئمة تلك الجبهة تصل دعوته إلى اليمن وتلقى ذلك

(١) المحلي: المصدر السابق، ج ٢ / ص ١٠٩؛ يحيى بن الحسين: المصدر نفسه، حاشية ورقة (٣٨ ب).

(٢) السلطان محمد بن ملكشاه (٤٩٥هـ / ١١٠٢م - ٥١١هـ / ١١١٧م): لما مات ملكشاه اقتسم إخوته وأبناؤه الأقاليم، فكان بركياروق هو المشار إليه، ثم قدم محمد وسنجر إلى بغداد، فعقد الخليفة المستظهر لمحمد بالسلطنة، وجرت بينه وبين بركياروق حروب كثيرة، ثم عظم شأن محمد، وتفرد بالسلطنة، ودانت له البلاد، فكان فحل آل سلجوق، حارب الإسماعيلية، وأباد منهم، وأخذ منهم قلعة أصبهان، وقتل ابن غطاش ملكهم؛ انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٩ / ص ٥٠٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل، مج ٦ / ص ٤٧٣ - ٤٧٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢ / ص ١٨٠.

(٤) المحلي: المصدر السابق، ج ٢ / ص ١٠٩؛ يحيى بن الحسين: الإفادة، حاشية ورقة (٣٨ ب).

القبول بفضل جهوده في خدمة الإسلام معرضاً نفسه لخطر الاغتيال من الباطنية، مما جعله يحترز منهم طوال حياته وحتى بعد مماته إذ أوصى أن لا يُعلم قبره " ... مخافة إن تغلب الملاحدة على تلك الجهة فيحرقونه ... " (١).

وكان نتيجة ذلك أن تفرغ السلاجقة بعض الشيء لمقارعة العدو الصليبي، ففي سنة (٥٠٣هـ / ١١١٠م) - أي بعد عام من دعوة الإمام أبي طالب - كلف السلطان محمد الأمير مودود بن التونتكين (٢) صاحب الموصل بتشكيل تحالف إسلامي يضم أمراء أرمينية، وسلاجقة الروم، وماردين، ودمشق، لمقارعة الصليبيين، حيث تمكن الأمير ممدود من توجيه ضربات موجعة للصليبيين وتحقيق عدد من الانتصارات التي أعادت إلى الأمة ثقتها بنفسها وقدرتها على مقارعة الصليبيين، بعد عقد كامل تشاغل فيه السلاطين السلاجقة وأمراؤهم بصراعاتهم فيما بينهم عن منازلة العدو أو مواجهة خطر الباطنية، ما عدا بعض الحملات الصغيرة على بعض الإمارات الصليبية، التي لم تحقق تقدماً ملموساً بسبب عدم تعاون الأمراء السلاجقة فيما بينهم (٣).

وتعد الحملة الكبرى التي قادها الأمير مودود عند كثير من المؤرخين

(١) يحيى بن الحسين: الإفادة، حاشية ورقة (٣٨).

(٢) الأمير شرف الدولة مودود بن التونتكين (٥٠١هـ / ١١٠٨م - ٥٠٧ / ١١١٣م): ولي إمرة الموصل، وكلفه السلطان محمد بن ملكشاه بقيادة تحالف أمراء السلاجقة في مواجهة الصليبيين، وقد تمكن خلال سنوات حكمه المعدودة من إنزال هزائم موجعة بالصليبيين، أعادت للأمة ثقتها بنفسها وقدرتها على مقارعة الصليبيين، استشهد غيلة في أثناء خروجه من جامع دمشق بعد صلاة الجمعة، الصلابي: دولة السلاجقة، ص ٦٢٤ - ٦٣٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل، مج ٦ / ص ٥٠٨، ٥١٢ - ٥١٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢ / ص ١٩٠.

فاتحة مسيرة الجهاد الحقيقي ضد العدو الصليبي، التي تطورت بدفع العدو إلى وضع الدفاع في عهد الزنكيين، وكانت أول محاولة جادة على طريق الوحدة الإسلامية<sup>(١)</sup>.

ومع ذلك فإنه على الرغم من تأييد زيدية اليمن السياسي للإمام أبي طالب فإن ذلك الوضع تغير إثر مقتل صاحب الدعوة في اليمن الأمير المحسن<sup>(٢)</sup>، مما أدى إلى انشغال الزيدية بالصراع ضد القوى المناوئة لهم، وحتى الإمام أحمد بن سليمان الذي كان أبرز أئمة الزيدية في تلك الحقبة لم يظهر موقفاً سياسياً يتعلق بالخطر الصليبي الذي تواجهه الأمة، إلا أنه أخذ في تفعيل الحرب ضد الفرق المناوئة له ناعماً إياهم بالباطنية والملاحدة والكفرة، لا سيما قبيلة يام الإسماعيلية وتجمعات المطرفية التي كان موقف الإمام أحمد بن سليمان أكثر حدة ضدها من مواقف عدد من الأئمة في القرن الماضي فتفرغ لقتالهم عادداً إياه جهاداً<sup>(٣)</sup>.

وهكذا فإنه لم يكن للإمامة الزيدية في اليمن موقف سياسي مباشر وصريح من الجهاد ضد الصليبيين، عدا دعمهم وتأييدهم لدعوة الإمام أبي طالب، والدليل على ذلك اتفاق الزيدية على الأخذ بثأر الداعي له باليمن الأمير المحسن من قتلته<sup>(٤)</sup>، فكانت دعوته فاتحة لمرحلة جديدة من

(١) الصلابي: دولة السلاجقة، ص ٦٣٤ - ٦٣٥؛ عوض: الحروب الصليبية، ص ١٥٦.

(٢) وذلك بسبب قتله باطنياً كان ضيفاً عند الحدادين بصعدة، ويبدو أن ذلك كان اتباعاً منه لسياسة إمامه في القضاء على الباطنية وتعقبهم.

(٣) المحلي: الحدائق الوردية، ج ٢/ ص ١٢٨ - ١٣٢؛ الوجيه: أعلام المؤلفين الزيدية، ص ١٠٨٨.

(٤) المحلي: المصدر نفسه، ج ٢/ ص ١٠٩؛ يحيى بن الحسين: غاية الأمان، ج ١/ ص ٢٨٧ - ٢٨٨؛ الكبسي: اللطائف، ص ٨٥.

العلاقات بين زيدية اليمن وزيدية طبرستان وبلاد الديلم التي تجلت في عهد الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة.

## ٢- الإسماعيلية :

كانت الخلافة الفاطمية في مصر تعتمد على إسماعيلية اليمن - وتمثلهم الدولة الصليحية والحاثمية والزريعية - في بسط سيادتهم على الحدود الجنوبية لديار الإسلام، وإحكام قبضتها على البحر الأحمر سياسياً واقتصادياً، وكذلك مد نفوذهم على الحجاز، مما كان له أكبر الأثر في رجحان الكفة السياسية للفاطميين على حساب العباسيين خلال القرن (الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي)، إلا أنه بحلول القرن (السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي) أخذت الخلافة الفاطمية تسير نحو الانهيار بسبب الأزمات الاقتصادية والصراع بين الوزراء وقادة الجند التي لازمتها كالداء العضال، مما جعلها عاجزة عن الدفاع عن ممتلكاتها في فلسطين والسواحل الشامية طوال النصف الأول من ذلك القرن، على الرغم من الجهود المبذولة من قبل بعض وزرائهم كالأفضل الجمالي الذي لم يتوان عن تجريد الحملات وإعداد الأساطيل للدفاع عن ممتلكات الفاطميين ومحاولة استرداد ما خسروه، ومنها أن الخليفة الحافظ الفاطمي كان يرسل العساكر إلى عسقلان - القاعدة الأممية لمصر - كل ستة أشهر<sup>(١)</sup>، إلا أن الاضطرابات والدسائس شغلت رجال الدولة عن التفرغ لصد ذلك الخطر الداهم حتى سقطت عسقلان فصارت مصر نفسها هي الهدف التالي للصليبيين.

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥/ ص ٢٣٨.

أما بالنسبة إلى أتباعهم في اليمن فقد استهل ذلك القرن وعلى رأس الدولة الصليحية امرأة قابضة على زمام الحكم بقوة لتحافظ على كيان الدولة المتهالك، مستعينة في ذلك بعدد من الرجال لإدارة دولتها والذود عن ملكها، وقد انعكس ذلك الوضع على العلاقة بين الطرفين حتى إن الهدية المعتاد إرسالها إلى الخليفة الفاطمي نهبتها بعض القبائل سنة (٥٠٤هـ / ١١١١م)<sup>(١)</sup>.

وفيما يتعلق بموقف إسماعيلية اليمن من الجهاد الذي تخوضه الجيوش الفاطمية التي كانت آخر حملاتها البرية على الصليبيين سنة (٥٠٣هـ / ١١١٠م)، في محاولة للدفاع عما تبقى لهم من ممتلكات في الساحل الشامي؛ فإنه لم يتوافر فيما بين أيدينا من مصادر أي نص يذكر مراسلة تمت بين الخلافة الفاطمية ودعاتهم في اليمن بهذا الشأن، وهو أمر يشير الاستغراب في ظل الدعم الذي يمكن أن تقدمه لهم اليمن، ويمكن عد ذلك انعكاساً لحالة التخاذل التي آلت إليها الخلافة الفاطمية ووزراؤها عن منازلة العدو الصليبي بصورة جدية، فانشغلوا عن الجهاد بالدسائس والكيد بعضهم لبعض وإهدار موارد البلاد لأجل مصالحهم الشخصية، على الرغم من تربص العدو بهم، وبهذا الصدد يقول أبو المحاسن عن الخليفة الأمر بأحكام الله: "... إنه كان يتناهى في العظمة ويتقاعد عن الجهاد... وكان فيه تهاون في أمر الغزو والجهاد حتى استولت الفرنج على غالب السواحل وحصونها في أيامه... ولم ينهض لقتال الفرنج ألبتة، وإن كان أرسل مع الأسطول عسكرياً فهو كلا شيء...".<sup>(٢)</sup>

(١) عمارة: المفيد، ص ٢٣٠.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥ / ص ١٧٦.

ويتضح مما سبق أنه لم يكن للقوى الإسماعيلية في اليمن دور سياسي فاعل في دعم مسيرة الجهاد ضد العدو الصليبي، ولو عن طريق دعم الخلافة الفاطمية المهددة هي الأخرى بالاجتياح من قبل الصليبيين، بل إن تبعيتهم السياسية والمذهبية العمياء للفاطميين جعلتهم عقبة في سبيل تحقيق الوحدة الإسلامية، فوجب على صلاح الدين القضاء على كياناتهم السياسية في اليمن، التي شكلت آخر الجيوب للفاطميين في المنطقة.

### ٣- النجاحيون:

تعد الدولة النجاشية آخر معاقل الخلافة العباسية في اليمن خلال تلك الحقبة إلى أن قدم الأيوبيون سنة (٥٦٩هـ / ١١٧٥م)، وكان نفوذ النجاحيين قد تقلص كثيراً بسبب حروبهم ضد الصليبيين، والمشاكل الداخلية لدولتهم من الصراع بين الأمراء والوزراء، مما أضر بقوتهم العسكرية، ولم يمكنهم من توحيد اليمن تحت رايتهم وإعادة سلطان الخلافة العباسية - كخطوة من جهتهم نحو الوحدة الإسلامية - الأمر الذي لو تم لوفر كثيراً من الجهد والوقت الذي استغرقه ضم اليمن إلى الجبهة الإسلامية، على الرغم من أنه ليس من المتوقع أن يسلم النجاحيون بالطاعة للزنكيين أو الأيوبيين، إلا أنه من المؤكد أن ولاء الجانبين للخلافة العباسية هو في حد ذاته إنجاز سياسي كبير يصب في صالح الأمة الإسلامية، فكيف لو تم التنسيق معاً للعمل سوياً تحت راية الخلافة العباسية ضد الخطر الصليبي.

ولكن مشاكل النجاحيين كانت أكبر من دولتهم، إذ لم يكتب لهم الإسهام بشكل فاعل في دعم الجهود السياسية لتوحيد الأمة تحت راية الخلافة العباسية، فضلاً عن أن موارد دولتهم التي استهلكتها حروبهم لم

تكن تسمح بأن يقوموا بأي نشاط ملموس في جنوب البحر الأحمر، عدا عملهم على تأمين رحلة الحج إلى مكة من اليمن براً وبحراً من أخطار البحر كالقراصنة وقطاع الطرق في البر، وذلك على يد الملكة الحرة أم فاتك أمير زبيد، فيقول عمارة: "... وكانت تقوم لأمير الحرمين بجميع ما يتناوله من حاج اليمن براً وبحراً وبجميع خفارات الطريق والأدلاء ومقدمي العربان والأشراف... فربما حج معها أهل اليمن في (٤٠٠٠) بعير أو (٥٠٠٠)، ويسافر الرجل منهم بحريمه وأولاده والمواشي التي يذبحون منها ويحلبون درها ومعهم المطابخ والأسرة وجميع ما يحتاجونه وكأنهم خارجون في نزهة..."<sup>(١)</sup>، وهو أمر له أهميته في زمن ساد فيه الخوف بسبب الفتن والحروب حتى إن ركب الحاج العراقي نفسه كان ينقطع في بعض السنين بسبب قطاع الطرق والفتن بين أمير الركب وأشراف مكة<sup>(٢)</sup>، وكذلك الحال بالنسبة للحجاج المصريين الذين فرض عليهم أشراف مكة الإتاوات الباهظة التي أبطلها صلاح الدين الأيوبي فيما بعد<sup>(٣)</sup>. إن ما قامت به الملكة الحرة - رغم عدم صلته بالجهاد ضد الصليبيين - أسهم بشكل غير مباشر في تأكيد سلطان الخلافة العباسية على مكة المشرفة، وكذلك تأمين الملاحة في

(١) عمارة (نجم الدين أبو محمد عمارة بن أبي الحسن بن زيدان الحكمي اليمني): النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية، تصحيح: هرتيوغ درنبرغ، مكتبة مدبولي - القاهرة، ط ٢- ١٩٩١م، ص ٢٤- ٢٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل: مج ٧/ ص ٥١، ٨٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢/ ص ٢٣٦، ٢٤٤.

(٣) المقرئ (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي): كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار "الخطط المقرئية"، دار صادر - بيروت، د. ط - د. ت، ج ٢/ ص ٢٣٣.

جنوب البحر الأحمر ضد خطر القراصنة<sup>(١)</sup>، لا سيما في ظل وجود قاعدة للصليبيين تطل على البحر الأحمر هي أيلة.

وعموماً فإنه لم يُقَيِّض للنجاحيين أن تستمر دولتهم إلى قدوم الأيوبيين ليحببوا عن سؤالنا بشأن الدور الذي يمكن أن يلعبوه في دعم مسيرة الجهاد ضد الصليبيين، إذ سرعان ما أنهى علي بن مهدي دولتهم سنة (٥٥٤هـ/ ١١٥٩م) محدثاً تغييراً في موازين القوى كانت له انعكاساته على أمن المنطقة.

### ثانياً: تداعيات الأوضاع في اليمن وانعكاساتها على أمن المنطقة.

#### ١- دولة بني مهدي ونشاطها العسكري:

في سنة (٥٥٤هـ/ ١١٥٩م) تمكن علي بن مهدي الرعيني من القضاء على الدولة النجاشية، ودخل عاصمتهم زبيد بعد سنوات من الحصار<sup>(٢)</sup>، وعلى الرغم من أنه توفي بعد أقل من ثلاثة أشهر من دخوله زبيد فإن القوة العسكرية التي أنشأها والتي تمتعت بالانضباط وبنزعة عسكرية عالية أدارها عبر عرف عسكري صارم؛ كانت لا تزال متعطشة للحرب والغزو، فجاءت العمليات العسكرية التي قادها أبناؤه من بعده تلبية للخطة التوسعية لدى أبيهم، واستجابة للنزعة العسكرية لرجالهم، وقد اتصفت غزواتهم بالعنف وانعدام الرحمة والإنسانية، فلم يسلم منهم حتى كبار السن والنساء والأطفال<sup>(٣)</sup>، ومرجع ذلك

(١) عمارة: النكت، ص ٢٦.

(٢) عمارة: المفيد، ص ١٨٦؛ الخزرجي: المسجد، ص ١٣٠-١٣١، ١٣٤-١٣٥.

(٣) الخزرجي: المصدر نفسه، ص ١٣٦-١٣٧؛ ابن الديبع: قرّة العيون، ص ٢٥٠-

إلى الفكر الخارجي الذي زرعه علي بن مهدي في أبنائه ورجاله حتى إنه كان يأمر من أراد الالتحاق به أن يقتل أحداً من أهله برهاناً على صدق موالاته لعلي بن مهدي وترسيخاً لمبدأ الطاعة العمياء<sup>(١)</sup>، وكان هذا غطاء لتنفيذ مآربه وأطماعه التوسعية التي لم تكن لتتوقف عند إمارة صغيرة تضم تهامة، بل كان يطمع إلى أبعد من ذلك وهو ضم اليمن كله تحت سلطانه، فيعلن نفسه خليفة وإماماً على اليمن كله، يقول أحد شعراء بني مهدي<sup>(٢)</sup>:

فاليوم نجح للخليفة بعده بالقائمين الهاديين وزهره  
سبطيه قطبيه اللذين إليهما شرف الخلافة والإمامة ينتهي  
إن الأطماع التوسعية لبني مهدي، وطموحهم السياسي غير المحدود،  
فضلا عن القوة العسكرية التي يملكونها؛ شكلت زلزالاً ضرب اليمن،  
ووصلت هزاته الارتدادية إلى العراق والشام ومصر، فشن بنو مهدي حرباً  
على من خالف اعتقادهم وسياستهم، فاضطهدوا العلماء والفقهاء،  
واستحلوا دماءهم حتى اضطروهم إلى الفرار منهم<sup>(٣)</sup>، وقام مهدي بن علي  
بن مهدي بغزو المناطق المجاورة مثل لحج التي غزاها مرتين في (٥٥٦هـ/  
١١٦١م) و(٥٥٨هـ / ١١٦٣م) قتل فيها كثيراً من الناس، وغزا مدينة الجند،  
وارتكب مذبحه في أهلها، وأحرق مسجدها على من احتفى به، وألقى  
بالجثث في بئر المسجد<sup>(٤)</sup>.

(١) عمارة: المفيد، ص ١٩٠ - ١٩١.

(٢) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص ٧٣.

(٣) ابن سمرة (عمر بن علي بن سمرة الجعدي): طبقات فقهاء اليمن، تح: فؤاد سيد، دار القلم - بيروت، د.ط - د.ت، ص ١٧٧ - ١٧٩.

(٤) الخزرجي: العسجد، ص ١٣٧؛ يحيى بن الحسين: غاية الأمانى، ج ١/ ص ٣١٥.

وكذلك المذبحة التي ارتكبها أخوه عبد النبي إذ أحرق أبين مرتين في سنة (٥٥٩هـ / ١١٦٤م) و(٥٦١هـ / ١١٦٦م)، وغارته على المخلاف السلیماني حيث قتل كثيراً من أهله ولا سيما الأشراف، وعلى رأسهم الشريف وهاس بن غانم بن يحيى السلیماني<sup>(١)</sup>.

ومن المؤكد أن من هذه المذابح والفظائع التي ارتكبها بنو مهدي في اليمن ما بلغ مسامع الخلافة العباسية، والسلطان نور الدين محمود ونائبه على مصر صلاح الدين الأيوبي، لا سيما أن هناك رواية تقول إن الشريف قاسم بن غانم بن يحيى السلیماني استنجد بالفعل بصلاح الدين على عبد النبي بن علي بن مهدي قاتل أخيه وهاس<sup>(٢)</sup>. وعلى الرغم مما يشوب منطقية هذه الرواية كون الشريف وهاس قتل سنة (٥٦١هـ / ١١٦٦م) قبل دخول شيركوه وابن أخيه صلاح الدين مصر<sup>(٣)</sup>؛ فإن الكتب المتبادلة بين نور الدين ونائبه صلاح الدين من جهة وبين الخليفة العباسي المستضيء بالله من الجهة الأخرى؛ تذكر صراحةً أن القضاء على بني مهدي في زييد وإقامة الخطبة للخليفة العباسي كان واحداً من أهم أهداف حملة اليمن<sup>(٤)</sup>.

عموماً فإن بني مهدي شكلوا تهديداً مباشراً على أمن المنطقة، لا سيما أن خطرهم وصل إلى الحجاز، وهددوا الحرمين، وما أشبه الفظائع التي

(١) ابن الديبع: قرة العيون، ص ٢٦٠. (٢) الخزرجي: العسجد، ص ١٤٧-١٤٨.  
 (٣) محمد عبدالعال أحمد: الأيوبيون في اليمن، الهيئة المصرية العامة للكتاب - الإسكندرية، د.ط - ١٩٨٠م، ص ٧٦-٧٧.  
 (٤) أبو شامة (شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي): الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح: إبراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ١- ١٩٩٧م، ج ٢/ ص ٢٧٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢/ ص ٢٩١.

ارتكبوها بتلك التي ارتكبتها القرامطة سنة (٣١٧هـ / ٩٢٩م) في مكة المشرفة<sup>(١)</sup>، ولم يكن ذلك مستبعداً عن بني مهدي، إذ "... ما كانوا يستحلون أخذ المكوسات من أحد خلا الحُجاج وأنهم كانوا يأخذون منهم مقام الدرهم بثلاثة دراهم..."<sup>(٢)</sup>، ومن هذا المنطلق كان لزاماً على صلاح الدين الأيوبي أن يبادر إلى القضاء على قوة بني مهدي الصاعدة، قبل أن يستفحل أمرهم ويصبحوا همّاً يصرفه عن الأهم وهو قتال الصليبيين وطردهم من ديار الإسلام، لا سيما أن عبد النبي قد زعم "... أنه سيملك الأرض كلها"<sup>(٣)</sup>.

## ٢- القرصنة البحرية وتهديدها للملاحة في المنطقة:

إن حال التمزق السياسي التي عاشتها اليمن خلال النصف الأول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وعدم وجود دولة مركزية تتولى حماية البلاد؛ جعل اليمن عرضة لخطر القرصنة البحرية، لا سيما إثر النجاح الذي حققه الفاطميون في القرن الماضي بتحويل التجارة الشرقية إلى البحر الأحمر فمصر بدلاً من بحر فارس فالعراق، وذلك بالتعاون مع دعواتهم في اليمن - الصليحيين - الذين تمكنوا من الاستحواذ على السواحل الجنوبية لليمن ولا سيما ميناء عدن ذي الأهمية التجارية، مما أدى إلى ازدحام ذلك الميناء بالمراكب القادمة من الهند والصين وسيلان وغيرها من بلاد المشرق، والمراكب القادمة من مصر والحبشة، الأمر الذي

(١) ابن الأثير: الكامل، مج ٥/ ص ١١٧-١١٨؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢/ ص ١٧٣-١٧٦.

(٢) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص ٥٠.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢/ ص ٢٩١.

تطلب وجود قوة بحرية تتولى تأمين النشاط الملاحي في المنطقة إذ كانت جزر المحيط الهندي والبحر الأحمر تعج بالقراصنة المتربصين بالمراكب التجارية<sup>(١)</sup>، والأخطر من ذلك هو تضرر البعض من انتقال خطوط التجارة البحرية إلى عدن ومنها إلى مصر عبر البحر الأحمر مثل جزيرة قيس<sup>(٢)</sup> التي كانت تجني كثيراً من المكاسب من وراء نقل البضائع ورسو السفن التجارية القاصدة بحر فارس، فلما تغيرت الأوضاع وأمسكت عدن بزمام التجارة الشرقية قصدتها المراكب من الأقطار كافة كونها المحطة الرئيسة في الطريق إلى مصر<sup>(٣)</sup>.

وقد ظلت قيس تترقب الفرصة لتوجيه ضربة قاضية إلى عدن، سواء بتدميرها أو السيطرة عليها، إلا أن ذلك لم يكن ممكناً في ظل سلطة قوية متيقظة تتولى الدفاع عن المدينة والذود عنها، ولكن تدهور الوضع السياسي في اليمن عموماً وفي عدن خصوصاً قدم لقيس فرصة نادرة إثر نشوب ما عرف بفتنة (الرعارع) في عدن بين سبأ بن أبي السعود بن زريع وعلي بن أبي الغارات بن مسعود، التي استمرت سنتين بين عامي (٥٣٠هـ / ١١٣٦م - ٥٣٢هـ / ١١٣٨م)، كل يريد عدن وما يتبعها خالصة له وحده من دون

- 
- (١) ابن حاتم: السمط، ص ١٣١؛ ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص ٢٦٨.  
 (٢) جزيرة كيش: تعجيم قيس، جزيرة في وسط البحر، تعد من أعمال عمان رغم أن أهلها فارس، وهي مرفأ مراكب الهند وبحر فارس، ولصاحبها ثلث دخل البحرين، لملكها هيبية وقدر عند ملوك الهند لكثرة مراكبه، وفيها مغاص للؤلؤ؛ انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج ٤ / ص ٤٢٢.  
 (٣) سالم (السيد عبدالعزيز): البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية، د.ط - ١٩٩٣م، ص ٢٧؛ الحداد: التاريخ، مج ٢ / ص ٩١؛ السروري: الحياة السياسية، ص ٤٩٧.

الآخر، وقد استغل صاحب قيس تلك الفرصة فأرسل أسطوله إلى المدينة ورسّت سفنه تحت جبل صيرة، وطلب مقدمهم من الطرفين المتنازعين التسليم، فاضطروا إلى المهادنة وإعمال الحيلة، لا سيما أنهم أخذوا على غرة، فأظهروا التسليم وإعلان الطاعة، حتى إذا نزل الجند إلى البر عملوا لهم وليمة وقدموا لهم الشراب، فلما ثملوا أخذوهم بالسيف<sup>(١)</sup>.

وتعد حملة صاحب قيس الفاشلة أكبر محاولة لضرب ميناء عدن أو السيطرة عليه، الأمر الذي لو تم لأثر بدوره في الملاحة التجارية في البحر الأحمر، ومن ثم إلحاق الضرر باقتصاد مصر الذي تشكل تجارة البحر الأحمر رافدًا رئيسًا له، وعلى الرغم من أن الظروف خدمت الزريعيين حين لم يبادرهم أسطول قيس بالهجوم على غفلة بل طلب منهم التسليم مما أعطاهم فرصة لتدارك الخطر والتدبير له؛ فإن ضبط السواحل اليمنية وخفارتها لم تكن بالمهمة السهلة بل كانت تحتاج إلى إمكانات دولة مركزية تقوم بمحاربة القرصنة البحرية، وضمان أمن الملاحة التجارية في المنطقة التي استُخدمت سلاحًا اقتصاديًا قويًا فيما بعد لإضعاف اقتصاد العدو الصليبي، وتقوية اقتصاد الجبهة الإسلامية بالمقابل، الذي ينعكس بالتالي على أدائها العسكري ضد العدو.

### ٣- محاولات الصليبيين النفاذ إلى البحر الأحمر والحجاز:

ظلت مسألة أمن البحر الأحمر تَوْرُق مضجع المسلمين لدرجة أنه عندما أراد الخليفة هارون الرشيد شق قناة تربط بين البحر المتوسط والبحر الأحمر عن طريق برزخ السويس؛ خوِّفه مستشاره من أن يحاول البيزنطيون - الذين

(١) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص ١٢٤ - ١٢٥.

كانوا في حال حرب دائمة مع العباسيين - التسلل عبرها إلى البحر الأحمر، ومنه إلى الحجاز حيث الحرمان الشريفان، فترك الرشيد تلك الفكرة<sup>(١)</sup>.

وفي مطلع القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وبالتحديد في سنة (٥٠٩هـ / ١١١٥م) قاد الملك بلدوين حملة إلى وادي عربة قام خلالها بعمارة حصن عرف بالشوبك يشرف إشرافاً مباشراً على الطريق بين الشام ومصر<sup>(٢)</sup>، وفي سنة (٥١٠هـ / ١١١٦م) تمكن بلدوين الأول ملك مملكة القدس اللاتينية من الوصول إلى ساحل البحر الأحمر على رأس حملة تمكنت من الاستيلاء على ميناء أيلة التي هرب أهلها خوفاً من بطش الصليبيين، وأقام هناك بعض الوقت يستطلع المنطقة ويتعرف تفاصيل المكان، وقام بتشييد قلعة متينة فوق جزيرة صغيرة مقابلة لأيلة تعرف بجزيرة فرعون، وحشدتها بالجند والسلاح والمؤن<sup>(٣)</sup>، وكانت هذه الحملة جزءاً من المخطط الصليبي الرامي إلى عزل القوى الإسلامية في المنطقة بعضها عن بعض. وفي الشمال كانت إمارة الرها تشكل تهديداً على طرق المواصلات بين الإمارات والأتابكيات السلجوقية في آسيا الصغرى والشام والموصل وبلاد فارس، فضلاً عن محاولاتهم المستمرة للسيطرة على

(١) جرادات (وليد محمد): الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر بين الماضي والحاضر، دار الثقافة - الدوحة، ط١- ١٩٨٦م، ص٥٩؛ ولم يكن الرشيد أول من فكر من المسلمين في شق تلك القناة، بل راودت الفكرة قبله الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، إلا أنه صرف النظر عنها للمخاوف نفسها، انظر: جرادات، المصدر نفسه، ص٥٩، ٦٤.

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٢/ قسم ١/ ص١٥٩، ١٦٠؛ عوض: الحروب الصليبية، ص١٠٤.

(٣) عاشور: الحركة الصليبية، ج١/ ص٢٥٧؛ رنسيمان: المرجع السابق، ج٢/ قسم ١/ ص١٦٠- ١٦١.

حران الواقعة على الطريق بين الموصل وحلب<sup>(١)</sup>، كما سعى الصليبيون بشتى الوسائل إلى السيطرة على المزيد من القلاع، أو تشييد بعضها في العمق الشامي في محاولة منهم لعزل الإمارات السلجوقية في دمشق وحلب وحمص بعضها عن بعض سواء بالعمل العسكري أو استغلال الخونة من المسلمين<sup>(٢)</sup>.

وأما بالنسبة إلى مخططاتهم في البحر الأحمر فلم تكن تقف فقط عند أيلة التي لم يؤد احتلالها إلا إلى قطع الطريق البري بين مصر والحجاز، في حين ظلت قوافل التجار والحجاج تسلك طريق البحر رغم زيادة المكوس عليها من قبل السلطات في مصر الفاطمية والحجاز<sup>(٣)</sup>، وكان بلدوين الأول يهدف من وراء احتلال أيلة وعمارة قلعة جزيرة فرعون إلى أن يكون لمملكته المطلة على البحر المتوسط قاعدة متقدمة تطل على البحر الأحمر، بحيث يسهل دعمها وتقويتها واستخدامها في الوقت المناسب لضرب المسلمين في أقدس مقدساتهم (الحرمين الشريفين)، إذ لم يكن الصليبيون ليتوانوا عن غزو مكة المشرفة والمدينة المنورة، لا سيما بعد ما فعلوه ببيت المقدس (ثالث الحرمين)، وكان استهداف الصليبيين للحجاز هو بقصد انتهاك حرمة المقدسات الإسلامية كافة انتقاماً لتدنيس المسلمين لقبر المخلص - حسب زعمهم - فضلاً عن أن حج المسلمين إلى مكة المشرفة

(١) الصلابي: دولة السلاجقة، ص ٦١١.

(٢) ابن عساكر (أبو القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله): تاريخ مدينة دمشق، تح: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، دار الفكر - بيروت، د.ط - ١٩٩٥م، ج ٨/ ص ٣٧٩؛ ابن الأثير: الكامل، مج ٧/ ص ٣١.

(٣) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص ٤٨ - ٤٩؛ المقرئ: الخطط، ج ٢/ ص ٢٣٣.

وزيارتهم لمسجد النبي ﷺ كانت مظهرًا من مظاهر الوحدة الإسلامية في ظل التمزق السياسي الذي تعيشه الأمة والذي أتاح للصليبيين فرصة غزو ديار الإسلام وإقامة مملكة لهم في قلب بلاد الإسلام، وبناءً على ذلك سعى الصليبيون إلى ضرب المسلمين في رمز وحدتهم وشعيرة تعد الركن الخامس من أركان دينهم<sup>(١)</sup>.

كما كانت تجارة البحر الأحمر وموانئه التجارية المزدهمة بحركة السفن والبضائع هدفًا رئيسًا للصليبيين، وصار لزامًا عليهم خوض غمار البحر الأحمر حتى يتمكنوا من الوصول إلى موانئه التجارية ومنها ميناء عدن، فيتمكنوا بذلك من إحكام قبضتهم على الروافد الرئيسة للتجارة في المنطقة أو على الأقل إقلاق أمن الملاحة التجارية في البحر الأحمر؛ مما يؤدي إلى إجبار السفن المحملة بمتاجر الهند والصين إلى التعامل مع الصليبيين ودفع ضريبة المرور لهم على غرار ما تدفعه القوافل التجارية البرية المارة بالأراضي التي يحتلونها أو يشرفون على معايرها التجارية<sup>(٢)</sup>.

إلا أن انشغال خلفاء بلدوين الأول بالتوسع على حساب جيرانهم في الشام، وكذلك محاولات أمليريك (عموري) الأول احتلال مصر؛ أخرت تنفيذ ذلك المشروع الصليبي العسكري للبحر الأحمر، فضلًا عن مخاوف الصليبيين من خوض بحر لا يزال مجهولاً بالنسبة لهم، إذ كان البحر الأحمر منذ الفتح الإسلامي بحيرة إسلامية " ... لم يعهدوا بهذا البحر

(١) عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢ / ص ٦١٧ .

(٢) رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢ / قسم ١ / ص ١٦٠؛ ربيع (حسين محمد): البحر الأحمر في العصر الأيوبي، سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث - جامعة عين شمس، د.ت، ص ١٠٨ .

إفرنجياً قط لا تاجرًا ولا محاربًا... " (١).

وأما بالنسبة إلى الصليبيين فقد مضوا في محاولتهم النفاذ إلى البحر الأحمر وتعرّف سواحله والوصول إلى الحرمين الشريفين، وذلك من خلال المحاولة التي قام بها أمير حصن (الكرك) رينو دي شاتيون - أرناط الذي عرف بحقده الشديد على الإسلام والمسلمين - للوصول إلى الحجاز، فسار على رأس حملة يريد المدينة المنورة حتى وصل واحة تيماء معتدياً على قوافل الحجاج العزل من دون وازع من دين أو خلق، ولكنه انسحب فجأة بسبب هجوم الأيوبيين على إمارته (الكرك) وذلك سنة (٥٧٧هـ / ١١٨١م) (٢).

وبعد عامين من فشل حملة تيماء قام أرناط بمحاولة أخرى أكثر خطورة وجراً، إذ قام بحمل عدد من المراكب المفككة على ظهور الجمال من الكرك إلى أيلة، وكان صلاح الدين قد حررها سنة (٥٦٦هـ / ١١٧٠م)، فاحتل المدينة، وقام بتركيب المراكب وأنزلها البحر، وقسم أسطوله على قسمين: الأول ضرب الحصار على قلعة جزيرة فرعون حتى انقطع عنهم الماء وساءت أحوالهم، والثاني انطلق يشق مياه البحر الأحمر مغيراً على موانئ الساحل الإفريقي الشرقي فهاجم عيذاب (٣)، فقتل وحرّق المراكب الراحية هناك ومنها مراكب قادمة من اليمن والهند (٤)، ثم واصل أسطولهم

(١) ابن الأثير: الكامل، مج ٧ / ص ٢٩٨.

(٢) أبو شامة: الروضتين، ج ٣ / ص ٨٢؛ عاشور: الحركة الصليبية، ج ٦ / ص ٦٠٦.

(٣) عيذاب: بليدة على ضفة بحر القلزم، كانت مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى

الصعيد؛ ياقوت: معجم البلدان، ج ٢ / ص ١٧١.

(٤) العماد (القاضي عماد الدين الكاتب الأصفهاني): البرق الشامي، تح: فالح صالح

حسين، مؤسسة عبدالحميد شومان - عمان، ط ١ - ١٩٨٧م، ج ٥ / ص ٦٩ - ٧٢.

عمليات القرصنة على السفن المبحرة في البحر الأحمر وذلك في طريقهم إلى الحجاز، حيث نزلت قواتهم في ساحل الحوراء<sup>(١)</sup> قرب ينبع - ميناء المدينة المنورة - وأخذوا يتقدمون في الداخل حتى صاروا على مسيرة يوم واحد من المدينة<sup>(٢)</sup>، وقد استفاد أرناط من عنصر المفاجأة، إذ لم يتوقع المسلمون أن يصل الخطر الصليبي إلى البحر الأحمر الذي سارت فيه مراكب التجار والحجاج آمنة مطمئنة<sup>(٣)</sup>، وكان الملك العادل أبو بكر أخو صلاح الدين الأيوبي نائباً عن أخيه بمصر آنذاك، فبادر للتصدي لذلك الخطر الداهم، وأمر قائد الأسطول أن يتولى مطاردة سفن الصليبيين والقضاء عليهم، فانطلق الأسطول الأيوبي وراءهم حتى ينبع حيث نزلت قواتهم لمطاردة الصليبيين براً حتى تم القضاء على خطرهم، وكان أسطول الأيوبيين قد تمكن قبل ذلك من فك الحصار عن قلعة جزيرة فرعون، وأما الأسرى فقد تم نحرهم في منى والقاهرة لئلا يبقى منهم من يدل على عورات المسلمين<sup>(٤)</sup>.

وحتى بعد انتصار المسلمين في حطين (٥٨٣هـ / ١١٨٧م) وتحرير معظم الأراضي الإسلامية من الاحتلال الصليبي؛ تذكر المصادر أنه تم

(١) الحوراء: مرفأ صغير شرقي البحر الأحمر تقع ضمن الحجاز، وهي مرفأ سفن أهل مصر إلى المدينة، وهي بقعة غير ذات زرع ولا ضرع؛ ياقوت: معجم البلدان، ج ٢/ ص ٣١٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل، مج ٧/ ص ٢٩٨.

(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه والمجلد والصفحة.

(٤) ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي): رحلة ابن جبير، الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة ط ٢- ١٩٩٨م، ص ٥٤ - ٥٥؛ أبو شامة: الروضتين، ج ٣/ ص ١٣٤ - ١٣٥.

رصد جاسوسين في صعدة مع مطلع القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وألقي القبض عليهما وقد اتهما بأنهما باطنيان يريدان اغتيال الإمام المنصور عبدالله بن حمزة (ت ٦١٤هـ / ١٢١٨م) الذي أمر بإخلاء سبيلهما ليخرجا إلى تهامة<sup>(١)</sup>، ويبدو أنهما واصلا رحلتهما حتى وصلا إلى عدن، فقد ذكر بامخرمة أن الشيخ جوهر<sup>(٢)</sup> قبض على اثنين من الغرباء اعترفا بأنهما نصرانيان خرجا من بلدهما مستترين بالإسلام فاستتابهما الشيخ وأسلما على يديه<sup>(٣)</sup>، ومهما يكن ما قيل حول صحة هاتين الروايتين فإنهما تحملان دلالة واضحة على محاولات الصليبيين النفاذ إلى البحر الأحمر والسيطرة على موانئه الزاخرة بالحركة التجارية لا سيما تجارة الشرق الرائجة.



(١) ابن دعثم: السيرة المنصورية، مج ١/ ص ٣٤٢؛ يحيى بن الحسين: غاية الأمانى، ج ١/ ص ٣٨٢.

(٢) الشيخ جوهر: شيخ جليل من أهالي مدينة عدن اشتهر ببذل الخير، وتناقل الناس أخبار كراماته، اشتغل بالتجارة، توفي سنة (٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)؛ انظر: بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص ٣٩-٤١.

(٣) بامخرمة: المصدر نفسه، ص ٤٠-٤١.

## المبحث الثاني

### موقف اليمن السياسي تحت الإدارة الأيوبية

في سنة (٥٩٦هـ / ١١٧٤م) تمكنت القوات الأيوبية بقيادة توران شاه بن نجم الدين أيوب من القضاء على حكم بني مهدي في زبيد وبني زريع في عدن، والحد من قوة بني حاتم في صنعاء وقبيلة جنب في ذمار، وهكذا صارت اليمن جزءاً من الدولة الأيوبية التي امتد سلطانها ليشمل مصر والشام وديار بكر، فاكتمل في عهدهم عقد الجبهة الإسلامية المتحدة، الذي كان قد بدأ بنظمه كل من عماد الدين زنكي وولده نور الدين محمود من بعده، فصار المسلمون جبهة واحدة تمتد من برقة غرباً إلى الفرات شرقاً، ومن الموصل وحلب شمالاً إلى النوبة وبلاد اليمن جنوباً، وقد خضعت اليمن للأيوبيين قرابة خمسة وخمسين عاماً (٥٦٩هـ / ١١٧٤م - ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) عزز الأيوبيون خلالها حكمهم في اليمن بعدد من الحملات جاءت استجابة لظروف معينة مر بها الأيوبيون في اليمن، وسنتحدث فيما يلي عن أبرز الأسباب السياسية والعسكرية والاقتصادية التي دفعت الأيوبيين إلى العمل على ضم اليمن تحت لوائهم، والغرض من إرسال حملة عسكرية بتلك القوة إلى اليمن في وقت كانت قاعدتهم الأساسية في مصر مهددة من الداخل والخارج، وهل كانت جهودهم الحربية في اليمن تستحق ذلك العناء؟ في ظل الصراع السياسي والعسكري الذي يخوضونه ضد الصليبيين أولاً، وضد القوى السياسية المناوئة لهم في الشام والعراق ومصر ثانياً.

## أولاً- أسباب اهتمام الأيوبيين باليمن:

## ١- روايات المؤرخين حول أسباب حملة توران شاه إلى اليمن:

اختلف الباحثون حول الأسباب التي أدت إلى اهتمام الأيوبيين باليمن وعملهم على ضمها إلى دولتهم، والمحافضة على نفوذهم في اليمن ضد أي تهديد داخلي أو خارجي، ولعل مرجع ذلك الاختلاف هو اختلاف المؤرخين المسلمين في الأسباب التي دعت الملك الناصر صلاح الدين يوسف لأن يرسل أخاه الأكبر توران شاه على رأس حملة عسكرية قوية ومعدة إعداداً جيداً كلفت كثيراً من الجهد والمال<sup>(١)</sup>. وستناول فيما يلي أبرز ما أورده المؤرخون حول أسباب حملة توران شاه، وهي:

١- رواية تقول بأن سبب إرسال صلاح الدين أخاه توران شاه إلى اليمن كان بسبب خوفه أن يهاجمه نور الدين محمود في مصر وينتزعها منه، فأراد أن يكون هناك بلد يتبعه ويلجأ إليه هو وأسرته، وأن حملة توران شاه على النوبة في سنة (٥٦٨هـ / ١١٧٣م) كانت للغرض نفسه، إلا أن الاختيار وقع على اليمن لأنها أوسع وأكثر خيرات من النوبة<sup>(٢)</sup>.

٢- رواية تقول بأن الشاعر عمارة اليمني استغل صداقته بتوران شاه وإقباله على شعره فحرضه على الاستيلاء على اليمن لنفسه، واصفاً له خيرات تلك البلاد وكثرة أموالها، وسهل له أمر فتحها وضعف حكامها، الأمر الذي صادف هوياً في نفس توران شاه الذي لم يكن إقطاعه بمصر يفي بنفقاته الكثيرة - لا سيما أنه قد اشتهر بالكرم والسخاء - فأستأذن أخاه

(١) ابن الأثير: الكامل، مج ٧/ ص ٢٣٨؛ أبو شامة: الروضتين، ج ٢/ ص ٢٧٤.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه، مج ٧/ ص ٢٣٢.

صلاح الدين في القيام بحملة للاستيلاء على اليمن، فأذن له<sup>(١)</sup>.

٣- رواية تقول إن سبب حملة توران شاه على اليمن هو أن صلاح الدين بعد أن رأى عظم قوته العسكرية وكثرة إخوته والتفافهم حوله وخوفه من أن ينقلبوا عليه، رغب في القيام باستعراض لقوته الحربية، ولم يجد ميداناً مناسباً غير القضاء على دولة بني مهدي في اليمن الذين قطعوا الخطبة لبني العباس في اليمن؛ وزعم عبد النبي بن مهدي أن ملكه سينتشر حتى يملك الأرض كلها<sup>(٢)</sup>.

٤- تذكر بعض المصادر استنجد رجل من أهل اليمن يدعى ابن النساخ بالخليفة العباسي المستضيء بالله شاكياً ما فعله ابن مهدي والمذابح التي ارتكبتها، واصفاً سوء عقيدته وقبح سيرته، وأن الخليفة أمر صلاح الدين بتجهيز حملته إلى اليمن للقضاء على دولة بني مهدي<sup>(٣)</sup>.

٥- رواية تقول إن سبب فتح اليمن هو طلب الشريف قاسم بن غانم بن وهاس النجدة والنصرة من صلاح الدين ضد عبد النبي بن مهدي قاتل أخيه الشريف وهاس، بعد أن عجز الشريف قاسم عن الأخذ بثأر أخيه<sup>(٤)</sup>، وقيل إنه إنما استنجد بالخليفة العباسي المستضيء بالله الذي أمر صلاح الدين بنصرته<sup>(٥)</sup>.

(١) أبو شامة: الروضتين، ج٢/ ص٢٧٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية: ج١٢/ ص٢٩١.  
(٢) ابن شداد: بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تح: جمال الدين الشيال، الدار المصرية للتأليف والنشر - القاهرة، ط١- ١٩٦٤م، ص٤٦.

(٣) الجندي: السلوك، ج٢/ ص٥٢٥-٥٢٦؛ الخزرجي: العسجد، ص١٤٦.

(٤) ابن الديبع: قرة العيون، ص٢٦٧. (٥) الخزرجي: العسجد، ص١٤٨.

ويمكن القول إن جميع ما أوردناه هو عبارة عن روايات تمثل وجهة نظر من رواها من المؤرخين، وتخضع للعديد من الظروف الخاصة بهم<sup>(١)</sup>، وفيما يلي سنورد تحليلاً موجزاً لتلك الروايات والآراء حولها، في محاولة لمعرفة الدوافع الحقيقية لتوجه الأيوبيين لفتح اليمن وضمها إلى دولتهم.

فبالنسبة إلى الرواية التي تجعل من خوف صلاح الدين من نور الدين سبباً في طلبه ملك اليمن؛ فقد ورد فيها أن صلاح الدين استأذن نور الدين في إرساله حملة إلى اليمن، فكيف يستأذن صلاح الدين من نور الدين وهو الذي يشكل تهديداً عليه - حسب الرواية -<sup>(٢)</sup>، وأما استخدام ما عرف (بالجفوة) بين نور الدين وصلاح الدين لتبرير مخاوف صلاح الدين من نور الدين فذلك غير صحيح؛ لأن ما حدث بينهما هو نتيجة التزام صلاح الدين بالمحافظة على مصر من التهديدات الداخلية والخارجية، الأمر الذي يصب في صميم سياسة نور الدين وإن حرمه ذلك من الدعم العسكري المباشر الذي كان يتوقعه من مصر، فضلاً عن أن التعليمات التي وجهها نور الدين إلى توران شاه عندما أرسله عضداً لأخيه لتبين مدى مكانة صلاح الدين عند نور الدين إذ يقول: "... إنه صاحب مصر وقائم فيها مقامي وتخدمه بنفسك كما تخدمني..."<sup>(٣)</sup>، كما أن اليمن ليست بعيدة عن متناول نور الدين إذا كان هدفه هو صلاح الدين الذي كان الأجدر به أن يجالده نور الدين عن مصر فهي غنيمة أكبر إن كان يهدف للاستقلال عن نور الدين حقاً، وأخيراً فلا ننسى أن نذكر أن ابن الأثير هو أقدم من نقلها - ومعظم المؤرخين

(١) السروري: الحياة السياسية، ص ٢٦٢. (٢) عبدالعال: الأيوبيون، ص ٧٣.

(٣) أبو شامة: الروضتين، ج ٢/ ص ٧٢.

نقلوا عنه - وهو كما عبّر عنه أحد المستشرقين كان يحرف الكلم عن مواضعه لينال من صلاح الدين، فقد عاش في حمى أتابكة الموصل، كما عاش أسلافه من قبل، لذلك نقم على صلاح الدين لما فعله بنور الدين وابنه وأسرته فيما بعد، ولذلك تحوي كتبه كثيرًا من التحامل على صلاح الدين، لا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الدعاية التي روجها القادة المنافسون - وكانوا ناقلين على صلاح الدين - قد أثرت فيمن كانوا في الشام ومنهم ابن الأثير نفسه<sup>(١)</sup>.

أما الرواية القائلة بأن الشاعر عمارة اليميني هو الذي حرض توران شاه على المسير إلى اليمن، فالأمر الواضح فيها هو أن ما قام به عمارة هو مجرد عامل محفز صادف اهتمام صلاح الدين وأخيه توران شاه بفكرة تسيير حملة إلى اليمن<sup>(٢)</sup>، في الوقت الذي كان فيه عمارة وشركاؤه ينسجون خيوط مؤامرتهم ضد صلاح الدين.

وأما ما ذكر عن كثرة نفقات توران شاه وحاجته إلى إقطاع فلم تكن أرض مصر تضيق عن إقطاع إضافي له بدلاً من اليمن التي لم يطل مقامه فيها أكثر من عام، واتفقت المصادر حول كراهيته المقام في اليمن وتعبيره عن ذلك في رسائله إلى أخيه يطلب منه الإذن بالمسير إلى الشام ليكون معه في جهاده<sup>(٣)</sup>، فضلاً عن أن ذلك لم يكن سبباً كافياً لتسيير حملة بتلك الضخامة إلى اليمن في وقت كانت الأخطار محدقة بصلاح الدين من كل جانب.

H. A. R. Gibb: "The Arabic sources for the life of Saladin" in (١) speculum 25 (1950) pp. 58-72.

(٢) ابن الأثير: الكامل، مج ٧/ ص ٢٣٨.

(٣) الخزرجي: العسجد، ص ١٥٢-١٥٥؛ بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص ٣٨.

وأما ما ذكر من أن حملة اليمن كانت مجرد استعراض عسكري أراد منه صلاح الدين صرف قوة إخوته المتزايدة إلى اليمن لمجرد القضاء على دولة بني مهدي والتخلص من إخوته؛ فهو أمر مثير للدهشة؛ لأن صلاح الدين لم يستغل الفرصة للتخلص من إخوته، بل أرسل واحدًا هو توران شاه الذي سرعان ما أذن له بالانضمام إليه<sup>(١)</sup>، وحتى أخوه سيف الإسلام طغتكين توالى عليه رسائل أخيه يطلب منه القدوم لنصرته ومشاركته الجهاد ضد الصليبيين<sup>(٢)</sup>، فكيف تتاح لصلاح الدين فرصة التخلص من منافسة إخوته له ولا يستغلها الاستغلال الأمثل، بل يبدي لهم فيما بعد رغبته بانضمامهم إليه في جهاده، مما يدل على أن مسير توران شاه إلى اليمن كان في وقت شديد الحرج لصلاح الدين، ولكن فتح اليمن أمرٌ يستحق المجازفة لأجله.

أما رسالة ابن النساخ فقد ثبت تاريخياً أنها كانت سنة (٦١١هـ / ١٢١٤م)، وهي رسالة بعث بها أحد رجال المطرفية الذين اضطهدهم الإمام عبدالله بن حمزة كما بينا في الفصل السابق، مما جعلهم يستنجدون بالخليفة العباسي الناصر لدين الله، وكانت رسالة ابن النساخ سبباً من أسباب حملة الملك المسعود بن الكامل الأيوبي على اليمن، ويعد الجندي أقدم من روى هذا الخبر، ويبدو أنه حصل خلط لديه بين رسالة الشريف قاسم بن غانم وطلبه النصره على بني مهدي ورسالة ابن النساخ الذي نكل الإمام عبدالله بن حمزة بقومه<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن الأثير: الكامل، مج ٧/ ص ٢٦٣؛ أبو شامة: الروضتين، ج ٣/ ص ٦٤ - ٦٥.  
 (٢) العماد (القاضي عماد الدين الأصفهاني الكاتب): الفتح القدسي، تح: محمد محمود صبح، الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة، د.ط - د.ت، ص ٣٧٧، ٤٢١؛  
 القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٧/ ص ٣٦٥ - ٣٦٩.  
 (٣) الحداد: التاريخ، مج ٢/ ص ٣٥٢ - ٣٥٣؛ عبدالعال: الأيوبيون، ص ٧٦.

هذا بالنسبة إلى رسالة ابن النساخ، أما رسالة الأشراف السليمانيين إلى الخليفة الناصر لدين الله طالبيين نصرته على عبد النبي بن مهدي؛ فهي ثابتة تاريخياً ومنطقية من حيث الأحداث رغم الاختلاف حول وجهة الرسالة هل كانت إلى بغداد أم إلى القاهرة؟<sup>(١)</sup>، ومع ذلك فهي لا يمكن أن تكون السبب الأساسي لإنفاذ جيش إلى اليمن، فالفظائع التي ارتكبتها بنو مهدي أخذت تترامى إلى مسامع الناس في العراق ومصر والشام منذ سنة (٥٥٤هـ/ ١١٥٩م) حين اجتاحوا زبيد وتدفقت جموع النازحين برأً وبحراً إلى عدن<sup>(٢)</sup>، فضلاً عن كثير من العلماء الذين لجؤوا إلى الجبال أو إلى الحجاز<sup>(٣)</sup>، وقد استمرت تلك المجازر حتى سنة (٥٦١هـ/ ١١٦٦م) فلا يعقل ألا تتحرك الخلافة العباسية لوضع حد لبني مهدي إلا بعد استنجد الشريف قاسم بهم الذي انتظر هو الآخر حتى سنة (٥٦٩هـ/ ١١٧٤م) ليطلب النصرة، فيكتب الخليفة إلى صلاح الدين بنصرة الشريف قاسم ومساعدته للأخذ بثأر أخيه، والأقرب إلى المنطق هو أن استنجد الأشراف السليمانيين بالخلافة العباسية كان في وقت سابق عن سنة (٥٦٩هـ/ ١١٧٤م)، ولما صار ضم اليمن إلى الجبهة الإسلامية المتحدة ضرورة ملحة صار القضاء على بني مهدي من أولويات العمليات العسكرية للقوات الأيوبية في اليمن.

٢- استقراء الأسباب التي جعلت صلاح الدين يعمل على ضم اليمن إلى سلطانه.

سنحاول فيما يلي استقراء المغزى السياسي من (فتح اليمن) على ضوء

(١) الخزرجي: العسجد، ١٤٥-١٤٦، ١٤٨؛ الكسبي: اللطائف، ٩٦.

(٢) الجندي: السلوك، ج١/ ص٣٧٢. (٣) ابن سمرة: طبقات، ص١٧٧-١٧٩.

الاستراتيجية السياسية والعسكرية والاقتصادية التي أسسها عماد الدين زنكي، وطورها إلى حد كبير ابنه نور الدين محمود، وصولاً إلى صلاح الدين الأيوبي الذي تمكن من تحقيق حلم الجبهة الإسلامية المتحدة، لتصبح واقعاً حياً أثار الرعب في أوروبا ذاتها فضلاً عن مملكة القدس اللاتينية، وسنركز فيما يلي على الهدف السياسي من (فتح اليمن) مع الإشارة إلى الأهداف العسكرية والاقتصادية، التي سنتناول كلاً منها في موضعه.

#### أ - الأسباب السياسية:

كان من أهم الأسباب السياسية التي أدت إلى ضم اليمن إلى الدولة الأيوبية ما يأتي:

- إعادة توحيد اليمن سياسياً، والقضاء على القوى المتنازعة التي أحدثت اضطراباً في أمن المنطقة.

- بناء جبهة إسلامية موحدة تحت راية الخلافة العباسية تتولى مسؤولية الجهاد وكسر العدو الصليبي وتحرير ما احتله من ديار الإسلام والحفاظ عليها.

- القضاء على الدولة الفاطمية واستئصال الجيوب التابعة لهم، حيث كانت اليمن من أهم مراكزهم وقاعدة مهمة لدعاتهم الذين سيطروا على معظم البلاد.

- إحكام سيطرة الأيوبيين على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر والحدود الجنوبية لديار الإسلام، وتضييق الخناق على الحبشة لمنع تسرب الفكرة الصليبية إليها، أو أي تواصل بينهم وبين الصليبيين في الشمال عن طريق البحر الأحمر.

ب - الأسباب العسكرية :

- إمكان أن توفر اليمن للأيوبيين كثيراً من الدعم المالي اللازم لإعداد الجيوش وتطويرها.
- الحصول على الدواب من خيل وإبل... إلخ، وكذلك السلاح والمواد الأولية للصناعات العسكرية .
- الإفادة من موقع اليمن الاستراتيجي فيما يأتي :
- ضمان استقرار الحجاز وحمایته من أي تهديد محتمل.
- حماية الملاحة البحرية في البحر الأحمر والمحيط الهندي من خطر القراصنة لضمان استمرار الحركة التجارية.

ج - الأسباب الاقتصادية :

- توحيد موارد اليمن الاقتصادية وتوظيفها التوظيف الأمثل الذي يصب في مصلحة اقتصاد الجبهة الإسلامية، والإفادة من إمكانات اليمن الاقتصادية لتحقيق التكامل الاقتصادي الإسلامي لخلق اقتصاد الصليبيين، ومن ثم انهيار مؤسساتهم المدنية والعسكرية.
- تأمين حركة الملاحة التجارية في البحر الأحمر والمحيط الهندي لضمان استمرار تدفق التجارة الشرقية.
- دعم التجارة الكارمية التي يعد ميناء عدن أهم محطاتها التجارية، نظراً لأهميتها بالنسبة لاقتصاد المنطقة في تلك الحقبة.

ثانياً- النتائج السياسية لتولي الأيوبيين زمام الإدارة في اليمن:

أثبتت المحاولات الأولى للتصدي للصليبيين ودحرهم، التي قام بها عدد

من قادة الجهاد الإسلامي؛ أنه من المستحيل القيام بعمل عسكري حاسم ضد العدو الصليبي ومواقعه المحصنة وقواته المعدة والمنظمة، فضلا عن الدعم غير المنقطع من أوروبا، في ظل الأوضاع السياسية المزرية التي تعيشها بلاد الإسلام من التفكك والانقسامات والمؤامرات والصراع على السلطة والنفوذ، وقد ظهر ذلك جلياً من خلال المحاولات الفاشلة لكسر شوكة العدو الصليبي وتحرير ما احتلوه من ديار الإسلام، في وقت كان الأمراء المحليون والقادة يكيّد بعضهم لبعض، وخناجر الحشاشين تتناول بالغدر أبرز أعلام الجهاد ورجاله من القادة والأمراء والعلماء وحتى الخلفاء<sup>(١)</sup>.

ونتيجة لكل ذلك ظهرت فكرة بناء جبهة إسلامية موحدة تضم مصر والشام والعراق وغيرها من ديار الإسلام، تحت راية الخلافة العباسية التي كانت لا تزال تحتل مكانة خاصة لدى معظم المسلمين وهيبة ترسخت في أفئدة الناس على مدى أربعة قرون، على الرغم من ضعف سلطانها السياسي على الأقاليم بسبب تسلط الملوك والسلاطين على خلفائها، وقيام الخلافة الفاطمية التي تمكنت من انتزاع عدد من الأقاليم المهمة منهم كمصر والشام واليمن، بل هددت بغداد نفسها.

أما الخلافة الفاطمية فإن مشاكلها الداخلية وخسارتها معظم الأقاليم التابعة لها في المغرب والشام مع نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، والصراعات المتزايدة بين الوزراء؛ كل ذلك جعل مكانتها وهيبتها تتراجع فيما تبقى من ممتلكاتها، حتى صارت عرضة للاحتلال من

(١) ابن الأثير: الكامل، مج ٦/ ص ٣٣٤، ٦٥٢؛ الذهبي: العبر، ج ٢/ ص ٣٨٣-٣٨٤، ٣٩١، ٣٤٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢/ ص ١٥٤، ٢١١، ٢٢٥.

قبل الصليبيين، وقد أدى انكفاء الفاطميين على أنفسهم وانشغالهم بمشاكلهم الداخلية والخارجية إلى جعل كفة القوى الموالية للخلافة العباسية ترجح في المنطقة، وصار القضاء على الفاطميين هدفاً أساسياً لتلك القوى لأجل إكمال توحيد ديار الإسلام تحت راية الخلافة العباسية.

ومن هذا المنطلق جاءت جهود عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود في توحيد البلاد حتى نجحوا في ضم الموصل وحلب ودمشق في وحدة سياسية، وكان أكبر نصر لمشروع الجبهة الإسلامية المتحدة هو دخول قوات نور الدين مصر وإقامة الخطبة فيها للخلافة العباسية - فيما بعد - ولكن لم يكن توحيد ديار الإسلام في جبهة واحدة ليتوقف عند مصر لا سيما أن إدارة ذلك الإقليم (مصر) قد آلت إلى قائد يملك قدرات سياسية وعسكرية فذة هو صلاح الدين الأيوبي، الذي نشأ في كنف نور الدين محمود وورث عنه طموحه وحلمه الكبير بتحرير بيت المقدس، والذي أدرك مثل قائده أن ذلك لا يكون إلا بتوحيد المسلمين سياسياً وعسكرياً واقتصادياً في جبهة واحدة تدين بالولاء للخلافة العباسية، وبذلك يصبحون قادرين ليس فقط على التصدي للصليبيين في بلاد الشام، بل مواجهة أوروبا كلها بجحافلها التي ستهب لنجدة إخوانهم مثلما حدث بعد استرداد المسلمين للرها سنة (٥٣٩هـ / ١١٤٤م).

وقد اتبع صلاح الدين الأيوبي سياسة نور الدين في دعم الجبهة الإسلامية وتوسيع دائرتها وتأمين حدودها، فقام بإرسال عدد من الحملات تمكنت من:

١- استرداد أيلة، ذلك الميناء المهم المطل على البحر الأحمر من الصليبيين سنة (٥٦٦هـ / ١١٧٠م).

٢- تأمين حدود مصر الغربية بالسيطرة على برقة سنة (٥٦٨هـ/ ١١٧٢م).

٣- تطهير جنوب مصر من بقايا الفاطميين وتأمين حدودها مع مملكة النوبة المسيحية، وذلك بواسطة حملة توران شاه على تلك المناطق في سنة (٥٦٨هـ/ ١١٧٢م).

أما حملة توران شاه على اليمن فقد حقق من ورائها كل من نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي المكاسب السياسية الآتية:

#### ١- القضاء على الكيانات السياسية المتنازعة في اليمن:

تمكن الأيوبيون من القضاء على الكيانات السياسية التي تقاسمت حكم اليمن وجرت البلاد إلى سلسلة من الحروب الدموية من أجل الاستحواذ على مزيد من المناطق مما زاد من تدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية للبلاد، وقد بلغ ذلك التمزق والصراع ذروته بظهور دولة بني مهدي التي اتخذت لنفسها سياسة حربية عدوانية ضد أية قوة منافسة لها، فسفكوا الدماء وسبوا الحرائر، بل تجاوز خطرهم اليمن إلى التفكير بالسير إلى مكة المشرفة<sup>(١)</sup>، ويعد الإنجاز الذي حققه توران شاه في اليمن حدثاً ذا أهمية بالغة، إذ تم توحيد اليمن، ووضع حد لمرحلة من الفتن والحروب التي شغلت اليمنيين عن القيام بدورهم في الإسهام في نصرته إخوانهم الذين يجاهدون الصليبيين في مصر وبلاد الشام، كما أن حملة توران شاه جاء توقيتها مناسباً للقضاء على خطر بني مهدي الذين ظلت دولتهم تشكل خطراً على أمن المنطقة، لا سيما أن حملاتهم وصلت إلى مكة، في ظل دعوة

(١) أبو شامة: الروضتين، ج٢/ ص ٢٧٢.

بني مهدي لأنفسهم بالخلافة، فهددوا وحدة بلاد الإسلام التي يكافح نور الدين محمود وصلاح الدين محمود لتحقيقها، لا سيما بعد القضاء على الخلافة الفاطمية في مصر، فتحققت بذلك وحدة مصر والشام، وصار من الحزم المبادرة إلى القضاء على ذلك الخطر المتنامي لبني مهدي وأطماعهم الواسعة التي تشمل الأرض كلها<sup>(١)</sup> قبل أن يستفحل ويسبب للأيوبيين من المشاكل ما هم في غنى عنه، لا سيما أن الخلافة العباسية قد أبدت قلقها من تزايد خطر بني مهدي بعدما تنفست الصعداء إثر زوال دولة الفاطميين في مصر، ومن المرجح أن هدف القضاء على بني مهدي هو الذي حدد التوقيت لحملة توران شاه إلى اليمن، الذي تزامن بعد كسر قوات عبد النبي على يد تحالف بني زريع وبني حاتم عند ذي عدينة<sup>(٢)</sup> في ربيع الأول سنة (٥٦٩هـ/ ١١٧٣م)<sup>(٣)</sup>، في حين غادرت الحملة مصر في رجب من العام نفسه<sup>(٤)</sup>.

وبضم الأيوبيين اليمن والقضاء على القوى السياسية المحلية المتعددة التي أضعفت صراعاتها البلاد، وقللت من الدور الذي يمكن أن تلعبه، إذ "... لو استقل مجموع اليمن لملك واحد كبر محله وعظم قدره في الممالك الجلييلة..."<sup>(٥)</sup>، فعاد لليمن ثقلها السياسي في المنطقة، وارتبطت

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢/ ص ٢٩١.

(٢) ذي عدينة (بضم ففتح فسكون): منطقة في الطرف الجنوبي من مدينة تعز، أسفل جبل صبر، وهي التي يقع فيها جامع (المظفر) حالياً. المقحفي: المعجم، ج٢/ ص ١٠٣١.

(٣) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص ٦٥؛ الخزرجي: العسجد، ص ١٤٠.

(٤) ابن الأثير: الكامل، مج٧/ ص ٢٣٨؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج١٢/ ص ٢٩١.

(٥) ابن فضل الله (شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار "القسم الخاص بمملكة اليمن"، تح: أيمن فؤاد سيد، دار الاعتصام - القاهرة، د.ط - د.ت، ص ٥١.

بالأحداث التي تمر بها الأمة والجهاد الذي تخوضه ضد الوجود الصليبي في المنطقة، وذلك عبر الإدارة الأيوبية للبلاد، وأكبر دليل على ذلك الكتب والمراسلات المتبادلة بين القيادة الأيوبية في مصر والشام وإدارتهم في اليمن، التي من المؤكد أن أي تفاعل شعبي من اليمن كان يتم عن طريقها، مما أهل اليمن لتؤدي دورًا في دعم الجهاد ضد الصليبيين، سواء في العصر الأيوبي أو العصر الرسولي فيما بعد.

## ٢- توطيد سلطة الخلافة العباسية:

كانت الخلافة العباسية تعد القلب النابض لديار الإسلام، وتتجسد فيها الزعامة الروحية للمسلمين في أقطار الخلافة، على الرغم من الضعف الذي كانت تعانيه بسبب تسلط القوى السياسية المتغلبة عليها واستئثارها بسلطان الخلافة، فصارت تلك القوى المتغلبة ذات سلطان على البلاد والعباد كل ذلك باسم الخليفة العباسي الذي ظل لمركزه هيبته ترسخت على مدى أربعة قرون، فكانت الأقاليم تحفظ لبغداد مكانتها بصفتها دار الخلافة وإن كانت مستقلة عمليًا عنها، فالزياديون لم يكن يحول بينهم وبين الإطاحة بهم من قبل وزرائهم إلا مداومتهم إظهار الولاء لبني العباس، حيث "... ساسوا قلوب الرعايا بإبقاء الخطبة لبني العباس..."<sup>(١)</sup>، وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى النجاحيين الذين مثلوا آخر قوة سياسية في اليمن موالية للعباسيين<sup>(٢)</sup>.

ومع وصول جحافل الصليبيين إلى الشام وما ارتكبه من مجازر في المدن التي سقطت في أيديهم؛ لجأ الناس - العلماء والزعماء والعامّة -

(٢) الخزرجي: المسجد، ص ١١٤.

(١) عمارة: المفيد، ص ٧٦.

إلى بغداد طالبين النصر من الخليفة، مما يدل على أنه على الرغم من تسلط الأمراء على ما تحت أيديهم من بلاد فإن الخلافة العباسية ظلت هي الملجأ والملاذ للمسلمين في الملمات<sup>(١)</sup>.

ومن ناحية أخرى فإن جهاد العدو الصليبي كان يحتاج إلى تكاتف القوى الإسلامية في المنطقة وتعاون الأمراء المحليين فيما بينهم، ولكنه أمر كان من المستحيل تحقيقه في ظل الخلافات السياسية العميقة والمنازعات والمؤامرات التي عصفت بالعلاقات فيما بينهم، الأمر الذي جعل من الواجب على أية قيادة متحمسة للجهاد وتحرير بيت المقدس أن تأخذ على عاتقها توحيد المسلمين في الشام ومصر - خطوط المواجهة - تحت راية واحدة يدين لها بالولاء أمراؤهم وتلتف حولها جماهير الأمة، وذلك أمر لا يتأتى إلا لقيادة تحظى بمباركة الخلافة العباسية وثقتها كي تنال شرعية تمكنها من توحيد المسلمين وإخضاع الأمراء المتصارعين والمتراخين عن الجهاد.

وقد تم تطبيق هذه السياسة على يد عماد الدين زنكي أتابك الموصل الذي تمكن من ضم حلب في سنة (٥٢٢هـ / ١١٢٧م)، و ديار بكر في سنة (٥٣٨هـ / ١١٤٣م)<sup>(٢)</sup> إلى دولته التي صارت تحكم شمال العراق وبلاد الشام، وهو ما مكنه من توجيه ضربة قوية للصليبيين باستعادة الرها سنة (٥٣٩هـ / ١١٤٤م)، الأمر الذي عزز من مكانته في مواجهة السلطان

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢ / ص١٦٩ - ١٧٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل، مج٦ / ص٦١٢ - ٦١٣، مج٧ / ص ١٨، ٤٥؛ أبو شامة: الروضتين، ج١ / ص ١١٨.

السلجوقي والخليفة العباسي<sup>(١)</sup>.

وقد واصل نور الدين محمود سياسة والده إذ عمل انطلاقاً من محور (الموصل/ حلب) على ضم محور (دمشق/ القاهرة)، فتمكن من الاستيلاء على دمشق سنة (٥٤٨هـ / ١١٥٣م)، وتم له بذلك توحيد الجبهة الشمالية التي صارت قوة مرهوبة من قبل الصليبيين الذين سارعوا لمهاجمة مصر مستغلين ضعف الخلافة الفاطمية والصراع بين وزرائها، فما كان من نور الدين إلا أن بادر إلى إنقاذ مصر لعلمه أن من يحصل على مصر فإن ميزان القوة يميل لصالحه، وهو أمر فطن له كذلك الصليبيون، إذ إن اشتراطهم على الفاطميين سنة (٥٦٢هـ / ١١٦٧م) إقامة قوة من الفرسان الصليبيين بالقاهرة (شحنة) ومندوباً عن ملكهم هو إجراء عسكري ينطوي في حقيقته على دعاية سياسية لهم في أوروبا بأن مصر قد صارت تابعة لهم<sup>(٢)</sup>، وعلى الرغم من ذلك فإن النصر كان في النهاية لصالح نور الدين الذي تمكن من ضم مصر تحت لوائه معززاً ذلك بإقامة الخطبة للعباسيين في مصر وإسقاط الخلافة الفاطمية سنة (٥٦٧هـ / ١١٧١م)<sup>(٣)</sup>.

ويمكن لنا أن نتصور مقدار الحظوة التي نالها نور الدين عند الخليفة عندما وصلت بشائره بإقامة الخطبة له في مصر وزوال الدولة الفاطمية، مما زاد من نفوذ نور الدين وسلطانه على ما تحت يده من أقاليم، وكأن كل نصر ومجد يحققه للخليفة هو زيادة في قوته وسلطانه السياسي ومن ثم

(١) قاسم عبده: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية - القاهرة، ط١ - ٢٠٠١م، ص ٣٥-٤٠.

(٢) عاشور: الحركة الصليبية، ج ١/ ص ٥٤١.

(٣) ابن الأثير: الكامل، مج ٧/ ص ٢١٧-٢٢٠؛ الذهبي: العبر، ج ٣/ ص ٤٩.

التفاف الناس حوله وتأييدهم له؛ كيف لا وهو حامل راية الجهاد ضد الصليبيين والسلطان الشرعي لهم بتفويض من الخليفة في بغداد، وقد انتقل ذلك الوعي السياسي والطموح إلى تلميذه ونائبه في مصر صلاح الدين الأيوبي الذي واصل سياسة مولاه في ضم المزيد من الأقاليم تحت سلطان العباسيين كما بينا.

والحقيقة أن حملة اليمن هي نصر سياسي لصلاح الدين على الرغم من أنها تمت بموافقة نور الدين الذي ساق البشارة بفتح اليمن إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله<sup>(١)</sup>، فقد كان صلاح الدين هو المخطط لهذه الحملة والمشرف على إعدادها ولذلك كان فتح اليمن دعماً لمركز صلاح الدين السياسي والعسكري من جهة، وضماناً لسيطرته على البحر الأحمر بما له من أهمية دينية واقتصادية من الجهة الأخرى<sup>(٢)</sup>، فقد توفي نور الدين في العام نفسه الذي فتحت فيه اليمن، مخلقاً طفلاً لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره ليتولى حكم مملكته المترامية الأطراف، فدب النزاع بين أمراء أبيه حول الوصاية عليه حتى طمع فيهم الصليبيون، فهاجموا تخوم دمشق، ولم يستطع أميرها دفعهم إلا ببذل المال لهم وإطلاق أسراهم<sup>(٣)</sup>، ولما رأى صلاح الدين أن ما بناه نور الدين يوشك أن ينهار وجد أن عليه المبادرة لإنقاذ حلم المسلمين بالتوحد وتحرير بيت المقدس، ولكن كان عليه أولاً السعي لإسباغ الشرعية على حكمه لتقوية موقفه أمام من يتسلطون على إرث نور الدين ومملكه متذرعين بالوصاية على ابنه الطفل، فضلا عن أن ذلك

(١) أبو شامة: الروضتين: ج٢/ ص٢٧٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٩١.

(٢) قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٤٠.

(٣) أبو شامة: الروضتين، ج٢/ ص٣٢٢؛ عاشور: الحركة الصليبية، ج٢/ ص٥٨٢.

سيدعم موقفه أمام البيت الزنكي في الموصل، الذين يمثلون الورثة الشرعيين لمملكة نور الدين<sup>(١)</sup>.

وهنا تظهر عبقرية صلاح الدين السياسية، إذ أقام الخطبة للصلاح إسماعيل بن نور الدين في مصر واليمن، وضرب السكة وعليها اسم الخليفة والصلاح إسماعيل يتلوه الناصر صلاح الدين مما أكسبه ثقة الناس عامة والخليفة خاصة<sup>(٢)</sup>، واستمر ذلك الوضع حتى صارت الفرصة سانحة أمامه سنة (٥٧٠هـ / ١١٧٥م) للتحرك نحو الشام مطالبًا بالوصاية على ولد نور الدين، وكان قد أرسل إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله رسالة تضمنت كتابًا طويلًا يعدد فيه " ... ما للسلطان [صلاح الدين] من الأيادي في جهاد الإفرنج في حياة نور الدين ثم فتح مصر واليمن وبلاد جمعة من أطراف المغرب وإقامة الخطبة العباسية بها. . . " <sup>(٣)</sup>، ولا يستبعد أن يكون قد أرفق ذلك الكتاب بدنانير ضربت باسم الخليفة في اليمن كما صنع مع الصالح إسماعيل<sup>(٤)</sup>، وقد ختم صلاح الدين رسالته ببيان قصده من تعداد ما سبق: " ... والمراد الآن هو كل ما يقوي الدولة، ويؤكد الدعوة، ويجمع الأمة، ويحفظ الألفة، ويضمن الرأفة، ويفتح البلاد، وأن يطبق بالاسم العباسي كل ما تطيقه العهاد، وهو تقليد جامع بمصر واليمن والمغرب والشام وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية وكل ما يفتحه الله تعالى للدولة العباسية بسيفنا. . . " <sup>(٥)</sup>.

(١) قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ٤١

(٢) أبو شامة: الروضتين، ج ٢ / ص ٣٢٠؛ قاسم: المرجع نفسه، ص ٤١.

(٣) أبو شامة: المصدر نفسه، ج ٢ / ص ٣٥٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل، مج ٧ / ص ٢٤٤.

(٥) أبو شامة: الروضتين، ج ٢ / ص ٣٦٥-٣٦٦.

وسرعان ما أثمرت جهود صلاح الدين، إذ جاءته رسل الخليفة في حماة ومعهم التشريفات والأعلام السود، والتوقيع بالسلطنة على مصر واليمن والشام والمغرب وما فتحه من البلاد والأقاليم<sup>(١)</sup>، بل منحت الألقاب التشريفية لأفراد البيت الأيوبي ولا سيما الملك المعظم شمس الدولة توران شاه، إذ منحه الخليفة لقب "مصطفى أمير المؤمنين" تقديرًا لجهوده في بسط سلطان الخلافة العباسية على مزيد من البلاد والأقاليم<sup>(٢)</sup>، ولا عجب في ذلك إذ بلغ من أهمية فتح اليمن عند العباسيين أن تسابق الشعراء في وصف فتوحات صلاح الدين من خلال مدحهم للخليفة، فيقول ابن التعاويذي<sup>(٣)</sup>:

دانت لهيبتك المما لك والمعازل والمدن  
بالمشرفيات الصوارم والمثقفلة اللدن  
وأنتك أسلاب الملو ك من الصعيد إلى عدن  
سلب الدعي بأرض مصر والمضلل في اليمن<sup>(٤)</sup>

وقد أظهر هذا الحدث براعة صلاح الدين السياسية الفائقة التي مكنته من أن يصبح هو الحاكم الشرعي على أملاك نور الدين، فصار الأمراء المتنافسون مجرد عصاة خارجين على السلطة الشرعية ممثلة في صلاح الدين

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢/ ص ٣٨٤.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، مج ١٢/ ص ٣١٦.

(٣) ابن التعاويذي: أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله الكاتب المعروف بابن التعويذي، شاعر مشهور، عمل كاتبًا بديوان المقاطعات ببغداد، وقد عمي في آخر عمره، وتوفي سنة (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) وقيل (٥٨٤هـ/ ١١٨٨م)؛ انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤/ ص ٤٦٦-٤٧٣.

(٤) أبو شامة: الروضتين، ج ٢/ ص ٢٦٧-٢٦٨.

وخلفه الخلافة العباسية، وأصبح تحركه السياسي والعسكري مأمون العاقبة وبموافقة القوى السياسية والشعوب الإسلامية في المنطقة<sup>(١)</sup>، هذا من ناحية بناء الجبهة الإسلامية وتوحيد المسلمين في مواجهة عدوهم، وأما بالنسبة إلى الصليبيين فقد صار عليهم مواجهة سلطان تمتد مملكته من برقة غرباً إلى الفرات شرقاً، ومن الموصل شمالاً إلى اليمن والنوبة جنوباً، وهو ما أثار الرعب في نفوسهم حتى خاطبه الإمبراطور الألماني فريدريك الأول (٥٥٠هـ / ١١٥٥م - ٥٨٧هـ / ١١٩٠م) إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة في خطاب وجهه إليه بـ(حاكم الشرق الشهير)<sup>(٢)</sup>، الأمر الذي يبين مدى خشية الصليبيين من ضخامة مملكته التي مكنته من التصدي لهم وكسرهم وتحرير بيت المقدس والساحل الشامي، بل التصدي بقوة للحملة الصليبية الثالثة على الرغم من ضخامتها وقوتها.

وأكبر دليل على المكانة الخاصة لليمن في حسابات صلاح الدين السياسية هو اهتمامه الكبير بالحفاظ على تبعية اليمن لدولته، وذلك من خلال متابعته أحوال اليمن وتفقدته الأوضاع فيها عبر المراسلات التي تمت بينه وبين نواب أخيه توران شاه عن الأوضاع في اليمن، في الوقت الذي كان يخوض فيه معارك ضارية في شمال بلاد الشام والموصل لإكمال توحيد المسلمين<sup>(٣)</sup>، وبلغ من اهتمامه ومتابعته الأوضاع باليمن أنه ما إن استشعر الخطر من

(١) قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ٤١.

(٢) مجهول (مؤلف إنجليزي معاصر للحملة الثالثة): الحرب الصليبية الثالثة، ترجمة وتعليق: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، د.ط - ٢٠٠٠م، ج ١/ ص ٥٧-٦٣؛ سلامة (جلال حسني): عكا أثناء الحملة الصليبية الثالثة، دار الفاروق - نابلس، ط ١- ١٩٩٨م، ص ١٥٢.

(٣) العماد الكاتب: البرق الشامي، ج ٥/ ص ٤٥-٤٧.

الصراع الذي نشب بين نواب أخيه في اليمن وادعاء كل منهم الملك لنفسه حتى ضرب كل منهم سكة خاصة به وحرّم على أهل ولايته التعامل بغيرها<sup>(١)</sup>، بل وصل الأمر إلى أن أمر كل منهم أن يخطب له على المنابر<sup>(٢)</sup>، فبادر إلى إرسال حملة أخرى بقيادة والي القاهرة صارم الدين خطلبا " . . . لتمهيد أمرها وتقوية ثغرها . . ." <sup>(٣)</sup>، وذلك في سنة (٥٧٧هـ / ١١٧٩م)<sup>(٤)</sup>، مما يبين مدى أهمية اليمن في سياسة صلاح الدين حتى صارت ثغراً مثل الشام ومصر.

نجح خطلبا في تنفيذ مهمته وإعادة الانضباط إلى الإدارة الأيوبية في اليمن، إلا أنه سرعان ما مرض مرضاً شديداً توفي في إثره، فعادت الفوضى والصراع بين النواب في وقت تعرضت مكانة صلاح الدين السياسية وتعلق جماهير المسلمين به إلى تهديد خطير سنة (٥٧٨هـ / ١١٨٣م) إثر قيام سفن (أرناط) باختراق البحر الأحمر مهاجماً سواحل الشرق والغرب، وتكمن خطورة تلك الحملة في المغزى السياسي من ورائها، إذ كان هدف (أرناط):

أ - الاعتداء على الحرمين الشريفين ولا سيما قبر النبي ﷺ، فيحقق بذلك نصراً مدوياً للصليبيين يتردد في أنحاء أوروبا، ومن جهة ثانية تسقط هيبة صلاح الدين بين المسلمين، ويتقوى بذلك منافسوه، فيظهر بمظهر العاجز عن حماية أقدس مقدسات المسلمين<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص ٧٨؛ الخزرجي: المسجد، ص ١٥٦ - ١٥٧.

(٢) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص ١٣١.

(٣) العماد الكاتب: البرق الشامي، ج ٥ / ص ٤٤.

(٤) ابن الأثير: الكامل، مج ٧ / ص ٢٨٧؛ أبو شامة: الروضتين، ج ٣ / ص ٩٤.

(٥) عبدالعال: الأيوبيون، ص ١١٧؛ قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ٥١ -

٥٢؛ رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢ / قسم ٢ / ص ٧٠٦ - ٧٠٧.

ب - السيطرة على البحر الأحمر عبر التحكم بمرافئه الشمالية واحتلال عدن في الجنوب، فيصبح ذلك البحر تحت سيطرتهم بعد أن كان بحيرة إسلامية، وهو هدف له أبعاده السياسية والاقتصادية في المنطقة<sup>(١)</sup>.

ج - تأمين الاتصال مع مملكة الحبشة النصرانية تمهيداً لانضمامها إلى الصليبيين في حربهم ضد المسلمين، وبذلك يصبح معهم حليف قوي جنوب ديار الإسلام يمكن من خلاله توجيه الضربات للمسلمين من الخلف<sup>(٢)</sup>.

وكادت مخططات أرناط تنجح لولا تدخل أسطول مصر في الوقت المناسب، وقد أثار ذلك نقمة صلاح الدين على نوابه في اليمن باعتبار اليمن حامية للحدود الجنوبية في الدولة، وتقع على عاتقها مسؤولية التصدي لمثل تلك المحاولات، فما كان منه إلا أن أرسل - في العام التالي - أخاه سيف الإسلام طغتكين على رأس حملة اتسمت باستخدام العنف للقضاء على النواب والقوى المحلية في اليمن<sup>(٣)</sup>.

لقد كانت سياسة صلاح الدين تجاه أي جزء من دولته - ومنها اليمن - متجسدة في خطاب أرسله إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله جاء فيه "... ولو أن أمور الحرب تصلحها الشركة لما عز عليه أن يكون كثير المشاركين، ولا ساءه أن تكون الدنيا كثيرة المالكين، وإنما أمور الحرب لا تحتمل في التدبير إلا الوحدة، فإذا صح التدبير لم يحتمل في اللقاء إلا

(١) ابن الأثير: المصدر السابق، مج ٧/ ص ٢٩٨؛ أبو شامة: الروضتين، ج ٣/ ص ١٣٩.

(٢) عبدالعال: الأيوبيون، ص ١١٧.

(٣) عبدالعال: المرجع نفسه، ص ١١٩؛ العسيري (محمد بن علي مسفر): الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن في العصر الأيوبي، دار المدني - جدة، ط ١- ١٩٨٥م، ص ٦٧ هامش رقم (٢).

العدة...<sup>(١)</sup>، وهكذا تمكن صلاح الدين من قلب موازين القوى في المنطقة لصالحه، فقد كانت مملكة القدس اللاتينية تعاني العجز والضعف في ظل غياب ملك قوي ذي مقدرة سياسية وعسكرية، وبلاط منقسم تمزقه المؤامرات، والخلاف الكبير بين الإمبراطورية البيزنطية والإمارات الصليبية في الشرق، وأخيراً انشغال أوروبا بمشاكلها الداخلية والصراع بين ملوكها مما يجعلهم عاجزين عن مد يد العون لإخوانهم في حربهم ضد المسلمين<sup>(٢)</sup>.

وعلى الجانب الآخر كانت قوة صلاح الدين العسكرية في تصاعد مستمر، كما أن نفوذه السياسي المباشر امتد من مصر إلى الحجاز واليمن وشرق إفريقيا والشام وأعالي العراق فضلاً عن بلاد المغرب، وكانت سيطرته السياسية قوية في البلاد الخاضعة لحكمه المباشر<sup>(٣)</sup>.

وقد بقيت اليمن جزءاً من الدولة الأيوبية في مصر والشام إلى وفاة صلاح الدين سنة (٥٨٩هـ / ١١٩٣م)، فاستقل بها أخوه طغتكين وذريته من بعده، الذين شغلوا بمشاكل ملكهم مثل بقية الأيوبيين في مصر والشام، حيث شغل أبناء صلاح الدين بحرب بعضهم ضد بعض، إلى أن تمكن عمهم الملك العادل أبو بكر بعد سبع سنوات من وفاة أخيه من تنحيتهم والاستحواذ بمملكة صلاح الدين دونهم<sup>(٤)</sup>، وكان أخوه طغتكين قد توفي قبل ذلك وخلفه ابنه

(١) أبو شامة: الروضتين، ج ٣ / ص ١٧٨ - ١٧٩.

(٢) قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ٤٩؛ رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣ / قسم ١ / ص ٢٣ - ٢٤.

(٣) قاسم: المرجع نفسه، ص ٤٩.

(٤) العبادي: في التاريخ الأيوبي والمملوكي، ص ٧٢ - ٧٣.

المعز إسماعيل الذي تتفق المصادر على عدم كفايته السياسية على الصعيدين الداخلي والخارجي على الرغم من بسالته العسكرية<sup>(١)</sup>، إذ بلغ من تهوره أن ادعى لنفسه الخلافة زاعماً أن أسرته تنتسب إلى بني أمية، الأمر الذي سبب حرجاً للأيوبيين في مصر والشام حتى أرسل أعمامه إليه يعاتبونه ويوبخونه على فعلته<sup>(٢)</sup>، كما أثارت فعلته حفيظة من بقي على ولائه من جند أبيه فتآمروا عليه وقتلوه سنة (٥٩٨هـ / ١٢٠٢م).

ويتضح مما سبق أن الأيوبيين في مصر والشام تشاغلوا عن دعم مركزهم في اليمن ركوناً إلى أبناء طغتكين، إلا أن تشاغلهم كاد يوتر العلاقة بينهم وبين الخلافة العباسية التي كان لدعمها لهم كبير الأثر في رفع مكانتهم وترسيخ نفوذهم على الأقاليم، فلما توالى الفتن في اليمن بعد مقتل المعز أرسل الملك الكامل بن العادل حملة إلى اليمن بقيادة ابنه المسعود، الذي - على الرغم من نجاحه في إعادة ضبط الأمور في اليمن - كان كمن أعدّها ليتسلمها منه بنو رسول.

### ٣- القضاء على بقايا الفاطميين في المنطقة.

في سنة (٥٦٧هـ / ١١٧٢م) أقيمت الخطبة للخليفة العباسي المستضيء بالله في مصر كإعلان بطي صفحة الخلافة الفاطمية التي نافست العباسيين على السيادة الروحية في بلاد الإسلام لأكثر من قرنين ونصف من الزمن، وتكمن أهمية المنافسة بين الخلافتين في أن كلاهما ادعت الحق في السيادة على ديار الإسلام، وكلاهما تبسط سلطانها على أكثر أجزاء بلاد

(١) ابن حاتم: السمط، ص ٤٤-٤٥؛ ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص ٨٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل، مج ٧/ ص ٤٢٧.

الإسلام حيوية وأهمية على المستويات كافة السياسية والعسكرية والاقتصادية، فالعراق وما يتبعه من أقاليم المشرق وأعالي الفرات تدين بالولاء للعباسيين، في حين أن مصر وإفريقية واليمن تخضع لسultan الفاطميين، أما بلاد الشام والحجاز فظلت تتجاذبهما القوتان بالأساليب السياسية تارة وبالقوة العسكرية تارة أخرى.

كما أن المنافسة الاقتصادية كانت في أوجها بين الطرفين للسيطرة على التجارة الشرقية التي ظلت تقصد بغداد برًا وبحرًا عن طريق بحر فارس، إلى أن تمكن الفاطميون - بمساعدة دعواتهم في اليمن - من تحويل الطريق البحري إلى البحر الأحمر فمصر، مما أثر في الحركة التجارية في ممتلكات العباسيين، وفي ظل هذا الصراع بين القوتين تمكن الصليبيون من إقامة مملكتهم في قلب بلاد الإسلام، وبعد المحاولات الفاشلة من الطرفين كل على حدة للتصدي للصليبيين وكسرهم، صار واضحًا للعيان أنه يستحيل أن يتم ذلك إلا بتوحيد بلاد الإسلام تحت راية إحدى الخلافتين، الأمر الذي حسمه تزايد الاضطرابات في مصر الفاطمية وتدهور الأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية فيها، مقابل ظهور قوة عسكرية موالية للعباسيين أخذت على عاتقها مسؤولية تحقيق الوحدة الإسلامية تحت راية العباسيين وترسيخها والذود عنها؛ ليتمكن المسلمون من الوقوف صفاً واحداً في وجه عدوهم.

ولكن القضاء على الخلافة الفاطمية لم يكن بالأمر السهل لا سيما أنها قد حكمت أكثر من قرنين ونصف من الزمان، تمكنت خلال تلك المدة من نشر دعواتها في أصقاع الأرض وإقامة نظام لإدارة أمور الدعوة ونشرها

ومتابعة الدعاة في الأقاليم والإشراف عليهم<sup>(١)</sup>، كما أنه خلال تلك المدة ارتبطت قوى وأطراف متعددة بالفاطميين حتى صاروا متعصبين للخلافة الفاطمية أكثر من الفاطميين أنفسهم، فكان من المتوقع أن يثير سقوط الدولة الفاطمية رد فعل قوي بين القوى الموالية لهم سواء في مصر أو خارجها.

وقد حدث ذلك بالفعل من خلال المؤامرة التي دبرها عددٌ من المواليين للدولة الفاطمية وعلى رأسهم عمارة الحكمي اليمني وغيره من رجال الدعوة والدولة الفاطمية، وقد بلغت تلك المؤامرة درجة عالية من الدقة والتخطيط حتى كادت تعصف بصلاح الدين ومن معه في مصر لولا أن تم كشفها وإعدام مدبريها سنة (٥٦٩هـ / ١١٧٤م)<sup>(٢)</sup>، وفي السنة التالية قامت في أسوان ثورة تزعمها رجل يعرف بكنز الدولة تمكن خلالها من مهاجمة قوص<sup>(٣)</sup> والفتك ببعض أمراء صلاح الدين الذي جرد عليه حملة تمكنت من القضاء عليه؛ بعدما كان يدعي " . . . أنه سيعيد الدولة الفاطمية و يدحض الأتابكية التركية . . ." <sup>(٤)</sup>، وقد استمرت محاولات الانقلاب والخروج على الأيوبيين من قبل أنصار الفاطميين حتى سنة (٥٨٤هـ / ١١٨٨م)<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن فيض الله: الصليحيون، ص ٢٢١؛ جب (سير هاملتون.آر.): صلاح الدين الأيوبي، حررها: يوسف إيس، بيسان للنشر - بيروت، ط ٢- ١٩٩٦م، ص ١٢٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل، مج ٧/ ص ٢٣٩- ٢٤١؛ أبو شامة: الروضتين، ج ٢/ ص ٢٨٢- ٢٨٣.

(٣) قوص (بالضم ثم السكون وصاد مهملة): مدينة كبيرة عظيمة واسعة، قصبة صعيد مصر، بينها وبين الفسطاط ١٢ يوما، وأهلها أرباب ثروة واسعة، وهي محط التجار القادمين من عدن؛ ياقوت: المعجم، ج ٤/ ص ٤١٣.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢/ ص ٣٠٤.

(٥) ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٢/ ص ٣٤٧.

وبالنسبة إلى اليمن فإن دعاة الفاطميين فيها كانوا من أشد الإسماعيلية تعصباً للفاطميين نظراً لوحدة المصير التي تربط بين الطرفين كما بينا في موضع سابق من هذا الفصل، فبعد انفراط عقد الدولة الصليحية وانفصال السيدة بنت أحمد بدعوتهما للطيب بن الأمر بأحكام الله، صار بنو زريع هم أصحاب الدعوة في اليمن لبقية خلفاء الفاطميين، وقد بلغ من تعصبهم للفاطميين أن اتخذوا سياسة معادية للزنكيين الذين دخلوا في سباق مع الصليبيين لأجل السيطرة على مصر منذ سنة (٥٥٩هـ / ١١٦٤م)، ولم يكن الفاطميون مرحبين بقوات نور الدين وإن جاءت لنصرتهم، وقد انسحب هذا الموقف بدوره على أنصار الفاطميين ودعاتهم في اليمن، فيقول شاعر بني زريع أبو بكر العندي<sup>(١)</sup> في قصيدة له يمدح فيها الداعي عمران بن محمد بن سبأ (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٥م)<sup>(٢)</sup>:

يرد العدى بالرأي وهو مخيم      كم من سكون فيه بطش حراك  
سلت يد الأيام منه مهنداً      متحكماً في هامة الأتراك  
ومادامت اليمن خالية من أتراك      يكن لهم العداء فالمقصود إذن هم آل  
زنكي الأتراك، ومن المحتمل أن يكون بنو زريع طرفاً أساسياً أو ثانوياً في

(١) أبو بكر بن أحمد العندي نسباً، الأبيني بلداً، من قوم يسمون الأعنود منهم جماعة يسكنون أبين ولحج وعدن، ولد بأبين وكان أبوه من أعيانها وأهل الرأي فيها، وقد ظهرت عليه معالم النجابة منذ صغره، فلما أتم حفظ القرآن دخل عدن فقرأ فيها الفقه والأدب وعلم الحساب، ونظم ونثر وحاز فضلاً واسعاً، ثم ارتقت به المراتب عند بني زريع ووزرائهم حتى صار من خاصتهم ومستشاريهم، ودبج في مدحهم غرر القصائد، وهو الذي أرشد عمارة الحكمي إلى سلوك طريق الشعر والأدب بدل الفقه وقدمه إلى بني زريع، توفي سنة (٦٨٠هـ / ١١٨٥م)؛ انظر: الجندي، السلوك، ج ١/ ص ٣٧٠-٣٧٤.

(٢) عمارة: المفيد، ص ٢٧٥.

المؤامرة التي دبرها عمارة ورفاقه، فقد كان وفاء عمارة للفاطميين هو ما دفعه للاشتراك في تلك المؤامرة - التي سنتناول موقفه منها في موضعه - التي دفع حياته ثمناً لها، فيحرض توران شاه على المسير إلى اليمن ويطمعه في ملكها وخيراتها لينفرد المتآمرون بأخيه صلاح الدين في غيابه<sup>(١)</sup>، لكنه بذلك يعرض دولة بني زريع للهلاك في حين أنه يجدر به العمل على ضمان بقاء دولتهم للأسباب الآتية:

١- كونهم أصحاب الفضل الأول عليه عندما كان في اليمن ولم يزل يذكرهم بخير ويناصحهم حتى وهو في مصر<sup>(٢)</sup>.

٢- أن دولة بني زريع في عدن وما يتبعها، ونظيرتها في صنعاء ومناطقها الدولية الحاتمية تعدان آخر الكيانات السياسية المستقلة للإسماعيلية في المنطقة، وبما أن لعمارة صلة مباشرة ببني زريع فمن الواجب عليه العمل على ضمان بقاء دولتهم واستمرارها؛ لأنها تمثل الحصن الأخير للفاطميين في المنطقة، والملجأ الذي قد يأوي إليه لو فشلت خطته وتمكن من الفرار، ولذلك فإنه من المحتمل أن يكون المتآمرون قد نسقوا مع بني زريع في اليمن - عن طريق عمارة - وأشركوهم في خطتهم، سواء بتحذيرهم ليتمكنوا من اتخاذ الاحتياطات اللازمة للصمود أطول مدة ممكنة في وجه توران شاه حتى ينفذ رفاقهم مؤامرتهم فتسقط دولة صلاح الدين وسيدته نور الدين في مصر، ومن ثم يسقط في يد توران شاه ولا يجد بداً من الانضمام إلى النظام الجديد أو الانسحاب، لا سيما أنه ثبت تاريخياً

(١) ابن الأثير: الكامل، مج ٧/ ص ٢٤٠؛ أبو شامة: الروضتين، ج ٢/ ص ٢٨٤.

(٢) عمارة: المفيد، ص ١٥٢-١٥٣؛ النكت، ص ٣٣٣-٣٣٤.

مناعة مدينة عدن حين وصل إليها توران شاه فقد كانت "... من جهة البر من أمنع البلاد وأحصنها، وصاحبها إنسان اسمه ياسر، فلو أقام بها ولم يخرج عنها لعادوا خائبين..."<sup>(١)</sup>، مما يوحي بأن بني زريع كانوا مستعدين للصمود بوجه توران شاه لولا الخطأ الذي وقع فيه ياسر بن بلال المحمدي، وذلك حين خرج لقتال توران شاه فصارت المدينة مكشوفة حتى تمكن رجال توران شاه من التسلل إليها مخترقين قوات بني زريع وسقطت بيدهم المدينة، وفي ذلك يقول ابن الأثير: "... وإنما حمله جهله وانقضاء مدته على الخروج إليهم ومباشرة قتالهم..."<sup>(٢)</sup>، وهكذا بات من الضروري القضاء على القوى الإسماعيلية في اليمن لأنها تشكل امتدادًا للدولة الفاطمية في مصر، وقد تصبح تجمعًا لبقايا الفاطميين في محاولة لإعادة إحياء دولتهم لا سيما أن اليمن كانت من أولى مراكز الدعوة الفاطمية في القرن (الثالث الهجري/ التاسع الميلادي)، بل كانت مؤهلة لتكون مقر دولة عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية لولا أن الظروف دفعته لاختيار بلاد المغرب<sup>(٣)</sup>.

ومن جهة أخرى فقد صار القضاء على النفوذ الإسماعيلي في اليمن ضرورة سياسية وجزءًا من استراتيجية تطويق مراكز الإسماعيلية في الشام، وبالذات تجمعات الحشاشين وقلاعهم المنيعة تمهيدًا للقضاء عليهم، فقد ذكر ابن المجاور أن بني زريع كانوا "... يؤدون الخراج إلى الخلفاء

(١) ابن الأثير: المصدر السابق، مج ٧/ ص ٢٣٨.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه، مج ٧/ ص ٢٣٨.

(٣) ابن فيض الله: الصليحيون، ص ٣٩-٤١؛ محمد حلمي محمد: مصر والشام والصليبيون، د.م، د.ط - ١٩٨٢م، ص ١١٧-١١٨.

الفاطميين... والملاحدة الذين هم ملوك [كرد كوه<sup>(١)</sup>] وآلموت<sup>(٢)</sup> وهما حصنان على جبل مدور لهم أي للملاحدة يأخذون الخراج من جبل السماق الذي لهم بأعمال الشام...<sup>(٣)</sup>، وتكمن الخطورة هنا في أن تلك الجماعة الخطيرة التي أثار اسمها الرعب ونشرت خناجرها الخوف في المنطقة كانت لا تخضع لأي سلطان سياسي من القوى المحيطة بهم ماعدا النفوذ الروحي للخلفاء الفاطميين؛ ماداموا يوالونهم ويدعمونهم وإلا كان مصيرهم كمصير الخليفة الأمر بأحكام الله الذي اغتالوه سنة (٥٢٤هـ / ١١٣٠م)، مما جعل وجودهم يعتمد على الأموال التي تصلهم سواء بالترغيب أو التهيب أو من القوى السياسية التي ترتبط بالحشاشين بفكر واحد هو الفكر الإسماعيلي، وهذا هو الرابط بين بني زريع والحشاشين، فبنو زريع هم دعاة الفاطميين في اليمن ومتابعون لهم في توجهاتهم وسياساتهم، فإذا كانوا يمدون الحشاشين بالمال فهو "... لأجل المذهب لأن القوم إسماعيلية... وهم على عقيدة واحدة..."<sup>(٤)</sup>.

وقد بلغ من نقمة الحشاشين - كبنو زريع - على صلاح الدين لإسقاطه الدولة الفاطمية أن بادروا لتلبية نداء المتآمريين في القاهرة ضد صلاح الدين، فكان الحشاشون من بين الأطراف التي أشركها معهم عمارة

(١) كردكوه: قلعة للملاحدة بينها وبين الدماغان مسيرة يوم واحد؛ ياقوت: المعجم، ج ٣/ ص ٤٣٣.

(٢) ألموت: قلعة حصينة في ناحية من نواحي قزوین، ومعنى آله مؤت بلسان الديلم (تعليم العقاب)، وكانت هذه القلعة أمتع قلاع الحشاشين على الإطلاق وأهمها؛ انظر: ابن الأثير، الكامل، ج ٦/ ص ٤٠٣.

(٣) ابن المجاور: تاريخ المستنصر، ص ١٢٦-١٢٧.

(٤) ابن المجاور: المصدر نفسه، ص ١٢٧.

وأصحابه في مؤامرتهم<sup>(١)</sup>، كما توالى محاولاتهم لاغتيال صلاح الدين التي كادت تنجح لولا لطف الله به<sup>(٢)</sup>، وعمومًا فقد كان فتح اليمن نصرًا استراتيجيًا على المنظومة الإسماعيلية بمجموعها، مما أذن بانحسار نفوذهم في المناطق كافة بعد القضاء على أهم قوتين سياسيتين تمثلان الإسماعيلية في المنطقة الدولة الفاطمية والدولة الزيرية<sup>(٣)</sup>.

ويتضح مما سبق أن حملة اليمن كان ترمي من ضمن أهدافها إلى القضاء على بقايا الفاطميين في المنطقة وضرب تجمعاتهم؛ لأن في ذلك ضمانًا لأمن دولة صلاح الدين، وحتى لا يشكلوا تهديدًا سياسيًا وعسكريًا واقتصاديًا للوحدة الإسلامية<sup>(٤)</sup>.

#### ٤- إحكام السيطرة الأيوبية على البحر الأحمر:

اكتسب البحر الأحمر أهمية بالغة منذ أيام الفراعنة وذلك للمزايا السياسية والاقتصادية والعسكرية التي يتمتع بها من كانت له اليد الطولى في السيطرة والتحكم بمنافذ ذلك البحر وشواطئه، وهو ما بيّناه سابقًا من خلال تسابق الدول والإمبراطوريات للسيطرة عليه في التاريخ القديم، أما في

(١) أبو شامة: الروضتين، ج ٢/ ص ٢٨٨ - ٢٨٩.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق، مج ٧/ ص ٢٦٠؛ ابن شداد: النوادر، ص ٥٢.

(٣) وبلغ من قوة ذلك النصر الذي حققه صلاح الدين وانعكاساته أن منحه الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله لقب "الملك الناصر خليل أمير المؤمنين، وسند الخلافة العباسية، وهادم الشيعة بمصر واليمن"؛ انظر: سالم (السيد عبدالعزيز): وسحر السيد عبدالعزيز: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية، د. ط - ١٩٩٩م، ص ٧٨.

(٤) الشيال (جمال الدين): تاريخ مصر الإسلامية، دار المعارف - القاهرة، د. ط - د. ت، ج ٢/ ص ٣٠؛ جب: صلاح الدين الأيوبي، ص ١٢٢.

العصر الإسلامي فقد حرصت الدول الإسلامية على جعله بحرًا إسلاميًا<sup>(١)</sup>؛ نظرًا لأهميته الدينية والسياسية والاقتصادية التي جاءت من الآتي:

١- كون سواحل الحرمين الشريفين تقع عليه مما يجعل من الضروري تأمين الحماية اللازمة لتلك السواحل والحجاج القادمين إليها عن طريق البحر<sup>(٢)</sup>.

٢- إن من يتمكن من السيطرة على البحر الأحمر يتاح له إمكان مد نفوذه على شاطئيه الإفريقي والآسيوي، سواء باستخدام القوة العسكرية أو باصطناع حلفاء وموالين من القوى السياسية المحلية، وقد ساعدت هذه السيطرة الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور في القضاء على ثورة إبراهيم ومحمد النفس الزكية<sup>(٣)</sup> حين أمر بطمر قناة أمير المؤمنين<sup>(٤)</sup>، فقطع بذلك تدفق القمح وغيره من المواد الغذائية إلى الحجاز مسببًا حصارًا اقتصاديًا

(١) سالم: البحر الأحمر، ص ١٩.

(٢) جرادات: الأهمية الاستراتيجية، ص ٥٩.

(٣) ثورة النفس الزكية: هي ثورة أشعلها العلويون ضد العباسيين، وكانت بقيادة محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام المعروف بالنفس الزكية، وكانوا يدبرون لها منذ قيام الدولة العباسية، ولما أحسوا بتزايد وطأة المنصور ورقابته عليهم وعلى أنصارهم أعلنوا الثورة سنة (١٤٦هـ / ٦٤٤م) في الحجاز والبصرة، فانصرف المنصور بكليته إلى القضاء على تلك الثورة، وجرّد إليهم الجيوش التي تولت حربهم والقضاء عليهم؛ انظر: الطبري (محمد بن جرير): تاريخ الرسل والملوك، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف - القاهرة، ط ٥- د.ت، ج ٧/ ص ٥٥٢- ٦٠٩.

(٤) قناة أمير المؤمنين: قناة تربط بين النيل والبحر الأحمر، وكانت موجودة زمن الفراعنة ثم طمرت، حتى جاء الإسلام فأمر أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه بإعادة حفرها لأجل ضمان تدفق الطعام بأسرع وقت إلى الحجاز الذي يعاني من مجاعة عام الرمادة سنة (١١٨هـ / ٦٣٩م)، فسميت تلك القناة بقناة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه تيمناً به؛ انظر: جرادات، المرجع السابق، ص ٥٩.

أسهم في خنق تلك الثورة والقضاء عليها<sup>(١)</sup>، كما تمكن الفاطميون إثر استيلائهم على مصر من بسط سيطرتهم على البحر الأحمر، ومن ثم دعم دعواتهم في اليمن الذين أقاموا دولة لهم هي الدولة الصليحية، التي استطاع الفاطميون بمساعدتها انتزاع الحجاز من العباسيين<sup>(٢)</sup>، ولا بد من الإشارة إلى أن نشاط دولة الحبشة في المنطقة أخذ في الانكماش بعدما طرد المسلمون البيزنطيين من بلاد الشام ومصر، مما أفقدها الحليف الذي تستند إليه في محاولاتها التوسعية في المنطقة باسم نشر المسيحية، فلم يتعد نشاطها سوى بعض أعمال القرصنة في القرنين الأول والثاني الهجريين/ السابع والثامن الميلاديين<sup>(٣)</sup>.

وهكذا بات من الضروري لمن أراد إحكام السيطرة على البحر الأحمر أن يتحكم بمرافئه الشمالية ومدخله الجنوبي، وهو الأمر الذي سعى إليه الصليبيون، منذ أن استولى (بلدوين الأول) على ميناء أيلة فصارت لهم قاعدة في الساحل الشمالي للبحر الأحمر كخطوة تمهيدية للتوسع فيه والتحكم بمرافئه المهمة (مثل عدن) ومنافذه، وقد فطن صلاح الدين إلى خطورة ذلك المخطط فبادر إلى استعادة أيلة وقلعتها من الصليبيين سنة (٥٦٦هـ / ١١٧٠م) بعد ستة وخمسين عاماً من الاحتلال، وكان ذلك إجراءً تكتيكياً حُرِمَ بواسطته الصليبيون من المنفذ الوحيد لهم على البحر الأحمر<sup>(٤)</sup>، ويبدو أن هذه

(١) جرادات: الأهمية الاستراتيجية، ص ٥٩.

(٢) الخزرجي: العسجد، ص ٥٨؛ بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص ١٦١.

(٣) حوات (محمد علي): مضيق باب المندب أهميته الاستراتيجية وتأثيرها على الأمن القومي العربي، مكتبة مدبولي - القاهرة، د.ط - د.ت، ص ١٧.

(٤) قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ٣٤؛ جرادات: المرجع السابق، ص ٧٦.

الضربة نبهت الصليبيين إلى إهمالهم تنفيذ مخططات بلدوين الأول في ذلك البحر، إذ لو لقيت أيلة وقلعتها اهتمامًا كافيًا لما تمكن صلاح الدين من استعادتها. تلا ذلك نشاط عسكري توسعي لصلاح الدين في النوبة (٥٦٨هـ/ ١١٧٢م)، ثم تمكن توران شاه في العام التالي من ضم اليمن إلى دولة أخيه، كل ذلك والصليبيون يرون تعاضم نفوذ صلاح الدين وسلطانه في المنطقة حتى صار المتحكم الوحيد بالبحر الأحمر، مما دفع (أرناط) إلى محاولة هدم تلك السيطرة الإسلامية على البحر الأحمر واختراقها، فشن هجومه البحري سنة (٥٧٨هـ/ ١١٨٢م) حيث حاول إعادة احتلال أيلة وقلعتها<sup>(١)</sup>، وكان من أهدافه خوض ذلك البحر وصولاً إلى عدن لتحقيق له السيطرة على مدخله الجنوبي ومرافئه الشمالية<sup>(٢)</sup>، ويتم له بذلك إغلاقه في وجه الملاحة الإسلامية<sup>(٣)</sup>.

إلا أن (أرناط) ارتكب خطأ فادحاً عندما قام بمهاجمة الموانئ الإسلامية - جرياً على عادته في السلب والنهب - وكذلك مهاجمة سواحل الحجاز ومن ثم محاولة الوصول إلى المدينة المنورة، الأمر الذي لفت إليه الأنظار حتى تم القضاء على محاولته في وقت كان من الممكن أن يحقق فيه السيطرة على عدن، ومن ثم المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، نظراً لانشغال نواب توران شاه في اليمن بالصراع فيما بينهم غافلين عن ذلك الخطر الداهم، ولم يكن بالضرورة أن تستولي مراكب (أرناط) على عدن بل

(١) ابن الأثير: الكامل، مج ٧/ ص ٢٩٧؛ أبو شامة: الروضتين، ج ٣/ ص ١٣٤.

(٢) عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢/ ص ٦١٩.

(٣) عاشور: المرجع نفسه، ج ٢/ ص ٦١٩؛ ربيع البحر الأحمر، ص ١٠٧ - ١١١.

كان يكفي أن يحتل إحدى جبالها المطلة على الميناء ويقيم عليه قلعة - كما فعلوا في جزيرة فرعون - ولعل ذلك هو السبب في إرسال صلاح الدين أخاه سيف الإسلام طغتكين على رأس حملة سنة (٥٧٩هـ / ١١٨٣م) لإعادة ضبط أوضاع الإدارة الأيوبية في اليمن تحت قيادته<sup>(١)</sup>.

وهكذا تمكن صلاح الدين من بسط سلطانه على البحر الأحمر، وصارت الأماكن المقدسة والمدخل الجنوبي لذلك البحر فضلا عن مرافئه الشمالية؛ كلها صارت تابعة لصلاح الدين وتحت حمايته<sup>(٢)</sup>، فقطع بذلك أي أمل للصليبيين في اختراق الخطوط الخلفية للمسلمين وضربهم في مقدساتهم وتجارتهم<sup>(٣)</sup>، فضلا عن ضمان سكون الحبشة وعدم تسرب الفكرة الصليبية إليها مما قد يسبب لصلاح الدين كثيرا من المتاعب التي هو في غنى عنها<sup>(٤)</sup>، إذ لو تمكن الصليبيون من اختراق العزلة التي يفرضها الحصار الإسلامي على الحبشة، وهتك حرمة البحر الأحمر وكونه بحيرة إسلامية فإن ذلك قد يؤدي إلى خروج الحبشة عن عزلتها وهو الأمر الذي تحقق في القرن التالي<sup>(٥)</sup>.

ومن ناحية أخرى فإن سيطرة الأيوبيين على البحر الأحمر وبالذات مدخله الجنوبي امتدت بفعل المجال الحيوي لليمن إلى المحيط الهندي

- 
- (١) عبدالعال: الأيوبيون، ص ١١٧ - ١١٩؛ العسيري: الحياة السياسية، ص ٦٦ - ٦٧.  
 (٢) بروي (إدوار) وآخرون: تاريخ الحضارات العام (القرون الوسطى): عويدات للنشر - بيروت، د.ط - ٢٠٠٣م، ص ٣٤٣.  
 (٣) عبدالعال: الأيوبيون، ص ١١٧ - ١١٩؛ العسيري: المرجع السابق، ص ٦٧.  
 (٤) عبدالعال: المرجع نفسه، ص ١١٩؛ العسيري: المرجع نفسه، ص ٦٧ - ٦٨.  
 (٥) عاشور: الحركة الصليبية: ج ٢ / ص ٩٥٥ - ٩٥٩.

الذي تمكنت البحرية الأيوبية من تحقيق السيادة عليه<sup>(١)</sup>، وهو ما يبرر ما ذكره صلاح الدين من امتلاكه " . . . بلاد الهند وما يتبعها . . ." <sup>(٢)</sup> في رده على رسالة الإمبراطور فردريك الأول على الرغم من أن نفوذه الفعلي لم يصل إلى الهند.



---

(١) ابن المجاور: تاريخ المستنصر، ص ٢٦٦؛ السروري: الحياة السياسية، ص ٤٢٦.

(٢) مجهول: الحرب الصليبية الثالثة، ج ١/ ص ٦٣.

### المبحث الثالث

#### موقف اليمن السياسي خلال الحكم الرسولي

تولى نور الدين عمر بن علي بن رسول حكم اليمن إثر وفاة آخر ملوك بني أيوب على اليمن الملك المسعود بن الكامل، وذلك بصفته نائباً للأخير على اليمن، فتمكن في بضع سنوات من تنحية رجال الأيوبيين المخلصين عن مناصبهم وإحلال من يثق بولائه مكانهم، وكان لحنكته السياسية وكفايته الإدارية والعسكرية دورٌ كبير في تمكنه من إخضاع المناوئين لسلطانه، وتوسيع دولته مؤسساً أسرة حكمت اليمن زهاء قرنين وثلث من الزمان (٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م - ٨٥٨هـ/ ١٤٥٤م)، ويهمنا هنا المدة التي حكموها من سنة (٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م - ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م) حين تمكن المماليك من تطهير بلاد الشام نهائياً من الوجود الصليبي<sup>(١)</sup>، وهي المرحلة التي تعاقب فيها على حكم الدولة الرسولية اثنان من سلاطين بني رسول: السلطان المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول مؤسس الدولة (٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م - ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م)، والسلطان المظفر يوسف بن عمر (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م - ٦٩٤هـ/ ١٢٩٦م)، عاشت اليمن خلالها أزهى فترات تاريخها في العصر الإسلامي، متمثلة في قيام دولة مركزية حملت على عاتقها مسؤولية قيادة اليمن سياسياً

(١) رغم نجاح المماليك في طرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام فإن هجماتهم ظلت مستمرة منطلقين من قواعدهم الجديدة في جزر قبرص ورودرس ومالطة في البحر المتوسط، التي انتقلت إليها مؤسساتهم الدينية والعسكرية مما جعل الحرب الصليبية مستمرة ضد المسلمين حتى تسلم الأسبان والبرتغال الراية الصليبية في العصر الحديث.

وعسكرياً واقتصادياً وثقافياً، لا سيما حكم السلطان المظفر وأبنائه من بعده، وستناول فيما يلي مظاهر علاقة بني رسول بالقوى المجاورة لهم ومدى تأثيرها وتأثيرها في الأحداث التي مرت بها المنطقة، وهل حالت الخلافات السياسية بين بني رسول والقوى السياسية في مصر والشام من دون اتخاذ سلاطين الدولة الرسولية موقفاً مسانداً لإخوانهم في جهادهم ضد الصليبيين؟

### أولاً- علاقة بني رسول السياسية بمصر وبغداد:

#### أ - علاقة بني رسول بمصر:

لم يلق استقلال بني رسول بحكم اليمن ترحيباً من الأيوبيين في مصر والشام، فقد عد هؤلاء اليمن جزءاً لا يتجزأ من دولتهم التي خلفها لهم صلاح الدين، على الرغم من أنها ظلت تحكم من قبل بيت طغتكين بن نجم الدين أيوب، الذين كانت علاقتهم ببيت العادل الأيوبي جيدة - باستثناء المعز إسماعيل - إذ لم يفكر العادل في انتزاع اليمن منهم رغم تدخل الأوضاع فيها، حتى إنهم منعوا أي فرد من أفراد البيت الأيوبي من الذهاب إلى اليمن - ماعدا سليمان بن شاهنشاه الذي تمكن من الوصول إلى اليمن وتولى حكمه - لكي لا يحدثوا اضطراباً في علاقتهم بالأيوبيين هناك<sup>(١)</sup>؛ أو لأنهم كانوا يعدون العدة للحلول محل بيت طغتكين، وهو ما تم بالفعل على يد الملك المسعود بن الكامل في حملته سنة (٦١٢هـ / ١٢١٤م).

ولذلك لما ترامت إلى مسامع السلطان الكامل أنباء استقلال نور الدين عمر بن رسول بحكم اليمن استنكر ذلك، ولكن انشغاله بالصراع مع إخوته

(١) أبو شامة (شهاب الدين أبو محمد عبدالرحمن بن إسماعيل): تراجم رجال القرنين السادس والسابع، تصحيح: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، دار الجيل - بيروت، ط ٢- ١٩٧٤م، ص ٨٣.

وأبنائهم<sup>(١)</sup> وتطور الأحداث عند الصليبيين بتدخل الإمبراطور فريديريك بربروسا (٦١٨هـ / ١٢٢٠م - ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م) الذي دخل مع الكامل في مفاوضات مهمة حول بيت المقدس استمرت طوال المدة من (٦٢٥هـ / ١٢٢٨م - ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) مقابل إقامة علاقات صداقة ودبلوماسية بين الطرفين<sup>(٢)</sup>، وأخيراً فإن هجمات الخوارزمية<sup>(٣)</sup> المدمرة شغلت الملك الكامل وابنه الصالح أيوب من بعده عن أمر اليمن، في وقت كانت قوة السلطان نور الدين عمر بن رسول تتعاضم مضيئاً إلى ملكه المزيد من المدن والحصون، بل بلغت به همته أن عزم على ضم مكة المشرفة إلى دولته، وهو أمر أدى إلى وقوع الصدام مع الأيوبيين في مصر، فأرسل في سنة (٦٢٩هـ / ١٢٣١م) حملة إلى مكة<sup>(٤)</sup> كانت بداية الصدام مع الأيوبيين حول السيطرة على مكة

(١) ابن الأثير: الكامل، مج ٧/ ص ٦٤٧، ٦٥٠؛ الذهبي: العبر، ج ٣/ ص ١٩٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣/ ص ١٢٦.

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣/ قسم ١/ ص ٣٢٦ - ٣٣٠؛ قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ١١٧ - ١١٩.

(٣) الخوارزمية: نسبة إلى الدولة الخوارزمية في آسيا الوسطى التي دمرها جنكيز خان سنة (٦٢٠هـ / ١٢٢٢م)، فاضطر آخر أمرائها جلال الدين بن خوارزم شاه إلى الفرار إلى الهند ومنها إلى بلاد فارس، حيث التف حوله بقايا مماليك أبيه من الأتراك الذين عرفوا بالخوارزمية، وقد أقام جلال الدين دولته في بلاد فارس، واتخذ أصبهان عاصمةً له، إلا أن الخوارزمية بدلاً من أن يتصدوا للمغول قاموا بمهاجمة الدول الإسلامية المجاورة لهم، وبعد مقتل زعيمهم جلال الدين انساح الخوارزمية في البلاد الإسلامية يعرضون خدماتهم العسكرية لمن يدفع لهم، إلى أن تمكن الأيوبيون من كسرهم وتفريق شملهم سنة (٦٣٩هـ / ١٢٤١م)؛ انظر: عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢/ ص ٧٨٩، ٧٩٩، ٨١٢، ٨٢٥.

(٤) الخزرجي: العسجد، ص ١٩٢؛ العقود، ج ١/ ص ٤٩؛ إلا أن صاحب سمط النجوم يذكر أن الحملة كانت سنة (٦٢٧هـ / ١٢٢٩م)، والأرجح هو ما ذكره الخزرجي؛ انظر: العاصمي (عبدالمملك بن حسين بن عبدالمملك الشافعي العاصمي المكي): =

المشرفة، واستمرت هذه الحملات من السلطان نور الدين عمر والحملات المضادة من الأيوبيين على مكة إلى سنة (٦٣٩هـ / ١٢٤١م) حين تمكن السلطان المنصور من دخول مكة بنفسه على رأس جيشه وإجلاء جند الأيوبيين عنها - بعد أن استمال معظمهم بالمال - وكذلك الاستيلاء على ينبع قاعدة الإنزال للجنود الأيوبيين في الحجاز وتدميرها<sup>(١)</sup>، فصفت مكة لبني رسول، إذ انشغل خصومهم الأيوبيون بمشاكلهم الداخلية والصراع فيما بينهم، ثم الحملة الصليبية السابعة (٦٤٧هـ / ١٢٤٩م - ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م)، وأخيراً سقوط دولتهم في مصر وقيام دولة المماليك التي حملت على عاتقها مسؤولية مواصلة الجهاد ضد الصليبيين والمغول، وقد تزامن ذلك مع مقتل السلطان المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول على يد مماليكه سنة (٦٤٧هـ / ١٢٤٩م) وتولي ابنه المظفر يوسف الحكم خلفاً لأبيه.

وعلى الرغم من أن المماليك قد ورثوا ممتلكات الأيوبيين في مصر والشام فإن سياستهم مع الدولة الرسولية كانت مختلفة؛ لأن الأيوبيين كانوا ينظرون إلى بني رسول بوصفهم متمردين خرجوا عن طاعة أولياء نعمتهم بني أيوب أصحاب الحق الشرعي في حكم مصر والشام واليمن والحجاز بموجب التقليد الممنوح من قبل الخلافة العباسية إلى صلاح الدين وذريته وأهل بيته من بعده<sup>(٢)</sup>، أما المماليك فقد كانوا هم أنفسهم يعانون من

= سمط النجوم العوالي، تح: عادل أحمد عبدالموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، د.ط - ١٩٩٨م، ج ٤/ ص ٢٣٢.

(١) الخزرجي: العسجد، ص ٢٠١؛ العقود، ج ١/ ص ٦٩؛ العاصمي: المصدر السابق، ج ٤/ ٢٣.

(٢) أبو شامة: الروضتين، ج ٢/ ص ٣٨٥.

مشكلة شرعية دولتهم كونهم مماليك لسلاطين الأيوبيين في مصر فكيف يطمعون أن تعترف الخلافة العباسية بدولتهم ولما تتضح ملامحها بعد، لا سيما مع وجود ملوك الأيوبيين في الشام ومحاولاتهم المتكررة لاسترداد مصر، أما بنو رسول فقد كانوا يرون أنهم أعلى شأنًا من المماليك فهم - بنو رسول - أمراء أحرار خدموا في جيش صلاح الدين، أما المماليك فهم مجهولوا النسب جلبوا من أصقاع الأرض وصاروا ملكًا للسلطان، كما أن ظهور خطر المغول المدمر جعل اهتمام المماليك منصبًا على النهوض بالجهاد ضد أعداء الإسلام من المغول والصليبيين، الأمر الذي اكتسبوا منه رضا جمهور الناس بحكمهم.

وأما من جهة السلطان المظفر يوسف بن عمر الذي امتاز بموهبة سياسية فائقة، حتى نعاه أحد خصومه وهو الإمام مطهر بن يحيى بقوله: "مات التبغ الأكبر مات معاوية الزمان مات من كانت أقلامه تكسر رماحنا وسيوفنا"<sup>(١)</sup>، فإنه اتخذ سياسة مغايرة لسياسة والده المتشددة تجاه الحجاز، فقد كانت الحملات التي أرسلها - رغم طول مدة حكمه - أقل عددًا من الحملات التي أرسلها والده<sup>(٢)</sup>، وحتى عندما خضعت مكة المشرفة لسلطانه لم يكن يظهر أي نوع من النشاط الاستفزازي للمماليك تقديرًا لدورهم في الذود عن ديار الإسلام ضد المغول والصليبيين، فمن ذلك ما حدث في سنة (٦٥٩هـ / ١٢٦١م) حين خرج السلطان المظفر للحج، فلما استقر بمكة وزع الصدقات وأدى المناسك فلما وصل إلى عرفات وجد رايات سلطان المماليك - الظاهر بيبرس - منصوبةً فحرضه أحد أمرائه على تنحية رايات

(١) ابن الديبع: قرة العيون، ص ٢٣٥. (٢) الخزرجي: العسجد، ص ٢٢٧.

صاحب مصر ونصب راياته بدلاً منه، فما كان من السلطان المظفر إلا أن قال: "أتراني أؤخر أعلام ملك كسر عساكر التتر بالأمس، أو أقدم أعلامي لأجل حضوري ومغيبه، لا أفعل هذا أبداً"<sup>(١)</sup>.

لقد كان موقف السلطان المظفر في غاية التعقل والكياسة فقد أظهر الاحترام والتقدير لمن دافعوا عن ديار الإسلام وحموا بيضته، كما جنب الأمة مخاطر أزمة سياسية قد يعقبها صدام مسلح بين القوتين في وقت تكالب فيه الأعداء على الأمة من كل جانب، إلا أن ذلك لا يعني تخلي السلطان المظفر عن الحجاز للمماليك، إذ ظل السلطان المظفر يتعاهد بيت الله الحرام بالصدقات والأعطيات، والكساء للكعبة المشرفة والحجرة الشريفة سنة (٦٦١هـ / ١٢٦٢م)، وفي سنة (٦٦٦هـ / ١٢٦٨م) أرسل السلطان المظفر من قبله من قام بتحلية باب الكعبة بالذهب والفضة<sup>(٢)</sup>، وموقفه مشهور من الحريق الذي أتى على المسجد النبوي سنة (٦٥٧هـ / ١٢٥٩م)، إذ بادر إلى إرسال الصناع والفعلة ومواد البناء، وصنع منبراً للمسجد ظل يخطب من فوقه حتى استبدله الظاهر بيبرس بمنبره سنة (٦٦٦هـ / ١٢٦٨م)<sup>(٣)</sup>.

وعموماً فقد كانت سياسة السلطان المظفر تجاه الحجاز خاصة وتجاه المماليك عامة تتسم بالمرونة وتحكيم العقل، إذ تجنب اتخاذ أي موقف قد

(١) الخزرجي: المصدر السابق، ص ٢٣٨.

(٢) الخزرجي: العقود، ج ١/ ص ١٤١، ١٦٩.

(٣) السخاوي (الإمام شمس الدين محمد بن عبدالرحمن): التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١- ١٩٩٣م، ج ١/ ص ٣٣؛ اليافعي (أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان): مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، دار الكتاب الإسلامي - القاهرة، د. ط - ١٤١٣هـ، ج ٤/ ص ١٣٥.

يؤدي إلى إثارة التوتر السياسي بين الجانبين، ولا أدل على ذلك من قيام المظفر بضبط النفس إزاء تغيير الظاهر ببيرس لمنبره الذي وضعه للمسجد النبوي، أو عند قدوم الظاهر ببيرس إلى الحجاز حاجًا سنة (٦٦٧هـ/ ١٢٦٩م)؛ وإرساله إلى المظفر رسالة يقول فيها: "سطرتها من مكة المشرفة... إن الملك هو الذي يجاهد في الله حق جهاده، ويبدل نفسه في الذب عن حوزة الدين، فإن كنت ملكًا فاخرج والتق التتار"<sup>(١)</sup>، وقد آتت سياسته ثمارها إذ إنه "... في غالب سلطنته كان يخطب له بمكة..."<sup>(٢)</sup>، وفي الحقيقة أن سياسة السلطان المظفر تجاه الحجاز لم تكن سببًا في أي مظهر من مظاهر التوتر النسبي بين الرسوليين والمماليك، بل كانت علاقته بالخلافة العباسية هي السبب.

#### ب - علاقة بني رسول ببغداد:

في سنة (٦٣١هـ / ١٢٣٣م) وصلت سفارة من اليمن إلى بلاط الخليفة العباسي المستنصر بالله تحمل هدية عظيمة إلى الخليفة ومعها كتاب من نور الدين عمر بن علي بن رسول يطلب فيه من الخليفة النيابة بالسلطنة على اليمن<sup>(٣)</sup>، وتلك خطوة تنم عن الدهاء والحكمة السياسية، إذ إن دعاوى الأيوبيين في اليمن ظلت تستند إلى صفة شرعية وهي التقليد الذي منحه

(١) المقرئزي (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي): السلوك لمعرفة دول الملوك، تصحيح وتعليق: محمد مصطفى زيادة، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، ط ٢ - ١٩٥٦م، ج ١/ قسم الثاني، ص ٥٦٣؛ ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد): العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار القلم - بيروت، ط ٥ - ١٩٨٤م، ج ٥/ ص ٤٤٧.

(٢) العاصمي: سمط النجوم، ج ٤/ ص ٢٣٨.

(٣) الخزرجي: العسجد، ص ١٩٥؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص ٣٠٣.

الخلافة لصالح الدين بحكم مصر والشام واليمن، فإذا أراد نور الدين أن يقطع عليهم ذلك السبيل ويقضي على مطالبهم باليمن فعليه أن يطلب التولية على اليمن من صاحب الحق في ذلك وهو الخليفة العباسي نفسه، وقد خدمت الظروف نور الدين عمر، إذ جاء طلبه في وقت كان الخليفة المستنصر مستاءً فيه غاية الاستياء من الأيوبيين، ومن السلطان الكامل تحديداً، لا سيما إثر معاهدة يافا المهينة سنة (٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) التي سلم الكامل بموجبها بيت المقدس إلى الإمبراطور فريدريك بربروسا، الأمر الذي أثار موجة من السخط والاستياء في ديار الإسلام كافة<sup>(١)</sup>.

وعلى كل حال فقد استجاب الخليفة لطلب نور الدين، وأرسل إليه بالتشريفة والتقليد والخلع عن طريق البحر، وجرت مراسيم إعلان التقليد بالنيابة للسلطان المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول بحكم اليمن في قصر الأخير بالجند<sup>(٢)</sup>.

وكانت هذه السياسة هي القاعدة التي سار عليها ابنه المظفر وذريته من بعده تجاه الخلافة العباسية حتى بعد سقوطها على يد المغول سنة (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م)، ففي سنة (٦٤٧هـ / ١٢٤٩م) قتل السلطان المنصور علي بن علي يد مماليكه، وشغل ابنه المظفر بحروب عنيفة لاستعادة ملك أبيه، ومع ذلك نجده يرسل سفارة إلى الخليفة المستعصم بالله سنة (٦٤٩هـ / ١٢٥١م) يحملون إليه كتاباً من المظفر يوسف يصف فيه الأوضاع في اليمن وخروج

(١) عاشور: الحركة الصليبية، ج٢/ ص٧٩٨-٨٠١؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣/ قسم ١/ ص٣٣١-٣٣٢.

(٢) الخزرجي: العقود، ج١/ ص٥٥.

الإمام أحمد بن الحسين وأنه ادعى الخلافة، وكيف تمكنت قوات المظفر من كسره واستعادة صنعاء منه، ويطلب من الخليفة منحه التقليد بالنيابة على حكم اليمن<sup>(١)</sup>، فأرسل إليه المستعصم بالله الخلع والتقليد مع رسوله الذي يحمل كسوة الكعبة سنة (٦٤٩هـ / ١٢٥٢م)، وقد واصل رحلته إلى اليمن حيث التقى المظفر، وقلده نيابة حكم اليمن، وسلمه كتاباً من الخليفة يأمره فيه بالقضاء على الإمام أحمد بن الحسين<sup>(٢)</sup>.

وقد ظل السلطان المظفر على ولائه للخليفة المستعصم بالله حتى بعد سقوط بغداد بيد المغول، التي عدت أكبر كارثة حلت بالمسلمين، إذ إنه لأول مرة في تاريخ الإسلام تجتاح قوة غير إسلامية معادية دار الخلافة، وتقتل خليفة المسلمين، الأمر الذي أثار موجة من اليأس بين المسلمين، ولم يمنع من استمرار الانتكاسة إلا تمكن المماليك من قهر المغول في عين جالوت (٦٥٨هـ / ١٢٦٠م)، فأعادوا بالأمل للأمة بالصمود والتصدي للمغول والصليبيين، ولم يتوقف الأمر بالمماليك عند تحقيق الانتصارات العسكرية، بل عزم الظاهر بيبرس على إعادة إحياء الخلافة العباسية في القاهرة؛ ليحقق بذلك هدفين رئيسين:

- التفاف المسلمين في الأقطار كافة حول القاهرة، وتوحيدهم تحت رايتها، حيث صارت مقر الخلافة العباسية، وقلب ديار الإسلام.
- إضفاء الشرعية على حكمه ليقوى بذلك موقفه أمام بقايا البيت

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣ / ص١٨٤؛ الخزرجي: المصدر السابق، ج١ / ص٩٩.

(٢) الخزرجي: العسجد، ص٢١٩-٢٢٠؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص٣١٨.

الأيوبي في بلاد الشام، وبذلك تمكن المماليك من الحصول على صفة الشرعية لدولتهم؛ كونهم حماة ديار الإسلام، ورعاة الخلافة العباسية، والمفوضين عنها بحكم البلاد<sup>(١)</sup>.

إلا أن السلطان المظفر كان له موقف مختلف تمامًا من سقوط الخلافة العباسية ببغداد عن موقف المماليك، إذ واصل الخطبة للخليفة المستعصم بالله بعد مقتله، وكذلك ضرب السكة باسمه، وصار ذلك نهجًا سياسيًا ثابتًا في دولة بني رسول استمر حتى سنة (٨٣٠هـ / ١٤٢٧م)<sup>(٢)</sup>، على الرغم من وجود الخليفة العباسي الذي أقامه المماليك في القاهرة سنة (٦٥٩هـ / ١٢٦١م)<sup>(٣)</sup>، الأمر الذي ظل يهدد العلاقات بين المماليك والرسوليين طوال السنوات التالية، وقد سكتت المصادر عن ذكر سبب ذلك الموقف الذي اتخذته السلطان المظفر من الخلافة العباسية، والذي وصل ببعض المؤرخين إلى إسباغ لقب خليفة على السلطان المظفر<sup>(٤)</sup>، إلا أنه من المرجح أنهم استندوا في ذلك إلى التقليد الممنوح من آخر خلفاء بني العباس الشرعيين في نظر بني رسول.

(١) الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، ج ٢ / ص ١٣٢ - ١٣٣؛ العبادي: في التاريخ الأيوبي والمملوكي، ص ١٦٨.

(٢) الشميري (فؤاد عبدالغني محمد): تاريخ اليمن سياسيًا وإعلاميًا من خلال النقود العربية الإسلامية، وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء، د.ط - ٢٠٠٤م، ص ١٤٣ - ١٤٤.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣ / ص ٢٣٤؛ السيوطي (عبدالرحمن بن أبي بكر): تاريخ الخلفاء، تح: محمد محي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة - القاهرة، ط ١ - ١٣٧١هـ، ج ١ / ص ٤٧٧.

(٤) الخزرجي: المسجد، ص ٢٧٢؛ العقود، ج ١ / ص ٢٥٤، ٢٧٥؛ ابن الديبع: قرعة العيون، ص ٣٣٤.

وعموماً فإن هذا الإجراء الذي اتخذته السلطان المظفر دعم موقفه بشكل فعال أمام دعاوى أئمة الزيدية، الذين صارت حجتهم أقوى بعد زوال الخلافة العباسية التي كان معظم المسلمين يدينون لها بالولاء، فصار لزاماً على السلطان المظفر أن يقطع الطريق عليهم بإبقاء الخطبة للخليفة المستعصم بالله وضرب السكة باسمه، فضمن بذلك أمرين:

- عدم الإتاحة لدعوة الزيدية بالخلافة بأن تنتشر بين أهل اليمن بعد مقتل خليفتهم.

- ضمان عدم التبعية للمماليك والخليفة الذي نصبوه في القاهرة، حيث إنه لا يحتاج إلى شرعيتهم المزعومة؛ كونه يحمل تقليداً من المستعصم بالله<sup>(١)</sup>.

### ثانياً: المراسلات:

إن تجاوز الدولتين الرسولية والمملوكية، وسيطرة كل منهما على أحد ساحلي البحر الأحمر؛ حتم قيام علاقات سياسية وعسكرية واقتصادية وثقافية بين البلدين، في ظل حكومتين قويتين على الصعيدين الداخلي والخارجي، وقد ذكرت المصادر التاريخية قيام اتصال بين الطرفين، بل حفظت لنا عددًا من نصوص الرسائل (الكتب) التي جرى تبادلها بين السلطان المظفر يوسف بن عمر من جهة وسلاطين الدولة المملوكية من جهة ثانية، وكان أبرز ما تناولته تلك المراسلات (فيما يتعلق بالجهاد):

(١) الشميري: المرجع السابق، ص ١٤٤؛ نقلاً عن الزيلعي (أحمد عمر)، دراهم رسولية مظفرية نقش عليها اسم الخليفة المعتمد بالله بعد وفاته، مجلة اليرموك للمسكوكات - جامعة اليرموك، إربد - ١٩٩٣م، مج ٥/ ص ٣١-٣٢.

١- سوق البشرى إلى أهل اليمن بالانتصارات التي يحققها المسلمون في مصر والشام ضد أعداء الأمة من الصليبيين والمغول، الذين أقاموا حلفاً مع الصليبيين بقصد حصر المسلمين بين قوتين إحداهما من الشرق والثانية من الغرب وتوحيد قواهما في مواجهة قوة المماليك الضاربة<sup>(١)</sup>.

٢- حث حكام اليمن على مد يد العون لنصرة إخوانهم في جهادهم ضد العدو والذود عن ديار الإسلام، معرضين بما تملكه اليمن من ثروات مادية وبشرية، وقد يصل الخطاب أحياناً إلى مستوى التقريع والعتاب على تباطؤ حكام اليمن في نصرته إخوانهم، وتارةً يستقيم الخطاب إلى حوار ودي حميم.

وتخلل تلك المراسلات تبادل للهدايا بين الجانبين تعبيراً عن علاقة حسن الجوار، وكانت تلك الهدايا تتنوع بين الخيل والسلاح والتحف الفنية النادرة (الذخائر) أو الحيوانات البرية، فضلاً عن أنواع من السلع الشرقية كالعود والعنبر والبهار وغيرها من أطياب الهند.

ويجب الإشارة إلى أن معظم تفاصيل تلك السفارات والمراسلات بين الجانبين وصلتنا من مؤرخي مصر والشام من أمثال ابن كثير، وابن تغري بردي، والعيني، والقلقشندي، في حين ران الصمت على المصادر اليمنية، فلم تذكر تلك السفارات إلا مروراً عابراً من دون التطرق إلى تفاصيل ما دار فيها، أو ما حملته الرسل معهم، أو حتى التدقيق في تواريخها للتحقق من

(١) يوسف (جوزيف نسيم): العدوان الصليبي على بلاد الشام (هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة)، مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية، د.ط - د.ت، ص ٢٨٦، ٢٥٣-٢٦٣؛ العريني (السيد الباز): المغول، دار النهضة العربية - بيروت، د.ط - ١٩٨١م، ص ١٩٤-١٩٧.

المرسل ومن عاصره، فعلى سبيل المثال يذكر الخزرجي طرفاً من رسالة أرسلها المظفر إلى الظاهر بيبرس بخصوص طلب أطباء من مصر للقدوم إلى ظفار الحبوضي التي فتحها المظفر ووجدها موبوءة<sup>(١)</sup>، مع أنه من الثابت تاريخياً أن فتح ظفار الحبوضي كان سنة (٦٧٨هـ / ١٢٨٠م) أي بعد سنتين من وفاة الظاهر بيبرس، ولكن ذلك لا يعني خلو المصادر الأخرى من بعض الالتباسات، فقد أورد القلقشندي نص رسالة ذكر أنها أرسلت من السلطان المظفر سيف الدين قطز بطل عين جالوت إلى السلطان المنصور (صاحب اليمن) - يقصد نور الدين عمر بن رسول - يسوق له البشري بالنصر في عين جالوت مع وصف مسهب لأحداث المعركة وما بعدها، في حين أن السلطان المنصور قتل قبل عين جالوت بإحدى عشرة سنة<sup>(٢)</sup>، فتكون الرسالة قد أرسلت - إن صحت الرواية - إلى السلطان المظفر يوسف بن عمر وليس إلى والده.

وستتناول فيما يأتي أبرز السفارات والمراسلات التي تبادلها الجانبين مع اقتباس لأبرز ما تناولته تلك (الكتب) حول مشاركة (المملكة اليمنية) في الجهاد، ولا بد من ذكر أن عدم تناولنا للمراسلات بين الأيوبيين وبنو رسول هو بسبب توتر العلاقات بين القوتين لدرجة أن السلطان الكامل بن العادل كان يدعم التمردات ضد حكم بني رسول<sup>(٣)</sup>، بل وصلت القطيعة بين الطرفين إلى درجة أن السلطان نجم الدين أيوب بن الكامل أعرض عن

(١) الخزرجي: العقود، ج ١/ ص ٢٧٧ - ٢٧٨.

(٢) قُتل السلطان المنصور سنة (٦٤٧هـ / ١٢٤٩م)؛ أما معركة عين جالوت فقد كانت سنة (٦٥٨هـ / ١٢٦٠م).

(٣) الخزرجي: العقود، ج ١/ ص ١٣٩.

الفقيه بهاء الدين علي بن هبة الله بن سلامة الحميري<sup>(١)</sup> لأنه قبل هدية من صاحب اليمن<sup>(٢)</sup>، ولعل ذلك هو السبب في عدم عثورنا على أية كتب أو سفارات متبادلة بين الأيوبيين وبني رسول، ولذلك سنقتصر فيما يأتي على ما قدمته لنا المصادر من مراسلات بين دولة المماليك في مصر والشام ودولة الرسوليين في اليمن.

#### أ - السلطان المظفر سيف الدين قطز: (٦٥٨هـ / ١٢٦٠م):

انفرد القلقشندي بإيراد "... نسخة كتاب من ذلك (كذا)، كتب بها عن الملك المظفر قطز - وصاحب اليمن يومئذ المنصور - بالبشارة بهزيمة التتار..."<sup>(٣)</sup>، وقد ذكرنا سابقاً عدم اتفاق معاصرة السلطان المنصور لمعركة (عين جالوت)، فضلاً عن أن أحد الألقاب المخاطب بها العاهل المرسل إليه هو (المنصوري)، وقد يعود ذلك إلى كون مصدرها مصدرًا سماعيًا، إذ يقول القلقشندي: "... وهذه النسخة تلقفتها من أفواه بعض الناس، ذكر أنه وجدها في بعض المجاميع فحفظها..."<sup>(٤)</sup>، وبما أنه ذكر أنها كانت موجهة للسلطان المنصور فوجب أن تكتب باسم المنصوري وليس المظفري - المرسل إليه الحقيقي، ولا أدل على حدوث ذلك الالتباس لدى الراوي من ذكره أن المعركة وقعت في شهر رجب، في حين تتفق المصادر

(١) بهاء الدين علي بن هبة الله بن سلامة (ت ٦٤٩هـ / ١٢٥١م): فقيه شافعي رحل في صغره إلى العراق فسمع من علماء ذلك القطر، ثم استقر بالقاهرة وتولى الخطابة فيها وكان يجالس الملوك، توفي وله من العمر تسعون عاماً، ودفن بالقرافة؛ انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣ / ص ١٨٤.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧ / ص ٢١.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٧ / ص ٣٨٦.

(٤) القلقشندي: المصدر نفسه، ج ٧ / ص ٣٨٨.

أنها كانت في رمضان<sup>(١)</sup>.

عمومًا فقد كانت هذه الكتب التي تحمل البشرى بالنصر وسيلة سياسية لإكساب المماليك المزيد من الاحترام في الأوساط الإسلامية، لا سيما بين الدول ذات الثقل السياسي والعسكري والاقتصادي في المنطقة، ولا يمنع كون هذه الرسالة خاصة بالنصر في (عين جالوت) أي نصر على المغول وليس الصليبيين، إلا أنه من الناحية الاستراتيجية يعد نصرًا مهمًا على الصليبيين الذين دخلوا في حلف مع المغول لتطويق المسلمين والقضاء عليهم، على الرغم من أن ذلك التحالف كان في بدايته غير فعال بسبب اعتداد المغول بقوتهم الضاربة التي لا تقهر، إلا أنه اكتسب شكلاً فعالاً وملموسًا في السنوات التالية من خلال تبادل السفارات بين الطرفين والتعاون العسكري بينها في أكثر من موضع<sup>(٢)</sup>.

ب - السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس (٦٥٨هـ / ١٢٦٠م - ٦٧٦هـ / ١٢٧٨م):

في سنة (٦٦٥هـ / ١٢٦٧م) تمكّن بيبرس من اجتياح سيس<sup>(٣)</sup> عاصمة مملكة أرمينية الصغرى، التي تمثل حلقة الوصل في التحالف الصليبي - المغولي، ومع أن المصادر لم تذكر إرساله البشرى بذلك إلى الأقطار الإسلامية - كما هي العادة - فإنها ذكرت أنه حين عودته إلى مصر استقبل

(١) ابن كثير: المصدر السابق: ج ١٣ / ص ٢٢٣؛ الذهبي: العبر، ج ٣ / ص ٢٨٨.

(٢) يوسف: العدوان الصليبي، ص ٢٥٣ - ٢٦٣؛ العربي: المغول، ص ١٩٠، ١٩٤.

(٣) سيس (وتسمى سيسية): بلد هو اليوم أعظم مدن الثغور الشامية بين أنطاكية وطرسوس على عين زربة، وبها مسكن ابن ليون سلطان تلك الناحية الأرمني، ياقوت: المعجم، ج ٣ / ص ٢٩٧ - ٢٩٨.

رسل صاحب اليمن المظفر يوسف حاملين معهم هدية عبارة عن فيل وحمار وحش وخيل وتحف كثيرة<sup>(١)</sup>.

وقد اختلف حول الغرض من تلك السفارة، فيذكر ابن كثير أن المظفر يوسف أرسل إلى الظاهر بيبرس "... بالخضوع والانتماء إلى جانبه وأن يخطب له ببلاد اليمن... فأرسل إليه السلطان هدايا وخلعًا وسنجدًا وتقليدًا..."<sup>(٢)</sup>، ولا ندري لماذا يطلب المظفر تقليدًا من الظاهر بيبرس في حين أنه يملك تقليدًا أكثر قوة و شرعية من آخر خلفاء بني العباس في بغداد، ولم تذكر المصادر اليمنية أنه خطب للظاهر بيبرس في اليمن أو للخليفة العباسي في مصر، أما ابن تغري بردي فيذكر أن المظفر "... يطلب معاضدة الظاهر له و شرط له أن يخطب له ببلاده..."<sup>(٣)</sup>، وإذا حاولنا أن نصل إلى حقيقة العرض الذي حملته تلك السفارة إلى الظاهر بيبرس، وهو فيما يبدو من رواية ابن تغري بردي أنه عرض بإقامة حلف بين الدولتين لحماية المصالح المشتركة بينهما، وأنه نوقش خلال تلك السفارة وضع حل لعدد من القضايا التي أدت إلى توتر العلاقات بين الطرفين، مثل وضع اليمن السياسي بالنسبة إلى دولة المماليك وموقف الدولة الرسولية من إحياء الخلافة العباسية في القاهرة تحت رعاية المماليك، وقد يكون المظفر بما عرف عنه من دهاء وحنكة سياسية أراد أن يناور عبر عدم اعترافه بسلطان المماليك وخليفته العباسي إلى أن يحصل على مكسب سياسي يزيد من نفوذه في المنطقة لا أن يجعله تابعًا للسلطان المملوكي في مصر.

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧/ ص١٢٧.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣/ ص٢٥٧.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧/ ص١٢٧.

وأما بالنسبة إلى المصادر اليمنية فلم تذكر شيئاً عن تلك السفارة التي أرسلها المظفر، ولكن الخزرجي يذكر أنه في سنة (٦٦٦هـ / ١٢٦٨م) وصل رسول صاحب مصر إلى اليمن بالمكاتبات والهدايا، وأن ذلك الرسول توفي آخر تلك السنة<sup>(١)</sup>، وعلى الرغم من عدم وضوح نتيجة تلك المراسلات فإنه يبدو أن العلاقات بين الجانبين استقرت بعض الشيء، ويذكر ابن تغري بردي أن البشري بانتصار المسلمين وفتحهم لصفد (٦٦٤هـ / ١٢٦٦م)، وأنطاكية (٦٦٥هـ / ١٢٦٧م)، وحصن الأكراد وحصن ابن عكابر (٦٦٩هـ / ١٢٧١)، كلها قد أرسلت إلى الأقطار كافة<sup>(٢)</sup>، وقد أورد القلقشندي كتاباً من السلطان المظفر يهنئه فيه بفتح صافيتا وحصن الأكراد، وهما من فتوحات السلطان الظاهر بيبرس كما بينا، وبذلك يكون الكتاب الذي أورده القلقشندي موجهاً من الظاهر بيبرس إلى السلطان المظفر، لا من السلطان قلاوون، ويكشف مضمون ذلك الكتاب عن العلاقات المتينة بين العاهلين، والدور البارز للسلطان المظفر في دعم المجاهدين، إذ أنه "... لا خلا موقف جهاد من اسمه ولا مصرف أجر من قسمه..."<sup>(٣)</sup>، الأمر الذي يؤكد فعالية الموقف السياسي لليمن، ورداً على تلك البشري بفتح حصن الأكراد وحصن ابن عكار أرسل المظفر وفداً قدم التهاني للظاهر بيبرس باسم السلطان المظفر، وكذلك هدايا الأخير إلى سلطان مصر<sup>(٤)</sup>.

(١) الخزرجي: العسجد، ص ٢٤٢-٢٤٣؛ العقود: ج ١/ ص ١٦٩.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧/ ص ١٢٥، ١٢٩، ١٣٦-١٣٧.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٧/ ص ٣٧٩.

(٤) عاشور (سعيد عبدالفتاح): العصر المماليكي في مصر والشام، د.م، ط ١- ١٩٦٥م، ص ٢٣؛ الحداد (محمد حمزة إسماعيل): السلطان المنصور قلاوون، مكتبة مدبولي - القاهرة، ط ٢- ١٩٩٨م، ص ١٠٣.

ج- السلطان المنصور قلاوون (٦٧٧هـ / ١٢٧٩م - ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م):

دخل الجهاد ضد الصليبيين في عهد السلطان قلاوون مرحلة حاسمة بعد أن تمكن الظاهر بيبرس من توجيه ضربات موجعة إلى الصليبيين وحلفائهم من المغول والأرمن، فتمكن من سحق القوة الحربية لمملكة أرمينية الصغرى، وتصدى بقوة لهجمات المغول المدمرة حتى أرهقهم، فتمهدت الطريق أمام السلطان المنصور قلاوون للقضاء على الوجود الصليبي في بلاد الشام نهائياً، مواصلاً سياسة سلفه الحربية، وقد تطورت في عهده العلاقة بين دولة المماليك ودولة بني رسول، إذ استقبل في سنة (٦٨٠هـ / ١٢٨١م) وفداً أرسله السلطان المظفر مع مجموعة من الهدايا القيمة ويحملون طلب سلطانهم بأن تسود علاقة الصداقة بين المملكتين<sup>(١)</sup>، وقد تزامنت تلك الوفادة مع انتصار المماليك على المغول - حلفاء الصليبيين - في مروج حمص في وقت متقدم من العام نفسه<sup>(٢)</sup>، وتوالت المراسلات بين الجانبين في مناسبات متعددة، ففي سنة (٦٨١هـ / ١٢٨٣م) اجتاحت قوات المماليك مملكة أرمينية الصغرى محدثةً في مدنها خراباً ودماراً موازياً لما فعله الظاهر بيبرس من قبل<sup>(٣)</sup>، وأرسلت البشائر بذلك النصر إلى سائر الأقطار، ومنها اليمن، فأرسل السلطان المظفر كتاب تهنئة إلى السلطان المنصور قلاوون، ولحسن الحظ فإن الكتاب الذي أرسله المنصور قلاوون إلى المظفر يوسف رداً على التهنة تضمن أهم ما ورد في الكتابين السابقين، إذ ورد بأنه - المنصور قلاوون - طلب في الكتاب الذي أرسله بالبشرى دعماً مالياً من

(١) المقرئبي: السلوك، ج٢/ ص٢٨١.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣/ ص٢٩٩-٣٠٠؛ الحداد: المرجع نفسه، ص٨٩.

(٣) ابن خلدون: التاريخ، ج٥/ ص٤٥٨.

اليمن " . . . وكان كتابنا قد تقدم في أمر المجاهدين وما يحتاجونه من الإعانة بما يحمل إليهم من الأموال بالمملكة اليمنية . . ." (١).

ومن جهة المظفر يوسف فقد تضمن الكتاب الذي أرسله بالتهنئة اعتذاراً عن تأخره في إرسال الدعم للمجاهدين وذلك لانشغاله بالقضاء على تمرد أحد نواب أبيه، وكان قد تحصن في إحدى القلاع إلى أن أظهره الله عليه وأرسل البشري بذلك إلى المنصور قلاوون<sup>(٢)</sup>، وربما كان التمرد الذي عناه المظفر هو تمرد الأمير صارم الدين داوود بن الإمام المنصور عبدالله بن حمزة، وانضمام المماليك الأسدية<sup>(٣)</sup> إليه بعد وفاة الأمير علم الدين سنجر الشعبي المتولي أمر صنعاء وما يليها سنة (٦٨٢هـ / ١٢٨٣م)<sup>(٤)</sup>.

وقد أبدى السلطان قلاوون استيائه من رد السلطان المظفر، وذلك بتقليله من حجم النصر الذي حققه المظفر على ذلك التمرد مقارنة بالمعارك التي تخوضها جيوش المماليك ضد أعداء الأمة، كما اتهم بني رسول باكتناز الذهب والفضة وعدم إنفاقها في سبيل الله ونصرة إخوانهم المجاهدين، مشيراً إلى عظيم ثرواتهم بقوله: " . . . وهذه المملكة اليمنية قد اجتمع فيها من الأموال ما يربى عن الحصر والحد ويزيد عن الإحصاء والعد؛ لا ينفق منها شيء في الجهاد . . ." (٥).

(١) القلقشندي: المصدر السابق: ج ٧ / ص ٣٧٦.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٧ / ص ٣٧٠ - ٣٧١.

(٣) المماليك الأسدية: نسبة إلى الأمير أسد الدين محمد بن بدر الدين الحسن بن علي بن رسول ابن عم السلطان المظفر.

(٤) الخزرجي: العسجد، ص ٢٦٠؛ العقود، ج ١ / ص ٢٢٧ - ٢٢٨؛ ابن الديبع: قرّة العيون، ص ٣٣١.

(٥) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٧ / ص ٣٧٥ - ٣٧٦.

وعلى رغم هذا الرد الجارح من السلطان قلاوون فإن العلاقات السياسية بين المملكتين ظلت مستمرة ولا سيما حول موضوع الجهاد، ففي رد السلطان قلاوون على كتاب التعزية الواصل إليه من السلطان المظفر بوفاة ولي عهد السلطان قلاوون الملك الصالح علاء الدين علي سنة (٦٨٧هـ / ١٢٨٨م)، أشار السلطان قلاوون إلى عزمه مواصلة الجهاد رغم ما حل به منوهاً بضرورة عدم تراخي أي طرف في تقديم ما يجب عليه في سبيل نصره المجاهدين وتحرير الأراضي المحتلة<sup>(١)</sup>، وقد توالى الفتوحات في عهد قلاوون، ففي سنة (٦٨٤هـ / ١٢٨٥م) استرد المسلمون حصن المرقب ذي الأهمية الاستراتيجية، وأرسلت البشائر بذلك إلى سائر الأقطار<sup>(٢)</sup>.

وفي سنة (٦٨٨هـ / ١٢٨٩م) تمكنت قوات المنصور قلاوون من استرداد مدينة طرابلس، وكان نصرًا عظيمًا أرسلت البشائر به، ومما جاء في البشارة المرسله إلى اليمن "بسم الله الرحمن الرحيم أعز الله نصر المقام العالي السلطان الملكي المظفر الشمسي... وكانت الخلفاء والملوك في ذلك الوقت [وقت الفتح] ما فيهم إلا من هو مشغول بنفسه، مكب على مجلس أنسه، يرى السلامة غنيمه..."<sup>(٣)</sup>، كما أورد القلقشندي كتابًا آخر بالبشارة بفتح طرابلس أرسل على لسان ولي عهد السلطان قلاوون الملك الأشرف خليل إلى السلطان المظفر، ولم يتضمن أية أمور غير البشارة<sup>(٤)</sup>.

لقد كان للمراسلات بين السلطان قلاوون والسلطان المظفر أثر بالغ في

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧/ ص ٢٦٧-٢٦٨.

(٢) ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج٧/ ص ٢٦٧-٢٦٨.

(٣) ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج٧/ ص ٢٧٤.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٧/ ص ٣٩٢-٣٩٦.

تفعيل دور أهل اليمن في دعم الجهاد ضد الصليبيين، فالمنصور قلاوون لم يكتفِ بطلب الأموال، بل أراد أن "... يُبلغ من كان بتلك الجهات يروم الجهاد ولا يطيقه سوله... اللهم إلا أن تلبى دعوة الجهاد من تلك الجهة بالسنة النفير، وتعبئ صفوف الجلالد في الجواري التي تكاد بأجنحة القلوع تطير، أو تنوب عنها خزائن الأموال التي تنفق في سبيل الله تعالى، أو تقوم مقامها النفقات التي تصرف إلى جنود الله..."<sup>(١)</sup>.

ويبدو أن تلك المراسلات قد آتت أكلها، إذ صار لليمن دور بارز في دعم الجهاد ضد الصليبيين، الذي ظهر جلياً في مخاطبة السلطان قلاوون السلطان المظفر بأنه "... أحق من هنيئ بهذا الفتح..."<sup>(٢)</sup>.

### ثالثاً- دور اليمن في عزل الحبشة عن القوى الصليبية:

أدى احتدام الصدام العسكري بين المسلمين والصليبيين إلى بحث كل طرف عن أية وسيلة تضمن له التفوق على الطرف الآخر، فمن ذلك محاولة الصليبيين نقل ميدان المعركة إلى البحر الأحمر وشغل المسلمين بحماية مقدساتهم المطلة على ذلك البحر، فضلاً عن تهديدهم حركة الملاحة التجارية في ذلك الشريان الاقتصادي الذي يغذي مصر التي شكل استيلاء نور الدين زنكي عليها ضربة قاصمة لمملكة القدس اللاتينية، ولكن من الناحية العملية كان ذلك مستحيلاً من دون أن يكون لهم حليف في جنوب البحر الأحمر يساعدهم في تحقيق خططهم تلك، وقد أثبتت تجربة أرناط الفاشلة صحة ذلك، وكانت كل من مملكتي النوبة والحبشة أفضل الخيارات

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٧/ ص٣٧٤-٣٧٧.

(٢) القلقشندي: المصدر نفسه، ج٧/ ص٣٨٢.

المتاحة أمام الصليبيين، ولكن شدة وطأة الهجمات الأيوبية والمملوكية على النوبة دفع بالصليبيين إلى التركيز على الحبشة.

### ١- أهمية التحالف مع الحبشة بالنسبة إلى الصليبيين:

كانت معرفة الصليبيين عن الحبشة تلك المملكة النصرانية الإفريقية تكاد تكون معدومة؛ نظرًا لوقوعها في مجاهل ما وراء الديار المصرية، ولكون البحر الأحمر ما زال بحرًا إسلاميًا مغلقًا في وجه أوروبا، إلا أنه مع مضي الوقت تزايدت معرفة هؤلاء الغزاة الصليبيين بالمنطقة والكيانات السياسية فيها وطبيعة علاقة كل قوة بأخرى، وعلى الرغم من تحمس الصليبيين في الشام وأوروبا إلى شن حرب كبرى على المسلمين للقضاء عليهم وانتزاع أقاليم الشرق الغنية كافة منهم؛ فإن ذلك كان متعذرًا بالاعتماد على الدعم والمساعدات العسكرية الأوروبية فقط، فكان من الضروري البحث عن حليف له وزنه السياسي والعسكري في المنطقة لإطباق طرفي كمانشة على أقاليم الشرق الإسلامية، ويبدو أن كراهية الصليبيين المفرطة للمسلمين من قبل كانت ذا أثر إيجابي، إذ جعلهم يرفضون عرض الفاطميين إقامة حلف بين الجانبين لحرب السلاجقة، الأمر الذي لو تم لشكل قاصمة الظهر للقوة الحربية للأمة الإسلامية، وعندما يفرغون من السلاجقة والخلافة العباسية ينصرفون إلى القضاء على الفاطميين.

وهكذا صار لزامًا على الصليبيين البحث عن حليف من أبناء ملتهم، ويتحدث رنسيومان عن هذا التوجه عند الصليبيين بقوله: "...وانتعشت أيضًا الآمال في التماس حليف من الشرق الأقصى، إذ حدث منذ سنة (١١٥٠م) أن أخذ غرب أوروبا يتداول رسالة جرى الزعم أن الزعيم الكبير بريستر

يوحنا<sup>(١)</sup> كتبها إلى الإمبراطور مانويل ، ومع أنه يكاد يكون من المحقق أن هذه الرسالة من تزييف أسقف ألماني فإن روايتها عن ثروة الملك الكاهن [بريستر يوحنا] وورعه بلغت من السلامة ما لا يدعو إلى إغفالها وإنكارها... " (٢).

وبناءً على تلك الرغبة الملحة لدى الصليبيين في غرب أوروبا في البحث عن حليف في الشرق ليكون نصيراً لإخوانهم في مملكة بيت المقدس وحرماً معهم على المسلمين؛ أرسلت روما أحد رجال الدين ممن برع في أصول الدين والتعاون الكنسي ويدعى فيليب، ومعه رسالة إلى ذلك الزعيم الشرقي الذي لم يعرفوا شيئاً عن موقع مملكته، فبدأ فيليب رحلة بحث عن تلك المملكة حتى انتهى به المطاف في الحبشة وانقطعت أخباره<sup>(٣)</sup>.

وهكذا فإن مشاكل الصليبيين ومشاريعهم التوسعية - لا سيما ما يتعلق بمصر - فضلا عن جهل أوروبا الكبير بأوضاع البحار العربية الجنوبية، حيث كانت معلوماتهم مشوشة ويعوزها كثير من الدقة، فاقتصرت معرفتهم حول ما تتناقله الروايات عن وجود مملكة مسيحية في إفريقيا تتولى مهمة الكفاح ضد التوسع الإسلامي في تلك المنطقة<sup>(٤)</sup>، كل ذلك جعل من

(١) بريستر يوحنا: أسطورة انتشرت في الغرب الأوروبي خلال مدة الحروب الصليبية عن ملك أو حاكم في الشرق الأقصى اعتنق النصرانية، وكرس مملكته للحرب في سبيل المسيح، وقد اختلف حول شخصيته من قائل بأنه أمير فارسي من النساطرة، وآخر بأنه طغرل خان قبيلة الكرايث التركية، وهناك من رأى في إمبراطور الحبشة ذلك البطل المسيحي؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢ / قسم ١ / ص ٣٩٧ - ٣٩٨، ج ٢ / قسم ٢ / ص ٦٨٢، ج ٣ / قسم ٢ / ص ٤١٥.

(٢) رنسيمان: المرجع نفسه، ج ٢ / قسم ٢ / ص ٦٨١ - ٦٨٢.

(٣) رنسيمان: المرجع نفسه، ج ٢ / قسم ٢ / ص ٦٨٢.

(٤) جرادات: الأهمية الاستراتيجية، ص ٨٠.

الصعب على الصليبيين إقامة اتصال مباشر مع مملكة الحبشة لأجل إقامة حلف صليبي مشترك بين الجانبين على الأقل في المرحلة المبكرة من الحروب الصليبية، ومع ذلك فإن محاولة أرنات البحرية تعد محاولة مبكرة للصليبيين التعرف على مجاهل ذلك البحر وشواطئه في مسعى للوصول إلى مملكة الحبشة، الأمر الذي فطنت له السلطات الأيوبية في مصر فأحبطت المحاولة<sup>(١)</sup>.

ظلت العلاقات غير واضحة بين مملكة الحبشة والصليبيين طوال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، إلا أنه في القرن التالي تحدث المؤرخون عن وجود جالية حبشية كبيرة مقيمة في بيت المقدس، ولهم دير كبير فيها، وأن الهدايا والهبات لم تنقطع من ملوك الحبشة إليهم، فضلا عن التماسهم من سلاطين المماليك رعاية هؤلاء الرهبان<sup>(٢)</sup>، وبذلك تكون الحبشة قد خرجت عن عزلتها، وبدأت اتصالاتها بالعالم الخارجي تتوسع، وعلى الرغم من أن مدينة القدس كانت آنذاك بيد المسلمين فإن ذلك لا يمنع أن يكون الرهبان الأحباش المقيمين بها حلقة وصل بين الصليبيين المتمركزين في مدن الساحل وبين ملوك الحبشة.

لم يتجاوز نشاط مملكة الحبشة السياسي خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي مجرد المراسلات بين ملوكهم من أسرة زاقوي (التي حكمت من منتصف القرن العاشر الميلادي وحتى سنة ١٢٧٠م) وسلاطين

(١) عبدالعال: الأيوبيون، ص ١١٧؛ جرادات: المرجع السابق، ص ٧٦.  
 (٢) عاشور: العصر المماليكي، ص ٢٤٥-٢٤٦، ٢٤٨؛ الحداد: السلطان المنصور قلاوون، ص ٩٨.

المماليك في مصر<sup>(١)</sup>، ولم يتم تفعيل موقف الحبشة السياسي ضد المسلمين إلا في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي عندما نجحت محاولات البابوية لخلق اتصال مع ملوك الحبشة حول التحالف ضد المسلمين، فاتخذ ملوك الحبشة موقفًا حربيًا معاديًا لسلطنة المماليك مثل محاولة ملك الحبشة كبس دولة المماليك من الجنوب في اثناء غزو ملك قبرص للإسكندرية سنة (٧٦٤هـ / ١٣٦٥م)<sup>(٢)</sup>، وكذلك دعوة الملك إسحاق الأول ملك الحبشة في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي لملوك أوروبا لشن حرب صليبية شاملة ضد المماليك، وقد استمرت تلك الحماسة الحربية المعادية للمسلمين حتى القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي إثر تحقق الاتصال المباشر بين أوروبا والحبشة بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح، ومن ذلك أن الأحباش قدموا مشروعًا بتحويل مجرى النيل من منابعه وذلك لتجويد مصر والقضاء على القوة الحربية للمماليك<sup>(٣)</sup>.

وفيما يأتي سنستعرض الدور الذي قامت به اليمن في سبيل عزل الحبشة عن بقية القوى الصليبية في بلاد الشام ومنع أي تفاعل سياسي أو عسكري بين الجانبين.

## ٢- سياسة اليمن ودورها في عزل الحبشة عن الصليبيين :

تشرف كل من اليمن والحبشة على أحد الشاطئتين الجنوبيين للبحر الأحمر، الأمر الذي أدى إلى حتمية قيام علاقة بين الجانبين على أساس

(١) الحداد: المرجع السابق، ص ٨٩.

(٢) عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢/ ص ٩٥٥-٩٥٦.

(٣) عاشور: المرجع نفسه، ج ٢/ ص ٩٥٦-٩٥٩.

سعي كل منهما في سبيل تحقيق السيادة على المياه الجنوبية للبحر الأحمر، والتحكم بالتجارة الشرقية، الأمر الذي ينسحب بالتالي على الثقل السياسي لتلك القوة وعلاقتها بالقوى السياسية الأخرى في المنطقة، وقد تطورت العلاقات بين الشاطئين الآسيوي والإفريقي عبر التاريخ منذ أن بدأت هجرات أبناء جنوب الجزيرة إلى الساحل الإفريقي مع مطلع (الألف الأول قبل الميلاد) واختلاطهم بالسكان المحليين، فبنوا معاً مدينة تلك البلاد، وبلغ من قوة تلك الروابط بين الشاطئين أن صارت الألقاب الملكية في الحبشة تضم أسماء الحواضر في جنوب الجزيرة العربية<sup>(١)</sup>.

ومع ظهور الإسلام وانتشاره في الأرض حتى تم فتح بلاد الشام ومصر وإنهاء الوجود البيزنطي في المنطقة؛ أخذت مملكة الحبشة في الانكفاء على نفسها لا سيما أنها أصبحت جاورة إمبراطورية إسلامية بسطت سيطرتها على البحر الأحمر، وتصدت بقوة لأية محاولة من الأحباش للإخلال بأمن ذلك البحر والملاحة فيه كما بينا في موضع سابق.

وقد استمرت العلاقات بين الدولة الإسلامية والأحباش هادئة ومستقرة، وتطورت الحركة التجارية بين الجانبين، ولا سيما عبر اليمن البوابة الجنوبية لديار الإسلام، فاختلف التجار اليمنيون إلى المدن الحبشية يطلبون التجارة ونشر الإسلام، بل وصل الأمر إلى أن ملوك الحبشة كانت تخطب ود أمراء الدول اليمنية وتهاديهم<sup>(٢)</sup>.

ومع مطلع القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي كانت اليمن

(١) الشيبه: دراسات، ص ١٦٨-١٨٨؛ الجرو: التاريخ السياسي، ص ٢٣٩-٢٤٠.

(٢) عمارة: المفيد، ص ٦٥.

تعيش مرحلة من التجزئة السياسية اقتضت فيها العلاقات اليمنية - الحبشية على التبادل التجاري، لا سيما في ظل وجود دولة بني نجاح الأحباش في تهامة، الذين لم تنقطع صلتهم بوطنهم الأم في سبيل استجلاب المزيد من المقاتلين حملة الحراب والعبيد والوصفان والجواري، حتى إن بعض المؤرخين سجل لأي القبائل الحبشية ينتسب رجالات تلك الدولة وقادتها<sup>(١)</sup>.

وفي الشمال حيث ميدان الجهاد ضد الصليبيين شهدت المنطقة سباقاً محمومًا بين الصليبيين والزنكيين في سبيل تحقيق المزيد من المكاسب الاستراتيجية لأجل ضرب الطرف الآخر وإضعافه، تمكن خلاله نور الدين محمود من تطويق الصليبيين عندما استولى على مصر وأسقط الخلافة الفاطمية، واتبع ذلك بدعم نفوذه في البحر الأحمر بعدما تمكن نائبه على مصر صلاح الدين من استرداد أيلة من الصليبيين، وضرب مملكة النوبة، وأخيرًا استيلاء قوات توران شاه على اليمن، وبذلك صار البحر الأحمر تحت الرقابة الصارمة من قبل الأيوبيين في مصر واليمن تحسبًا لتسلل أية سفن صليبية قد تحاول إحداث الفوضى في البحر الأحمر، أو الاتصال بمملكة الحبشة.

ولكن بقاء الحبشة في عزلتها لم يكن ليستمر طويلًا، فالكنيسة الحبشية هي جزء من الكنيسة المرقسية بالإسكندرية، وجرى التقليد بأن تستورد الحبشة مطارنتها من مصر<sup>(٢)</sup>، وعلى الرغم من انقطاع التواصل بين مصر

(١) عمارة: المصدر السابق، ص ١٦٨، ١٧٢؛ الخزرجي: المسجد، ص ١٠٤، ١١٨، ١٢٤.

(٢) أقر مجمع نبقية المسكوني المنعقد في سنة ٣٢٥م تبعية كنيسة الحبشة لبطيركية الإسكندرية، ومنذ ذلك التاريخ أصبح بطاركة الإسكندرية يولون أساقفة الحبشة إلى سنة (١٩٤٦م)؛ انظر: الحداد، السلطان المنصور قلاوون، ص ٩٧٠ هامش رقم (٤).

والحبشة خلال النصف الأول من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي بسبب الحروب الداخلية التي كانت دائرة في الحبشة حول العرش، مما أدى إلى اختلال الأمن هناك<sup>(١)</sup>، الأمر الذي أثار المخاوف على المسلمين في تلك المناطق، فقد شكا التجار الكارمية إلى الظاهر بيبرس من اعتداءات حاكمي كل من جزيرة دهلك وميناء سواكن<sup>(٢)</sup>، اللذين كانا يستحوذان على أموال من مات ببلادهما من التجار، فما كان من الظاهر بيبرس إلا أن أرسل موفداً من قبله ينكر عليهما أفعالهما وذلك سنة (٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م)<sup>(٣)</sup>.

وأما بالنسبة إلى ملك الحبشة الذي تتبعه جزيرة دهلك فعلى الرغم من أن المصادر لم تذكر شيئاً عن الإجراء الذي تم اتخاذه نحوه، فإن الرسالة التي بعث بها إلى الظاهر بيبرس سنة (٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م) أفادت برعاية ملك الحبشة للمسلمين في بلاده<sup>(٤)</sup>. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو لماذا يُقدم ملك الحبشة على تقديم هذه المبادرة وحرصه على طلب رضا الظاهر بيبرس مع علمه باستحالة إرسال الأخير حملة إلى الحبشة؟

إن التعليل الذي قدمه كل من سعيد عاشور وحمزة الحداد بأن السبب

(١) عاشور: العصر المماليكي، ص ٢٤٦؛ الحداد: السلطان المنصور قلاوون، ص ٩٨-٩٩.

(٢) سواكن: بلد مشهور على ساحل بحر الجار قرب عيذاب، ترفأ إليه سفن الذين يقدمون من جدة، وأهلها بجاه سود نصارى؛ انظر: ياقوت، المعجم، ج ٣/ ص ٢٧٦.

(٣) المقريزي: السلوك، ج ١/ قسم الثاني/ ص ٥٠٦؛ سالم: البحر الأحمر، ص ٩٠-٩١.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٨/ ص ١٢٤.

وهو حاجة الأحباش لإبقاء علاقاتهم طيبة مع حكام مصر لئلا يلجأ هؤلاء إلى منع تنصيب المطارنة لكنيسة الحبشة<sup>(١)</sup>، هو على ما يبدو تعليل مناسب من الناحية المظهرية من حيث تبعية الكنيسة الحبشية لبطريك الإسكندرية وحاجتهم المستمرة إلى المطارنة الأقباط، إلا أنه غير مناسب من حيث الظروف التي أرسل فيها ذلك الكتاب والتطورات السياسية في المنطقة، حيث إنه من الضروري الإشارة إلى أن كتاب ملك الحبشة وصل إلى الظاهر بيبرس ضمن كتاب أرسله السلطان المظفر يوسف الرسولي إلى القاهرة، ولم يكن وصول كتاب ملك الحبشة عن طريق سلطان اليمن مجرد شفاعة للأخير ووساطة بين العاهلين المملوكي والحبشي كما ذكر الحداد<sup>(٢)</sup>.

حيث إن ذلك الكتاب يعد دليلاً واضحاً وصريحاً على الدور الذي قامت به اليمن للضغط على الحبشة في سبيل الحفاظ على أمن واستقرار المنطقة بناءً على المصلحة المشتركة لجميع الأطراف، فاليمن بوصفها الحليف الاستراتيجي للمماليك في جنوب البحر الأحمر كان من الواجب عليها القيام بدورها لدعم نفوذها في المنطقة، الذي يتيح لها بالتالي استخدام ذلك النفوذ لصالح حماية مصالحها ومصالح حلفائها، فالسلطان المظفر الذي اشتهر باهتمامه بقضايا إخوانه المسلمين في كل مكان وحل مشاكلهم حتى إنه تدخل لدى إمبراطور الصين بالوسائل كافة الدبلوماسية والهدايا حتى جعله يعدل عن قراره بحظر الختان على رعاياه من المسلمين<sup>(٣)</sup>؛ كان من المستبعد ألا يتدخل

(١) عاشور: العصر المماليكي، ص ٢٤٥-٢٤٧؛ الحداد: المصدر السابق، ص ٩٨-٩٩.

(٢) الحداد: المصدر نفسه، ٩٨.

(٣) الخزرجي: العسجد، ص ٢٧٣؛ العقود، ج ١/ ص ٢٧٩.

مستخدمًا نفوذه عند ملك الحبشة، ذلك النفوذ الذي جعل منه الحاكم المسلم الوحيد الذي تقام له الخطبة بين مسلمي الحبشة<sup>(١)</sup>، وهو أمر لم تكن السلطات الحبشية لتسمح به لولا إدراكها قوة الدولة الرسولية وثقلها السياسي والعسكري في المنطقة.

ولذلك جاء في كتاب ملك الحبشة إلى الظاهر بيبرس " . . . وأقل المماليك [ملك الحبشة] يسير إلى نواب مولانا الملك المظفر صاحب اليمن ما يلزمه، وهو يسيره إلى نواب مولانا السلطان [بيبرس] . . ." <sup>(٢)</sup>، وفي ذلك إشارة واضحة إلى الولاء الذي يكنه ملك الحبشة للسلطان المظفر الذي حرص على أن يتم وصول ذلك الكتاب بواسطته إظهاراً لدوره في كبح جماح الحبشة من خلال ما اشتهر به من حنكة سياسية، وفي الوقت نفسه احتواء مطالبها ضمن المصالح المشتركة بين الدول المطلة على البحر الأحمر كافة.



(١) الملك الأفضل (الرسولي العباس بن علي بن داوود بن يوسف): العطايا السنوية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية، تح: عبدالواحد عبدالله أحمد الخامري، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء، ٢٠٠٤م، ص ٦٩٢.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٨ / ص ١٢٣.

## الفصل الثالث

### الدعم اليمني المالي والعسكري

- **المبحث الأول: الدعم المالي.**  
أولاً: الدعم المالي من اليمن خلال الحكم الأيوبي.  
ثانياً: الدعم المالي من اليمن خلال الحكم الرسولي.
- **المبحث الثاني: الدعم العسكري.**  
أولاً: العتاد والخييل.  
ثانياً: المقاتلون.
- **المبحث الثالث: دور اليمن في حفظ أمن المنطقة.**  
أولاً: اليمن ودورها في ضمان استقرار الحجاز وأمنه.  
ثانياً: اليمن ودورها في تأمين الحركة الملاحية في البحر الأحمر.



### الدعم اليمني المالي والعسكري

إثر اجتياح الصليبيين سواحل بلاد الشام والمدن الفلسطينية الداخلية سعى هؤلاء إلى دعم موقفهم العسكري وتفوقهم على الكيانات السياسية في المنطقة، وذلك من خلال إعداد جيش قوي ومدرب كامل الإعداد والتسليح لغرض ضمان تفوقهم العسكري على القوى الإسلامية التي تحيط بهم، والتي تعاني التفكك والانقسام فيما بينها، وقد اعتمد الصليبيون في ذلك على الدعم غير المحدود من أوروبا "... فمنذ وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشام سنة (٤٩٠هـ / ١٠٩٧م) لم يمر عام واحد من دون مجيء جموع صليبية جديدة... " (١)، ولم يكن سبب وفرة هذه الجموع إلا تشجيع ملوك مملكة القدس اللاتينية للهجرة إلى الأرض المقدسة، وترحيبهم بهؤلاء الوافدين وحرصهم على رفد قواتهم بهم، كما سعى الصليبيون إلى ضمان تعاون النصارى المحليين معهم، بل - إن لزم الأمر - استئجار المرتزقة من التركمان وبدو العرب القاطنين جنوب فلسطين (٢).

كما قدمت أوروبا دعماً مالياً سخياً للمؤسسات الدينية العسكرية عند الصليبيين، الأمر الذي منح تلك المؤسسات أملاً واسعاً في فلسطين بل في أوروبا نفسها (٣)، وقد بلغ من سخاء ملوك أوروبا ودعمهم الصليبيين في

(١) عاشور: الحركة الصليبية، ج ١/ ص ٢٣.

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢/ قسم ١/ ص ٢١، قسم ٢/ ص ٤٧٠؛ هامرتون: تاريخ العالم، مج ٥/ ص ١٩٣،

Munro, D. C: The Kingdom of the Crusaders, New York, 1936, pp. 106-107, 120-121.

(٣) عاشور: الحركة الصليبية، ج ١/ ص ٣٧٩ - ٣٨٢؛ رنسيمان: المرجع نفسه، ج ٢/ قسم ١/ ص ٢١ - ٢٢.

الشرق أن تعهد هنري الثاني ملك إنجلترا (٥٤٩هـ / ١١٥٤م - ٥٨٤هـ / ١١٨٩م) بإعداد مائتي فارس في فلسطين ورعايتهم، وقدم للهيئات الدينية العسكرية في فلسطين مبالغ مالية على شكل وديعة لصالح الحرب الصليبية استفاد منها فيما بعد ابنه ريتشارد قلب الأسد فتعزز بها موقفه المالي في أثناء الحملة الصليبية الثالثة<sup>(١)</sup>، كما تعهد الإمبراطور البيزنطي إلكسيوس (٦٠١هـ / ١٢٠٤م) بالإنفاق على خمسمائة فارس<sup>(٢)</sup>.

وخلاصة القول أن الصليبيين في بلاد الشام ظلوا متصلين بأوروبا (الرحم الأصلي للحروب الصليبية)، ويتلقون منها الدعم والمدد بمختلف صوره وأشكاله مادياً وعسكرياً، حتى بلغ من حماسة ملوك أوروبا للحروب الصليبية أن قاد هؤلاء الملوك خمس حملات صليبية ضخمة بغض النظر عن الدوافع الدينية والسياسية لكل منهم<sup>(٣)</sup>.

وبفضل هذا الدعم المالي والعسكري من أوروبا فضلاً عما فرضه الصليبيون على تجارة المرور في المنطقة من ضرائب بعدما تمكنوا من الاستيلاء على أهم المنافذ التجارية فيها، صارت مملكة القدس اللاتينية والإمارات الصليبية التابعة لها قوة مرهوبة الجانب تشمل معظم فلسطين وكل ساحل بلاد الشام، بل امتد نفوذهم إلى وادي عربة حيث أقام الصليبيون

(١) رستون (جيمس): مقاتلون في سبيل الله (صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد والحملة الصليبية الثالثة) تر: رضوان السيد، مكتبة العبيكان - الرياض، ط ١- ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م، ص ٦٥.

(٢) رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣ / قسم ١ / ص ٢١٠.

(٣) عاشور: الحركة الصليبية، ج ١ / ص ٤٨٥، ج ٢ / ص ٦٦٤، ٧٩١، ٨٣٢، ٩١٤؛ قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ٦٦- ٧٠، ١١٧- ١١٩- ١٣٣- ١٣٦.

حصوناً في غاية المناعة تمكنوا بواسطتها من قطع الطريق بين مصر والشام، مما أدى إلى فشل أية محاولة للتعاون أو توحيد الجهود العسكرية بين أكبر قوتين إسلاميتين في المنطقة<sup>(١)</sup>، كما تمكن الصليبيون من إقامة قاعدة عسكرية لهم على الشاطئ الشمالي للبحر الأحمر في أيلة، فصار الطريق الذي يمر بين دمشق وبلاد العرب ومصر تحت سيطرة الصليبيين، وبذلك يكونون قد مهدوا لتنفيذ مخططاتهم المستقبلية في البحر الأحمر<sup>(٢)</sup>.

وأما من جهة المسلمين فقد كانوا يعيشون حالاً من التفكك والانقسام السياسي والصراع العسكري فيما بينهم، الأمر الذي أهدر طاقات الأمة وإمكاناتها المالية والعسكرية في غير مقارعة الصليبيين والتصدي لهم، فبات من الضروري توحيد الإمكانيات والتنسيق الكامل بين القوى الإسلامية كافة لخلق قوة عسكرية موحدة قادرة على مقارعة الصليبيين وكسر تفوقهم العسكري في ظل الدعم الأوروبي غير المحدود للإمارات الصليبية في بلاد الشام، ومن أهم متطلبات ذلك المشروع العسكري الضخم توفير موارد مالية كافية لبناء تلك القوة العسكرية الإسلامية، وتطويرها لتتمكن من التصدي بكفاءة لقوات الصليبيين على وفق أحدث أساليب الحرب في ذلك العصر. وقد بلغت مصروفات الجيش على عهد صلاح الدين الأيوبي أكثر من أربعة ألف ألف دينار<sup>(٣)</sup>، وهو مبلغ ضخم في حسابات ذلك العصر لم تكن موارد

(١) طقوش: تاريخ الفاطميين، ص ٤٦٣؛ عاشور: الحركة الصليبية، ج ١/ ص ٢٥٧، ٢٦٥.

(٢) رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢/ قسم ١/ ص ١٥٨-١٦١؛ عاشور: المرجع نفسه، ج ١/ ص ٢٥٧.

(٣) المقرئزي: الخطط، ج ١/ ص ٨٦-٨٧.

مصر وحدها قادرة على توفيره من دون الإضرار بالبنية التحتية للبلاد، أو إرهاب الناس بالضرائب والمكوس، الأمر الذي كان يخالف سياسة نور الدين وصلاح الدين من بعده<sup>(١)</sup>.

ومن هذا المنطلق جاء توسع نور الدين ورجاله من أمثال صلاح الدين وضمهم لمزيد من الأقاليم، وذلك لإيجاد مورد مالي يستعين به في جهاد أعداء الله، فقد ذكر أبو شامة أن من أهم الأسباب التي أدت إلى ضم نور الدين لمصر هي أنه كان "...يؤثر أن يقرر له فيها مال للحمل، يستعين به على كلف الجهاد وتخفيف ماله من الثقل..."<sup>(٢)</sup>، والشيء نفسه ذكر عن سبب ضم صلاح الدين لليمن، فقد ورد على لسان أخيه توران شاه قائد حملة اليمن "...ما جئنا لنخرب البلاد، وإنما جئنا لنملكها ونعمرها وننتفع بدخلها..."<sup>(٣)</sup>، وسنتناول فيما يأتي أبرز ما ذكرته المصادر عن الدعم المالي الذي قدمته اليمن للمجاهدين في مصر والشام.



(١) أبو شامة: الروضتين: ج١/ ص ٦٧، ج٢/ ١٢٠؛ المقرئزي: المصدر السابق، ج٢/ ص ٢٣٣.

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج٢/ ص ٢٣٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل، مج٧/ ص ٢٣٨.

## المبحث الأول

### الدعم المالي

في سنة (٣٣٢هـ / ٩٤٣م) توفي الأمير أبو حسان أسعد بن أبي يعفر الحوالي<sup>(١)</sup>، وترك وصية جاء فيها أنه رصد للمجاهدين في ثغر طرطوس مبلغًا من المال كل عام<sup>(٢)</sup>، وقد كشفت هذه الوصية عن الإحساس العميق لدى أهل اليمن بالمسؤولية تجاه إخوانهم المسلمين المرابطين على ثغور ديار الإسلام، الذين كانوا يتعرضون لأشد هجمات الإمبراطورية البيزنطية ضراوة بقيادة أباطرة الأسرة المقدونية<sup>(٣)</sup>، الذين استغلوا حالة الضعف

(١) هو أبو حسان أسعد بن أبي يعفر إبراهيم بن محمد بن يعفر بن عبدالرحمن الحوالي، تولى حكم دولة بني يعفر في صنعاء وما حولها أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي حتى سنة (٣٣٢هـ / ٩٤٣م)، وكانت مدة حكمه مضطربة ومليئة بالأحداث من تمردات وحروب؛ انظر: الخزرجي، العسجد، ص ٣٤-٤٥.

(٢) الأكوغ (محمد بن علي): الوثائق السياسية اليمنية من قبيل الإسلام إلى سنة ٣٣٢هـ، دار الحرب - بغداد، ط ١ - ١٩٧٦م، ص ٢٥٥.

(٣) الأسرة المقدونية (٢٥٢هـ / ٨٦٧م - ٤٧٤هـ / ١٠٨١م) أسرة من أصل مقدوني تمكنت من حكم الإمبراطورية البيزنطية لأكثر من قرنين من الزمان، تمكنوا خلالها من إيجاد كثير من الحلول لمشاكل الإمبراطورية الداخلية والخارجية سواء ما كان منها على الجبهة الأوربية أو الجبهة الإسلامية، فاستردت الإمبراطورية قوتها الاقتصادية والعسكرية، وتوحد في عهدها المجتمع دينيًا بانتصار التيار المؤيد لعبادة الصور نهائيًا، وقد شن أباطرة الأسرة المقدونية حربًا على المسلمين تمكنوا خلالها من الاستيلاء على عدد من مدن الثغور الشمالية مثل أنطاكية، وانتزعوا جزيرة كريت من المسلمين، كما تمكنوا من وضع حلب تحت حمايتهم، وتعد مدة حكم الأسرة المقدونية من أزهى مراحل تاريخ الإمبراطورية البيزنطية؛ انظر: رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ص ٤٥-٥٣؛ زكار (سهيل): الحروب الصليبية، دار حسان للطباعة والنشر - دمشق، ط ١ - ١٩٨٤م، ص ٦٤-٦٥.

والانقسام التي يعيشها المسلمون آنذاك، ويهمنا في المقام الأول أن نستند إلى تلك الوصية لإثبات أن تفاعل أهل اليمن مع بقية أنحاء بلاد الإسلام لم يتوقف بتوقف موجة الفتح الإسلامي في نهاية القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، وإنما استمر طوال القرون التالية، وإن حدّ منه طبيعة الأوضاع التي مرت بها اليمن في تلك الحقبة.

وأما بالنسبة إلى تفاعل أهل اليمن ضد الغزو الصليبي الذي تعرضت له ديار الإسلام ومقدار الدعم الذي قدموه لإخوانهم المجاهدين؛ فهي مسألة تتعلق بطبيعة الأوضاع السياسية في اليمن خلال مدة الحروب الصليبية، فقد كان الصراع السياسي والعسكري الذي ساد اليمن طوال النصف الأول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي قد ألقى بظلاله على أي شكل من أشكال التفاعل وتقديم الدعم المالي للمجاهدين في مصر وبلاد الشام، حتى إن مظاهر التبعية من أموال وهدايا التي اعتادت القوى الإسماعيلية في اليمن إرسالها إلى القاهرة لم تعد ترسل بانتظام، وإن أرسلت فقد تنهب في الطريق بسبب تردي الأوضاع الأمنية في اليمن؛ نظراً لعدم وجود سلطة مركزية قادرة على ضبط الأوضاع المتدهورة ووقف النزاعات المسلحة التي تشهدها البلاد، التي تشتت مواردها بين الدول المتغلبة والمتصارعة فيما بينها، وضعف كل من الخلافتين العباسية والفاطمية وتدهورهما وعجزهما عن بسط نفوذهم الفعلي على اليمن، فلا عجب أن نسمع بما قام به رسل الخليفة الأمر بأحكام الله إلى السيدة بنت أحمد للقبض على ابن نجيب الدولة، إذ قاموا بإغراق رسول السيدة إلى الخليفة الأمر، ومن ثم عدم معرفة مصير هديتها إليه التي قدر الجوهر فيها بأربعين ألف دينار<sup>(١)</sup>.

(١) عمارة: المفيد، ص ١٣٨؛ الخزرجي: المسجد، ص ١٧٠.

### أولاً- الدعم المالي من اليمن خلال الحكم الأيوبي:

بعدما تمكن صلاح الدين الأيوبي من حكم مصر والقضاء على الدولة الفاطمية صار الطريق إلى اليمن مفتوحاً لضمها إلى الجبهة الإسلامية الموحدة التي بناها عماد الدين زنكي وابنه نور الدين من بعده، وأتم بناءها صلاح الدين فصارت اليمن جزءاً من دولة إسلامية واحدة هي الدولة الأيوبية التي أخذت على عاتقها مسؤولية القضاء على الوجود الصليبي في بلاد الشام، مستعينة بذلك بما توفر تحت يدها من الموارد المالية المتدفقة عليها من الأقاليم التابعة لها.

ويمكن تقدير مدى أهمية الموارد المالية المحصلة من اليمن بالنسبة للأيوبيين من خلال النقاط الآتية:

\* ضخامة الميزانية التي أنفقها الأيوبيون على قواتهم في اليمن لضمان تبعيتها لهم، مما يحمل دلالة واضحة وصريحة على الفائدة العائدة عليهم مالياً من إقليم اليمن.

\* الإشارات المتفرقة التي ذكرتها المصادر عن الأموال المحصلة من اليمن خلال الحكم الأيوبي لليمن.

\* اهتمام السلطات الأيوبية في القاهرة بمتابعة الأوضاع في اليمن ومقدار ولاء النواب والولاة فيها للحكم الأيوبي، ومدى حرصهم على المال العام المحصل من اليمن ومتابعة الأيوبيين لصور وأشكال الاختلاسات كافة والقضاء عليها.

١- بالنسبة إلى ما يتعلق بميزانية إعداد تلك الحملات إلى اليمن، التي

كانت تستنزف الخزانة الأيوبية، في وقت كانوا في أشد الحاجة إلى تلك الأموال والعدة لولا أنه كان من المتوقع أن يتم تحصيل أضعاف ما بذلوه من خلال ضمهم لإقليم مهم مثل اليمن بكل موارده وثرواته وإمكانياته، فقد ذكرت المصادر أن حملة المعظم توران شاه التي كلفته مغل - المحصل من الأموال - قوص لسنة كاملة<sup>(١)</sup> ضمت حوالي ثلاثة آلاف فارس<sup>(٢)</sup>، وكذلك أسطول يحمل كثيراً من الأزواد والعدد والآلات الحصار<sup>(٣)</sup>، فهل كان ضم اليمن لسultan الأيوبيين يستحق تلك الأعداد الهائلة من الفرسان - عماد حروب ذلك العصر - وذلك الكم من العدد والآلات، بل المجازفة بالجيش الأيوبي في إقليم يعج بالقوى المعادية لهم وترفض الخضوع لسultanهم، مما اضطرهم إلى خوض غمار حروب طاحنة كادت تأتي عليهم لولا حنكة قائدهم توران شاه وثبات صفوفهم وتفرق قوى خصومهم تحت زعامات متعددة.

لقد ستغرق إعداد حملة توران شاه سنة كاملة، تم في أثنائها ما يتم عادة في مرحلة الإعداد لحملة كبيرة من توزيع الأسلحة والدرع على الجنود، وإعطاء كل واحد منهم عطاءه لشراء مستلزماته ونفقاته الشخصية ونفقات أهله<sup>(٤)</sup>، وقد اعترف صلاح الدين بسخامة نفقات تلك الحملة في رسالته إلى الخليفة العباسي يعدد فيها منجزاته وفتوحاته ومنها قوله: "... وكان باليمن ما علم من أمر ابن مهدي الضال الملحد... فأنهضنا إليه

(١) أبو شامة: الروضتين، ج ٢ / ص ٢٧٤.

(٢) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى، ج ١ / ص ٣٢١.

(٣) ابن الأثير: المصدر السابق، مج ٧ / ص ٢٣٧؛ أبو شامة: الروضتين، ج ٢ / ص ٢٧٤.

(٤) العسيري: الحياة السياسية، ص ٧١.

أخانا بعسكره بعد أن تكلفنا له نفقات واسعة وأسلحة رائعة...<sup>(١)</sup>، ولم يكن صلاح الدين الأيوبي ليوافق على مثل تلك المجازفة لولا ما في ضم اليمن إلى دولته من مصلحة في دعم الجبهة الإسلامية الموحدة.

وأما حملة الأمير صارم الدين خطلبا في سنة (٥٧٧هـ / ١١٨١م) فقد كانت حملة بحرية كبيرة ضمت كثيراً من المراكب لحمل الأزواد والعلوفات والأسلحة، فضلاً عن حراريق<sup>(٢)</sup> مشحونة بالرماة، وبلغ عدد الجند خمسمائة جندي<sup>(٣)</sup>. وكانت حملة سيف الإسلام طغتكين إلى اليمن سنة (٥٧٩هـ / ١١٨٣م) حملة برية بلغ عدد أفرادها ألف فارس وخمسمائة من المشاة<sup>(٤)</sup>.

وبذلك يكون قد بلغ إجمالي الجيش الأيوبي في اليمن أربعة آلاف فارس وألفين وخمسمائة من المشاة، فضلاً عن عدد لا بأس به من قطع الأسطول، وكثير من الآلات الحربية المستخدمة في الحصار ودك الحصون واختراقها، إن بقاء مثل هذا العدد الكبير من القوات الأيوبية في اليمن مع عدد من أكفأ الأمراء والقادة؛ في وقت اقتربت فيه ساعة المواجهة الحاسمة مع الصليبيين ليحمل دلالة واضحة على أهمية اليمن مورداً مالياً لدعم الجبهة الإسلامية وبناء قوة عسكرية قادرة على التصدي للصليبيين.

(١) أبو شامة: الروضتين، ج٣/ ص٣٦٢.

(٢) حراريق (والصواب حراقات): جمع حراقة، وهي نوع من السفن الحربية استخدمت لحمل الأسلحة النارية كالنار الإغريقية، وكان بها مرام تلقى منها النيران على العدو؛ انظر: أبو خليل (د. شوقي): الحضارة العربية الإسلامية، دار الفكر- دمشق، ط٢- ٢٠٠٢م، ص٣٧٣.

(٣) المقرئزي: السلوك، ج١/ قسم١/ ص٧٤-٧٦؛ العسيري: المرجع السابق، ص٩١-٩٢.

(٤) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص٧٨، الخزرجي: المسجد، ص١٥٢.

٢- الإشارات المتفرقة التي ذكرتها المصادر عن الأموال المحصلة من اليمن، فقد ذكرنا ما ورد على لسان توران شاه من أن الغرض من فتح اليمن هو عمارة البلاد والانتفاع بدخلها، ومن هذا المنطلق جاءت تنظيماته الإدارية وتعيينه النواب الذين يدينون له بالولاء الكامل سواء أكان في اليمن أم خارجها - حتى لا ينفرد واحد بحكم اليمن ويستقل - وبعد فراغه من تنظيم الإدارة الأيوية في اليمن واستخلاصه الأموال والكنوز ممن بسجنه من أمراء وسلاطين الدول التي تغلب عليها<sup>(١)</sup>، استأذن أخاه السلطان صلاح الدين في القدوم إليه فأذن له بسبب حاجته الملحة إليه في حملته الكبرى لتوحيد مملكة سيده نور الدين محمود تحت لوائه، فقدم إليه في سنة (٥٧١هـ / ١١٧٥م) قبيل معركته مع الموصلية ومن تحالف معهم من الصليبيين حاملاً معه أموالاً جزيلة من إقليم اليمن<sup>(٢)</sup>.

وأما نواب توران شاه في اليمن فقد ظلوا على ولائهم لمولاهم الذي تولى عددًا من المناصب في دولة أخيه، منها النيابة عن أخيه السلطان على مدينة دمشق مدة من الزمن، ثم على الإسكندرية حتى وفاته سنة (٥٧٦هـ / ١١٨٠م)، وفضلاً عن ذلك ظل هو النائب في حكم اليمن، فكان نوابه حريصين على إرسال الأموال إلى مولاهم كل عام، التي كان ينفقها كلها في مواطن الجهاد ولا يدخر منها شيئاً لنفسه<sup>(٣)</sup>، حتى إنه توفي وعليه دين يقدر بمائتي ألف دينار مصرية قضاها عنه أخوه صلاح الدين<sup>(٤)</sup>.

(١) الجندي: السلوك، ج٢/ ص ٥٢٠؛ الخزرجي: المسجد، ص ١٥٢.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢/ ص ٣١٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل، مج٧/ ص ٢٨٥؛ الخزرجي: المسجد، ص ١٥٦.

(٤) ابن الأثير: المصدر نفسه، مج٧/ ص ٢٨٥.

وعلى الرغم من أن المصادر لم تذكر شيئاً عن مقدار تلك الأموال الواصلة من اليمن؛ فإنه استناداً إلى ما ذكرته المصادر عن الأموال المحصلة من عدد من الأقاليم والمدن اليمنية لصالح الدول التي حكمت قبيل الحكم الأيوبي في اليمن؛ تكون النتيجة الطبيعية أن إجمالي الأموال المحصلة من إقليم اليمن والمرسلة إلى توران شاه بلغت الملايين من الدنانير<sup>(١)</sup>.

بعد وفاة توران شاه تعرضت الإدارة الأيوبية في اليمن إلى خطر كبير بسبب صراع النواب واقتتالهم فيما بينهم، الأمر الذي دعا صلاح الدين إلى إرسال حملتين لضبط الأمور في اليمن، تمكنت الأخيرة من القضاء على النواب المتصارعين وإعادة ضبط الأمور على يد سيف الإسلام طغتكين "الذي قرر قواعد الملك باليمن ووضع الضرائب للسلطان وقنن القوانين..."<sup>(٢)</sup>، فعاد الوضع المالي لليمن إلى الانضباط تحت الإدارة الصارمة لطغتكين، وعلى الرغم من أن المصادر المتوافرة بين أيدينا لم تذكر شيئاً عن إرساله الأموال إلى السلطان؛ فإن سكوت الأخير عنه طوال المدة التي حكمها في حياة أخيه (٥٧٩هـ / ١١٨٣ - ٥٨٩هـ / ١١٩٣م) يدل على رضا السلطان عن أخيه وسياسته المالية في اليمن، حتى إن الكتب التي أرسلها السلطان إلى أخيه طغتكين تحمل ثناء السلطان عليه وأوامره إليه بالإكثار من الأموال التي يرسلها من اليمن<sup>(٣)</sup>.

بعد وفاة سيف الإسلام طغتكين لم يستقر الحكم في اليمن لأبنائه، إذ سرعان ما قتل أكبر أبنائه المعز إسماعيل على يد جنده، واغتيل ابنه الناصر

(١) انظر: الفصل الأول ص ٤٤. (٢) الخزرجي: المسجد، ص ١٦٨.

(٣) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ١٩٠ - ٢٠٢، ٣٥٣.

أيوب مسمومًا، في الوقت الذي كان فيه الأيوبيون في مصر والشام منشغلين بالصراع فيما بينهم، حتى إذا ما تولى السلطان العادل إرث بني أيوب أمر ابنه الكامل أن يجرّد حملة إلى اليمن على رأسها حفيده المسعود بن الكامل، الذي تمكن بعد حروب كثيرة من ضبط الأمور باليمن، ومن ثم عاد إلى أبيه بمصر وقد "... حمل معه جميع خراج اليمن من الصفراء والبيضاء والجواهر الغالية والطرف والغلمان والجواري..."<sup>(١)</sup>، وقد بالغ بعض من المؤرخين في تقدير حجم تلك الأموال حتى ذكر أنها بلغت حمولة خمسمائة مركب<sup>(٢)</sup>، وأقرب تقدير لحجم تلك الأموال التي حملها معه أنها بلغت حمولة أكثر من سبعين سفينة<sup>(٣)</sup>، وحوّت فيما حوت مائتي خادم وثلاثة أفيال هائلة وأحمال عود وند ومسك وعنبر<sup>(٤)</sup>، وربما كانت تلك آخر ما وصل إلى الأيوبيين من أموال اليمن، إذ سرعان ما توفي المسعود في مكة، واستقل بنو رسول بعده بحكم اليمن.

٣- اهتمام السلطات الأيوبية في القاهرة بأموال اليمن ومتابعة النواب ومحاسبتهم، فهو أمر أشارت إليه كثير من المصادر، فمن ذلك القضية التي أثّرت حول مشروعية الأموال التي جمعها الأمير مبارك بن كامل بن منقذ الكناني نائب الملك المعظم توران شاه في زبيد، الذي استأذن مولاه توران شاه في العودة إلى مصر، واستتاب بزبيد أخاه حطان بن كامل، وظل مبارك

(١) الخزرجي: العسجد، ص ١٨٩.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢٢ / ص ٣٣١.

(٣) الخزرجي: العقود، ج ١ / ص ٤١.

(٤) أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ١٤٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣ /

مع شمس الدولة حتى وفاته، وعندئذ وجد خصومه الفرصة مواتية بعد وفاة الأمير المسؤول عنه والمشرف عليه، فسعوا به عند صلاح الدين بأنه "...أخذ أموال اليمن وأدخرها..."<sup>(١)</sup>، وأنه "...استوعب مال زبيد، وأن له كنوزًا لا تبيد..."<sup>(٢)</sup>، فصار مبارك بن منقذ تحت مراقبة خصومه حتى سنة (٥٧٧هـ / ١١٨١م) عندما عمل مأدبة عظيمة دعا إليها أعيان الدولة الصلاحية، وأرسل أصحابه يشترون ما يلزم من أطعمة وغيرها، ويبدو أن المشتريات بلغت مبلغًا عظيمًا، مما لفت إليه الأنظار، ف قيل لصلاح الدين "... إن ابن منقذ يريد الهرب، وأصحابه يتزودون له، ومتى دخل اليمن أخرجته عن طاعتك..."<sup>(٣)</sup>، وبذلك تجاوزت التهم الموجهة إليه مجرد الاختلاس والنهب للأموال المحصلة من اليمن، بل صار يخطط للهرب إلى اليمن والاستقلال بها، الأمر الذي يشكل خسارة فادحة لصلاح الدين وحرمانه من المورد المالي الجديد الذي وفرته له فتوحات أخيه توران شاه في اليمن، فأمر صلاح الدين بالقبض عليه، وأجرى معه تحقيقًا أسفر عن إطلاق سراحه وتبرئته من تهمة الخروج على صلاح الدين والاستقلال باليمن، إلا أن الشبهة حول مشروعية ما جمعه من أموال ظلت قائمة مما اضطره إلى أن يدفع لصلاح الدين ثمانين ألف دينار مصرية تزكية لماله ويعود مولاه إلى حسن ظنه به<sup>(٤)</sup>. ومن الجدير بالذكر أن صلاح الدين لم يعدّ ما قبضه من أموال مبارك بن منقذ نوعًا من المصادرة، وإنما هو قرض ودين، حيث كتب بخط يده أن المبلغ دين في ذمته قضى جزءًا منه ببيعه

(١) ابن الأثير: الكامل، مج٧/ ص٢٨٦. (٢) أبو شامة: الروضتين، ج٣/ ص٩٣.

(٣) ابن الأثير: المصدر السابق، مج٧/ ص٢٨٧.

(٤) ابن الأثير: المصدر نفسه، مج٧/ ص٢٨٧؛ أبو شامة: الروضتين، ج٣/ ص٩٣.

جميع أملاكه بمصر لمبارك بن منقذ بثلاثين ألف دينار كرمًا من السلطان، وعرفانًا منه بجميله<sup>(١)</sup>.

وفي موضع آخر يذكر أبو شامة نقلًا عن العماد الكاتب الأصفهاني أنه وقف على ثلاثة كتب للقاضي الفاضل<sup>(٢)</sup> عن الملك العادل النائب عن السلطان بمصر إلى الولاة باليمن، يعلمهم فيها أن ملوك الشرق - يقصد الأمراء في بلاد الشام - قد دخلوا في طاعة السلطان، وأنه عازم على القدوم إلى مصر وصوم رمضان بها والحج إلى بيت الله الحرام منها، ويأمرهم بالاستكثار مما يحمل لأجله إلى مكة من المال والأزواد والخلع مما تشتمل عليه تلك الأعمال<sup>(٣)</sup>.

وإثر وفاة صارم الدين خطبها المفاجئة وعودة الصراع بين النواب زادت مخاوف صلاح الدين وإخوته من خسارة اليمن، ويبدو أن أخاه طغتكين كان أكثرهم إحساسًا بمخاوف أخيه تجاه اليمن، حتى إنه أوعز إلى الشاعر ابن سعدان الحلبي<sup>(٤)</sup> أن يلقي قصيدة أمام السلطان يعرض فيها بإنفاذ سيف

(١) أبو شامة: الروضتين، ج ٣/ ص ٩٣.

(٢) القاضي الفاضل (أبو علي عبد الرحيم بن القاضي الأشرف أبي المجد علي بن الحسن البيساني القضاعي): من أصل يمني، كان أبوه قاضيًا بعسقلان، فأرسل ولده إلى مصر زمن الفاطميين، فاشتغل بها بكتابة الإنشاء على أبي الفتح قادوس وغيره، حتى برع وفاق أهل زمانه، ولما استقر الملك لصلاح الدين جعله كاتبه وصاحبه ووزيره وجليسه وأنيسه، وكان أعز عليه من أهله وولده، وتساعدوا في فتح الأقاليم والبلاد: هذا بحسامه وسنانه، وهذا بقلمه ولسانه وبيانه، وكان وافر المال كثير الصدقات، حسن طاهر القلب والسريرة، توفي سنة (٥٩٦هـ/ ١١٩٩م)؛ انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٣/ ص ١٥٨ - ١٦٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣/ ص ٢٦.

(٣) أبو شامة: الروضتين، ج ٣/ ص ٦٨.

(٤) ابن سعدان: لم نعث له على ترجمة فيما توافر بين أيدينا من مصادر.

الإسلام طغتكين لرأب الصدع في اليمن قال فيها<sup>(١)</sup>:

جرّد لها السيف الصقيل فتنة فالسيف لا يذخر إلا للفتن  
شُدَّ به أزر العلا فإنه نعم فتى من شرع الجود وسن  
القائل المسمع في مقاله والصادق الندب الأمين المؤتمن  
بادي الفؤاد كيفما سيّرته حنّ إلى دار الوغى ثمّت أن  
قد فسد الملك وقد طال العدى واقتسموا بعدك أموال اليمن

وبيت القصيد هنا هو قوله " واقتسموا بعدك أموال اليمن " لما يحمل من دلالة على أهمية أموال اليمن بالنسبة إلى ميزانية الدولة الأيوبية، ومدى استعداد صلاح الدين لعمل المستحيل في سبيل الحفاظ على ذلك المورد المالي المهم.

وقد استجاب صلاح الدين لحماسة أخيه طغتكين، فأرسله إلى اليمن، فكان من أولى اهتماماته القضاء على مختلف أشكال الاختلاسات والنهب لأموال اليمن التي قام بها نواب أخيه توران شاه، فأظهر لهم اللطف وحسن إليهم صحبته ليطمئنوا إليه، ويظهروا ما يكتزونه من أموال، وقد آتت خطته ثمارها، إذ نزل حطان بن منقذ من قلعته التي تحصن بها إثر سماعه بقدوم طغتكين وبذله الأمان له، كما أظهر له حسن الصحبة حتى أذن له بالخروج إلى الشام، فأخرج حطان أمواله وأثقاله، فما كان من طغتكين إلا أن أمر بالقبض عليه ومصادرة أمواله التي بلغت مبلغاً عظيماً، حتى قيل إنها ضمت سبعين غلاًفاً زردية مملوءة ذهباً<sup>(٢)</sup>، كما ذكر أن إجمالي قيمتها بلغت ألف

(١) أبو شامة: الروضتين، ج٣/ ص٩٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل، مج٧/ ص٢٩٢؛ الجندي: السلوك، ج٢/ ص٥٢٧.

ألف دينار<sup>(١)</sup>، وقبل أن نتسرع باتهام طغتكين باستصفاء تلك الأموال لنفسه نورد ما ذكره أبو شامة من أن طغتكين "... ذكّر للسلطان من خبر ذهبه وماله الذاهب [حطان] ما يعيي بحصر تفاصيل جملة أنمل الحاسب..."<sup>(٢)</sup>، مما يعني أن طغتكين جعل أخاه السلطان على اطلاع دائم بتفاصيل الحساب لثروات النواب ليجعله على جلية من حجم تلك الثروات والموارد التي قد تتحصل من اليمن، والتي هو في أمس الحاجة إليها لدعم وبناء قوة عسكرية قادرة على مقارعة الصليبيين، والشيء نفسه يقال عن محاولة النائب على عدن عز الدين عثمان الزنجيلي الذي هرب بما جمعه عن طريق البحر، فاعترضته مراكب سيف الإسلام، فلم يخلص له إلا ما صحبه في الطريق<sup>(٣)</sup>.

### ثانيًا- الدعم المالي من اليمن خلال الحكم الرسولي:

يعد قيام الدولة الرسولية نهاية لأشكال التبعية السياسية كافة التي فرضها الأيوبيون على اليمن، وقد تناولنا في الفصل الأول كيف أن العشرين عامًا التي تلت تنصيب عمر بن علي بن رسول نفسه سلطانًا على اليمن شهدت صراعًا مستمرًا وقويًا بينه وبين الأيوبيين حول السيطرة على الحجاز، حيث توالى حملات الطرفين على مكة المكرمة.

ولم تكن سنة (٦٤٧هـ / ١٢٤٩م) نهاية المطاف في الصراع بين الطرفين رغم مقتل المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول فيها؛ وكذلك الملك المعظم توران شاه بن نجم الدين أيوب آخر سلاطين الأيوبيين في مصر،

(١) أبو شامة: الروضتين، ج ٣/ ص ٩٦.

(٢) أبو شامة: المصدر نفسه، ج ٣/ ص ٩٦.

(٣) الجندي: المصدر السابق، ج ٢/ ص ٥٢٧-٥٢٨.

فالمماليك الذين خلفوا الأيوبيين في حكم مصر لم تكن مطامعهم في اليمن لتخفى على المظفر يوسف بن عمر بن رسول، إلا أن افتقارهم إلى الشرعية التي كان يتمتع بها بنو أيوب فضلا عن انشغالهم بالتصدي للصليبيين والمغول في آن واحد، كل ذلك أدى إلى جعل الصراع بينهم وبين بني رسول حول السيادة على اليمن سياسياً أكثر منه عسكرياً.

وقد بينا في الفصل السابق كيف استطاع السلطان المظفر يوسف الحصول على تشريف الخليفة المستعصم بالله بحكم اليمن، الأمر الذي زاد من قوته السياسية في مواجهة المماليك، كما أن محاولات الطرفين بسط نفوذهم على الحجاز ظلت تهدد العلاقة بين الجانبين لولا مرونة السلطان المظفر السياسية وحنكته، مما يعني استحالة حصول المماليك في مصر على أي شكل من أشكال الدعم المالي من اليمن، ما لم يكن ذلك قائماً على الاتفاق بين الجانبين حول خطورة الأوضاع في العراق وبلاد الشام وضرورة العمل معاً لدرء ذلك الخطر الذي يتهدد الجميع.

وقد استعرضنا في الفصل السابق بعض ما ذكرته الكتب المرسلة من كلٍّ من الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون حول ضرورة قيام المظفر يوسف بدوره في نصرته إخوانه المجاهدين لا سيما أن " . . . هذه المملكة اليمنية قد اجتمع فيها من الأموال ما يُربي عن الحصر والحد، ويزيد على الإحصاء والعد، لا ينفق منها شيء في الجهاد، ولا يعد منها مصروف إلا بما لا تحمد عاقبته في المعاد، قد صد عنها جند الله الذين ينفقونها سرّاً وجهراً، ويستنزلون بها أرواح أعداء الله على حكم سيوفهم قسراً وقهراً، وأبيحت لمن تأبى الجهاد جانباً، ورضي باللهو صاحباً، واقتنى السلاح لغير يوم

البأس، واعتنى بارتباط الجياد بطراً ورتاء الناس...<sup>(١)</sup>، وجاءت عبارات العتاب والاتهام القوية هذه إثر تأخر المظفر يوسف في الإجابة عن كتاب كان قد أرسله السلطان قلاوون في وقت سابق، ويظهر أن الكتاب لم يذكره أحد من المؤرخين، ومن ثم لم يتسن لنا معرفة ما ورد فيه، إلا أن إشارة السلطان قلاوون تؤكد أن الكتاب يتمحور حول المساعدات التي يمكن أن يقدمها المظفر "... وكان كتابنا قد تقدم في أمر المجاهدين وما يحتاجونه من الإعانة بما يحمل إليهم من الأموال بالمملكة اليمنية ليصرف ذلك في حقه، ويصل إلى مستحقه، ويكون قد أعد منها للإنفاق في سبيل الله جانب بحيث لا يضاع، ووصل إلى مجاهدي الأمة نصيب من مال الله...<sup>(٢)</sup>.

ويبدو أن تأخر السلطان المظفر في الرد كان نتيجة عدد من الأسباب، منها انشغاله بالقضاء على الفتن والحركات المناوئة لحكمه، وكذلك حرصه على عدم اعتبار المماليك ما سيرسله إليهم من الأموال نوعاً من الإتاوة يدفعها بنو رسول إلى المماليك، ومن هذا المنطلق استخدم المظفر أسلوب الهدايا التي تتضمن العديد من النوادر والتحف والذخائر وأصناف الأسلحة، وهي أمور سنتناولها فيما يأتي.

ويهمنا في هذا المقام معرفة ما إذا كان هناك دعم مالي ثابت من اليمن يقدمه السلطان المظفر يوسف؟

على الرغم من شحة المعلومات التي تقدمها المصادر التاريخية حول طبيعة موقف اليمن المالي من الجهاد ضد الصليبيين؛ فإنه توافر بين أيدينا

(١) القلقشندی: صبح الأعشى، ج٧/ ص ٣٧٥-٣٧٦.

(٢) القلقشندی: المصدر نفسه، ج٧/ ص ٣٧٦.

عدد من النصوص - ولو أن بعضها يتناول أحداث مطلع القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي - قد تساعدنا في معرفة ما إذا كان هناك دعم مالي يصل من اليمن، وكيف كان يصل هل في مناسبات معينة أو بشكل منتظم؟ وهل كانت تعد هدية أو شكلاً من أشكال الإتاوة يدفعها سلاطين بني رسول إلى سلاطين المماليك في مصر والشام؟ فقد ذكر الخزرجي في حوادث سنة (٧٠٤هـ / ١٣٠٣م) أن السلطان المؤيد داود بن المظفر أرسل الأمير أسد الدين محمد بن نور سفيراً إلى الديار المصرية<sup>(١)</sup>، وقدم لنا الخزرجي وصفاً للهدية التي حملتها معها تلك السفارة إلى السلطان الناصر محمد قلاوون بأنها سارت " ... بأنواع التحف السنينة من الفضيات على اختلاف أنواعها... وسواري العود والصندل، والقطع الكبار من العنبر ونوافح<sup>(٢)</sup> المسك، وما عظم شأنه من الفخار الصيني ومن الخدام الحبش، ومن القنا الهندي والمرائد الصينية ومن المراتب المذهبة ومن الثياب المذهبة الصينية ما عظم شأنها، ومن الأواني والأطباق والصناديق المملوءة بالمسك، وما يتعلق بالحوائج خاناه - أي البهارات - كالفلفل والقرنفل والزنجبيل، ومن الوحوش كالفيل وحمار الوحش والزرافة كلها مكسوة بالحرير والأطلس الملمع بالذهب، ومن الخيل المسومة العربية الأصائل اللاتفة بحال المرسل إليه، نقل ذلك مركبان عظيمان، ومثل هذه من الهدية لا تكاد تتأخر بين عامين أو ثلاثة؛ طلباً للمودة والمحبة واستمراراً على

(١) الخزرجي: العقود، ج ١/ ص ٣٦٠.

(٢) نوافح: من نفع الشيء نفعاً أي ارتفع وثار، والمقصود به ما ثار وفاح من أنواع المسك؛ انظر: مصطفى (إبراهيم) وآخرون: المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية - إستانبول، ط ٢- ١٩٧٢م، ص ٩٣٧.

ما يعهد من الصحبة...<sup>(١)</sup>، ففيما ذكره الخزرجي بيان للغرض الحقيقي من تلك الهدية، وهو غرض سياسي، القصد منه استمرار أو اصر المودة والصدقة بين الدولتين، وأن هذه الهدية قد جرت العادة بإرسالها بشكل منتظم، وقد عدها سلاطين بني رسول هدية مقدمة منهم إلى سلاطين المماليك.

وتخبرنا الرواية الآتية أن تلك الهدايا لم تبدأ في عهد السلطان المؤيد، بل هي مواصلة لسياسة والده المظفر، الذي بدأ صفحة جديدة من العلاقات مع القاهرة، ففي عقد الجمان يتكلم العيني عن هذه الهدية بقوله: "... كانت ملوك اليمن ترسلها إلى صاحب مصر، خارجاً عما كان مقرراً عليهم في كل سنة في الأيام الظاهرية - حكم الظاهر بيبرس - فان الملك المظفر ولي اليمن نحو أربعين سنة، ولم يقطع ما كان عليه من المقرر، وهو ستة آلاف دينار في كل سنة، كان يشتري بها أصناف المتجر، ويسيرها إلى قلعة الإسماعيلية<sup>(٢)</sup>، فكانت ترصد هناك، وهذه كانت عاداتهم من تقادم السنين مع هدية يختص بها السلطان، فلما ولي ولده الأشرف أياماً قليلة وخرج عليه هزير الدين ملك اليمن قطع الجهتين...<sup>(٣)</sup>."

وهكذا حصلنا على ما يثبت أن الدعم المالي من اليمن كان دعمًا على

(١) الخزرجي: العقود، ج ١/ ص ٣٦١.

(٢) قلعة الإسماعيلية: انتشرت قلاع الإسماعيلية في بلاد الشام، وقد اشتهرت بمناعتها وحصانتها ضد أي اختراق، ولم يحدد النص أي قلعة من قلاعهم هي المعنية.

(٣) العيني (بدر الدين محمود): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تح: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، د.ط - ١٩٩٠م، ج ٤/ ص ٣٥٣-

شكل هدايا منتظمة للسلطان المملوكي، فضلا عن مبلغ سنوي كان السلطان المظفر - الذي حكم سبعةً وأربعين عاماً وليس أربعين - يشتري لهم به من أصناف البضائع، ويرسله إلى قلعتهم المذكورة، وأما ما ذكره العيني من أن ذلك كان مقرراً على بني رسول فإنه يؤكد مخاوف المظفر من أن تعد هذه المساعدات إتاوة أو ضريبة لازمة على بني رسول مع تقادم الزمن، وقد أدى ذلك الفهم لطبيعة تلك المساعدات والدعم إلى اشتعال فتيل أزمة سياسية بين الدولتين كادت تؤدي إلى نشوب حرب بينهما، وذلك مع مطلع القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، إذ كثرت الأراجيف التي حملها بعض تجار الكارم إلى القاهرة حول عزم السلطان المؤيد داود بن المظفر قطع الهدية التي جرت العادة بإرسالها إلى الديار المصرية واستهانت به سلطان المماليك<sup>(١)</sup>.

وقد أدى ذلك إلى توتر العلاقات بين الجانبين حتى إنهم تعاملوا مع الهدية التي ذكرها الخزرجي بشكل مختلف وذلك عندما "... ووصل رسول الملك المؤيد صاحب اليمن ومعه الهدية الثمينة من البهار والقنا والشاشات والتحف - بعض ما ذكره الخزرجي - فقومت هديته، فكانت أقل قيمة من الهدايا التي كان يرسل بها أبوه، فصدرت إليه الكتب الشريفة بالإنكار والتهديد والإغلاظ والوعيد، وأرسلت على يد بدر الدين محمد الطوري أحد مقدمي الحلقة، فلم يصادف منه لما اجتمع به قبولاً، ولا أعاد معه رسولاً، فرجع بعد مدة..."<sup>(٢)</sup>، وقد ذكر الخزرجي وصول ذلك الرسول صحبة رسول المؤيد العائد من القاهرة أسد الدين محمد بن نور، وأنه أقام

(١) العيني: عقد الجمان، ج٤/ ص٣٥٣.

(٢) العيني: المصدر نفسه، ج٤/ ص٣٧٧.

في تعز أياماً وقابل السلطان المؤيد الذي أكرمه، ثم انتقل إلى زبيد حيث تهيأ للرحيل إلى مصر<sup>(١)</sup>.

وتعقدت الأوضاع مما زاد من توتر العلاقات بين الدولتين، حتى أعلن المماليك الحرب على الدولة الرسولية، وصدرت الأوامر إلى كل مقدم ألف بأن يعمر مركباً كبيراً وقارب يكون خلفه لحمل الزاد والعدة والمتاع<sup>(٢)</sup>، وكان تعداد المراكب التي عمرت نيفاً وخمسين مركباً<sup>(٣)</sup>.

ولما بلغت أنباء تلك الحملة مسامع السلطان المؤيد قام على الفور باتخاذ إجراء في غاية الحصافة والفتنة لإنهاء الأزمة من دون الدخول في حرب ضد المماليك، فبادر إلى التضييق على تجار الكارم، ومنعهم من استخدام الموانئ اليمنية، الأمر الذي أضرب بتجارتهم أيما إضرار، فاستخدموا نفوذهم في القاهرة ليقفوا تلك الحملة " . . . فسأل أعيان الكارم الإمهال إلى أن يتوجه الرسل إلى صاحب اليمن ويعود الجواب، فأمهلوا... " <sup>(٤)</sup>، ووصل الرسل إلى بلاط السلطان المؤيد " . . . وكان مضمون الرسالة تقرير الحال وأن السلطان - الناصر محمد بن قلاوون - قد رجع عما عزم عليه، وتم في خلال ذلك الرغبة إلى الصلح والموادعة... " <sup>(٥)</sup>.

وقد اقتدى السلطان المؤيد في تعامله مع هذه القضية بوالده السلطان المظفر الذي رسم سياسة اليمن تجاه دول الجوار، ولا سيما علاقة تعز

(١) الخزرجي: العقود، ج ١/ ص ٣٦٧.

(٢) العيني: المصدر السابق، ج ٤/ ص ٤٦٣.

(٣) الخزرجي: العقود، ج ١/ ص ٣٧٣.

(٤) العيني: عقد الجمان، ج ٤/ ص ٤٦٣.

(٥) الخزرجي: العقود، ج ١/ ص ٣٧٤.

بالقاهرة على أساس التعاون والصداقة بين الدولتين من دون التفريط في السيادة الرسولية على اليمن وما يتبعها، فبعد فتح عكا وتطهير بلاد الشام من الوجود الصليبي توقف السلطان المظفر عن إرسال ما اعتاد إرساله من الهدايا للسلطان المملوكي، مما أثار غضب السلطان الأشرف خليل بن المنصور قلاوون، فأرسل إليه بكتاب مع أحد تجار الكارم يهدده فيه ويتوعده وختم الكتاب بالعبارة التالية (إلى الخارجي باليمن)، فلما وصل الرسول وسلم السلطان المظفر الكتاب وقرأ عنوانه أعاده إلى الرسول من دون أن يفتحه قائلاً "هذا الكتاب ما هو لي وهذا عنوانه إلى الخارجي باليمن، فإن كنت تعرف الخارجي باليمن فأوصله إليه وإلا رده على صاحبه"<sup>(١)</sup>، وعندما بلغه الرسول رسالة شفوية من الأشرف بأنه سيرسل جيشه إلى اليمن إن لم يستجب المظفر لما جاء في كتابه؛ رد عليه المظفر بقوله "هذا كلام من غلب عليه الجهل والشغب"<sup>(٢)</sup>.

ونستخلص مما سبق أن الدعم المالي من اليمن كان يصل كل عام على شكل سلع وبضائع بما يساوي ستة آلاف دينار<sup>(٣)</sup>، وترصد بقلعة الإسماعيلية في الشام كما ذكر العيني، وأما الهدية فقد كانت تصل ما بين عامين أو ثلاثة كما ذكر الخزرجي، وهي مخصصة للسلطان المملوكي، ولكنها بضحامتها وما تحويه من النفائس كانت تحتل مكاناً في خزينة السلطان لدرجة أنها كانت تُقَوِّم - تَمَن - وتكاد تنشب الحرب بين الدولتين إذا قلت

(١) العيني: المصدر السابق، ج ٣ / ص ٢١٠.

(٢) العيني: المصدر نفسه، ج ٣ / ص ٢١١.

(٣) نظراً لأن هذه الأموال كانت ترسل على شكل سلع وبضائع فمن المرجح إذاً أن يكون المقصود دنانير مملوكية.

قيمتها أو انقطعت، الأمر الذي يدل على ضخامة الدعم المالي الواصل من اليمن في عهد الدولة الرسولية مهما تنوعت صفته وأشكاله، فقد كان من بين ما حمله رسل المظفر إلى المنصور قلاوون سنة (٦٨٤هـ / ١٢٨٦م) كمية هائلة من البهار قدرت بحمل سبعين جماً، ومن القماش ما حمل على مائة قفص ومن تحف اليمن مائة طبق<sup>(١)</sup>، وقد أظهر السلطان المظفر بموقفه هذا إحساسه بالمسؤولية تجاه ما تعانيه الأمة في ظل الأوضاع السياسية في بلاد الإسلام بعد سقوط الدولة الأيوبية ومن بعدها الخلافة العباسية في بغداد.



(١) المقرئزي: السلوك، ج١/ القسم الثالث/ ص٧٢٩.

## المبحث الثاني

### الدعم العسكري

نظراً لما شهدته الجبهة الإسلامية من تطورات، وتزايد حدة المواجهة بين المسلمين والصليبيين، وتعدد مصادر الإسناد العسكري التي يعتمد عليها الجانبان في رفق آلتهم العسكرية بمزيد من الجند، سواء أكانوا من الفرسان أم المشاة المتمرسين على فنون القتال في ذلك العصر الذي وصلت فنون الفروسية فيه إلى ذروتها؛ صار مصير أي معركة تحتمل بين الجانبين يعتمد على نوعية الجند في أحد المعسكرين ومدى احترافهم في مجال خوض المعارك وحصار المدن.

وبات هذا الأمر جلياً من خلال المقارنة بين كفاية الجيش الأيوبي والجيش المملوكي، إذ يعلق رنسيمان على ذلك بقوله: "... أما بلاد الإسلام فان ما جرى فيه من باعث متصل للجهاد أدى إلى أن يحل مكان الأيوبيين المعروفين بالرحمة والتهذيب، الممالك الذين يفوقونهم في الكفاية ويقصرون عنهم في الشفقة..."<sup>(١)</sup>.

ومن جهة أخرى فإن جيوش المسلمين التي تصدت للصليبيين وحلفائهم من المغول والأرمن وغيرهم طوال قرنين من الزمن؛ كانت في حاجة مستمرة إلى المزيد من السلاح باختلاف أنواعه من السيوف والدروع والرماح والخناجر والقسي وما يتبعها من سهام، وكذلك الدواب المستخدمة في الحروب لا سيما الخيل التي ترفد سلاح الفرسان عماد جيوش ذلك

(١) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣/ قسم ١/ ص١٤.

العصر، والتي عليها يعتمد مصير المعركة.

وقد تناولنا في الفصل الأول من هذا البحث الإمكانيات الصناعية والثروة الحيوانية التي تتمتع بها اليمن، والشهرة التي اكتسبتها السيوف والخناجر اليمنية، وكذلك أصالة الخيول اليمنية حتى صارت من أهم الصادرات اليمنية إلى الهند، ولذلك فإنه من الطبيعي أن يكون لليمن مكان بارز في مخططات الدعم والإسناد العسكري للقوات الإسلامية المجاهدة ضد الصليبيين.

#### أولاً- العتاد والخيول:

بعدما تمكن صلاح الدين من ضم اليمن إلى سلطانه واكتملت تحت لوائه الوحدة الإسلامية شن على الصليبيين حرباً لا هوادة فيها، أظهرت فيها القوات الإسلامية درجة عالية من الإعداد والانضباط اللذين أديا إلى تمكين المسلمين من عدوهم والنصر عليهم، وقد أورد رستون في كتابه (مقاتلون في سبيل الله) معلومة مفادها أن الخيول اليمنية كان لها حضور في معركة حطين، وأدت إلى تفوق سلاح الفرسان لدى المسلمين على عدوهم؛ نظراً لأنها " . . . صغيرة القامة، دقيقة القوائم والبطون، سريعة الحركة والقفز. . ." <sup>(١)</sup>، وذكر في موضع آخر أنه خلال الحملة الصليبية الثالثة غير العدو تكتيكة الهجومية ودعم قوة الفرسان عنده وذلك حين " . . . ألحق بفرسان الهيكل في طليعة الجيش فيلق من التركوبلي، وهم فرسان محملون بأسلحة خفيفة سريعوا الحركة مدربون تدريباً خاصاً لصد هجوم الغزاة

(١) رستون: مقاتلون في سبيل الله، ص ٨٤.

المسلمين على أحصنتهم اليمنية الرشيقة... " (١).

وهذا الأمر ليس بمستبعد نظرًا لأن اليمن صارت جزءًا من الدولة الأيوبية، ومن ثم إمكان تزويد الجيش الأيوبي بعدد من الخيول اليمنية الأصيلة والمشهورة بخفتها ورشاقتها، لا سيما أن استخدام اليمنيين لها في حروبهم التي لا تنتهي جعلها معدة ومدربة للاستخدام في المعارك، وعلى الرغم من أننا لا نملك نصًا من المصادر المتوافرة بين أيدينا يخبرنا عن قيام القائمين على الإدارة الأيوبية في اليمن بإرسال الخيول إلى مصر بشكل منتظم؛ فإننا نملك إشارات تدل على قيامهم بجمع كثير من الخيول اليمنية، ففي الاتفاق الذي عقد بين السلطان علي بن حاتم والسلطان سيف الإسلام طغتكين بن أيوب ذكر فيه أن يلتزم الطرف الأول بدفع ثمانين ألف دينار حاتمية ومائة حصان في السنة، وبعد انتهاء مدة الصلح جدد الاتفاق على أن يسقط سيف الإسلام عنهم عشرين ألفًا وعشرين حصانًا في السنة (٢).

ونظرًا للطلب الهائل على الخيول اليمنية من الهند وصعوبة منع تصديرها لما في ذلك من الضرر على ميزانية ولاية اليمن، عمد القائمون على الإدارة الأيوبية في اليمن إلى فرض ضريبة خروج الخيل من عدن إلى الهند، وهي سبعون دينارًا على الحصان، في حين يؤخذ على الحصان الداخل - المستورد - خمسون دينارًا (٣)، وعلى الرغم مما ذكر بأنها

(١) رستون: مقاتلون في سبيل الله، ص ٣١٢.

(٢) ابن حاتم: السمط، ص ٢٧، ٣٠؛ الخزرجي: العسجد، ص ١٦١، ١٦٣؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص ٢٧٦، ٢٧٨.

(٣) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص ١٤١؛ بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص ٦٠.

استجدت في أيام الناصر أيوب بن طغتكين<sup>(١)</sup> فإن ذلك لا يمنع من أن يكون ذلك الإجراء قد طبق بشكل أو بآخر من قبل، لا سيما أن تصدير الخيل إلى الهند لم يطرأ في زمن الناصر أيوب، بل كانت قبله بزمن بعيد، وعمومًا فإنه من المعروف في مجال التجارة وإدارة الأسواق أن مثل هذا الإجراء هو للحفاظ على سلعة السوق المحلية والخفض من تصديرها.

وأما بالنسبة إلى السلاح بأنواعه فلم يتوافر بين أيدينا مصدر يتحدث عن إرسال كميات من السلاح إلى مصر أو الشام خلال الحكم الأيوبي لليمن، وربما يعود ذلك إلى حاجة الأيوبيين إلى المال من اليمن أكثر من السلاح، ومع ذلك فإن احتمال وصول مثل تلك الأسلحة إلى مصر ومن ثم إلى جبهة القتال في بلاد الشام يظل ممكنًا كون اليمن ولاية أيوية.

وفي العصر الرسولي كانت الهدايا التي يرسلها السلطان المظفر وأبناؤه من بعده تحمل كثيرًا من التحف والذخائر فضلًا عن كميات من الأسلحة ولا سيما السيوف والقنا، وأعداد متفاوتة من عتاق الخيل، فعلى سبيل المثال لا الحصر تضمنت الهدية التي أرسلها المظفر يوسف إلى الظاهر بيبرس سنة (٦٦٥هـ / ١٢٦٧م) فيلاً وحمار وحش أبيض وأسود وخيولاً<sup>(٢)</sup>، وقد ذكر المقرئزي أن تلك الهدية حوت "...عشرين فرسًا عليها لأمة الحرب..."<sup>(٣)</sup>، وبما أن القيمة الحقيقية للدعم هي أن يكون متكاملًا فقد طبق المظفر ذلك من خلال تجهيزه ذلك العدد من الخيل مع ما يلزمها من

(١) ابن الجاور: المصدر السابق، ص ١٤١.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٧/ ص ١٢٧.

(٣) المقرئزي: السلوك، ج ١/ القسم الثاني/ ص ٥٦٠.

معدات وسلاح الفارس، وفي سنة (٦٨٤هـ / ١٢٨٦م) وصلت إلى البلاط المملوكي هدية صاحب اليمن، وتضم كثيرًا من الخيل والقنا وكثيرًا من التحف ولطائف اليمن<sup>(١)</sup>.

وقد يبدو للوهلة الأولى ضالّة ما قدمته اليمن، إلا أنّه مع تواصل ذلك الدعم طوال مدة الجهاد الذي قاده المماليك ضد الصليبيين صار القليل كثيرًا، وأصبح ما قدمته اليمن من خيل وسلاح وعتاد شيئًا بارزًا وملموسًا ليس بين صفوف المجاهدين في مصر والشام فقط، بل حتى عند الصليبيين أنفسهم، وذلك من خلال ما ذكره الرحالة البندقي ماركوبولو<sup>(٢)</sup>؛ عندما كتب عن سلطان عدن - السلطان الرسولي - " . . . وبلغني أنه عندما قاد سلطان بابل [القاهرة] جيشه أول مرة على مدينة عكا، واستولى عليها، زودته مدينة عدن هذه بثلاثين ألف جمل، بدافع من حقدّها على المسيحيين . . ." <sup>(٣)</sup>، وعلى الرغم مما في هذه الأرقام من المبالغة الواضحة، إذ لا يعقل أن تتمكن اليمن رغم ثروتها الحيوانية الهائلة من توفير هذا العدد الضخم من الخيل والإبل؛ فإنه مما لا شك فيه أن الدعم الواصل من اليمن من الخيل والإبل والسلاح والعتاد كان مستمرًا

(١) المقرئزي: المصدر السابق، ج ١/ القسم الثالث/ ص ٧٢٩.

(٢) ماركوبولو (٦٥٢هـ / ١٢٤٥م - ٧٢٤هـ / ١٣٢٤م): رحالة بندقي، قام بعدد من الرحلات مع والده وعمه، فزار آسيا الوسطى والصين، واستقر مدة في بلاط قوبلاي خان المغول، وقام بجولة في جنوب شرق آسيا وجنوب الهند وسواحل المحيط الهندي، عاد إلى البندقية سنة (٦٩٣هـ / ١٢٩٥م)، واشترك في معركة ضد جنوة أسر فيها؛ انظر: الموسوعة العربية الميسرة، الجمعية المصرية لنشر المعرفة، دار الجيل - القاهرة، ط ٢ - ٢٠٠١م، مج ٢/ ص ٦١٠.

(٣) ماركوبولو: الرحلات، تر: عبدالعزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، د. ط - ١٩٩٦م، ص ٩٢.

رغم تواضعه، حتى صار الدعم اليمني ذا وزن ملحوظ في ترجيح كفة المسلمين في أثناء استرداد عكا وذلك بشهادة الصليبيين أنفسهم.

### ثانيًا - المقاتلون:

استمرت الحروب الصليبية زهاء قرنين من الزمن شهدت فيها أرض الشام ومصر مئات المعارك، استنزفت خلالها الطاقات البشرية من كلا الجانبين، ولولا الدعم غير المحدود من أوروبا للصليبيين في الشرق لما استطاعوا الصمود في وجه القوات الإسلامية؛ التي أفنى قادة الجبهة الإسلامية من أمثال آل زنكي وآل أيوب أعمارهم في إعدادها وبنائها بناءً عسكريًا متينًا يؤهلها للمواجهة الحاسمة مع الصليبيين، وذلك عندما تصبح الظروف السياسية مواتية لذلك، وإن المتتبع لتاريخ الجهاد ضد الصليبيين سيدرك ضخامة القوات التي حشدتها المسلمون في مواجهة جحافل الصليبيين التي لا حصر لها، فكان السلطان صلاح الدين يعسكر بجيشه في مواجهة الحملة الصليبية الثالثة والإمدادات العسكرية تأتيه من مختلف الأقاليم التابعة له أو الموالية، حتى تمكن من التصدي لتلك الحملة الضخمة واستنزاف قوتهم، مما اضطرهم إلى طلب الصلح مع المسلمين سنة (٥٨٨هـ / ١١٩٢م)<sup>(١)</sup>.

وخلال ذلك توالى الكتب من السلطان صلاح الدين إلى أخيه سيف الإسلام طغتكين، حاملة أخبار الحرب الدائرة بين المسلمين والصليبيين

(١) العماد الأصفهاني: الفتح القدسي، ص ٤٧٢، ٥٢٦، ٦٠٣-٦٠٥؛ ابن الأثير: الكامل، مج ٧/ ص ٣٨٥-٣٩٧؛ مجهول: ذيل وليم الصوري، تقديم وتحقيق: حسين حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، د.ط - ٢٠٠٢م، ص ١٥٧، ٢٣٨.

وتطوراتها، حتى كادت تصبح تقريراً دورياً مفصلاً<sup>(١)</sup>، وقد أبدى السلطان لأخيه رغبته في الانضمام إليه بقواته من اليمن ليسهم في تطهير الساحل من الإفرنج، وقدم لنا القلقشندي ذلك الكتاب بقوله "... وهذه نسخة كتاب من هذا الأسلوب كتب به القاضي الفاضل عن السلطان - صلاح الدين يوسف بن أيوب - إلى أخيه سيف الإسلام سلطان اليمن، يستقدمه إليه معاوناً له على قتال الإفرنج خذلهم الله..."<sup>(٢)</sup>، وبعد أن استعرض الكتاب ما حققه المسلمون من نصر على الصليبيين وما استردوه من مدن ومعقل، أخبر السلطان أخاه بأنه يتوقع هجوماً مضاداً من الصليبيين، وأنهم لن يستسلموا لخسارتهم في حطين وما بعدها "... والآن فالمجلس - أسماه الله - [يقصد مجلس الحكم في اليمن] يعلم أن الإفرنج لا يسألون عما فتحنا، ولا يصبرون عما جرحنا، فإنهم - خذلهم الله - أممٌ لا تحصى، وجيوش لا تستقصى؛ ووراءهم من ملوك البحر من يأخذ كل سفينة غصبا، ويطمع في كل مدينة كسبا... فالبدار إلى النجدة البدار... وإن الطلب على الشام ومصر تفرق؛ ولا غنى أن يكون المجلس السيفي - أسماه الله - بحرًا في بلاد الساحل يزخر سلاحًا، ويجرد سيفًا يكون على ما فتحناه قفلاً ولما لم يفتح بعد مفتاحًا..."<sup>(٣)</sup>، لقد كان السلطان صلاح الدين في مرحلة ما بعد حطين في أمس الحاجة إلى كل من يثق به وبكفايته من أهل بيته ورجاله ليشن حرب استرداد على طول الساحل الشامي، ويؤمنه تحت السيادة

(١) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ١٩٠-٢٠٢، ٤٢١ - ٤٢٢، ٤٢٩ -

٤٣٠؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٧/ ص ٢٢-٢٧.

(٢) القلقشندي: المصدر نفسه، ج٧/ ص ٢٢-٢٣.

(٣) القلقشندي: المصدر نفسه، ج٧/ ص ٢٤-٢٧.

الإسلامية ليقطع الطريق على أية قوات تقدم إلى الشرق من أوروبا، لا سيما وقد علم بأن مصر تدخل ضمن مخططاتهم للقضاء على القوة الحربية للمسلمين، فصار من الضروري تضافر الجهود كافة للحفاظ على ما حققه المسلمون بعد حطين من انتصارات وفتوح.

وقد ذكر بامخرمة وصول ذلك الكتاب إلى سيف الإسلام طغتكين<sup>(١)</sup>، ولكننا لم نسمع بأي تحرك من قبله لنصرة أخيه السلطان، وقد يعود ذلك إلى انشغاله بتوطيد الحكم الأيوبي في اليمن، فقد تسبب انشغال النواب بالصراع فيما بينهم بإعطاء الفرصة لكثير من القوى اليمنية لإعادة تنظيم نفسها ودعم دفاعاتهم وتقوية تحالفاتها مع القوى الأخرى، فاضطر طغتكين إلى العمل على انتزاع القلاع والحصون المهمة من يدها لئلا تشكل تهديداً للحكم الأيوبي في اليمن، فبعد فراغه من مصادرة أموال النواب ومحاسبتهم انشغل بفتح عدد من الحصون طوال عامين<sup>(٢)</sup>، حيث قام بحصار حصن حَب<sup>(٣)</sup> طوال سنة (٥٨١هـ / ١١٨٥م)، وترك جزءاً من جيشه يواصل الحصار بينما انطلق هو إلى مكة ليؤدي فريضة الحج ويؤمنها من الأطماع الزيدية والفوضى المنتشرة فيها، وقد ألقى الشاعر ابن عنين<sup>(٤)</sup> قصيدة تخاطب طغتكين وتعبّر

(١) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص ٦.

(٢) الخزرجي: العسجد، ص ١٥٩-١٦٠؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص ٢٧٦-٢٧٧.

(٣) حب: بفتح الحاء وتشديد الباء، حصن شهير في جبل بَعْدان، يعد من أمنع حصون اليمن، وهو مناوح لجبل التَّعْكَر من الشرق، وقد شهد هذا الحصن كثيراً من الأحداث التاريخية؛ انظر: المقحفى، المعجم، ج ١/ ص ٤٠٠.

(٤) ابن عنين: أبو المحاسن محمد بن نصر بن الحسين بن عنين الأنصاري، شاعر مشهور، كان غزير المادة من الأدب، مطلعاً على معظم أشعار العرب، وكان مولعاً بالهجاء وثلب أعراض الناس، نفاه صلاح الدين من دمشق بعد قصيدته (مقراض =

عن حرج موقفه، قال فيها<sup>(١)</sup>:

أعيت صفاتُ يديك المِضْقَعِ اللِّسِنَا  
وَجُرَّتْ فِي الْجُودِ حَدَّ الْحُسْنِ وَالْحَسَنَا  
وَمَا تَرِيدُ بِجَسْمٍ لَا حَيَاةَ لَهُ  
مَنْ خَلَّصَ الزُّبْدَ مَا أَبْقَى لَكَ اللَّبْنَا  
وَلَا تَقْلُ: سَاحِلَ الْإِفْرَنْجِ أَفْتَحَهُ  
فَمَا يَسَاوِي - إِذَا قَايَسْتَهُ - عَدْنَا  
وَإِنْ أَرَدْتَ جِهَادًا فَادِنْ سَيْفِكَ مِنْ  
قَوْمِ أَضَاعُوا فَرِيضَ اللَّهِ وَالسَّنَنَا  
طَهَّرْ بِسَيْفِكَ بَيْتَ اللَّهِ مِنْ دَنْسٍ  
وَمَا أَحَاطَ بِهِ مِنْ خَشْنَةِ وَخْنَا  
وَلَا تَقْلُ إِنَّهُمْ أَوْلَادُ فَاطِمَةَ  
لَوْ أَدْرَكُوا آلَ حَرْبٍ حَارَبُوا الْحَسَنَا

وقد وافقت قصيدة ابن عنين الرأي الذي مال إليه طغتكين، وهو أن الأولوية لتوطيد الحكم الأيوبي في اليمن، وأن ذلك مقدم - في نظره - على السير إلى الشام للمشاركة في الجهاد بنفسه مع أخيه، فالآيات الأولى من القصيدة تصرح بأنه كانت لديه النية للمسير إلى الشام.

= (الأعراض) التي جمع فيها خلقًا من رؤساء دمشق، فطاف بالبلاد من الشام والعراق والجزيرة وخراسان والهند واليمن، توفي سنة (٦٣٠هـ / ١٢٣٢م)؛ انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٥ / ص ١٦ - ١٩.  
(١) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص ٧.

ولما عاد طغتكين من مكة مع بداية سنة (٥٨٢هـ / ١١٨٦م) وجد حصن حب مازال صامدًا في وجه قواته، فضرب عليه حصارًا محكمًا حتى افتتحه، وكذلك حصن قيضان<sup>(١)</sup> الذي استغرق حصاره تسعة أشهر، وذروان<sup>(٢)</sup> خمسة أشهر، والدملوّة التي استغرق حصارها مدة طويلة<sup>(٣)</sup>، بل إن حصار معقل آل حاتم الهمدانيين المنيع (ذمرمر) استغرق أربع سنوات حتى إن طغتكين جعل الحصار مناوبة بين كتائب جيشه<sup>(٤)</sup>. وقد استخدم طغتكين في تلك العمليات العسكرية والمعارك الشرسة كل ما توافر تحت يده من جند ومال وعتاد، حتى الأسلحة الثقيلة كالمنجنيقات<sup>(٥)</sup>، مما يدل على انشغاله بتوطيد الحكم الأيوبي في اليمن عن إرسال ما يحتاجه السلطان من الجند.

وفي عصر الدولة الرسولية وبالتحديد خلال حكم السلطان المظفر عاش اليمنيون في ظل دولة ثابتة الأركان والدعائم، رغم الصراع بين بني رسول وأئمة الزيدية في اليمن الأعلى. وقد أتاح ذلك الاستقرار النسبي لليمنيين أن يسهموا بفاعلية في نصره إخوانهم المجاهدين في مصر وبلاد الشام ضد الغزاة الصليبيين، وذلك من خلال إحساسهم عامة وسلطانهم المظفر خاصة

(١) حصن قيضان: بفتح فسكون ففتح، حصن خارب اليوم - في جبل بني الحارث من بلاد يريم، وهو حصن عال منيف، وله منعة وسيطرة على الطرق المؤدية إلى حقل قتاب من بعدان؛ انظر: المقحفي، المصدر السابق، ج ٢/ ص ١٣١١.

(٢) ذروان: جبل صغير فوق قرية منكث من مركز بني منبه وأعمال يريم؛ انظر: المقحفي، المصدر نفسه، ج ١/ ٦٤٧.

(٣) الخزرجي: العسجد، ص ١٦١-١٦٣؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص ٢٧٦-٢٧٩.

(٤) ابن حاتم: السمط، ص ٣٧-٣٩؛ الخزرجي: المصدر نفسه، ص ١٦٧؛ ابن الديبع: المصدر نفسه، ص ٢٨٠.

(٥) الخزرجي: المصدر نفسه، ص ١٥٩-١٦٧؛ ابن الديبع: المصدر نفسه، ص ٢٧٦-

بالمسؤولية تجاه إخوانهم الذين يذودون عن حمى الإسلام ضد أعدائه من الصليبيين ومن حالفهم، لا سيما وقد أقام السلطان المنصور قلاوون الحجة على المظفر حين طلب منه في كتاب أرسله إليه أن يمكن من رام الجهاد من أهل اليمن إلى ذلك<sup>(١)</sup>، مما يلقي عليه مسؤولية كبيرة تتمثل في إعداد هؤلاء المقاتلين وتدريبهم وضمان مستلزماتهم واحتياجاتهم كافة من مصروفات وعتاد وسلاح؛ ليكونوا عوناً لإخوانهم لا عالة عليهم في حرب يتقرر مصيرها على نوعية الجند وكفايتهم أكثر من عددهم، فقد ذكر كل من الجندى والخزرجي وابن الديبع أنه كان للسلطان المظفر خمسمائة فارس في مصر يجاهدون الإفرنج، ويحمل إليهم جوامكهم - مرتباتهم - من اليمن، وذلك ضمن الهدايا التي كان يرسلها إلى سلطان المماليك<sup>(٢)</sup>.

ويدل ذلك على أن هؤلاء الفرسان هم من جند السلطان المظفر وذلك من خلال التزامه بإرسال مرتباتهم ونفقاتهم من اليمن بانتظام خارجاً عن الهدية والأموال التي يرسلها إلى سلطان المماليك، وإنه لمن المعروف أن خمسمائة فارس كانت قوة لها وزنها في الميزان العسكري لجيوش ذلك العصر، إذ إن إعداد الفارس وتدريبه وتوفير احتياجاته كان يستهلك كثيراً من الجهد والوقت والمال، نظراً لأن الفرسان كانوا الذراع الطولى والقوة الضاربة لجيوش ذلك العصر، وقد يقول قائل إن من المحتمل أن يكون المقصود مما ذكره المؤرخون اليمنيون هو أن السلطان المظفر إنما تبنى إعداد خمسمائة فارس من فرسان المماليك في مصر وضمان ما يحتاجونه

(١) الفلقشندي: صبح الأعشى، ج٧/ ص٣٧٧، ٣٧٤.

(٢) الجندى: السلوك، ج٢/ ص٥٥٢؛ الخزرجي: العقود، ج١/ ص٢٧٩؛ ابن

الديبع: قرة العيون، ص٣٣٦.

من نفقات وسلاح كما فعل كل من ملك انجلترا وإمبراطور بيزنطة، بل إن ذلك العدد يوازي تقريبًا ما كانت تقدمه الإقطاعيات التابعة لمملكة بيت المقدس من الفرسان<sup>(١)</sup>.

وقد يبدو هذا الرأي منطقيًا إلى حد ما لولا ما ورد في كتاب الخليفة المستكفي بالله إلى السلطان المؤيد خلال الأزمة التي حدثت بين السلطان الناصر محمد بن قلاوون والسلطان المؤيد، فقد وجه الخليفة المستكفي اللوم إلى المؤيد لأنه قطع ما جرت عادة والده إرساله إلى مصر فقال له: "... ولك أسوة بوالدك فلان، هلا اقتفيت ما سنه من آثاره، ونقلت ما دونته أيدي الزمن من أخباره..."<sup>(٢)</sup>، ويواصل الخليفة تبريعه للمؤيد مقارنة موقفه بموقف أبيه حتى ذكر له في نهاية المطاف أن يرسل "...رسولاً إلى موافنا الشريفة... بعد أن يُصحبَه من ذخائر الأموال ما كثر قيمة وخف حملاً... واشترط على نفسك في كل سنة قطيعة ترفعها إلى بيت المال... ورتب جيشاً مقيمًا تحت علم السلطان الأجل الملك الناصر للقاء العدو المخذول التتار..."<sup>(٣)</sup>، وقد تضمنت هذه المطالب ما اعتاد السلطان المظفر إرساله إلى مصر، وهي:

أ - الهدايا والتحف التي ذكرناها في أكثر من موضع.

ب - الدعم السنوي (القطيعة) الذي اعتاد المظفر إرساله، وهو ستة

(١) الطحاوي (حاتم عبدالرحمن): الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية - القاهرة، ط ١- ١٩٩٩م، ص ٢٣٣- ٢٣٩.

(٢) العيني: عقد الجمان، ج ٤/ ص ٤٦٦.

(٣) العيني: المصدر نفسه، ج ٤/ ص ٤٦٧- ٤٦٨.

آلاف دينار كان يشتري بها من أصناف المتجر، ويرسلها إلى الشام لتحفظ في قلعة الإسماعيلية.

ج- الإسهام في إرسال جيش يقيم بمصر، ويكون تحت إمرة السلطان المملوكي؛ ليشارك في جهاد التتار .

وبما أن الإسهامين السابقين هما مما اعتاد السلطان المظفر إرساله من قبل؛ فمن المنطقي إذاً ألا يشتطوا ويبالغوا في مطالبهم، وذلك بطلب إرسال جيش من اليمن يقيم في مصر تحت إمرة سلطان المماليك، ما لم يستندوا إلى اتفاق مسبق مع والده السلطان المظفر بهذا الشأن، لا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أن هذه الرسالة من الخليفة المستكفي كانت في سنة (٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م)، مما يعني أن الخمسمائة فارس الذين أرسلهم المظفر كانت قد انتهت خدمتهم إما لوفاة سلطانهم المظفر، أو لانقطاع الدعم الواصل من اليمن بعد تحرير عكا سنة (٦٩٠هـ/ ١٢٩١م)، ثم وفاة السلطان المظفر سنة (٦٩٤هـ/ ١٢٩٥م).



### المبحث الثالث

#### دور اليمن في حفظ أمن المنطقة

عندما شن الصليبيون هجومهم على بلاد الإسلام لم تكن فلسطين فقط هي هدف تلك الحرب التي شاركت فيها أوروبا كلها، وإنما كانت بلاد الإسلام - المنقسمة على نفسها آنذاك - كلها هدفاً لمخططات قادة الحركة الصليبية، حتى إن الحرب الصليبية كانت في نظر كثير من أمراء أوروبا مجرد مغامرة سياسية وحربية لغزو الشرق<sup>(١)</sup>، وقد أثبتت السياسة العسكرية التي اتبعتها الصليبيون صحة هذه المخاوف، وذلك من خلال الآتي:

أ - احتلال الرها في أعالي الفرات وتأسيس إمارة صليبية فيها قبل الاستيلاء على بيت المقدس الهدف الأساسي للمعلن للحرب الصليبية.

ب - تأمين المجال الحيوي لمملكة القدس اللاتينية وذلك باحتلال الساحل الشامي كله وكذلك الصحراء الجنوبية والجنوبية الشرقية لفلسطين (النقب، وادي عربة).

ج - السعي إلى ربط المملكة بالإمارات المسيحية الواقعة في الشمال (مملكة أرمينية) ليتيسر لهم فتح الطريق أمام الحجاج والأعداد المتزايدة من المهاجرين كخطوة أولى نحو تأسيس إمارات مسيحية (صليبية) أخرى في سوريا، وذلك لتشجيع الهجرة إلى الشرق، ومن ثم تأمين أكبر قدر من القوة البشرية الممكنة<sup>(٢)</sup>.

(١) عاشور: الحركة الصليبية، ج ١/ ص ١٣٧؛ هامرتون: تاريخ العالم، مج ٥/ ص ١٧٤.

(٢) رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢/ قسم ١/ ص ٢١.

د - السيطرة على الإقليم الواقع بين البحر الميت وخليج العقبة، لقطع طريق الاتصال بين مصر وسائر بلاد الإسلام، فصارت سلسلة القلاع في الشوبك والكرك وأيلة وجزيرة فرعون تتحكم بالطرق التي تصل بين دمشق وبلاد العرب ومصر، وصارت القوافل السالكة لذلك الطريق تحت رحمتهم، في حين يتعذر على أي جيش إسلامي أن يصل إلى مصر من الشرق<sup>(١)</sup>.

هـ - محاولاتهم المتكررة لاختراق خطوط المسلمين والتوغل في العمق الإسلامي، وذلك من خلال هجماتهم على دمشق وحلب، ومحاولاتهم غزو مصر واحتلالها، وأخيراً تهديدهم للمقدسات الإسلامية، والرعب الذي أثاره أسطولهم في البحر الأحمر، موجّهين بذلك رسالة واضحة وصريحة إلى جميع المسلمين، أنه لا يوجد بلد أو هدف مستثنى من هجمات الصليبيين أو مخططاتهم مهما كانت مكانته أو حياديته من تلك الحرب.

وفي المقابل كان لزاماً على المسلمين أن يواجهوا تلك المخططات والفعاليات العسكرية للصليبيين بنوع من الجدية، واتخاذ التدابير اللازمة لإحباط تلك المخططات والتصدي لها بقوة، وأن يقوم كل بلد من بلدان المسلمين بدوره في منع أي اختراق للصليبيين صفوف المسلمين، فيحدث بذلك نوع من التكامل والتعاون العسكري بين المسلمين كل من موقعه، وقد فطن السلطان صلاح الدين إلى ذلك حين عمل على تأمين قاعدته الأساسية - مصر - وذلك عبر سلسلة من الحملات العسكرية على برقة وطرابلس في الغرب، وبلاد النوبة جنوباً.

(١) عاشور: الحركة الصليبية، ج/١ ص ٢٥٧؛ رنسيمان: المرجع السابق، ج/٢ قسم ١/ ص ١٥٨ - ١٦٠.

وأما بالنسبة إلى اليمن فقد كان لها موقع خاص في مخططات صلاح الدين الاستراتيجية في المنطقة ولإدارة الحرب ضد الصليبيين، وقد جاء اهتمام الأيوبيين عسكرياً باليمن بناءً على الأهمية السياسية والعسكرية والاقتصادية التي سبق ذكرها في الفصل الأول.

وبناءً على ما سبق صار من الواجب عسكرياً تدعيم السيطرة الأيوبية على البحر الأحمر والحجاز، وهو ما لا يمكن أن يتم من دون أن يكون لهم قاعدة عسكرية متقدمه على الحدود الجنوبية لديار الإسلام، فكان من الطبيعي أن يقع اختيارهم على اليمن نظراً لمزايا موقعها الاستراتيجية والعسكرية، وللإمكانات التي يمكن أن توفرها تلك البلاد للقوه العسكرية المتمركزة فيها.

#### أولاً- اليمن ودورها في ضمان استقرار الحجاز وأمنه:

في سنة (٤٥٦هـ / ١٠٦٤م) تمكن علي بن محمد الصليحي من ضم مكة إلى سلطانه، وأقام على مكة أبا هاشم الحسيني، الذي أسس أسرة حكمت مكة قرابة (١٣٣) سنة (٤٥٦هـ / ١٠٦٤م - ٥٩٧هـ / ١٢٠١م)، عاشت خلالها مكة مرحلة من أسوأ مراحل تاريخها، إذ تخللتها الصراعات بين أمراء الهاشميين على السلطة وكذلك اعتداءات الأعراب<sup>(١)</sup>، ومرجع ذلك كله إلى انعدام الاستقرار السياسي في مكة بسبب تذبذب ولاء أمرائها بين العباسيين والسلاجقة من جهة، وبين الفاطميين والصليحيين من الجهة الأخرى، وأيضاً عدم توافر قوة عسكرية لدى السلطة الشرعية بمكة لتثبيت

(١) حرب (جميل حرب محمد): الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، تهامة للنشر - جدة، ط ١- ١٩٨٥م، ص ٢٥- ٣٣.

الأمن وحماية مكة من أي اعتداء خارجي<sup>(١)</sup>، كما أنّ احتياج هؤلاء الأمراء الدائم إلى المال بسبب شحة موارد مكة نفسها جعلهم يمدون أيديهم إلى أموال الحجاج والتجار تحت مسمى المكوس، الأمر الذي أدّى إلى اتخاذ تدابير تعسفية ضد الحجاج والتجار في أثناء جباية تلك المكوس، مما أشعل نار الفتنة في مكة، وأوقع الهاشميين في حرج شديد مع السلطات في القاهرة وبغداد<sup>(٢)</sup>.

وقد أثارت الأوضاع السياسية التي يعيشها الحجاز قلق المسلمين في الأمصار كافة؛ لما يكنونه من احترام لتلك الديار الطاهرة، ولم يكن مرد ذلك القلق فقط ما ذكرناه من ممارسات أمراء الهاشميين، بل صار ذلك القلق هاجساً يقض مضاجع الغيورين من قادة المسلمين، لا سيما مع وجود الخطر الصليبي شمال البحر الأحمر.

ونتيجة لذلك صار من الضروري توفير الاستقرار السياسي والاقتصادي للحجاز وتأمين الحماية لمقدسات المسلمين، فمن ذلك ما قام به السلطان صلاح الدين من إلغاء المكس المأخوذ من الحجاج، وعوض أمير مكة عنه بألفي دينار وألف إردب<sup>(٣)</sup> قمح فضلاً عن إقطاعات منحه إياها في صعيد مصر واليمن<sup>(٤)</sup>، وقد أسهب ابن المجاور في الحديث عن تلك الإقطاعات

(١) حرب: المرجع السابق، ص ٢٦-٢٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل، مج ٧/ ص ٢٦٢؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة: ج ٥/ ص ١٠٤، ١٣٧؛ سالم: البحر الأحمر، ص ٤٣.

(٣) الإردب: مكيال يسع ٢٤ صاعاً؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ١٣.

(٤) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص ٢٤٦؛ المقرئزي: الخطط، ج ٢/ ص ٢٣٣؛ سالم: البحر الأحمر، ص ٥٦.

والأوقاف في اليمن بقوله: "... فلما أوقف صلاح الدين يوسف بن أيوب في أعمال مصر ما أوقف وقد تقدم ذكره في أعمال جدة أوقف توران شاه [يوسف] بن أيوب [هكذا] والأصح طغتكين بن أيوب... وادي الجريب والحرب [كذا] والمسلب<sup>(١)</sup>، وبقي يرفع دخلها إلى مكة إلى أن خبل<sup>(٢)</sup> وقفها الملك المسعود بن محمد بن أبي بكر سنة خمس عشرة وستمئة، وبقي يرفع دخل هذه القرى إلى الديوان، وأيضاً كان أوقف طغتكين بن أيوب على المدينة أم الدجاج<sup>(٣)</sup> مع جُمَل من الأراضي كلها... لما تغلب الأمير قاسم ابن المهنا بن جماز<sup>(٤)</sup> صاحب المدينة على مكة سنة اثنتين وعشرين وستمئة، وبقي يرفع دخلها إلى الديوان، ورد الملك المسعود يوسف أم الدجاج على الأمير شيحة سنة خمس وعشرين وستمئة، وصار يصل دخلها إلى المدينة كما كانت..."<sup>(٥)</sup>، يتضح لنا مما سبق مدى أهمية الإقطاعات

(١) الجريب: قرية في جبل أسلم من بلاد حَجُور شمال غربي مدينة حجة، وهي مقر السلاطين من آل أبي الحفاظ الحجوري؛ انظر: المقحفني، المعجم، ج ١/ ص ٣١٠؛ والمسلب: قرية من ضواحي مدينة التحيتا غربي مدينة زبيد كان بها المدرسة الصلاحية التي بنتها والدة السلطان المجاهد الرسولي؛ انظر: المقحفني، المصدر نفسه، ج ٢/ ص ١٥١٩.

(٢) خبل: بمعنى قطع، انظر: المعجم الوسيط، ص ٢١٧.

(٣) أم الدجاج: لم نعر لها على ذكر فيما توافر بين أيدينا من مصادر.

(٤) قاسم بن جماز بن مهنا: استقر في إمرة المدينة الشريفة بعد أبيه، فدام خمساً وعشرين سنة إلى أن قتله بنو لام في سنة (٦٢٤هـ / ١٢٢٦م)، وكان الأمير شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا نازلاً قريباً منه فلما بلغه مقتله توجه إلى المدينة مسرعاً حتى دخلها وملكها؛ انظر: السخاوي (الإمام شمس الدين محمد بن عبدالرحمن): التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١- ١٩٩٣م، ج ٢/ ص ٣٧٥.

(٥) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص ٢٤٦.

والأوقاف التي رصدت في اليمن لصالح أمراء مكة والمدينة لغرض توفير مورد مالي ثابت لهم يمنعهم من مد أيديهم إلى ما عند الحجاج والتجار، وفي الوقت نفسه كانت أداة لضمان استمرار ولاء هؤلاء الأمراء للحكم الأيوبي، بدليل أن الأيوبيين في اليمن كانوا يقطعونها إذا حصل انقلاب في مكة أو المدينة على الحكومة الموالية لهم كما ذكر ابن المجاور.

وأما على الصعيد العسكري فقد كان من أولى الواجبات العسكرية المكلف بها حكام اليمن من الأيوبيين العمل على ضبط الأوضاع السياسية في الحجاز وضمان استقرار السلطة السياسية الموالية للحكم الأيوبي فيه، ففي سنة (٥٦٩هـ / ١١٧٣م) خرج الملك المعظم توران شاه على رأس حملته يريد اليمن، وبينما سار جزءاً من الجيش بحرًا مع الأسطول المرافق له سار توران شاه براً، وفي طريقه مر بمكة المكرمة فنزل بها معتمراً، فلما وصلها هرب منه صاحبها الأمير عيسى بن فليته<sup>(١)</sup> إلى أعلى جبل أبي قبيس، وتحصن بقلعة بناها في أعلاه، فما كان من توران شاه إلا أن أتم عمرته ودخل الكعبة معلناً أنه ما جاء إلا لإصلاح العباد والبلاد وتعهدا<sup>(٢)</sup>، وقد آتت السياسة الحكيمة

(١) عيسى بن فليته بن قاسم بن محمد بن جعفر الحسني المكي: المعروف بأبي هاشم، ولي إمرة مكة في آخر سنة (٥٥٦هـ / ١١٦٠م) بعد ابن أخيه قاسم بن فليته، كانت مدة إمارته مليئة بالأحداث والصراعات حول السلطة بينه وبين إخوته وابن أخيه، توفي سنة (٥٧٠هـ / ١١٧٤م)؛ انظر: القرشي (عز الدين عبدالعزيز بن عمر محمد): غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تح: فهيم محمد شلتوت، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي - جامعة أم القرى، ط ١- ١٩٨٦م، ج ١/ ص ٥٢٧- ٥٣٢.

(٢) سبط ابن الجوزي (شمس الدين أبو المظفر يوسف قزاوغلي): مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تح: مسفر بن سالم الغامدي، مركز إحياء التراث الإسلامي - مكة المكرمة، د. ط - ١٩٨٧م، ص ٣٠٠- ٣٠١؛ العسيري: الحياة السياسية، ص ٧٣.

التي انتهجها توران شاه ثمارها، إذ شعر الأمير عيسى بن فليته بالأمان فنزل إلى توران شاه، واعتذر منه، وسلمه مفاتيح الكعبة، وأعلن دخوله تحت طاعته، فشكر له توران شاه ذلك وثبته في حكم مكة<sup>(١)</sup>.

يتضح مما سبق أن مسؤولية ضمان الاستقرار السياسي للحجاز وتبعيته للأيوبيين كانت ملقاة على عاتق القوات الأيوبية في اليمن، لا سيما أن توران شاه قد جعل طريق عودته من اليمن إلى الشام عبر مكة ليتأكد من استقرار الأوضاع فيها<sup>(٢)</sup>.

وقد حذا سيف الإسلام طغتكين حذو أخيه الأكبر في متابعة الأوضاع في الحجاز وضمان استقرارها، فنزل ساحل ينبع، وسلك طريق البر، ولكنه سار إلى المدينة أولاً، فتسامع الناس في مكة بنبأ قدومه، وقد قدم لنا الرحالة ابن جبير - الذي كان موجوداً آنذاك في مكة - وصفاً رائعاً ومفصلاً لدخول طغتكين وقواته إلى مكة معتمرين، فألقى بذلك الرهبة في قلوب الناس<sup>(٣)</sup>، كما أكرم طغتكين أمير مكة غاية الإكرام، وخلع عليه خلعة لم ير مثلها<sup>(٤)</sup>.

وفي سنة (٥٨١هـ / ١١٨٥م) ترك طغتكين جزءاً من جيشه يحاصر حصن حب ذي الأهمية العسكرية، وسار إلى مكة لأداء فريضة الحج وتفقد أوضاع مكة، التي كانت تعاني من تسلط العبيد على أهلها بسبب انشغال مكثر وداود ابني الشريف عيسى بن فليته بالصراع حول الإمارة على مكة، فقام طغتكين بمحاولة إصلاح الأوضاع خلال مدة وجوده، فأعدم جماعة من العبيد الذين

(١) العاصمي: سمط النجوم، العوالي، ج ٤/ ص ٢٣٠؛ حرب: الحجاز واليمن، ص ٢٩.

(٢) العسيري: المرجع السابق، ص ٨٣. (٣) ابن جبير: الرحلة، ص ١٢٥ - ١٢٨.

(٤) ابن جبير: المصدر نفسه، ص ١٢٧؛ الخزرجي: المسجد، ص ١٥٨.

امتدت أيديهم بالأذية إلى الحجاج، وألزم البقية باحترام ضيوف الرحمن وعدم أذيتهم، وأقام الخطبة لأخيه صلاح الدين، وضرب الدراهم والدنانير باسمه، ومنع الزيدية من الأذان بـ(حي على خير العمل) في الحرم<sup>(١)</sup>، وعلى الرغم من الصرامة التي أظهرها طغتكين في ضبط الأوضاع بمكة سياسياً واقتصادياً وأمنياً فإن تلك الإجراءات لم تدم طويلاً بسبب تغير الأوضاع بعد وفاته، إذ انتقلت إمرة مكة في سنة (٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) إلى بني قتادة إثر تدهور أحوال الأشراف الهاشميين وانشغالهم بالصراع فيما بينهم، فاستغل نسيبهم قتادة بن إدريس الفرصة، واستحوذ بواسطة من تجمع حوله من فرسان العرب على حكم مكة، وكان الشريف قتادة سياسياً بارعاً وقائداً شجاعاً ورجل إدارة صارماً، استكثر من المماليك فقوي بهم عسكره، حتى تمكن بمعاونة أبناء عمومته أشراف المدينة من كسر جيش الخليفة العباسي الناصر سنة (٦٠٠هـ / ١٢٠٢م)، وأجبره على الاعتراف بسيادته على الحجاز<sup>(٢)</sup>، وقد خافته الأعراب في تلك البلاد، وحمى البلاد وأزال عنها العبيد المفسدين، وأحسن إلى أهل مكة والحجاج، إلا أنه انتهج سياسة صارمة وقاسية تجاه الحجاج وأهل مكة في أواخر أيامه، حتى إنه بسبب خلافه مع الأيوبيين في اليمن قام بنهب الحجاج اليمني سنة (٦٠٧هـ / ١٢٠٩م)<sup>(٣)</sup>.

ونتيجة لتلك السياسة الاستقلالية احتاج الشريف قتادة إلى حلفاء يدعمونه في حروبه ضد خصومه، لا سيما الأيوبيين الذين دان الأشراف قبله لهم

(١) العاصمي: المصدر السابق، ج ٤ / ص ٢٢١؛ القرشي: غاية المرام، ج ١ / ص ٥٤٨.

(٢) العاصمي: سمط النجوم، ج ٤ / ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٣) القرشي: غاية المرام، ج ١ / ص ٥٦٠؛ العاصمي: المصدر نفسه، ج ٤ / ص ٢٢٦،

بالولاء، ووجد ضالته في زيدية اليمن الأعلى الذين قوي سلطانهم بقيام إمام قوي بين ظهرانيتهم هو الإمام المنصور عبدالله بن حمزة، وتمت المراسلات بين الجانبين حول التحالف معاً ضد أي تهديد قد يواجهونه معاً<sup>(١)</sup>.

وقد أزعج هذا التواصل الأيوبيين في اليمن، الذين بات سلطانهم مهدداً من الأشراف الزيدية وأشراف المخلاف السليماني، وأخيراً أشراف الحجاز، وكلهم تربطهم بعضهم ببعض صلات قوية ومصالح مشتركة، وكان الأيوبيون في اليمن في حاجة إلى حملة تنقذهم من هذا المأزق، وهو ما أدركته السلطات الأيوبية في مصر والشام، فأرسل الملك الكامل في سنة (٦١٢هـ / ١٢١٤م) حملة عسكرية على رأسها ولده الملك المسعود، وقد سلك الأخير طريق الحجاز، ومر بمكة التي استعد صاحبها قتادة لحربه، وقد جمع الجيوش من كل مكان لذلك، ولكنه فوجئ بأن الملك المسعود لم يقاتله، وإنما أظهر له الود والاحترام، وخلع عليه، ثم واصل سيره إلى اليمن<sup>(٢)</sup>.

وفي الواقع كان هذا التصرف من الملك المسعود في غاية الحنكة والدهاء، إذ لم يجازف بالدخول في معركة مع الشريف قتادة ومعه تلك الجموع الكبيرة مما قد يكبده خسارة فادحة، فضلاً عن أنه لا يستطيع الدخول في أية معركة قبل تحقيق الهدف الأساسي من حملته وهو إنقاذ ملك الأيوبيين في اليمن، وبعد ما نجح الملك المسعود في مهمته وعادت اليمن إلى ممتلكات الأيوبيين تفرغ لحرب الزيدية الذين ضعف أمرهم بعد وفاة

(١) يحيى بن الحسين: غاية الأمان، ج ١/ ص ٣٦٢.

(٢) عبدالعال: الأيوبيون، ص ٢٤٣ - ٢٤٤؛ حرب: الحجاز واليمن، ص ١١٠ - ١١١.

الإمام المنصور سنة (٦١٤هـ / ١٢١٦م)، فحقق كثيراً من الانتصارات عليهم، وأما بالنسبة إلى مكة المكرمة فقد استغل الملك المسعود مقتل الشريف قتادة سنة (٦١٧هـ / ١٢١٩م) فقاد حملة إلى مكة في سنة (٦١٩هـ / ١٢٢١م) فاجأت أميرها الحسن بن قتادة الذي لم يكن في دهاء والده وحنكته، فتفرقت عنه مماليك أبيه، وبذلك تمكن الملك المسعود من هزيمته وطرده من مكة، ولأول مرة في تاريخ الأيوبيين يعين على مكة أمير من قبل الأيوبيين، وهو الأمير نور الدين عمر بن علي بن رسول، وزوده الملك المسعود بقوة من ثلاثمائة فارس<sup>(١)</sup>.

وقد أحسن الأمير نور الدين إلى أهل مكة وساسهم سياسة حسنة، كما قام بواجبه في الذود عنها ضد مطامع الشريف حسن بن قتادة الذي هاجم مكة على رأس جيش جمعه في ينبع، فتصدى له الأمير نور الدين وهزمه<sup>(٢)</sup>، وظل نواب الملك المسعود يحكمون مكة في حياته، وعلى الرغم من المآخذ على الملك المسعود فإن مكة نعمت تحت حكمه وحكم نوابه بالأمان، فضرب على يد المفسدين وقطاع الطرق في البوادي، فأمنت السبل، وتدفقت المؤن والأرزاق على مكة من مصر واليمن، فرخصت الأسعار، وازدهرت أحوال البلد، وامتد هذا الازدهار إلى المدينة بفضل هيئة الدولة الأيوبية<sup>(٣)</sup>.

(١) القرشي: المصدر السابق، ج ١/ ص ٥٩٦؛ العاصمي: سمط النجوم، ج ٤/ ص ٢٣١.

(٢) ابن حاتم: السمط، ص ١٧٥؛ العاصمي: سمط النجوم، ج ٤/ ص ٢٣١.

(٣) الفاسي (الإمام أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد بن علي): شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام)، تح: لجنة من كبار العلماء والأدباء، دار الكتب العلمية - بيروت، د.ط - د.ت، ج ٢/ ص ٢٣٥ - ٢٣٦؛ العسيري: الحياة السياسية، ص ١٥٣.

وبعد وفاة الملك المسعود حل مكانه السلطان المنصور نور الدين عمر الرسولي الذي قام بواجبه تجاه البلد الحرام رغم الصراع الذي احتدم بين الرسوليين والأيوبيين حول السيطرة على مكة، فأبطل "...المكوسات والجبايات والمظالم، وكتب بذلك رقعة، وجعلت قبالة الحجر الأسود..."<sup>(١)</sup>، وكان يرسل كل سنة صدقة عظيمة من اليمن إلى مكة يصل بها من كان بمكة من المجاورين - الوافدين - ومن أهل مكة، كما قام السلطان نور الدين بعمل إجراء عسكري بالغ الأهمية، وذلك عندما أمر بعمارة البرك - وهو جبل متصل بساحل البحر فيما بين مكة واليمن - الذي شكل موقعاً عسكرياً استراتيجياً وخطاً دفاعياً مهماً، فعمر فيه المصانع - الحصون - ورتب فيه العساكر الجيدة<sup>(٢)</sup>، كما قام ببناء عدد من الحصون بين مكة والمدينة ورتب فيها الرتب<sup>(٣)</sup>، وعلى الرغم مما ذكره الخزرجي من أن الغرض من عمارة البرك وتحصينها إنما كان "...لمحاربة بني أيوب..."<sup>(٤)</sup> فإن ذلك لا ينفي أهمية البرك وحصونها بوصفها خطاً دفاعياً لمكة المكرمة أمام أي هجوم مفاجئ من قبل البحر، فإذا كان غرض السلطان (المنصور نور الدين عمر) من ذلك الإجراء العسكري هو منع استيلاء بني أيوب على مكة؛ فمن باب أولى التصدي لأية محاولة من قبل غير المسلمين - الإفرنج في الشام أو حلفائهم من الأحباش والنوبيين - لمهاجمة المقدسات الإسلامية لا سيما أن أبا شامة قد ذكر في حوادث سنة

(١) الخزرجي: العسجد، ص ٢٠١.

(٢) الخزرجي: العقود، ج ١/ ص ٤٦، ٨٥؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص ٣١٢ - ٣١٣.

(٣) الجندي: السلوك، ج ٢/ ص ٥٤٣.

(٤) الخزرجي: العسجد، ص ٢٠٨.

(٦١١هـ / ١٢١٣م) أن الملك المعظم بن العادل<sup>(١)</sup> قام بأداء فريضة الحج، وفي اثناء وجوده في الحجاز قام بعمارة البرك والحصون التابعة لها وتجديدها<sup>(٢)</sup>، فهل كان ما فعله المعظم هو أيضا (لمحاربة بني أيوب)؟

وخلال حكم السلطان المظفر ظل الاهتمام بتأمين الاستقرار السياسي والاقتصادي للحجاز وتوفير الحماية العسكرية للمدينتين الشريفتين كما كانت في عهد والده، فضلا عن تعاونه مع المماليك ودعمهم في جهادهم ضد الصليبيين والمغول، حتى تمكنوا من حصر الخطر الصليبي في الشمال بعيداً عن البحر الأحمر الذي كان يحتل مكاناً مهماً في خطط حروب ذلك العصر.

### ثانياً- اليمن ودورها في تأمين البحر الأحمر والحركة الملاحية:

يتمتع البحر الأحمر بموقع جيوبوليتيكي (جغرافي - سياسي) مهم وفريد أضفى نوعاً من التعقيد على العلاقات الإقليمية والدولية بين الدول المطلة عليه، فهو يقع عند نقطة التقاء قارتي آسيا وإفريقيا، كما أنه أشبه ما يكون بحلقة وصل بين الشرق والغرب، وتتصل مياهه بالبحر العربي والمحيط الهندي، ولا يفصله عن البحر المتوسط إلا برزخ بري ضيق<sup>(٣)</sup>.

(١) الملك المعظم عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب (٦١٥هـ / ١٢١٧م - ٦٢٤هـ / ١٢٢٦م): ملك دمشق والشام، كان شجاعاً باسلاً عالماً فاضلاً، تفرد من بين الملوك بالجمع بين المواظبة على الغزو والاشتغال بأنواع العلوم والحج إلى الحرمين بنفسه؛ انظر: أبو شامة، ذيل الروضتين، ص ١٥٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣ / ص ١٢٤.

(٢) أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٨٧.

(٣) السلطان: عبدالله عبدالمحسن، البحر الأحمر والصراع العربي- الإسرائيلي " التنافس بين إستراتيجيتين"، مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت، ط ٣-١٩٨٨م، ص ٣٣.

وتكمن الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر في الآتي :

\* أنه واحد من أهم الطرق البحرية العالمية؛ كونه يوفر لقوى إقليمية ودولية إمكانات الوصول إلى البحر المتوسط والمحيط الهندي والمحيط الأطلسي<sup>(١)</sup>.

\* اكتسابه أهمية اقتصادية باعتباره شرياناً تجارياً تجري فيه السفن المحملة بالسلع التجارية بين الشرق والغرب، مما جعله يشهد حركة ملاحية كثيفة منذ أقدم العصور<sup>(٢)</sup>.

\* أهميته من الناحية العسكرية، حيث إنه المدخل المفضي إلى الهند وما وراءها من بلاد الشرق الأقصى، مما جعله أقصر ممر مائي بين الشرق والغرب، الأمر الذي تفجرت بسببه العديد من الصراعات الإقليمية والدولية، فضلا عن وجود أكثر من (٣٧٠) جزيرة في البحر الأحمر يمكن استخدامها لأغراض عسكرية بوصفها قواعد ومنطلقات للسيطرة على الملاحة في هذا البحر، الأمر الذي يلقي بتبعات ثقيلة على الدولة المطلة عليه والمالكة لتلك الجزر، وتزيد تبعاً لذلك المسؤوليات الدفاعية الملقاة على تلك الدول<sup>(٣)</sup>.

وقد اجتذبت هذه المزايا التي يتمتع بها البحر الأحمر أشكالاً مختلفة من الصراع عليه منذ أقدم العصور، فبعد ما كانت السيطرة على الخط الملاحي من مصر الفرعونية شمال البحر الأحمر إلى أقصى المشرق قاصرة على السفن والمراكب الفرعونية وعرب الجنوب - الذين احتكروا الملاحة

(١) حوات: مضيق باب المندب، ص ١٣؛ السلطان: المرجع السابق، ص ٣٤.

(٢) حوات: المرجع نفسه، ص ١٣، جرادات: الأهمية الإستراتيجية، ص ٣٥-٣٧.

(٣) السلطان: المرجع السابق، ص ٣٠-٣٨.

بين الهند والجزيرة العربية - حدث تغير خطير في الميزان السياسي في المنطقة يتمثل في سيطرة الإغريق ومن بعدهم الرومان على مصر وسوريا، وسعي هؤلاء عبر العصور وبكل ما يملكون من نفوذ سياسي وقوة عسكرية إلى بسط نفوذهم على البحر الأحمر، والفوز بنفوذ قوي في تلك المنطقة، ومن ثم السيطرة التامة على حركة الملاحة فيه وفتح الطريق إلى الشرق<sup>(١)</sup>.

وبعد قيام الدولة الإسلامية وتوسع سلطانها ليشمل الجزيرة العربية ومصر والشام والعراق وغيرها من الأقاليم شرقًا وغربًا؛ اتخذ خلفاء المسلمين على مر العصور سياسة معينة وثابتة تجاه البحر الأحمر تقوم على تأمين الملاحة فيه، وإغلاقه في وجه المراكب والسفن غير الإسلامية، وتطهير جزره من أوكار القراصنة الذين يعيشون في ذلك البحر فسادًا، وكان لليمن دورٌ بارزٌ في تحقيق الأمن الملاحي في جنوب البحر الأحمر، وإظهار هيبة المسلمين في وجه القوى غير الإسلامية في المنطقة والأبحاش خاصة، فقد قامت الدولة الزيادية بدور مهم في ضبط السواحل اليمنية والجزر المقابلة لها ومختلف الأنشطة الملاحية قبالتها، ومصادر الثروات كاللؤلؤ والعنبر حتى صارت ملوك الحبشة تهاديهم وتخطب ودهم<sup>(٢)</sup>.

وفي العصر الفاطمي زاد الاهتمام بالحركة التجارية والملاحية في البحر الأحمر لأسباب سياسية واقتصادية، الأمر الذي تطلب بسط سلطانهم على اليمن عن طريق دعواتهم من الصليحيين والزريعيين من بعدهم، فنجح الفاطميون في تحويل تجارة بحر فارس الذي يشهد اضطرابات سياسية

(١) جرادات: الأهمية الاستراتيجية، ص ٣٥-٤٥؛ سالم: البحر الأحمر، ص ٥-٧.

(٢) عمارة: المفيد، ص ٦٥؛ الخزرجي: المسجد، ص ٩٨-٩٩.

وعسكرية إلى البحر الأحمر، مما أدى إلى إثراء موانئ اليمن والبحر الأحمر ثراءً ملحوظًا، نتيجة للعناية التي أولاها الفاطميون لدعم الحركة التجارية والملاحية فيه، ووضعهم عدد من قطع الأسطول الفاطمي تحت خدمة سفن التجار والحجاج لحراستها وتأمين رحلاتها<sup>(١)</sup>.

ولكن هذا الانتعاش الذي شهدته الحركة الملاحية في البحر الأحمر تعرض لنكسة خطيرة مع نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بسبب ظهور الخطر الصليبي في بلاد الشام وتوغلهم في الأراضي الإسلامية، حتى صارت لهم قاعدة أمامية على البحر الأحمر هي ميناء (أيلة)، الأمر الذي شكل تهديدًا خطيرًا للسواحل الشمالية للبحر الأحمر، ومن ثم صارت الملاحة في ميناءي أيلة والقلزم - السويس - محفوفة بالمخاطر بسبب الوجود الصليبي، فصار الفاطميون يعتمدون ميناء القصير جنوبًا على الساحل المصري، ثم ميناء عيذاب الذي لم يكن قبل ذلك شيئًا مذكورًا كميناء رئيسي لملاحة البحر الأحمر بدل ميناء القلزم<sup>(٢)</sup>.

وهكذا بات البحر الأحمر مهددًا من قبل الصليبيين بعدما كان موصلًا في وجه السفن غير الإسلامية، ولولا انشغال الصليبيين في تلك المدة بتوسيع رقعة مملكتهم والاستيلاء على مناطق أكثر حيوية وأهمية بالنسبة إليهم لحدث ما لا تحمد عقباه، لا سيما أن السلطات الإسلامية في مصر والشام والجزيرة العربية تعيش حاليًا من الفوضى السياسية والصراع العسكري فيما بينها، ولكن هذا الوضع لم يدم، إذ قيض الله لهذه الأمة

(١) ربيع: البحر الأحمر، ص ١٠٥.

(٢) جرادات: الأهمية الاستراتيجية، ص ٧١؛ ربيع: البحر الأحمر، ص ١٠٧ - ١٠٨.

رجالاً حملوا على عاتقهم مسؤولية الذود عن حياض المسلمين منهم صلاح الدين الأيوبي، الذي كانت مخططات الصليبيين تؤرق مضجعه، وكان يدرك إدراكاً تاماً خطورة خطتهم الرامية إلى بث الفوضى والاضطرابات في البحر الأحمر وتهديد الملاحة فيه، فيقطعون بذلك أي تواصل بين جناحي الدولة الإسلامية، في الوقت الذي تمكنوا فيه من احتلال ساحل بلاد الشام ليضمنوا دوام الاتصال بأوروبا الرحم الأصلي للحروب الصليبية، فضلاً عما يلحقه الوجود الصليبي في البحر الأحمر بالتجارة الإسلامية من الأضرار.

وبناءً على ذلك كان من أولى الأعمال العسكرية التي قام بها إثر توليه الوزارة في مصر تحرير ميناء (أيلة) وجزيرة فرعون من الاحتلال الصليبي سنة (٥٦٦هـ / ١١٧٠م)، وقد علق ابن تغري بردي على أهمية استرداد أيلة بقوله: "... وكان على درب الحجاز منها خطر عظيم... " (١)، إلا أن ذلك النصر لا يعني انتهاء التهديد الصليبي للبحر الأحمر، لا سيما مع وجود حصنين عتيين على مسافة غير بعيدة من سواحل البحر الأحمر الشمالية هما الكرك والشوبك، مما يمكنهم من إعادة الكرة، وفي هذه المرة سيكون ردهم عنيفاً ومدوياً، كما أن صلاح الدين - وهو المشهور ببعده نظره وتفكيره الاستراتيجي - لم يكن ليقنع بهذا الإنجاز العسكري، ولذا سعى إلى التمكين لسلطته في أنحاء كافة ليفوز بالميزات الاستراتيجية والاقتصادية التي تؤمنها له سيطرته على ذلك البحر، وعلى رأسها القضاء على احتمالات اتصال الصليبيين بالأحباش والنوبيين وتعاونهم ضد المسلمين (٢).

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥ / ص ٣٦٥.

(٢) جرادات: الأهمية الاستراتيجية، ص ٧٦؛ السروري: الحياة السياسية، ص ٢٨٢.

ولهذا الغرض أرسل صلاح الدين أخاه توران شاه على رأس حملة برية من مصر لفتح بلاد النوبة والسيطرة على ميناء سواكن<sup>(١)</sup>، وكذلك حملة اليمن التي جاءت من إدراكه لأهمية ذلك الإقليم وتأمينه مدخل البحر الأحمر الجنوبي وحرية الملاحة فيه، وحماية سواحله من الأطماع الصليبية، ولذلك صار من الضروري ضم اليمن إلى الدولة الأيوبية<sup>(٢)</sup>.

وقد آتت هذه الاستراتيجية ثمارها على يد سيف الإسلام طغتكين الذي تمكن من توطيد الحكم الأيوبي في اليمن وتنظيم شؤون ولايته، فأمر بأن تقوم الشواني<sup>(٣)</sup> التي جلبها أخوه توران شاه معه إلى اليمن بمرافقة السفن التجارية في البحر الأحمر والمحيط الهندي، بعد أن كانت راسية في ميناء عدن لا فائدة منها تضربها الشمس، الأمر الذي كان له بالغ الأثر في القضاء على القرصنة البحرية وضمان حرية الملاحة في البحر الأحمر والمحيط الهندي<sup>(٤)</sup>.

وقد سار خلفاء طغتكين على طريقته في مطاردة القراصنة وتطهير جزر البحر الأحمر والمحيط الهندي من أوكارهم، من ذلك ما قام به الأتابك سنقر في سنة (٦٠٢هـ / ١٢٠٤م) عندما انقطعت التجارة الشرقية عن الوصول إلى ميناء عدن بسبب ازدياد نشاط القراصنة في المحيط الهندي،

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢ / ص ٢٨٧.

(٢) ربيع: البحر الأحمر، ص ١٠٥ - ١٠٦؛ جرادات: المرجع السابق، ص ٧٦ - ٧٧.

(٣) الشواني: جمع شيني وشونة، وهي سفن حربية مزودة بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم، وبها مخازن للمؤن والمياه العذبة؛ سلطان (توفيق): دراسات في النظم الإسلامية، وزارة التعليم - جامعة الموصل، د. ط - ١٩٨٨م، ص ١٦٧.

(٤) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص ١٤١ - ١٤٢؛ ابن حاتم: السمط، ص ١٣١؛ بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص ٦١ - ٦٢.

فقام بإرسال حملة بحرية لحماية التجارة في المحيط الهندي وتطهيره من القراصنة<sup>(١)</sup>.

وفي العصر الرسولي باتت اليمن تحت سلطان دولة مركزية قوية بسطت سيطرتها على معظم أجزاء البلاد، وقد باشر سلاطين بني رسول أمور دولتهم بهمة وحزم، وبما أنهم ورثوا ممتلكات الأيوبيين فقد ورثوا معها المسؤوليات والتبعات تجاه أمن المياه الإسلامية المترتبة على ذلك، وقد اشتهر بنو رسول بمتابعتهم ومراقبتهم تخوم بلادهم وسواحلها، حتى أثنى ابن فضل الله العمري على "... شدة ضبطهم لبلادهم ومن فيها، واحترازهم على طرقها براً وبحراً من كل جهة، فلا يخفى داخل يدخل إليها ولا خارج يخرج منها، وللتجار عندهم موضع جليل..."<sup>(٢)</sup>.

وعلى الرغم من تراجع الخطر الصليبي خلال القرن (السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي) وانحسار مملكتهم إلى ساحل بلاد الشام؛ فإن الخوف من إثارتهم حلفاءهم من النوبيين والأحباش ظل هاجساً يؤرق مضجع حكام الدول الإسلامية المطلة على البحر الأحمر، وأكبر دليل على ذلك هو الشكوى التي تقدم بها تجار الكارم إلى الظاهر بيبرس بشأن قيام حكام سواكن ودهلك بمصادرة أموال من يموت من التجار في بلادهما، فبعد فشل الجهود السياسية أرسل حملة تمكنت من الاستيلاء على ميناء سواكن (٦٦٤هـ / ١٢٦٦م)، وأقام فيها حامية مملوكية بشكل دائم، وبذلك

(١) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص ٢٦٦؛ ابن حاتم: السمط، ص ١٣١؛ العسيري: الحياة السياسية، ص ٢٨٢.

(٢) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ص ٥٦.

حرمت مملكة مقرة النوبة من منفذها البحري الوحيد على البحر الأحمر<sup>(١)</sup>.

وفي سنة (٦٧١هـ / ١٢٧٣م) شن داود ملك النوبة هجوماً على ثغري عيذاب وأسوان، وقتل واليها وقاضيها، وعاد إلى بلاده محملاً بالغنائم والأسرى، فما كان من الظاهر بيبرس إلا أن أمر والي قوص بقيادة حملة على مملكة النوبة تمكنت من اجتياح عاصمتهم دنقلة وقتل وأسر عدد كبير من أهلها، وظل الصراع محتدماً بين المماليك ومملكة النوبة، حتى تمكن المماليك من إقصاء الملك داود عن عرش النوبة وإقامة ابن أخته مشكد (شكنده) الذي لجأ إلى المماليك، فأرسلوا معه حملةً عسكرية تمكنت من هزيمة داود وطرده سنة (٦٧٤هـ / ١٢٧٦م)<sup>(٢)</sup>.

وبالنسبة إلى اليمن لم يحدث صدام مباشر بينهم وبين الأحباش؛ نظراً لانشغال الأخيرين بالصراع في بلادهم حول السلطة<sup>(٣)</sup>، فضلاً عن الهيبة التي صنعها السلطان المظفر لدولته سواء بالطرق الدبلوماسية أو العسكرية، حيث قام في سنة (٦٥٩هـ / ١٢٦٠م) بعمل مظاهرة عسكرية للبحرية اليمنية في أثناء أدائه فريضة الحج، فخرج من اليمن إلى مكة المكرمة، وكان يسير برّاً، والمراكب تسايهه بحرّاً بالأطعمة والعلوفات<sup>(٤)</sup>، وعلى الرغم من أن الهدف الأساسي من تلك المظاهرة البحرية هو إرهاب المماليك وحلفائهم

(١) المقرئزي: السلوك، ج ١/ القسم الثاني/ ص ٥٥٨، ٥٠٦؛ سالم: البحر الأحمر، ص ٩١.

(٢) ابن الفرات (محمد بن عبدالرحيم بن علي بن محمد): تاريخ ابن الفرات، تح: قسطنطين زريق، نجلاء عز الدين، بيروت، د.ط - ١٩٣٩م، ج ٧/ ص ٤٧؛ سالم: البحر الأحمر، ص ٩١ - ٩٣.

(٣) الحداد: السلطان المنصور قلاوون، ص ٩٨.

(٤) الخزرجي: العقود، ج ١/ ص ١٣٣ - ١٣٤؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص ٣٢٧.

من أشرف مكة وكف أيديهم عن المساس بالسيادة الرسولية على الحجاز؛ فإنها تضمنت كذلك رسالة موجهة إلى كل من تسول له نفسه تهديد أمن البحر الأحمر وحرية الملاحة فيه<sup>(١)</sup>.

وفي سنة (٦٧٨هـ / ١٢٨٠م) أرسل المظفر سفيراً إلى ملوك فارس بهدية جيدة، وصحبه في سفره جماعة من التجار، فتلاعبت بهم الأمواج بساحل ظفار التي قام صاحبها سالم بن إدريس الحبوشي بمصادرة الهدية والأموال والبضائع، فلما وصل الخبر إلى المظفر عد ذلك انتهاكاً خطيراً لحرمة رسوله ولأمن الملاحة البحرية بمختلف صورها في المنطقة، فأرسل إليه يعاتبه في ذلك ويعلمه بشناعة فعلته وأنها قطع للسبيل، ومخالفة للعهد بين بني رسول وحكام ظفار حول العمل معاً لضمان حرية الملاحة في المحيط الهندي وبحر العرب<sup>(٢)</sup>.

إلا أن صاحب ظفار أبي واستكبر واستهزأ برسالة المظفر إليه، ولم يكتفِ بذلك بل قام بتحريض صاحب الشحر على الخروج على المظفر، فمال إليه هرباً من الخراج المفروض عليه سنوياً من قبل الدولة الرسولية، كما قام الحبوشي بمهاجمة ساحل عدن<sup>(٣)</sup>، فثار غضب المظفر، حيث عد ذلك تهديداً لسمعة الدولة الرسولية ومكانتها بين دول المنطقة، فضلاً عما يشكله من انتهاك لحرمة لسواحلها والأمن الملاحي في المنطقة، الأمر الذي قد يؤدي إلى بسط سلطان آل الحبوشي على السواحل الجنوبية وتحريض الزعامات المحلية على الخروج على بني رسول إذا لم يقم المظفر برد

(١) الجرافي (القاضي عبدالله عبدالكريم): المقتطف من تاريخ اليمن، تقديم: إلياس عبود، مؤسسة دار الكتاب الحديث - بيروت، ط ٢- ١٩٨٤م، ص ٩٠.

(٢) الخزرجي: العسجد، ص ٢٥٢.

(٣) الخزرجي: العقود، ج ١/ ص ٣٠٩؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص ٣٢٩.

حاسم وسريع على تلك الاعتداءات.

فأمر السلطان المظفر على الفور بعمارة الأسطول على أن يضم أنواع القطع البحرية المعروفة كافة، فعمرت الشواني والمراكب والطراريد<sup>(١)</sup> حتى "... ملأ البر والبحر خيلاً ورجلاً وأزواداً، وسارت العساكر ثلاث فرق، فرقة في البحر وهم معظم الرجل... وسارت الفرقة الثانية... على طريق حضر موت... وسارت الفرقة الثالثة على طريق الساحل... يتناولون من المراكب ما أرادوا من الطعام والتمر وسائر الحبوب والحوائج خانات، ثم أنواع السلاح من القنا والسيوف والزرذ والبيض... وسائر أنواع العدد على اختلاف أحوالها من المنجنيقات..."<sup>(٢)</sup>، وقد بلغ عدد القطع البحرية ألف قطعة تضمنت الشواني والسفن والطراريد وعدداً كبيراً من الزوارق (السنايق) - مما يفسر مبالغة المصادر في عدد قطع الأسطول -<sup>(٣)</sup>.

وقد نجحت تلك الحملة البرية والبحرية الكبرى في تحطيم إمارة بني الحبوطي وإخضاع كل الساحل الجنوبي لليمن لسلطان الدولة الرسولية، الأمر الذي أحدث دويماً هائلاً في المنطقة حتى "... ارتعدت الأقطار القصية هيبة للسلطان، وامتألت من خوفه قلوب ملوك فارس وأصحاب الهند والصين، لما رأوا من علو همته وعظيم نغمته، فأرسل صاحب عمان بهديته... ووصلت هدايا صاحب الصين وصاحب البحرين إلى زييد..."<sup>(٤)</sup>.

(١) الطراريد: جمع طراة، وهي سفن حربية صغيرة سريعة الحركة؛ سلطان: دراسات، ص ١٦٧-١٦٨.

(٢) الخزرجي: العقود، ج ١/ ص ٢١٠-٢١١.

(٣) الخزرجي: العسجد، ص ٢٥٤، ابن الديبع: قرة العيون، ص ٣٢٩-٣٣٠.

(٤) الخزرجي: العقود، ج ١/ ص ٢١٣.

وهكذا أثبت بنو رسول جدارتهم بحكم اليمن والإشراف على سواحله الجنوبية والغربية بكفاية واقتدار، باسطين حمايتهم ورعايتهم للملاحة البحرية في المنطقة ضامين استمرارها وتدفعها في ذلك الشريان المائي المهم (البحر الأحمر).





## الفصل الرابع

### دور اليمن الاقتصادي

- **المبحث الأول:** الانعكاسات الاقتصادية للوجود الصليبي في المنطقة.  
أولاً: المقومات الاقتصادية للقوى الصليبية في الشرق.  
ثانياً: انعكاسات السياسة الاقتصادية للصليبيين على اليمن.
- **المبحث الثاني:** موقف اليمن الاقتصادي من الحروب الصليبية.  
أولاً: موقف اليمن الاقتصادي قبيل الحكم الأيوبي.  
ثانياً: موقف اليمن الاقتصادي خلال الحكم الأيوبي والرسولي.



### دور اليمن الاقتصادي

يعد الباعث الاقتصادي عاملاً أساسياً في كثير من الأحداث التاريخية كقيام الدول وسقوطها، السلم والحرب، هجرات الشعوب وغيرها من الأحداث السياسية والعسكرية والاجتماعية، وتعد الحروب الصليبية حدثاً تاريخياً تضمن تحركات سياسية، وفعاليات عسكرية، ونشاطاً اجتماعياً من خلال هجرة الآلاف من أبناء الغرب الأوروبي إلى فلسطين، وقبل أن نسترجع في حديثنا عن دور الباعث الاقتصادي في تسيير عجلة الحركة الصليبية لا بد أن نذكر بأهمية الباعث الديني بوصفه عنصراً رئيساً كونه المحرك الأول لجموع الصليبيين وعدد من ملوكهم، وأنه لولا النداء الديني الذي أطلقته البابوية في أنحاء أوروبا لما بدأت الحروب الصليبية.

وعودة إلى موضوعنا وهو الباعث الاقتصادي؛ فمما لا شك فيه أن الأزمة الاقتصادية والمجاعات التي عاشتها معظم بلدان أوروبا خلال القرن (الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي)، والحروب المحلية المدمرة بين الأمراء المحليين الإقطاعيين؛ كل ذلك كان دافعاً أساسياً للكثير من الفلاحين والمعلمين والمدنيين إلى الهرب من ذلك الوضع المزري تحت أية راية تخلصهم من بؤسهم، ولذلك كان معظم المشاركين في الحملة الصليبية الأولى من الفقراء والمعلمين والخارجين على القانون<sup>(١)</sup>.

(١) عاشور: الحركة الصليبية، ج ١/ ص ٣٠؛

كما أن الدور الذي قامت به المدن التجارية الإيطالية أو التي عرفت بالثلاثة الكبار (البندقية، جنوة، بيزا) في خدمة الصليبيين، سواء بعرض خدماتهم لنقلهم بحرًا إلى الشرق، أو نقل المؤون والأسلحة ومختلف المعدات والإمدادات إلى الصليبيين بالشام، أو مساعدتهم في الاستيلاء على الموانئ البحرية ببلاد الشام، وتقديم المعونة البحرية للدفاع عن هذه الموانئ ضد هجمات الأساطيل الإسلامية، وعلى الرغم من أن كل هذه الجهود كانت تتم بمباركة البابوية؛ فإن حساب المكاسب الاقتصادية وعامل الربح والخسارة كان الأساس الذي بنت عليه المدن التجارية الإيطالية حساباتها في المنطقة، لا سيما أنه من المسلّم به مدى حرص تلك القوى التجارية البحرية على توسيع مجال أعمالها واستثماراتها بأية وسيلة كانت، ولو على حساب المسيحية نفسها<sup>(١)</sup>.

ويلاحظ أن تلك المدن التجارية كانت قد حققت من قبل مكاسب تجارية، وحصلت على مزايا اقتصادية مهمة من الفاطميين، الذين كانت تجارة المشرق تصب في موانئهم عن طريق البحر الأحمر، مما عاد بمكاسب هائلة عليهم وعلى من تعامل معهم من تجار المدن الإيطالية<sup>(٢)</sup>، فلما بدأت الاستعدادات للحرب الصليبية لم تسارع تلك المدن التجارية إلى تقديم خدماتها ودعمها للصليبيين خوفًا من أن يؤدي ذلك إلى انهيار علاقاتها التجارية مع الفاطميين، التي ظلت تبنيها طوال القرن الماضي،

(١) هامرتون: تاريخ العالم، مج ٥/ ص ١٧٩-١٩٠؛ يوسف (جوزيف نسيم): تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، ص ٢٣٩-٢٤٢.

Heyd, W: Histoire du commerce de levant, trans. By Furcy Raynaud; 2<sup>nd</sup> reimp, 2 vol. Leipzig = , 1936, pp. 129-163.

(٢) توفيق (عمر كمال): الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين، مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية، د. ط - ١٩٨٦م، ص ١٠٥.

فلما حققت الحملة الصليبية الأولى ما حققته من نجاح، وتمكنت من تثبيت قدمها على أرض الشام وبعض موانئه، بادرت أساطيل المدن التجارية الإيطالية إلى تقديم خدماتها؛ لأنهم أدركوا أن بإمكانهم استخدام المستعمرات الجديدة لصالحهم<sup>(١)</sup>.

ونظراً للدور الفعال الذي قامت به تلك الأساطيل من خلال ربط الصليبيين ببلاد الشام بالغرب الأوروبي، ومساعدتهم في احتلال الموانئ الإسلامية وتأمينها، قبل ملوك مملكة القدس اللاتينية بعقد معاهدات واتفاقيات تجارية مع تلك القوى تحصل بموجبها على امتيازات اقتصادية مهمة، ففي معظم موانئ الشام ومدنه الكبرى التي استولى عليها الصليبيون تمتعت المدن الإيطالية التجارية بإعفاءات خاصة، فضلاً عن شارع وسوق وفندق وحمام ومخبز خاص بتجار المدينة الإيطالية التي أسهمت في الاستيلاء على ذلك الميناء أو تلك المدينة، أو نظير الخدمات التي قدمتها لحكام الإمارة الصليبية التي تتبعها تلك المدينة أو الميناء<sup>(٢)</sup>.

وهكذا استقر الآلاف من أبناء الغرب الأوروبي في الإمارات الصليبية التي أقيمت ببلاد الشام باحثين عن فرص جديدة للعيش على حساب أبناء المنطقة، ناهبين ثرواتها، ومستفيدين من موقعها التجاري المهم، فانفتحت أمام الغرب الأوروبي أبواب تجارة المشرق - التي كانت مفتوحة من قبل ولكنها بيد المسلمين - وشهدت مياه البحر المتوسط وموانئ بلاد الشام التي

(١) يوسف: تاريخ العصور الوسطى، ص ٢٣٨؛ رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية،

ج ٣ / قسم ٢ / ص ٥٩٩ - ٦٠٠؛ توفيق: المرجع نفسه والصفحة.

(٢) رنسيان: المرجع نفسه، ج ٢ / قسم ١ / ص ١٤٣؛ عاشور: الحركة الصليبية، ج ١ /

أضحت بيد الصليبيين حركة ملاحية محمومة ونشاطًا تجاريًا عادت فوائده على أوروبا في شكل منتجات شرقية من زجاج وأواني وحرير وتوابل بكميات أكبر وأسعار منافسة مقارنة بما كان يصل إلى أوروبا عن طريق القسطنطينية أو مصر، وهذا ما سنتحدث عنه في المبحث الآتي.



## المبحث الأول

### الانعكاسات الاقتصادية للوجود الصليبي في المنطقة

منذ أقدم العصور عرفت شعوب الأرض أهمية التجارة مصدرًا غير اعتيادي لتحقيق الربح الوفير، رغم التفاوت في درجة مدنية تلك الشعوب، وكان سكان مصر وسوريا وبلاد الرافدين من أكثر شعوب الأرض حظًا في المجال التجاري، نظرًا لما تتمتع به بلادهم من موقع استراتيجي مهم عند ملتقى الطرق التجارية القادمة من الشرق أو الغرب بحرًا وبرًا، وتنساب إليها شتى أنواع السلع والمتاجر، وظلت هذه الأرض المباركة محل اهتمام الممالك والإمبراطوريات لمميزات موقعها العسكرية والاقتصادية، التي جعلت من المنطقة ميدان صراع بين تلك القوى المستعمرة مثل الاخمينيين والإغريق والرومان.

ومن ثم فقد أدت الأهمية الاستراتيجية للمنطقة وسيطرتها على عدد من أهم طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب إلى نشاط تجارة العبور "الترانزيت"، كما أن الشريعة الإسلامية سمحت للمسلمين بالاتجار مع البلاد غير الإسلامية، ونظمت أشكال التعامل التجاري مع تلك الدول، فكان على التجار الأجانب دفع رسوم على بضائعهم، عرفها المسلمون باسم العشور<sup>(١)</sup>، وقد أسهمت هذه القوانين والعشور في نمو التجارة مع أوروبا

(١) الشوكاني (الإمام محمد بن علي): السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، دار ابن حزم - بيروت، ط١ - ٢٠٠٤م، ص ٢٧٥ - ٢٧٦؛ الزحيلي (وهبة): الفقه الإسلامي وأدلته، دار الفكر - دمشق، ط٤ - ٢٠٠٤م، ص ١٧٩٦ - ١٧٩٨، ١٩٠٦ - ١٩٠٧.

وازدهارها، وإن كان هذا في أول الأمر مقصوراً على الدولة البيزنطية، في حين ظل اقتصاد غرب أوروبا قائماً على الزراعة في ظل النظام الإقطاعي الذي ساد البلاد، ولكن ما لبث أن استجدت عوامل وظروف في غرب أوروبا أدت إلى قيام نهضة تجارية مهمة امتدت آثارها لتصل إلى الشرق الأدنى، كما تزايد مع مرور الوقت اهتمام الغرب الأوروبي بالتبادل مع المسلمين وذلك للحصول على السلع الشرقية وتصدير ما يحتاج إليه المسلمون من السلع الأوروبية<sup>(١)</sup>.

وتبرز في مجال النشاط التجاري لغرب أوروبا - ولا سيما في مرحلته الأولى - مدينة البندقية وغيرها من المدن التجارية الإيطالية التي كانت بمثابة طلائع لدول أوروبا في تجارة البحر المتوسط، وجاءت أسبقية هذه المدن نتيجة لموقعها الجغرافي كونها أقرب الموانئ الغربية للشرق، وتفوقها على غيرها من مدن غرب أوروبا في اقتصاديات نظام المدن والتجارة، وحاجتها الملحة إلى مزيد من الموارد لتلبية احتياجاتها، الأمر الذي أدى إلى تزايد نفوذ الأوروبيين الغربيين في البحر المتوسط في أعقاب ما قاموا به من توسع سياسي على حساب كل من المسلمين والبيزنطيين، فجاءت حرب الاسترداد لتوسع من نفوذ الأوروبيين في الأندلس وجزر البحر الأبيض المتوسط، وعلى الصعيد الاقتصادي توافدت سفن البندقية وجنوة وأمالفي<sup>(٢)</sup> ومرسيليا إلى الموانئ الإسلامية في مصر وبلاد الشام طلباً لمتاجر الشرق وبضائعه، وعلى رأسها التوابل المستخدمة في حفظ الأطعمة، والبحارات

(١) توفيق: الدبلوماسية الإسلامية، ص ٩٦.

(٢) أمالفي: مدينة في كمبانيا في إيطاليا على خليج سالرنو وهي أول جمهورية إيطالية بحرية - القرن التاسع الميلادي - خربتها بيزا سنة ٥٣٠هـ/١١٣٥م وإكتسح البحر جزءاً منها سنة ٧٤٢هـ/١٣٤٣م؛ انظر: الموسوعة العربية الميسرة، مج/ ص ٣٠٠.

بأنواعها كالقرفة والحبهان والقرنفل والزنجبيل، والأعشاب اللازمة لصناعة العقاقير وأخشاب العود والعطور، والحرير والأحجار الكريمة والخزف، فضلا عن السلع التي تنتجها البلاد الإسلامية، وفي المقابل حمل الأوروبيون إلى الشرق سلعا معينة من الغرب كالأخشاب اللازمة لأعمال البناء وصناعة السفن وأنواع المعادن من الحديد والنحاس وأصناف الأسلحة إلى جانب الرقيق<sup>(١)</sup>.

ولكن مع تبدل ميزان القوى في منطقة البحر المتوسط لصالح الأوروبيين مقابل الفرقة والانقسام الذي ساد صفوف المسلمين في مصر وبلاد الشام والعراق وجدت القوى الاقتصادية في أوروبا الفرصة مواتية للاستفادة من تدهور الأوضاع في البلاد الإسلامية فصارت تقدم للفاطميين في مصر المزيد من الخدمات التي يحتاجونها في مواجهة خصومهم السلاجقة في بلاد الشام لقاء المزيد من الامتيازات التجارية في ميناء الإسكندرية وموانئ الفاطميين في بلاد الشام لا سيما أن الطريق البري الممتد من الصين إلى آسيا الصغرى وموانئ البحر الأسود صار محفوفًا بالمخاطر بسبب عدم استقرار الأوضاع في البلاد التي يمر بها واعتداءات قطاع الطرق وغيرهم فأصبح الجزء الأكبر من التجارة الشرقية ينقل بطريق البحر، فلما عمت الاضطرابات أرض العراق وسواحل بحر فارس صار

(١) توفيق: الدبلوماسية الإسلامية، ص ٩٦-٩٨؛ رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣/ قسم ٢/ ص ٦٠٣؛ يوسف: تاريخ العصور الوسطى، ص ٢٣٨-٢٣٩،

الطريق البحري عبر المحيط الهندي إلى عدن ومنها إلى البحر الأحمر فالموانئ المصرية هو الطريق المفضل لتجارة الشرق الأقصى<sup>(١)</sup>.

وعندما نجحت الحملة الصليبية الأولى في تحقيق أهدافها بالاستيلاء على بيت المقدس وعدد من مدن وموانئ بلاد الشام لم تستطع القوى الاقتصادية في أوروبا مقاومة ما يعنيه ذلك من إنفتاح أبواب التجارة الشرقية أمامهم على مصاريعها عن طريق المستعمرات الجديدة، فتساقبت بتقديم خدماتها إلى ملوك وأمراء الصليبيين بالمشرق لأجل تحقيق الامتيازات السابقة الذكر<sup>(٢)</sup>.

#### أولاً - المقومات الاقتصادية للقوى الصليبية في الشرق:

أدرك ملوك وأمراء مملكة القدس اللاتينية والإمارات التابعة لها المزايا الاقتصادية لمستعمراتهم الجديدة، وضرورة توسيع سيطرتهم لتشمل جميع المناطق الحيوية في المنطقة، فينتزعون زمام الريادة التجارية من المسلمين، ومن ثم تصب ثروات المنطقة ومتاجر الشرق في مستعمراتهم، ومنها إلى أوروبا المتعطشة لتلك السلع، الأمر الذي يزيد الصليبيين ثراءً وغنىً، وينسحب ذلك على نفوذهم السياسي وفعالية مؤسساتهم العسكرية ونشاطها ضد القوى الإسلامية المتصارعة فيما بينها، وقد قام اقتصاد الصليبيين على قاعدتين أساسيتين:

١- السيطرة على معابر التجارة الشرقية والتحكم بمنافذها.

٢- احتكار التجارة مع أوروبا عبر الموانئ الإسلامية.

(١) توفيق: المرجع السابق، ص ٩٨-٩٩.

(٢) ولز: معالم تاريخ الإنسانية، مج ٣/ ص ٨٨٢؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣/ قسم ٢/ ص ٥٩٩-٦٠٠؛ عوض: الحروب الصليبية، ص ٣٦.

### ١- السيطرة على معابر التجارة الشرقية والتحكم بمنافذها :

ما إن وطئت أقدام الصليبيين ديار الإسلام حتى تمكنوا من بسط سيطرتهم على عدد من المناطق الحيوية في قلب بلاد الإسلام، فالرها ذات الموقع الاستراتيجي في منطقة إقليم الجزيرة استولى عليها الصليبيون وأنشؤوا فيها إمارة امتدت على ضفتي الفرات، فشكلت بذلك - من الناحية العسكرية - درعًا واقياً للصليبيين بالشام ضد أي هجوم من سلاجقة فارس والعراق، وأما من الناحية الاقتصادية فصارت إمارة الرها مركزاً متقدماً للصليبيين يهددون منه الطرق التجارية بين الموصل وحلب<sup>(١)</sup>.

وفي فلسطين وبعد أن تمكن الصليبيون من تحقيق هدفهم الرئيس وهو الاستيلاء على بيت المقدس وغيرها من المدن الرئيسية في فلسطين؛ قاموا على مدى خمسين عامًا بمد نفوذهم على المعابر الرئيسية للتجارة في المنطقة، فقام جودفري أول حكام مملكة بيت المقدس بشن الغارات على مناطق سواد طبرية وإقليم الأردن، كما قام بلدوين الأول بالتوسع في مناطق شرق نهر الأردن وجنوبي البحر الميت وحتى سواحل البحر الأحمر كما بينا في الفصول السابقة، فكانت هذه المعاقل الأساسية تسيطر سيطرة تامة على الطرق بين مصر والشام وجزيرة العرب، مما اضطر البدو الرحل في تلك الجهات إلى الخضوع للصليبيين ودفع مقررات ثابتة لهم<sup>(٢)</sup>.

(١) عاشور: الحركة الصليبية، ج ١/ ص ١٤٤-١٤٨، ٣٤٤-٣٤٦؛ ولز: معالم تاريخ الإنسانية، مج ٣/ ص ٨٨٢.

(٢) عاشور: المرجع نفسه، ج ١/ ص ٢٠٨-٢١٠، ٤٦٩؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢/ قسم ١/ ص ٢١، ١٥٨-١٦٠.

وأما بالنسبة إلى القوافل التجارية المترددة بين مصر والشام وجزيرة العرب فقد صار من المتعذر عليها المرور بتلك الطرق من دون أن تتعرض للهجوم من الحاميات الصليبية المتربصة بها هناك، لا سيما مع انشغال الحكومات الإسلامية في مصر والشام بالصراع على السلطة وحبك المؤامرات السياسية عن واجباتها تجاه حماية رعاياها من التجار أو القادمين بضائعهم من مناطق شتى، مما أدى إلى اضطرار القائمين على تلك القوافل إلى دفع ضريبة مرور كبيرة للصليبيين لضمان عدم نهب قوافلهم والسماح لها بالمرور بسلام<sup>(١)</sup>.

وقد دفعت تلك المخططات الصليبيين إلى التفكير في غزو مصر، فقاموا بمحاولات متكررة في سبيل ذلك؛ لأجل الفوز بالمزايا الاستراتيجية والاقتصادية لموقع مصر الفريد، حيث تصب متاجر الشرق في موانئها على البحر الأحمر ومنها إلى الإسكندرية أكبر بوابات الشرق إلى أوروبا، إلا أن الدولة الفاطمية في مصر كانت لا تزال تملك بعض القوة وكثيراً من المال لإقناع الصليبيين أن يصرفوا النظر مؤقتاً عن غزو مصر، مما جعلهم يتخذون استراتيجية مختلفة تلخص في محاصرة مصر اقتصادياً وتضييق الخناق على تجارتها مصدر ازدهارها وثروتها، وذلك من خلال الخوف الذي أثاروه في منطقة شمال البحر الأحمر بعد احتلالهم لميناء أيلة وجزيرتها، الأمر الذي جعل الملاحة في ميناءي أيلة والقلمزم محفوفة بالمخاطر من اعتداءات الصليبيين، فصارت السفن التجارية القادمة من اليمن والهند تستخدم ميناء

(١) أبو شامة: الروضتين، ج ٢/ ص ١٥٠، ٢٤٠؛ رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢/ قسم ١/ ص ١٦٠، ٣٧١.

القصير في الجنوب، ثم ميناء عيذاب الذي أصبح الميناء الشرقي الرئيس لمصر رغم شحة المياه فيما حوله وبعد المسافة من عيذاب إلى الإسكندرية<sup>(١)</sup>.

## ٢- إحتكار التجارة مع أوروبا عبر السيطرة على الموانئ الإسلامية:

اكتسبت موانئ بلاد الشام سمعة عالمية بوصفها بوابات تتدفق منها البضائع الشرقية إلى أوروبا وسائر البلاد المطلة على البحر المتوسط، فكل من المدن التجارية الكبرى في بلاد الشام كدمشق وحلب كانت ترتبط بميناء تصرف منه فائض إنتاجها وتجارتها إلى موانئ المتوسط، وكانت هذه الحركة التجارية هي عماد اقتصاد الإمارات الإسلامية في بلاد الشام ومصدر ازدهارها ورفاهيتها، إلا أن حكام تلك الإمارات كانوا غارقين وسط محيط من الصراعات والمؤامرات السياسية لأجل اكتساب المزيد من السلطة والثروة، في الوقت الذي كانت فيه جحافل الصليبيين تتقدم من الشمال على طول الساحل الشمالي لبلاد الشام، فاستولوا على موانئ شمال بلاد الشام التي صارت قواعد للأساطيل الغربية المساندة للصليبيين لتزويدهم بالجند والمؤن، وكانت خطتهم تتضمن أن يسلكوا طريق الساحل فيستولوا على بقية موانئ بلاد الشام<sup>(٢)</sup>.

ونظراً لإدراك الصليبيين ضرورة الإسراع إلى بيت المقدس والحفاظ على قوتهم لحين سقوط المدينة؛ اضطروا إلى استعمال الطريق الداخلي المباشر نحو مدن فلسطين الداخلية، فلما نجحوا في الاستيلاء على تلك المدن انصرفوا نحو تأمين الساحل وبسط هيمنتهم عليه، ولكن المحاولات الأولى

(١) جرادات: الأهمية الاستراتيجية، ص ٧١-٧٢.

(٢) عاشور: الحركة الصليبية، ج ١/ ص ١٨٠.

للاستيلاء على موانئ بلاد الشام مثل عكا وصور وصيدا وبيروت وطرابلس وعسقلان كشفت لهم عن مدى صلابة دفاعات تلك المدن وقوة تحصيناتها، وهو ما تطلب المزيد من القوات والمعدات، والأهم من ذلك دعم الأساطيل الإيطالية لهم لإحكام الحصار على تلك الموانئ وإسقاطها، ولأجل ذلك قام الصليبيون بالاستيلاء على عدد من الموانئ الثانوية مثل يافا وأرسوف وقيسارية<sup>(١)</sup>، وعلى الفور قاموا بتحسين تلك الموانئ وتعزيز دفاعاتها حتى صارت قواعد لأساطيل غرب أوروبا يشنون الغارات منها على السواحل الإسلامية، التي اضطرت حكامها إلى دفع الإتاوة المشتركة ومقدارها خمسة آلاف دينار سنويًا، فضلاً عما تعهد المسلمون بتقديمه من المواشي والغلال والزيوت وغيرها من الفروض العينية<sup>(٢)</sup>، وقد آتت خطة الصليبيين ثمارها، إذ تسابقت أساطيل المدن الإيطالية لتقديم خدماتها لملوك الصليبيين وأمراءهم، مقابل الحصول على الامتيازات المذكورة في الموانئ المفتوحة بدءًا بعكا سنة (٤٩٧هـ / ١١٠٣م) وانتهاءً بعسقلان سنة (٥٤٨هـ / ١١٥٢م)<sup>(٣)</sup>.

وهكذا صارت مملكة القدس اللاتينية والإمارات الصليبية التابعة لها تسيطر على الساحل الشامي بأكمله، وتفرد جناحيها على الطرق التجارية في الشمال والجنوب، سواء بالسيطرة العسكرية أو بالاتفاقيات التجارية التي عقدتها مع مشايخ القبائل وزعمائها مقابل السماح بمرور القوافل التجارية

(١) ابن الأثير: الكامل، مج ٦/ ص ٤٣٧، ٥٠٠؛ الذهبي: العبر، ج ٢/ ص ٣٦٩.  
 (٢) عاشور: الحركة الصليبية، ج ١/ ص ٢٠٦-٢٠٨؛ رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢/ قسم ١/ ص ٢١، ١٢٠، ١٤٣.  
 (٣) ابن الأثير: المصدر السابق، مج ٦/ ص ٤٣٧، ٥٠٠-٥٠٢؛ الذهبي: دول الإسلام، ج ٢/ ص ٦٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢/ ص ١٧٧، ٢٤٨.

في مناطق النفوذ الصليبي من مصر إلى الشام أو العكس، وكانت هذه الاتفاقيات تصب في مصلحة الصليبيين أولاً وحسب ما تقتضيه كل مرحلة من مراحل صراعهم مع القوى الإسلامية في المنطقة، فخلال المرحلة الأولى من ذلك الصراع وعندما كانت مملكة القدس اللاتينية لا تزال في طور البناء وسيطرتها محدودة على عدد من مدن فلسطين الداخلية وبعض الموانئ الثانوية؛ قام الصليبيون بعقد معاهدات تجارية مع الموانئ الإسلامية في بلاد الشام مثل عكا وطرابلس وغيرها مما لا يزال بيد المسلمين، بعد أن قامت أساطيل المدن الإيطالية المتحالفة معهم بممارسة القرصنة على السفن التجارية لتلك الموانئ، وكان الطرفان في أشد الحاجة لعقد مثل تلك الاتفاقيات، ولكنها في الحقيقة لم تكن تصب إلا في صالح الصليبيين، إذ ضمن هؤلاء الاستقرار لمملكتهم وسط ذلك المحيط من القوى الإسلامية المجاورة لهم، فتوافرت لمملكتهم والمدن التابعة لها احتياجاتها من الغلال والبضائع من التوابل والمنسوجات، فصارت الموانئ التابعة لهم تشهد حركة تجارية محمومة من مختلف أنحاء أوروبا<sup>(١)</sup>.

في حين ظل النشاط التجاري للموانئ الإسلامية مقصوراً على التعامل مع التجار الأوروبيين في الخارج والصليبيين في الداخل؛ لأن تلك المعاهدات التجارية بين الجانبين - رغم أنها حققت بعض السلام المؤقت بين الطرفين - لم تمتد لتشمل شؤون البحر والملاحة، فقد حرّم الصليبيون على المسلمين في تلك الموانئ أي تبادل تجاري عن طريق البحر مع بقية بلاد الإسلام، فعقدوا اتفاقاً مع المدن التجارية الإيطالية صاحبة التفوق

(١) عاشور: الحركة الصليبية، ج/١ ص ٢٠٨.

البحري في البحر المتوسط بملاحقة المراكب الإسلامية كافة الوافدة من الإسكندرية ودمياط وتونس ومصادرتها وقتل بحارتها، وقد ترتب على ذلك عدم إمكان حصول موانئ فلسطين الإسلامية على ما يلزمها من إمدادات ومؤن، مما أدى إلى إضعافها اقتصادياً وعسكرياً وسقوطها في نهاية الأمر من دون عناء في أيدي الصليبيين<sup>(١)</sup>.

فلما تمت للصليبيين السيطرة على موانئ فلسطين كافة والمعابر التجارية المؤدية منها وإليها؛ صارت القوافل المحملة بالسلع الشرقية بمختلف أنواعها تقصد المدن والموانئ الصليبية التي شهدت نشاطاً تجارياً إثر تهافت المدن التجارية الأوروبية للحصول على المزايا التجارية التي قدمتها لهم مملكة القدس اللاتينية، كما حمل تجار الشام فائض إنتاج بلادهم من الأقمشة والأواني والغلال إلى المدن المحتلة من الصليبيين، وهنا قد يُثار سؤال وهو: لماذا لم يقيم المسلمون في الإمارات المجاورة للصليبيين بمقاطعة المدن المحتلة ومعاملة الصليبيين بالمثل؟ والجواب على هذا السؤال يتلخص في الآتي:

١- التمزق السياسي الذي عاشه المسلمون خلال النصف الأول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، والمؤامرات التي يحبكها كل طرف ضد الآخر، كل ذلك كان يشكل حائلاً ضد قيام عمل إسلامي موحد ضد الوجود الصليبي، بل إن بعض الأمراء المسلمين كان يتحالف مع الصليبيين ضد إخوانه المسلمين لأغراض سياسية، ومن ثم فإن قيام هؤلاء بمقاطعة الصليبيين اقتصادياً كان أمراً مستبعداً.

(١) عاشور: الحركة الصليبية، ج/١ ص ٢٠٨-٢٠٩.

٢- تشجيع الصليبيين للحركة التجارية في مملكتهم ، وذلك من خلال ما رواه الرحالة الأندلسي ابن جبیرالذي قام برحلته الشهيرة إلى الشرق خلال الثلث الأخير من القرن السادس الهجري ، فزار مصر والحجاز ودمشق والمدن التجارية التابعة للصليبيين ، وقد أفادنا بمعلومات في غاية الأهمية حول تعامل الصليبيين مع المسلمين الذين تحت سلطانهم أو التجار الوافدين من أقاليم شتى ، فكان أول ما استرعى انتباهه سهولة الإجراءات المتبعة مع التجار المسلمين من حيث السماح لهم بالمرور عبر أراضيهم وتحديد مراكز معينة لتحصيل المكوس والعشور ، وكيف أن ذلك كان يتم برفق وتؤدة من دون تعنيف ، هذا وقد تعمد ابن جبیر ذكر أن تلك الإجراءات كانت في وقت كان فيه السلطان صلاح الدين يشن الغارات على مدنهم يقتل ويسبي ويغنم منهم ، فلم تتغير معاملتهم للتجار ولا اشتطوا بهم<sup>(١)</sup> ، هذا في الوقت الذي كان فيه أمراء المسلمين يثقلون كاهل رعاياهم بالمكوس والعشور ، حتى حجاج بيت الله الحرام لم يسلموا من قسوة الجبابة في تحصيل المكوس منهم<sup>(٢)</sup> ، كما أشار ابن جبیر إلى مسألة في غاية الأهمية وهي المكاسب الكبيرة التي كان يجنيها تجار المسلمين في الموانئ الخاضعة للصليبيين ، على عكس المدن الإسلامية ، كذلك حال الترف والرفق والأمن التي كان يعيشها إخوانهم المسلمون تحت حكم الصليبيين ، على عكس من يعيشون في كنف الإمارات الإسلامية المجاورة<sup>(٣)</sup> .

وأما من الناحية الإنتاجية فإن الصليبيين شرعوا على الفور في تطوير دوائر الإنتاج في المدن المحتلة لتنتج المزيد من السلع التي تحتاجها

(١) ابن جبیر: الرحلة ، ص٢٤٨-٢٥٠ .

(٢) ابن المجاور: تاريخ المستنصر ، ص٤٨-٤٩ .

(٣) ابن جبیر: الرحلة ، ص٢٥١-٢٥٣ ، ٢٥٦ .

أوروبا، ومنها السكر الذي تبين لهم كثرة زراعته في كثير من المناطق الساحلية ووادي نهر الأردن فواصلوا زراعته، وتعلموا من السكان المحليين عملية استخراج السكر من القصب، فأنشأوا مصانع ضخمة لإنتاج السكر في عكا وصور ومعظم مدن الساحل، التي بلغ إنتاجها من الضخامة ما غطى معظم احتياج أوروبا من السكر خلال القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين<sup>(١)</sup>، كما استغل الصليبيون خبرات اليهود الصناعية ولا سيما في مجال صناعة الزجاج المطلوب بشدة في أوروبا، فكثرت معامل إنتاج الزجاج في أنطاكية وصور، إلا أن إنتاج مصر ظل هو الأوفر والأرخص رغم أن معظم إنتاج الصليبيين كان للتصدير<sup>(٢)</sup>.

وكان للتجار الإيطاليين شأن كبير في النشاط التجاري في المستعمرات الصليبية، فقد كانوا حريصين على طلب السلع الشرقية من التوابل كالفلفل والقرفة والحبهان والقرنفل وأخشاب العطور كالعود والند، والمنسوجات الحريرية والكتانية ومستلزماتها من الأصباغ وغيرها كالنيلة والفوة، وذلك لوجود تلك السلع في أسواق بلاد الشام ومصر بكميات وفيرة وأسعار منخفضة في العادة، ومن ثم شحنها إلى أوروبا التي اشتد الطلب فيها على تلك السلع خلال العصور الوسطى<sup>(٣)</sup>.

(١) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣/ قسم ٢/ ص٦٠٢؛ عاشور: الحركة الصليبية، ج١/ ص٢٨٣؛

Heyd, Histoire de Commerce, pp. 178-179, 680-686.

(٢) رنسيمان: المرجع نفسه، ج٣/ قسم ٢/ ص٦٠٣؛

Heyd, Histoire. de. Commerc: p. 179.

(٣) يوسف: تاريخ العصور الوسطى، ص٢٣٨-٢٤١؛ هامرتون: تاريخ العالم، مج٥/ ص١٩٠.

فضلا عن ذلك قام هؤلاء التجار بتقديم خدمات مصرفية مهمة للصليبيين، مما أسهم في تسهيل المعاملات التجارية وتحريك عجلة التجارة في المستعمرات الصليبية<sup>(١)</sup>، وبذلك تمكن الصليبيون من استغلال المزايا الاقتصادية لمستعمراتهم، وأداروها بكفاية واقتدار لضمان ازدهار مملكتهم وتقويتها عبر بناء قاعدة اقتصادية متينة لا قبل للتجارة الإسلامية بمنافستها أو مقاطعتها، فصار التجار المسلمون يتاجرون مع الصليبيين، وقوافلهم تذهب إلى مناطق أعدائهم، وعلى الرغم من أن مكاسب الغزاة من هذه التجارة كانت في الأساس في غير صالح المسلمين لأنها تدعم بقاء الاحتلال الصليبي واستمراره، ومن ثم تؤدي إلى رفاهية الغرب الأوروبي وهو الرحم الأصلي الذي خرجت منه الحركة الصليبية، إلا أن التجارة (الإسلامية - الصليبية) في بلاد الشام كانت بمثابة موقف اضطراري مفروض على المسلمين، ولم يكن أمراً طبيعياً مثل المتاجرة مع مصر - على سبيل المثال - لا سيما بعد خنق الصليبيين لاقتصاديات المسلمين بالسيطرة على الساحل الشامي وإغلاقه في وجه الملاحة الإسلامية<sup>(٢)</sup>.

ولم تكن سياسة الصليبيين الاقتصادية بمنأى عن الأغراض السياسية، فقد ذكر ابن جبير أن الصليبيين كانوا يفرضون على التجار المغاربة ضريبة رأس دوناً عمن سواهم من تجار المسلمين، وذلك لما لاقوه على يد المتطوعين منهم في جيوش نور الدين محمود وصلاح الدين من بعده من عظيم نكاية، حتى قال الصليبيون: "... إن هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون

(١) هامرتون: المرجع السابق، مج ٥/ ص ١٧٩.

(٢) عوض: الحروب الصليبية، ص ٣٦.

على بلادنا ونسالهم ولا نرزأهم شيئاً، فلما تعرضوا لحربنا وتألّبوا مع إخوانهم المسلمين علينا وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم...<sup>(١)</sup>، فصارت تلك رسالة موجهة إلى المسلمين كافة بأن الحرب بين الطرفين حرب سياسية وعسكرية واقتصادية، وأن المصالح التجارية بين الطرفين مقرونة بالمواقف السياسية.

وعموماً فقد جنى الصليبيون من وراء تلك السياسة الاقتصادية مكاسب هائلة لفتت أنظار كثير من إخوانهم في غرب أوروبا، فقصدوا الإمارات الصليبية في بلاد الشام لينعموا بخيرات المستعمرات الجديدة، ونشطت الحركة التجارية في الموانئ الخاضعة للصليبيين جراء كثرة القوافل التي تقصدها من الشام ومصر، والعدد الهائل من سفن بلاد البحر المتوسط، ومن ثم صارت السلع والبضائع الشرقية تصب في الموانئ الأوروبية المختلفة بمقادير وافرة لم تشهدها منذ العصر الروماني<sup>(٢)</sup>.

### ثانياً- انعكاسات السياسة الاقتصادية للصليبيين على اليمن:

ذكرنا في موضع سابق كيف تمكن الصليبيون من السيطرة على مقاليد التجارة في بلاد الشام، وتهديدهم القوافل التجارية المارة بتخوم بلادهم حتى صارت تلك القوافل تدفع لهم ضريبة مرور لئلا تنهب قوافلهم وتستباح، كما أن إغلاقهم موانئ بلاد الشام في وجه الملاحة الإسلامية جعل المدن التجارية الكبرى ببلاد الشام تضطر إلى التعامل معهم، الأمر الذي أدى إلى رواج الحركة التجارية في مملكة القدس اللاتينية والإمارات

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٥١.

(٢) هامرتون: تاريخ العالم، مج ٥/ ص ١٩٠.

الصليبية التابعة لها، فأين موقع اليمن من هذه المخططات والأطماع الصليبية في المنطقة؟

تعد اليمن ركناً أساسياً من أركان التجارة الدولية في المنطقة، وارتبطت منذ القدم بعلاقات تجارية متينة مع بقية أجزاء الجزيرة العربية والعراق وبلاد الشام ومصر، ومن جهة ثانية امتدت علاقتهم التجارية إلى بلاد الهند والصين وما يلحقها من جزر وبلاد، ومن ثم فإن أي طارئ يطرأ على أحد أطراف هذه المنظومة الاقتصادية الدولية يؤثر في الاتجاه العام للنشاط التجاري في اليمن.

ولذلك عندما تمكن الصليبيون من احتلال سواحل بلاد الشام والمدن الفلسطينية الداخلية صارت طرق التجارة الدولية البرية تمر بمستعمراتهم وتصب في موانئهم، ونظراً للتمزق السياسي والصراع العسكري الذي كانت تعيشه اليمن خلال النصف الأول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي - مثل بقية أرجاء بلاد الإسلام - فإنه لم يكن هناك توجه لدى القوى السياسية في اليمن لتحديد العلاقات الاقتصادية بذلك الكيان الدخيل على ديار الإسلام، فظلت القوافل التجارية القادمة من اليمن والمحملة بجميع أصناف السلع والبضائع تشق طريقها إلى دمشق ومنها إلى الموانئ الخاضعة للصليبيين<sup>(١)</sup>.

وقد يكون لذلك علاقة بما ذكرته المصادر عن تدهور رحلات القوافل من اليمن إلى البصرة على طريق اليمامة والأحساء تدريجياً إلى أن توقفت

(١) عاشور: الحركة الصليبية، ج ١/ ص ٣٨٣؛ رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣/ قسم ٢/ ص ٦٠٥.

كلياً في سنة (٥٢٤هـ / ١١٢٨م) بسبب ضعف الخلافة العباسية وظهور القرامطة، بعد أن كانت القوافل تسلك ذلك الطريق مرتين في العام<sup>(١)</sup>، حيث إنه من المعروف أن التجارة تزدهر حيث يتوفر الأمان والريح، وهو ما استطاع الصليبيون توفيره في المناطق الخاضعة لهم، مما جعل جموع التجار تحمل بضائعها إلى المدن الخاضعة للصليبيين كما ذكرنا سابقاً، وبالنسبة إلى تجار اليمن فإن طريق الحجاز الآمن مقارنة بطريق اليمامة والأحساء المعرض لهجمات الأعراب والفساق كان هو أفضل الخيارات المتاحة لهم في ذلك الوقت، كما أن الفتن والحروب التي عاشها العراق في تلك المرحلة أفادت الكيان الصليبي أيما إفادة، أولاً بسبب انشغال الخلافة العباسية والسلاجقة بمشاكلهم الداخلية عن مقارعة الصليبيين والتصدي لهم، وثانياً تحول خط سير القوافل البرية إلى دمشق ومن ثم إلى عكا التي تعد الميناء الطبيعي لإقليم دمشق، وفي ذلك يقول رنسيمان: "...وتعد عكا أنشط موانئ الساحل في التجارة، وكانت الميناء الطبيعي لدمشق، فلم تستخدم فقط لمنتجات مصانع دمشق وأراضي حوران الخصيبة، بل أفاد منها أيضاً التجار القادمون من اليمن، الذين سلكوا طريق الحجاج على امتداد حافة ساحل بلاد العرب...".<sup>(٢)</sup>

ومع ذلك فإن هذه القوافل التجارية القادمة من اليمن لم تكن تشكل إلا جزءاً ضئيلاً من النشاط التجاري لأهل اليمن الذين تركز تعاملهم التجاري مع مصر عبر البحر الأحمر، مما أدى إلى ازدهار ميناء عدن كمحطة كبرى

(١) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص ٢٦٣ - ٢٦٤؛ يحيى بن الحسين: أنباء الزمن، ص ١٩٧؛ المطاع: تاريخ اليمن الإسلامي، ص ٢٦٩.

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣ / قسم ٢ / ص ٦١٠.

للسفن التجارية القادمة من الهند في طريقها إلى الموانئ الفاطمية على البحر الأحمر، وقد أدرك الصليبيون أن مصر لا تزال حجر الزاوية للتجارة الإسلامية في المنطقة، وأنه على الرغم من سيطرتهم على الطرق البرية المؤدية إليها فإن البحر الأحمر لا يزال يمدّها بمختلف أنواع السلع والبضائع الشرقية وبكميات تفوق ما يصل إلى موانئهم، فمن ذلك ما ذكره المؤرخون الصليبيون عن المقادير الهائلة من البضائع الشرقية التي كانت تصل إلى مصر عن طريق السفن القادمة من الهند وسبأ وبلاد العرب<sup>(١)</sup>.

وقد أدرك الصليبيون الأهمية البالغة للطريق التجاري المار بالبحر الأحمر، فكان من الطبيعي أن يفكروا في النفاذ إليه والسيطرة عليه، ولا ريب أن هذا الهدف كان من أهم العوامل التي أدت إلى توجيه عدد من الحملات الصليبية إلى مصر بغرض الاستيلاء عليها والتحكم في هذا الطريق، ويمكننا عد احتلال الصليبيين لأيلة (٥١٢هـ / ١١١٦م - ٥٦٦هـ / ١١٧٠م) مؤشراً واضحاً على رغبة الصليبيين اختراق احتكار المسلمين للملاحة في البحر الأحمر والتوسع فيه<sup>(٢)</sup>، فضلاً عن أن حملة أرناط البحرية التي هاجم بها سواحل البحر الأحمر أثارت الرعب في الموانئ الإسلامية المطلة على ذلك البحر، ولا سيما استهدافه المراكب التجارية السالكة فيه من دون استثناء - كما كانت عدن هدفاً أساسياً لتلك الحملة - وبذلك يتمكن الصليبيون بفضل السيطرة على أيلة في الشمال وعدن في الجنوب من إغلاق البحر الأحمر في وجه الملاحة الإسلامية واحتكار تجارة

(١) توفيق: الدبلوماسية الإسلامية، ص ١٠٨.

(٢) توفيق: المرجع نفسه، ص ١٠٠-١٠١؛ قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك،

الشرق الهندي<sup>(١)</sup>.

وقد أثبتت هذه الأحداث أنه لم يكن هناك إقليم أو بلد في ديار الإسلام بمنأى عن الأطماع السياسية والعسكرية والاقتصادية للصليبيين في المنطقة، فكيف باليمن ومينائها عدن أكبر محطة تجارية في الطريق بين مصر والشرق الأقصى، والمدخل الجنوبي للبحر الأحمر الشريان الذي يغذي مصر بالمتاجر والسلع الشرقية المختلفة وبكميات تفوق ما يصل إلى موانئ بلاد الشام.



---

(١) عاشور: الحركة الصليبية، ج٢/ ص٦١٨ - ٦١٩.

## المبحث الثاني

### موقف اليمن الاقتصادي من الحروب الصليبية

لم يكن من الممكن أن تبقى اليمن على سكونها تجاه ذلك الخطر الذي يهدد اقتصاد المنطقة، لا سيما مع نمو الوعي لدى القوى الإسلامية في مصر والشام بخطورة الوجود الصليبي اقتصادياً، وإدراكها أهمية اليمن وثرواتها الطبيعية وإشرافها على الطرق التجارية البحرية بين الشرق والغرب، وسنبحث فيما يلي تطور موقف اليمن من المعركة الاقتصادية التي تخوضها الأمة الإسلامية ضد الكيان الصليبي المحتل.

#### أولاً - موقف اليمن الاقتصادي قبيل الحكم الأيوبي:

لقد كانت المدة التي سبقت الحكم الأيوبي في اليمن تنذر بمحنة حقيقية وتدهور ملحوظ بالنسبة إلى الوضع الاقتصادي في البلاد، الذي أثر في موقف اليمن الاقتصادي من الحروب الصليبية نتيجة لعدد من العوامل أبرزها:

#### ١- تشتت موارد اليمن بسبب الصراعات والحروب:

عاشت اليمن خلال النصف الأول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي مرحلة من التمزق والانقسام بين عدد من القوى السياسية والمذهبية المتصارعة فيما بينها، فتوزعت ثروات اليمن ومواردها الاقتصادية بين تلك القوى، فمينا عدن ذو الأهمية الاستراتيجية كمحطة تجارية رئيسة على طريق التجارة البحرية بين الشرق والغرب كان تحت حكم بني زريع الذين بدأت في أيامهم مظاهر العناية بذلك المرفأ التجاري المهم، وكان إقليم

تهامة الغني بثروته الزراعية ومصائد الأسماك واللؤلؤ تحت حكم بني نجاح، وأما المناطق الجبلية الزراعية الخصبة فقد توزع حكمها بين بقايا الصليحيين في اليمن الأسفل وبني حاتم في اليمن الأعلى، في حين كانت صعدة الغنية بمناجمها تحت حكم الأشراف الزيدية، وخضع إقليم حضرموت الواسع والمتعدد الثروات لحكم عدد من الأسرات من أبرزها آل راشد، وقد تناولنا في الفصل الأول بعض ما ذكرته المصادر عن الثروات التي كانت تلك الدول تحصلها من الأقاليم الخاضعة لها لا سيما عدن وتهامة.

إلا أن الصراع السياسي والصدمات العسكرية بين تلك الدول أدت إلى تبيد ثرواتها، ومن ثم إضعاف قوتها وانهارها، فالداعي محمد بن سبأ يشتري من الأمير منصور بن المفضل جميع المعامل المتبقية للصليحيين بمائة ألف دينار<sup>(١)</sup>، والسلطان حاتم بن أحمد الهمداني يتسابق هو والإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان في كسب الزعامات القبلية عن طريق بذل الأموال<sup>(٢)</sup>، واستنزفت حروب بني نجاح ضد الصليحيين وبني زريع والحروب الأهلية فيما بينهم خزينة دولتهم مما جعلهم يعجزون عن مدافعة علي بن مهدي عن زيد<sup>(٣)</sup>، فيكف يتوقع أن يكون لليمن موقف اقتصادي في ظل الأوضاع التي تعيشها البلاد، بل إن ميناء عدن نفسه تعرض للغزو من قبل حاكم جزيرة قيس ولم يقو بنو زريع على صد ذلك العدوان إلا بالحيلة<sup>(٤)</sup>.

(١) عمارة: المفيد، ص ١٥٠؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص ٢٢٥.

(٢) الخزرجي: العسجد، ص ٧٥-٧٦؛ ابن الديبع: المصدر نفسه، ص ٢٠٧-٢٠٨.

(٣) عمارة: المفيد، ص ١٦٧-١٨٨؛ الجندي: السلوك، ج ٢/ ص ٤٩٧، ٥٠٧، ٥١٠، ٥١٥.

(٤) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص ١٢٤-١٢٥.

## ٢- تدهور الحركة التجارية في البحر الأحمر:

أدت الاضطرابات السياسية التي عاشتها مصر الفاطمية إلى تدهور الحركة التجارية في البحر الأحمر، فأثر ذلك في النشاط التجاري للموانئ اليمنية التي كانت تعتمد على الموانئ المصرية لتصريف فائض ما يصلها من السلع الشرقية، ومن جهة ثانية فإن السلطات الحاكمة في الموانئ اليمنية المنشغلة بالصراعات السياسية والعسكرية جعلت همها الوحيد هو كيفية جمع أكبر قدر من الأموال لتلبية تلك الاحتياجات، وذلك عن طريق الضرائب المفروضة على التجار، التي لم يصاحبها تقديم الخدمات التجارية والأمنية اللازمة لازدهار الحركة التجارية، أو تطوير الإمكانيات الاقتصادية للموانئ التابعة لها، مما أدى إلى انخفاض معدلات الدخل في الموانئ اليمنية<sup>(١)</sup>.

فضلاً عن أن الصراع السياسي والعسكري بين القوى السياسية اليمنية أدى إلى حدوث نوع من المقاطعة التجارية بين عدد من الأقاليم اليمنية، كالمقاطعة الاقتصادية بين دولة بني نجاح وبني زريع التي استمرت زهاء ثلاث سنوات، الأمر الذي كان له بالغ الأثر في تدهور الحركة الاقتصادية للدولتين<sup>(٢)</sup>.

## ثانياً- موقف اليمن الاقتصادي خلال الحكم الأيوبي والرسولي:

يعد صلاح الدين الأيوبي المخطط الأول للسياسة الاقتصادية الإسلامية كسلاح فعال ضد الوجود الصليبي في المنطقة ومطامعهم الاقتصادية فيها،

(١) صادق: التطور التاريخي، ص ٥٧-٥٨. (٢) عمارة: النكت، ص ٢٦-٢٧.

لا سيما أنهم سيطروا سيطرةً تامة على موانئ الشام والمعابر التجارية منها وإليها، في حين كانت الدولة الفاطمية تعاني من بعض المصاعب الاقتصادية بسبب اضطراب الأحوال في مصر والصراع بين الوزراء، الأمر الذي ترتب عليه قيام أزمة نقدية نتجت عن المقاطعة الأوروبية لتجارة المرور عبر الأراضي المصرية ونضوب موارد التبر من مناجم الذهب المصرية<sup>(١)</sup>.

وعندما تولى صلاح الدين الحكم في مصر شرع على الفور بمعالجة تلك الأزمة عبر تنظيم موارد البلاد، وإصلاح النقد وبناء قاعدة اقتصادية متينة لمصر تكون حجر الأساس للوحدة الاقتصادية مع بلاد الشام والجزيرة العربية، وقد تمكن من تطبيق خطته الاقتصادية<sup>(٢)</sup> عبر الآتي:

أ - دعم الصناعات المحلية في الدولة الأيوبية، ورفع الطاقة الإنتاجية للمصانع والمعامل والأراضي الزراعية التي تنتج مختلف أنواع السلع المرغوبة في السوق الأوروبية كالزجاج والمنسوجات والسكر<sup>(٣)</sup>.

ب - تشجيع التجارة في البحر الأحمر وتأمينها لضمان وصول السلع الشرقية إلى مصر<sup>(٤)</sup>.

ج - تفعيل التعامل التجاري مع المدن الإيطالية عبر الموانئ المصرية عبر

(١) سالم: البحر الأحمر، ص ٨٣؛ صادق: التطور التاريخي، ص ٥٨.

(٢) وقد صارت تلك الخطة الأساس الذي قام عليه اقتصاد الدول المطلة على البحر الأحمر طوال العصور الوسطى، إلى أن تمكن البرتغاليون من كسر تلك القاعدة بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح الذي مكّنهم من الوصول مباشرة إلى الهند من دون الحاجة إلى المرور من مصر.

(٣) العبادي: في التاريخ الأيوبي والمملوكي، ص ١١٠.

(٤) توفيق: الدبلوماسية الإسلامية، ص ٩٩-١٠١؛ العبادي: المرجع نفسه، ص ٤٨-٤٩.

مجموعة من الاتفاقيات التجارية والتسهيلات الممنوحة لهم، مما يؤدي إلى سحب البساط التجاري من تحت موانئ بلاد الشام الخاضعة للصليبيين<sup>(١)</sup>.

وبالنسبة إلى اليمن فقد كان لها موقعها من مخططات صلاح الدين الاقتصادية، وذلك من خلال الآتي :

#### ١- استثمار موارد اليمن الاقتصادية :

إن موقع اليمن الاستراتيجي وإمكاناتها الاقتصادية وثروتها الزراعية والمعدنية، كان من الأسباب التي أدت إلى استحالة قيام القوى الإسلامية الكبرى في المنطقة - لا سيما الدولة الأيوبية - برسم سياستها العامة في مواجهة الصليبيين، إلا إذا ضمنت اليمن في إطارها، وقد كشفت السياسة التي اتبعتها صلاح الدين تجاه اليمن عن إدراكه أهمية ذلك القطر بالنسبة لخطته الاقتصادية، نظرًا لإمكانات اليمن الزراعية والصناعية، فقد أظهرت الإدارة الأيوبية في اليمن اهتمامًا بالغًا بأنواع معينة من تلك المنتجات نظرًا لأهميتها وزيادة الطلب عليها في الأسواق المصرية، ومن ثم إلى الموانئ الأوروبية، فمن ذلك تشجيع الأيوبيين زراعة الفوة وهي عروق نبات لونها أحمر تستعمل في صباغة الحرير كان الطلب عليها كبيرًا في الهند ومصر والشام والموانئ الخاضعة للصليبيين<sup>(٢)</sup>.

واستنادًا إلى مبدأ "زيادة الطلب على الإنتاج ← تضغط على الطاقة الإنتاجية للاقتصاد" فإن زيادة الطاقة الإنتاجية تؤدي بدورها إلى زيادة

(١) توفيق: المرجع السابق، ص ١٠٢، ١٠٥.

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣ / قسم ٢ / ص ٦١١؛ شهاب: عدن فرضة اليمن، ص ١٢٢.

الطلب على الاستثمار أو زيادة معدل الاستثمار<sup>(١)</sup>، وبناءً على ذلك فقد سجلت خلال الحكم الأيوبي لليمن زيادة ملحوظة في زراعة الفوة التي انتشرت زراعتها في اليمن بشكل واسع حتى زرعت في معظم جبال اليمن، وعلى الرغم من أن تلك الملاحظة سجلت سنة (٦١٥هـ / ١٢١٨م)<sup>(٢)</sup>؛ فإن ذلك لا يعني أن انتشار زراعتها كان بين عشية وضحاها، وإنما كان نتيجة جهود سابقة قام بها الحكام الأيوبيون الأوائل، وقد بلغ من ضخامة إنتاج اليمن من الفوة أن قدرت الضريبة التي تؤخذ على تصدير الفوة من ميناء عدن بمائة وخمسين ألف دينار سنوياً<sup>(٣)</sup>، إلا أن المكاسب الهائلة التي كان يجنيها الناس من زراعة الفوة أدت إلى انصرافهم عن زراعة كثير من الغلال والمحاصيل المهمة، فقد كان الجريب<sup>(٤)</sup> من الأرض يغل من الشعير والحنطة خمسة دنائير، بينما كان جريب الفوة يغل حوالي ستين ديناراً، وهو ما اضطر الملك المسعود الأيوبي إلى أن يقوم في سنة (٦٢٤هـ / ١٢٢٦م) بمصادرة محصول الفوة مما أدى إلى الحد من زراعته<sup>(٥)</sup>.

(١) حردان (طاهر حيدر): مبادئ الاقتصاد، دار المستقبل - عمّان، ط١ - ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م، ص ١٣٣.

(٢) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص ١٧٤ - ١٧٥؛ السروري: الحياة السياسية، ص ٤٨٣.

(٣) ابن المجاور: المصدر نفسه، ص ١٤٤ - ١٤٥.

(٤) الجريب من الطعام مكيال يقدر بأربعة أقفزة، والقفيز يعادل تقريباً ستة عشر كيلوجراماً، والجريب من الأرض هو مقدار ما يزرع من الأرض، ويقدر بعشرة أقفزة، وقفيز المساحة يقدر بـ(١٤٤) ذراعاً؛ انظر: ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم): لسان العرب، دار صادر - بيروت، ط١ - ١٩٩٧م، مج ١/ ص ٣٩٨، مج ٥/ ص ٢٩٨؛ المعجم الوسيط، ص ١١٤، ٧٥١.

(٥) ابن المجاور: المصدر السابق، ص ١٧٤ - ١٧٥؛ السروري: الحياة السياسية، ص ٤٨٣؛ شهاب: عدن فرضة اليمن، ص ١٢٢.

ومن جهةٍ أخرى فإن عدم تمكن الإمارات الصليبية في بلاد الشام من تأمين الكميات الكافية من المصنوعات الزجاجية لتغطية احتياجات السوق الأوروبية في ظل تعاظم زيادة الطلب في أوروبا على تلك المنتجات؛ أدى إلى انصراف التجار الأوروبيين إلى الأسواق المصرية التي توافرت فيها تلك السلعة بكميات أكبر وأوفر خلال الحكم الأيوبي، وقد كان لإمكانات اليمن الصناعية موضع في ذلك، حيث ذكرت المصادر قيام نائب الملك المعظم توران شاه على عدن الأمير عز الدين عثمان الزنجيلي بإنشاء مصنع للزجاج في عدن والآجر في منطقة (اللخبة)<sup>(١)</sup>، لغرض تشجيع أعمال الإعمار والبناء في مدينة عدن وتصدير الفائض منه إلى مصر.

ويعد ما ذكر مجرد مثال على إدراك الأيوبيين للثروات التي تحويها أرض اليمن وكيفية الاستفادة منها، وليس من الضروري أن يكون للأيوبيين تصور كامل لأنواع الثروات التي يمكن الإفادة منها في اليمن، وإنما كان ذلك للاستثمار وتلبية لتزايد الطلب على تلك المنتجات في الأسواق الدولية فضلاً عن غيرها من المنتجات اليمنية، التي لم تسجل لنا المصادر التاريخية طبيعة تعامل الإدارة الأيوبية في اليمن معها مثل المنسوجات الحريرية والكتانية والمعادن والعطور.

(١) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص١٤٨؛ بيضاني (إيمان محمد): عدن في مصنف ابن المجاور وابن بطوطة، مجلة اليمن، مركز البحوث والدراسات اليمنية - جامعة عدن، العدد ٢٣، جمادى الأولى ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م، ص٨٢؛ السروري: المرجع نفسه، ص٤٧٧. واللخبة قرية بظاهر عدن على طريق القوافل القادمة إلى عدن براً وهي تبعد ربع فرسخ عن مدينة عدن؛ انظر ابن المجاور: المصدر السابق، ص١٤٨.

## ٢- دعم الحركة التجارية في البحر الأحمر وتنشيطها:

أما فيما يتعلق بتشجيع الحركة التجارية في البحر الأحمر؛ ففضلاً عن العمليات العسكرية للجيش والأسطول الأيوبي في منطقة البحر الأحمر حتى تم إغلاقه في وجه أي سفن غير إسلامية؛ قام صلاح الدين بتحديث الخدمات التجارية والأمنية في موانئ البحر الأحمر، فمن ذلك إلغاء الضرائب التي كانت مفروضة على الحجاج في ميناء عيذاب وجدة، مما أدى إلى ازدهار الحركة الملاحية والتجارية بين الميناءين، وبلغ الأمان في ميناء عيذاب أن كان الناس يمرون بأحمال الفلفل مطروحة على قارعة الطريق لإعياء الإبل عن حملها ولا حارس عليها حتى يعود صاحبها وينقلها مصنونة من الآفات على كثرة المار عليها من الناس<sup>(١)</sup>.

كما أظهرت الإدارة الأيوبية في اليمن عناية بالغة بميناء عدن، إذ قام النائب على عدن الأمير عثمان الزنجيلي بتأمين الحماية للميناء، وذلك من خلال تحصين المدينة بالأسوار والحصون المنيعة من جهة البر والبحر، فقام بمد سور متين من الحجارة والجص على طول ساحل عدن من الجبل الأخضر<sup>(٢)</sup> شمالاً إلى جبل حقات<sup>(٣)</sup> جنوباً، وركب فيه ستة أبواب، وأدار سوراً آخر فوق الجبل المحيط بعدن من جهة البرزخ، وبذلك تم تأمين عدن

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ٦١-٦٢.

(٢) الجبل الأخضر: جبل يطل على مدينة عدن، تعلوه قلعة تسمى حصن الخضراء، وهو موقع حصين يشرف على ميناء صيرة من جانبه الجنوبي الشرقي، ويعرف ذلك الجبل اليوم بالجبل المنصوري؛ انظر: المقحفي: المعجم، ج ١/ ص ٤٣.

(٣) حقات: هو الجزء الغربي المتدرج في الانخفاض من جبل شمسان المطل على مدينة عدن، ويمتد إلى الصخرة المجاورة لجبل صيرة شرقاً كما يطل من الشمال على خليج حقات؛ انظر: المقحفي، المرجع نفسه، ج ١/ ص ٤٨٤.

من جهة البر، ورتب على ذلك السور حامية عسكرية، وأخيراً أدار سوراً ثالثاً على جبل حقات من طرفه الشرقي المطل على الميناء صاعداً نحو الغرب، ويعد سور حقات مكماً للسور البحري، ومهمته منع تهريب السلع التجارية وصد الهجمات البحرية من جهة خليج حقات<sup>(١)</sup>، فأصبحت عدن في سنة (٥٧١هـ / ١١٧٥م) أكثر موانئ الجزيرة العربية أماناً وتحصيناً<sup>(٢)</sup>.

وعلى صعيد الخدمات الملاحية قام الزنجيلي ببناء رصيف الميناء (الفرضة) من جديد، وجعلها ملاصقة للسور البحري، وأحاط ساحتها بجدار، وجعل لها بابين؛ باباً في السور وهو باب الفرضة ومنه تدخل البضائع من الميناء إلى ساحة الفرضة، وباباً إلى المدينة تخرج منه البضائع إلى المدينة بعد استيفاء ما عليها من عشور ومكوس<sup>(٣)</sup>، وبذلك صارت أمور الشحن والتفريغ والحصر منضبطة في مكان معين، كما قام الزنجيلي بتشييد العديد من المشاريع الخدمية للتجار، فأنشأ "القيصارية"<sup>(٤)</sup> العتيقة، الأسواق والدكاكين ودور الحجر، وعادت عدن للإزدهار في زمانه...<sup>(٥)</sup>.

وفي عهد سيف الإسلام طغتكين زاد الاهتمام بميناء عدن، فشهدت المدينة حركة عمرانية واسعة فبنيت الدور والقصور، وبنى ابنه المعز

(١) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص ١٢٨؛ بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص ٤٨؛ شهاب: عدن فرضة اليمن، ص ١٤١. (٢) صادق: التطور التاريخي، ص ٥٩.

(٣) ابن المجاور: المصدر السابق، ص ١٢٨-١٣٠؛ شهاب: المصدر السابق، ص ١٤٢.

(٤) القيصارية (أو القيسارية): نمط من أنماط الأبنية التجارية في العمارة الإسلامية، يغلب على الظن أنه مأخوذ من القيصرية اليونانية بمعنى سوق القيصر أو السوق الإمبراطوري؛ انظر: رزق (عاصم)، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي - القاهرة، ط ١- ٢٠٠٠م، ص ٢٤٥.

(٥) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص ١٣٠.

إسماعيل بناية جميعها دكاكين لبائعي العطور، وجدد والي عدن المعتمد<sup>(١)</sup> قيصارية المعز وبنى حمامًا فاخرًا بها وحفر الآبار<sup>(٢)</sup>.

وبالنسبة إلى العشور والمكوس فقد طور الأيوبيون الضرائب والمكوس التي وجدت في عصر الزريعيين، ونظمت ضمن بنود محددة، وهي:

- مال الفرضة: وهي أقدمها، وتتفاوت تقديراتها تبعًا لنوع البضاعة الداخلة إلى عدن، وتراوح بين ٢٠٪، ٥٠٪.

- ضريبة الشواني: وهي ضريبة فرضها الملك المسعود على التجار لتغطية نفقات الشواني الحربية المرافقة لسفنهم التجارية، وتقدر بـ(١٠٪) من قيمة العشور<sup>(٣)</sup>.

وفي نهاية العصر الأيوبي في اليمن وبالتحديد في سنة (٦٢٥هـ / ١١٢٧م) أضيفت ضرائب جديدة، وهي دار الوكالة وهي قيراط على كل دينار، ودار الزكاة وتختص بجباية الزكاة عن الضرائب المعفية من العشور (مال الفرضة)<sup>(٤)</sup>. وبمناسبة ذكر البضائع المعفية من العشور فهي بضائع جرى العرف من أيام بني زريع على إعفائها من العشور نظرًا للحاجة إليها، وتشجيعًا

---

(١) المعتمد رضي الدين محمد بن علي التكريتي: لم تذكر المصادر أي شيء عن أصله ونشأته، ولكن يرجح أنه كردي من نفس موطن بني أيوب، ولي عدن أواخر الحكم الأيوبي في اليمن، قام ببعض الأعمال العمرانية؛ انظر: بامخرمة، تاريخ ثغر عدن، ص ٢٢٣.

(٢) بامخرمة: المصدر نفسه، ص ٥١، ٥٤؛ بيضاني: عدن في مصنف ابن المجاور وابن بطوطة، ص ٧٧، ٨٠.

(٣) ابن المجاور: المصدر السابق، ص ١٤٠ - ١٤٢.

(٤) ابن المجاور: المصدر نفسه، ص ١٤٣؛ بامخرمة: المصدر السابق، ص ٦٣، ٦٤.

للتبادل التجاري مع أقطار معينة مثل مصر والهند، وتشمل قائمة البضائع المعفأة من العشور، وهي: الواصل من ديار مصر مثل الحنطة والدقيق والسكر والأرز والصابون الرقي والقطارة، و زيت الزيتون و زيت الحار والزيتون المملح، وكل ما يتعلق بالنقل إذا كان قليلاً، والعسل والنحل إذا كان قليلاً<sup>(١)</sup>، وأما ما يجلب من الهند فيشمل كل ما يرسل - يصل - في البحر مثل المخاد، المساور - الأساور - الأنطاع، الأرز، السمسم، الصابون، النعال الهندية، وغيرها من السلع والبضائع الواردة من الهند<sup>(٢)</sup>.

وقد أبقى الأيوبيون هذا النظام فعالاً لما في ذلك من تنشيط للحركة التجارية على طول الخط التجاري الهند - عدن - عيذاب، الأمر الذي عاد بالخير على جميع الأطراف، وهكذا تمكن الأيوبيون من توسيع مجال الحركة التجارية في منطقة جنوب البحر الأحمر والمحيط الهندي، فشهدت الحركة التجارية نشاطاً ملحوظاً بين عدن وبقية الموانئ اليمنية الأخرى وموانئ حضرموت خاصة.

وفي عهد الأتابك سنقر توسعت الهيمنة التجارية لولاية اليمن بين بلدان المحيط الهندي<sup>(٣)</sup>، وشهد ميناء عدن حركة محمومة للسفن التجارية القادمة من الهند أو الذهاب إليها، حتى قدرت أعداد المراكب التي ترسو بميناء عدن سنوياً بما بين سبعين إلى ثمانين مركباً، بل إن مركباً واحداً بلغت

(١) ابن المجاور: المصدر السابق، ص ١٤٢؛ شهاب: عدن فرضة اليمن، ص ١٢٧؛ السروري: الحياة السياسية، ص ٤٩٢.

(٢) ابن المجاور: المصدر نفسه، ص ١٤٢-١٤٣؛ شهاب: المرجع نفسه، ص ١٢٧؛ قائد: التطور التاريخي، ص ٥٧.

(٣) قائد: المرجع نفسه، ص ٥٥.

العشور المفروضة عليه ثمانين ألف دينار<sup>(١)</sup>، وتشير هذه الإحصائيات إلى رواج الحركة التجارية في عدن نظرًا للمكاسب الهائلة التي يجنيها التجار الذين يحملون السلع الشرقية إلى الموانئ المصرية رغم كثرة الضرائب المفروضة عليهم في عدن.

ونتيجة لذلك شهدت الحياة الاقتصادية في الدول الإسلامية المطلة على البحر الأحمر نهضة واسعة النطاق شملت نواحي الحياة كافة، وصارت مصر بفضل ذلك قوة اقتصادية كبرى في المنطقة، وهو ما اضطر المدن التجارية الإيطالية إلى إعادة النظر في سياساتها الاقتصادية، فتسابقت إلى عقد الاتفاقيات التجارية مع الدولة الأيوبية لأجل ضمان استمرار مكاسبهم الاقتصادية من تجارة الشرق<sup>(٢)</sup>.

وقد تمكن صلاح الدين بفضل تلك السياسة الاقتصادية من سحب البساط من تحت الصليبيين في بلاد الشام حتى صارت المدن التجارية الإيطالية تخطب ود الدولة الأيوبية، وتتقرب إلى حكامها، الأمر الذي عاد على المسلمين بمكاسب سياسية وعسكرية واقتصادية غيرت ميزان القوة في المنطقة لصالح المسلمين، وهو ما ذكره صلاح الدين في رسالته إلى الخليفة العباسي الناصر حين قال: "... وما بينهم [التجار الإيطاليون] إلا من يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وبلاده، وكلهم قد تقررت معه المواصفة، وانضمت معه المسالمة على ما نريد

(١) ابن المجاور: المرجع السابق، ص ١٤٤؛ بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص ٦٥.

(٢) بروي: تاريخ الحضارات العام، ص ٣٤٢-٣٤٣؛ هامرتون: تاريخ العالم، مج ٥/

ص ١٧٩؛ قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ٥٦.

ويكرهون، ونؤثر ولا يؤثرون...»<sup>(١)</sup>.

### ٣- دعم التجارة الكارمية.

من الجدير بالذكر أن الخطة الاقتصادية التي طبقها صلاح الدين في دولته قد أسهمت وبشكل واضح في نمو النشاط التجاري لتجار الكارم وازدهاره، تلك الطائفة التي وجدت في التسهيلات الاقتصادية التي قدمتها الدولة الأيوبية مجالاً خصباً لممارسة نشاطها التجاري في الموانئ التابعة لها كافة ومن أهمها ميناء عدن، التي كانت من قبل المركز الرئيس لتجار الكارم الذين استقروا فيها وفي عدد من المدن اليمنية<sup>(٢)</sup>، فلما تولى الأيوبيون حكم اليمن وجد تجار الكارم مجالاً واسعاً لممارسة نشاطهم التجاري بوجود المرافق التجارية من دور ووكالات وأسواق مسقوفة، وتحديث الفرضة، والأنظمة الدقيقة لحصر السلع وتحصيل العشور، والتسهيلات الممنوحة التي تكاد تصل إلى حد الإعفاء الكامل من الرسوم عن بعض السلع المذكورة، وقد عاد ذلك بالخير الوفير على السلطات المتعاملة معهم في مصر واليمن، وتوسيع نفوذهم الاقتصادي حتى صاروا يمثلون هيئة تسيطر على أهم تجارة دولية وهي تجارة التوابل و سلع الشرق، وصار لهذه الطائفة من التجار مؤسسات تنظم نشاطاتها في مصر واليمن والموانئ الإفريقية والهند وسيلان والصين<sup>(٣)</sup>.

وتكمن أهمية هذه الطائفة التجارية في أنها أصبحت تمثل منظمة تجارية

(١) الفلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣ / ص ٨٨.

(٢) سالم: البحر الأحمر، ص ٢٧؛ السروري: الحياة السياسية، ص ٤٩٧.

(٣) سالم: المرجع نفسه، ص ٣٤؛ عثمان: تجارة الكارم، ص ٥١، ٥٨.

إسلامية بلغت من القوة والنفوذ الاقتصادي في عالم التجارة الدولية ما يفوق ما للمدن التجارية الإيطالية (الثلاثة الكبار) من نفوذ في عالم البحر المتوسط، فالمكاسب الضخمة التي كانت التجارة الكارمية تجنيها جراء احتكارها للتجارة الشرقية والتوابل خاصة، جعلت لها مكانة مميزة لدى السلطات الحاكمة في مصر واليمن، بل بلغ من تأثيرها في الاقتصاد العالمي أن أوروبا أفرغت خزائنها من احتياطات المعادن الثمينة لصالح تجار الكارم الوسطاء الشرقيين المحتكرين لهذه السلع، الذين كانوا يحيطون الاتجار بها بنوع من الأسرار والغموض حتى لا يخترق تجار أوروبا ذلك الاحتكار، في وقت كان البهار هو العنصر الرئيس في التوابل، ويلخص تاريخه وحده تاريخ التوابل وتجارة الشرق عمومًا، حتى صار مرادفًا للثروة، واستخدم غالبًا في أوروبا كقيمة نقدية عندما كان كيلو البهار في مرحلة ازدهار تجارته يساوي غرامين من الذهب في الهند فإنه يساوي ثلاثين إلى أربعين غراما بالنسبة إلى المستهلكين الأغنياء في أوروبا، كما كان قنطار الزنجبيل لا يزيد عن أربعة عشر فرنكًا في الهند بينما وصل ثمنه إلى أربعين فرنكًا في الإسكندرية، لتذهب هذه الأموال الطائلة إلى الوسطاء التجاريين من الكارمية<sup>(١)</sup>.

وقد عاد ذلك على تجار الكارم بالخير الوفير والثروات الطائلة من الذهب والفضة، حتى إنه لا يستغرب أن يقوم هؤلاء التجار بتقديم قروض ضخمة لحكام مصر واليمن كلما طلب منهم ذلك، فقد قدموا للسلطان الناصر صلاح الدين في سنة (٥٧٧هـ / ١١٨١م) مكوسًا عن عدة سنوات

(١) عثمان: المرجع السابق، ص ٦١ - ٦٢؛ الأشقر (محمد عبدالغني): تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، د. ط - ١٩٩٩م، ص ٦٧.

مقبلة كان في أمس الحاجة إليها لإعداد قواته في مواجهة الصليبيين<sup>(١)</sup>. وعمومًا فقد سيطر تجار الكارم سيطرة تامة على تجارة الشرق خلال الحكم الأيوبي لمصر واليمن والحجاز وبلاد الشام، إلى أن زالت دولة بني أيوب في مصر وقامت دولة المماليك، فقام السلطان قطز بالضغط على طائفة تجار الكارم لاستخلاص مزيد من الأموال نظرًا لما تقتضيه ظروف المواجهة مع المغول، فضلاً عن الهجمات الصليبية على مصر خلال النصف الأول من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، كل ذلك دفع تجار الكارم إلى أن يركزوا نشاطهم في اليمن - التي أصبحت آنذاك تحت حكم بني رسول - ويتخذوا من المدن اليمنية الكبرى (عدن، تعز، زبيد) مراكز أساسية لهم ريثما تتحسن الأوضاع في مصر المملوكية<sup>(٢)</sup>، فزاد إقبال تجار الكارم على ممارسة نشاطهم التجاري في اليمن في ظل رعاية الدولة الرسولية التي سار حكامها الأوائل على نهج سلاطين بني أيوب في الاهتمام بتجارة البحر الأحمر، لا سيما بعد أن أدت كثرة الضرائب المجبأة في ميناء عدن إلى غنى بني رسول وتزايد قوتهم، كما قاموا بواجبهم في حراسة المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، فلم يسمحوا لأية سفن غير إسلامية بأن تبخر شمالاً من عدن<sup>(٣)</sup>، فلما تحسنت الأوضاع في مصر سعى سلاطين المماليك إلى كسب ود ملوك اليمن من بني رسول وبناء علاقات اقتصادية متينة معهم، ما أعاد الثقة إلى تجار الكارم، فزاد إقبالهم على التجارة في الموانئ المصرية<sup>(٤)</sup>.

(١) المقرئزي: السلوك، ج ١/ القسم الأول/ ص ٧٠ - ٧١.

(٢) عثمان: تجارة الكارم، ص ٦١؛ سالم: البحر الأحمر، ص ٣٧.

(٣) ربيع: البحر الأحمر، ص ١١٢.

(٤) جرادات: الأهمية الإستراتيجية، ص ٨١؛ حوات: مضيق باب المنذب، ص ٢٠.

وبالنسبة إلى الوجود الصليبي في بلاد الشام وجزر البحر المتوسط فقد عدت الخطة الاقتصادية التي وضعها صلاح الدين وسار عليها خلفاؤه من بعده ضربة خطيرة للاقتصاد الصليبي، إذ انصرفت المدن التجارية الإيطالية بكليتها إلى الموانئ المصرية طلباً للكسب الوفير والحصول على مزيد من الامتيازات والتسهيلات التي تقدمها لهم السلطات الأيوبية، ونتيجة لذلك بدأ اقتصاد الإمارات الصليبية في التدهور، ما انعكس على مواردها المالية وجاهزيتها العسكرية، حتى كانت معركة حطين التي كان صداها مدوياً في جميع أنحاء أوروبا، الأمر الذي دفع بكثير من المتعصبين للحروب الصليبية إلى المطالبة بتطبيق الحصار الاقتصادي على مصر وغيرها من البلاد الإسلامية، وقد لقيت تلك النداءات ترحيباً من روما التي أصدر بابواتها سلسلة من قرارات الحرمان ضد من يتعامل مع المسلمين لا سيما في توريد مواد قد تستعمل في دعم المجهود الحربي للمسلمين، إلا أنه نظراً لسداجة تلك الفكرة واستحالة تطبيقها لم تجد من يستجيب لها من بين القوى التجارية الأوروبية المتعاملة مع المسلمين، ما دفع بعدد من دعاة الحروب الصليبية إلى تقديم مشاريع متعددة تهدف بشكل عام إلى إيجاد طريق تجاري بديل عن مصر والبحر الأحمر، وذلك لغرض حرمان المسلمين من ذلك المورد الاقتصادي المهم<sup>(١)</sup>.

وقد أدت الظروف الدولية التي طرأت على العالم آنذاك جراء غزو

(١) سانوتو (مارينو): كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها، نقله إلى العربية: الأب سليم رزق الله، دار الريحاني للطباعة والنشر - بيروت، ط١ - ١٩٩١م مقدمة المراجع، ص١٢ - ١٣؛ جرادات: الأهمية الاستراتيجية، ص٧٨؛ عاشور: الحركة الصليبية، ج٢/ ص٩٤٩ - ٩٥٥؛

المغول معظم بلدان آسيا، إلى سد طريق بغداد التجاري إثر سقوط الأنظمة الحاكمة التي كانت تقوم عليه، فلم يبق أمام الغرب الأوروبي للحصول على منتجات الشرق الأقصى والهند ولا سيما التوابل والبخور إلا طريق دولة المماليك، الذين جنوا أرباحًا طائلة من وراء احتكار تجارة الشرق، فصرفت المدن التجارية الإيطالية النظر عن فكرة محاربة المماليك، وكرست جهودها لكسب ثقة المماليك وصدقتهم<sup>(١)</sup>، لا سيما أن التجارة مع مصر كانت تعني فتح أبواب التجارة الشرقية المغلقة عن طريق الهند - اليمن - مصر<sup>(٢)</sup>.

ومع مرور الوقت آتت الخطة الاقتصادية التي وضعها صلاح الدين ثمارها، إذ لم يعد أمام أوروبا - وقد فشلت كل محاولاتها لاحتلال مصر والسيطرة على تجارة البحر الأحمر - إلا أن تخطب ود القوى الإسلامية في مصر والشام، وتبدأ معها صفحة جديدة من العلاقات السلمية التجارية جرّت إلى فلحها مع مرور الوقت المزيد من الممالك الأوربية، التي اضطرت إلى قطع دعمها للمشاريع الصليبية التي تدعو إليها البابوية ومن معها من الممالك الأوربية، وذلك للحفاظ على مصالحها التجارية مع دولة المماليك، والتزامًا بالاتفاقيات المبرمة بين الجانبين بذلك الشأن<sup>(٣)</sup>، وأخيرًا فإن الباعث الاقتصادي الذي أسهم من قبل في تحريك كثير من القوى في أوروبا للاشتراك في الحروب الصليبية؛ أصبح هو نفسه سببًا في مشاكل إعداد وتنظيم الحملات الصليبية المتأخرة<sup>(٤)</sup>.

(١) عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢ / ص ٩٤٩؛ عثمان: تجارة الكارم، ص ٤٧ - ٤٨.

(٢) سانوتو: كتاب الأسرار، ص ١٠٢.

(٣) العبادي: في التاريخ الأيوبي والمملوكي، ص ١١٠ - ١١٢، ٢٥٧.

(٤) رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣ / قسم ٢ / ص ٦٠٠.



## الفصل الخامس

### موقف اليمن الشعبي

• **المبحث الأول:** نماذج من مواقف اليمنيين المقيمين في مصر وبلاد الشام.

أولاً: نجم الدين عمارة اليمني.

ثانياً: الإمام محمد بن يحيى الزبيدي.

ثالثاً: الشيخ عبدالرحمن اليمني.

• **المبحث الثاني:** نماذج محلية لمواقف أهل اليمن.

أولاً: الشيخ الجليل أبو محمد سفيان الأبيني.

ثانياً: الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة.

ثالثاً: نموذج لدور المرأة في دعم الجهاد ضد الصليبيين.



### موقف اليمن الشعبي

إنَّ من الصعوبة بمكان تتبع أعمال الأفراد ممن لا يمثلون الهيئة الحاكمة في العصر الإسلامي، فالمؤرخ هنا يتعامل مع عصر اختفت فيه الحواجز بين البلدان، مما جعل آلاف الناس المغمورين يمرون من أمام التاريخ من دون أن يسجل حتى وجودهم في تلك المدة، إلا أنه لحسن الحظ أن الحضارة الإسلامية قدمت لنا قوائم ضخمة من عناوين مؤلفات عكف أصحابها على تتبع تاريخ طبقات وفئات متعددة من الناس ابتداءً بالخلفاء والملوك، ومروراً بالعلماء والأدباء، وانتهاءً بالمغنين والمغنيات<sup>(١)</sup>.

وبالنسبة إلى موضوعنا وهو التقصي في المصادر التاريخية لمواقف سجلت لليمنيين من عامة الناس، أفراداً كانوا أو جماعات، في سبيل نصرة إخوانهم بمصر وبلاد الشام في جهادهم ضد الصليبيين سواءً بالسيف أم الكلمة من وعظ ونصح وشعر وحتى الدعاء الذي هو سلاح كل مؤمن، فقد كان تتبع مثل هذه المواقف في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي متيسراً نظراً لسهولة تمييز أهل اليمن من بين الجموع التي انطلقت من الجزيرة العربية لفتح العالم، فتمكن المؤرخون من تسجيل مواقف أهل اليمن الجهادية في تلك المرحلة المبكرة من تاريخ الإسلام استناداً إلى درايتهم بأنساب تلك القبائل وألقابها ومواطنها، كما أن بعض اليمنيين نبغوا وبرزوا في معارك الفتح الإسلامي قادة وأمرأء للجيوش

(١) عثمان (محمد فتحي): المدخل إلى التاريخ الإسلامي، دار النفائس - بيروت،

الإسلامية<sup>(١)</sup>.

إلا أن ميزة تتبع اليمنيين في الأمصار صارت أكثر صعوبة بمرور الوقت وتوالي القرون، حيث استقر كثير من أهل اليمن في تلك الأمصار، حتى صاروا ينسبون إليها، الأمر الذي انسحب بدوره على أية محاولة لتمييز الجنود اليمنيين الذين شاركوا في الجهاد ضد الصليبيين خلال العصرين الأيوبي والمملوكي، لا سيما وقد انضوى تحت ألوية جيوشهم مقاتلون من مختلف الأجناس من عرب وأكراد وترك ومغاربة، فضلاً عن وجود المتطوعة من مختلف البلدان في تلك الجيوش، مما يوجد احتمالاً بوجود عدد من اليمنيين بين صفوفهم، ونشير هنا إلى ما ذكرناه في الفصل الثالث عن وجود جيش يماني يرابط في مصر إسهاماً من السلطان المظفر في نصرته إخوانه المسلمين في مصر وبلاد الشام، الذي يعد موقفاً عسكرياً رسمياً من الدولة الرسولية، وهناك أفراد من أهل اليمن كان لهم إسهام في نصرته إخوانهم بالكلمة عبر الوعظ وتقديم النصيحة للأمرء وقول الحق وإن كان مرّاً، وأحياناً عبر الشعر تمجيداً للانتصارات التي يحققها الملوك والأمرء على العدو.

لقد ظل أهل اليمن متفاعلين مع الأحداث التي تعيشها الأمة، ويسهمون في الدفاع عنها ضد الأخطار التي كانت تتهددها حسب ما تتيحه لهم ظروف

(١) الحديثي (نزار عبداللطيف): أهل اليمن في الإسلام دورهم واستقرارهم في الأمصار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، د.ط - د.ت، ص ١٢٥-١٣٨؛ الشجاع (د. عبدالرحمن عبدالواحد): تاريخ اليمن في صدر الإسلام من البعثة المحمدية حتى قيام الدولة الأموية، دار الفكر - دمشق، ط ١ - ١٩٨٧م، ص ٢٩٩-٣١٠.

ذلك العصر، انطلاقاً من إحساسهم بأن المسلمين أمة واحدة، وأنهم كالجسد الواحد في مواجهة التحديات التي يواجهونها رغم تطرف موقع اليمن في الركن الجنوبي من ديار الإسلام، وبعدها جغرافياً عن مواطن الأحداث في مصر وبلاد الشام والعراق، ما كان له أثره في كيفية تعامل أهل اليمن مع تلك التحديات وإدراكهم الظروف المحيطة بها ومدى خطورتها على الأمة الإسلامية، فعلى سبيل المثال يروي لنا الجندي عن أحد العلماء من أهل اليمن قائلاً: "...كنت بمكة عام كذا وأربعمائة، فكنت يوماً في الحرم عند القيلولة في شدة الحرّ وما في المطاف إلا رجل أو رجلان، وإذا برجل عليه طمران مشتمل على رأسه أقبل يسير رويداً حتى قرب من الركن الأسود ولا أعلم ما يريد، وأنا أنظر إليه، فأخرج من تحته معولاً وضرب الركن ضربة شديدة... ثم رفع يده يريد يضربه ثانياً ليذهبه، فابتدره رجل من أهل اليمن من السكاسك كان في الطواف قطعته بخنجر كان معه طعنة عظيمة فأسقطه، فأقبل الناس من نواحي المسجد لينظروه فوجدوه قد مات، وهو رومي معه معول عظيم قد حدّه ليقطع به الركن ثم أخرجوه من الحرم، وجمعوا له الحطب، وأحرقوه بالنار...".<sup>(١)</sup>

وهذه الحادثة التي رواها الجندي هي نفس ما ذكره ابن كثير في حوادث سنة (٤١٣هـ / ١٠٢٣م) قائلاً: "...جرت كائنة غريبة عظيمة ومصيبة عامة، وهي أن رجلاً من المصريين من أصحاب الحاكم اتفق مع جماعة من الحجاج المصريين على أمر سوء، وذلك أنه لما كان يوم النفر الأول طاف هذا الرجل بالبيت... فاتقاه أكثر الحاضرين وتأخروا عنه؛

(١) الجندي: السلوك، ج ١/ ص ٢٧٧.

وذلك لأنه كان رجلاً طويلاً جسيماً، أحمر اللون، أشقر الشعر<sup>(١)</sup>، وعلى باب الجامع جماعة من الفرسان وقوف ليمنعوه ممن يريد منعه من هذا الفعل... فتقدم إليه رجل من أهل اليمن معه خنجر فوجأه به، وتكاثر الناس عليه فقتلوه وقطعوه قطعاً... " (٢).

إن هذه الرواية تكشف لنا بجلاء الاندفاع الطبيعي لدى أهل اليمن للذود عن مقدسات الأمة، على الرغم من عدم توافر القدر الكافي من المعلومات لديهم لتكوين صورة كاملة عن خلفيات تلك التحديات ومن وراءها.

إلا أن ذلك لا يعني عدم إدراك أهل اليمن أهمية الجهاد والتصدي لأعداء الإسلام والذود عن الديار والمقدسات، فقد تناول علماء الإسلام الجهاد عموماً وواجب الأمة نحوه من خلال بعض مؤلفاتهم، ومنهم علماء اليمن، فالإمام يحيى بن أبي الخير العمراني<sup>(٣)</sup> الذي عاش في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي وعاصر سقوط بلاد الشام في أيدي الصليبيين ذكر في كتابه البيان وبالتحديد في باب الجهاد "...الجهاد فرض من فروض الكفاية منذ فرضه الله تعالى إلى وقتنا هذا... ومتى علم الإمام

(١) لعل هذا هو السبب في الاشتباه بأنه رومي كما جاء في رواية الجندي.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢ / ص ١٦.

(٣) الإمام أبو الحسين جمال الإسلام شمس الشريعة يحيى بن أبي الخير سالم بن أسعد العمراني (٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م - ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م)، ولد بمصنعة سَيْر، وتفقه على يد جماعة من العلماء، منهم خاله ابن عثمان العمراني، وموسى بن علي الصعبي، وعبدالله بن أحمد الزبراني وعنه أخذ (المهذب) و(اللمع) و(الملخص)، اشتغل بالتدريس، وذاع صيته بين الناس، ولا سيما بعد تأليفه كتابه (البيان) الذي بلغت شهرته العراق، اشتهر بتصديه لأصحاب الكلام من المعتزلة من خلال بعض مؤلفاته ومناظراته، أثنى عليه معاصروه من العلماء والحكام؛ انظر: الرسولي، العطايا السننية، ص ٦٧٠ - ٦٧٤.

في المسلمين قوةً، وعددًا، وقوةً في نية القتال فالمستحب له: أن يكثُر من الجهاد... وإن علم الإمام في المسلمين قلة عدد، أو ضعفًا في نياتهم، أو فيما يحتاجون إليه... جاز له أن يؤخر الجهاد أكثر من سنة إلى أن يكثُر عددهم، وتقوى نياتهم، أو يوجد ما يحتاج إليه في القتال؛ لأن القصد بالقتال النكاية في العدو، فإذا قاتلهم مع وجود هذه الأشياء لم يؤمن أن تكون النكاية في المسلمين...<sup>(١)</sup>.

فما ذكره الإمام العمراني هو نفس رأي علماء الإسلام في فقه الجهاد عندما تتعرض الأمة إلى غزو من عدو أكثر عددًا وقوة، فيصبح الإعداد والجاهزية شرطًا لا يتم الجهاد إلا به، وإلا عُدَّ ذلك تغييرًا بالمسلمين ورميًا بأيديهم إلى التهلكة.

وعلى الرغم من أن الإمام ابن تيمية أبدى أسفه على ما آل إليه موقف أهل اليمن مع بداية القرن (الثامن الهجري) من التخاذل عن الجهاد بقوله: "... وذلك أن سكان اليمن في هذا الوقت ضعاف، عاجزون عن الجهاد، أو مضيعون له، وهم مطيعون لمن ملك هذه البلاد [مصر] حتى ذكر أنهم أرسلوا بالسمع والطاعة لهؤلاء..."<sup>(٢)</sup>، إلا أنه علل ذلك بضعف حكام اليمن ومتابعتهم حكام مصر خلال الربع الأول من القرن (الثامن الهجري)، كما أن تحديده الزمن بـ(هذا الوقت) يدل على تغير حال أهل اليمن عما كانوا عليه في زمن قريب عليه أو على من روى له إسهامات أهل اليمن في

(١) العمراني (أبو الحسين يحيى بن أبي الخير بن سالم): البيان في مذهب الإمام الشافعي، اعتنى به: قاسم محمد النوري، دار المنهاج - جدة، ط ٢ - د.ت - مج ١٢ / ٩٩، ١٠١، ١٠٣.

(٢) ابن تيمية: الفتاوى، مج ١٥ / ج ٢٨ / ٢٩٠.

الجهاد ضد أعداء الأمة.

واستناداً إلى ما سبق فإنه يمكن القول بأنه متى توافرت لفرد أو جماعة من أهل اليمن الفرصة لتقديم المساعدة لإخوانهم المتصددين للعدوان الصليبي في مصر وبلاد الشام؛ فإنهم كانوا يسارعون إلى ذلك انطلاقاً من مبدأ الأخوة الإسلامية وبراءة للذمة أمام الله، وستتناول فيما يلي عدداً من النماذج لمواقف أهل اليمن الفردية سواء أولئك الذين سكنوا مصر وبلاد الشام أم ممن لم يستقروا في غير أرض اليمن.



## المبحث الأول

نماذج من مواقف اليمنيين المقيمين في مصر وبلاد الشام

أولاً- نجم الدين عمارة اليمني:

نجم الدين أبو محمد عمارة بن أبي الحسن علي بن زيدان بن أحمد الحكمي، من تهامة اليمن بمدينة يقال لها مرطان من وادي وساع، وبعدها عن مكة في مهب الجنوب أحد عشر يوماً، و بها ولد وترعرع، ولد في بضع عشرة وخمسمائة للهجرة<sup>(١)</sup>، عاش في بيئة اشتهرت بالفصاحة، ولما شب أرسله والده إلى زيد فأقام فيها ثلاث سنين درس فيها مذهب الشافعي في الفقه والفرائض التي برع فيها وصنف فيها كتاباً ظل يدرّس في اليمن<sup>(٢)</sup>. كما اطلع على قدر من الأدب كان نواة لموهبته الشعرية التي اكتشفها الأديب أبو بكر العندي عندما قدم عمارة عدن للتجارة وطلب الكسب، فأكرمه الأديب، وقدمه إلى الداعي محمد بن سبأ، يقول عمارة: "فأعلمته [الأديب] أنني لست بشاعر، فلم يزل يلازمي، ويحسن لي، حتى عملت قصيداً غير مرضٍ، فأعرض الأديب عنه، وعمل على لساني قصيداً مرضياً ذكر به المنازل من زيد إلى عدن، وهناً به الداعي محمد بن سبأ بإعراسه بابنة الشيخ بلال بالفاظ خاصية وكتابية ثم تولى عني نشيدها... وأخذ لي جائزة من الداعي بلال وطيباً، واشترى لي بضاعةً من المال الذي كان معي، ثم لما عزمتم على السفر قال لي يا هذا إنك قد اتسمت عند القوم

(١) هذا هو نسبه كما أورده بنفسه في كتابه "النكت"؛ انظر: ص٧؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج٣/ ص٤٣١؛ الجندي: السلوك، ج١/ ص٣٦٠.

(٢) عمارة: المصدر نفسه، ص٢٣.

بسمة شاعر فطالغ كتب الأدب ولا تجمد على الفقه...<sup>(١)</sup>، ومنذ ذلك الوقت اهتم عمارة بالأدب والشعر حتى صار عيناً من أعيان زمانه، لم يزل مصاحباً لآل زريع خاصة، ولم يكذب شهر له شعر بأحد من حكام اليمين غيرهم<sup>(٢)</sup>.

وبلغ من ثقة بني زريع به أن حمل رسائلهم إلى الأشراف في مكة، الذين أعجبوا به وبفصاحته، فصار يترسل بينهم وبين الخلفاء الفاطميين في مصر، وقد كانت هذه الفرصة التي أتاحت له بداية مرحلة جديدة من حياته، حيث صارت فصاحة عمارة وشعره مفتاح دخوله إلى البلاط الفاطمي، وذلك حين نالت قصيدته التي يقول في مطلعها:

الحمد للعيس بعد العزم والهمم حمداً يقوم بما أولت من النعم  
استحسان الخليفة الفاطمي الفائز<sup>(٣)</sup> ووزيره الملك الصالح طلائع بن  
زريك<sup>(٤)</sup>، ففتحت أمام عمارة أبواب مصر التي أحبها، فسكنها منذ سنة  
(٥٥١هـ / ١١٥٥م)، وصحب الخلفاء الفاطميين ووزراءهم وكبار رجال  
دولتهم مادحاً إياهم بغرر القصائد، فانهالت عليه العطايا حتى عاش في ترف

(١) عمارة: ملحق المفيد، ص ٣٢٨.

(٢) عمارة: المصدر نفسه، ص ٣٢٨؛ الجندي: المصدر السابق، ج ١/ ص ٣٦٠.

(٣) الفائز بنصر الله (٥٤٨هـ / ١١٥٢م - ٥٥٥هـ / ١١٥٩م): أبو القاسم عيسى بن الظافر بن الحافظ بن محمد بن المستنصر، تولى الخلافة بعد مقتل أبيه وهو بعد طفل، وابتلي بالصرع فضلاً عن تسلط وزرائه عليه؛ انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج ٣/ ص ٤٩١ - ٤٩٤.

(٤) الصالح بن زريك (٥٤٩هـ / ١١٥٤م - ٥٥٥هـ / ١١٥٩م): أبو الغارات طلائع بن زريك، كان والياً بمنية بني خصيب من أعمال الصعيد، وكان فاضلاً سمحاً في العطاء، تولى الوزارة للعاضد، وزوجه ابنته، ولكن العاضد دبر اغتياله سنة (٥٥٦هـ / ١١٦٠م)؛ انظر: ابن خلكان، المصدر نفسه، مج ٢/ ص ٥٢٦ - ٥٢٩.

من العيش<sup>(١)</sup>.

واستقر المطاف بعمارة في مصر، وارتفعت مكانته في دولة الفاطميين، ليس فقط لأنه شاعر يحيي مجالسهم بالمديح وروائع الشعر، بل صار مستشارًا للحكومة الفاطمية في شؤون الحجاز واليمن التي لم تنقطع صلته بها لا سيما أصحاب عدن من آل زريع، الذين استغل نفوذه في القاهرة لخدمتهم وتحسين علاقتهم بالخلافة الفاطمية ووزرائها وتسهيل مهام سفرائهم إليها<sup>(٢)</sup>، حتى إن القاضي الفاضل اقترح عليه أن يؤلف كتابًا يتضمن أخبار اليمن، فألف عمارة كتابه المفيد<sup>(٣)</sup>.

وقد عاش عمارة خلال استقراره في مصر العديد من الأحداث التي شهدتها تلك البلاد ولا سيما ما يتعلق منها بمحاولات الصليبيين المتكررة لاحتلال مصر، فوضع عمارة موهبته الشعرية في خدمة واجب الجهاد مادحًا أولي الأمر في مصر لتصديهم لتلك الهجمات الصليبية - رغم وجود محاولات أخرى للمدح إن كان غرضه فقط المدح - فمن ذلك قوله<sup>(٤)</sup> في بعض آل رزيك إثر تصديه لغارة صليبية على حدود مصر<sup>(٥)</sup>:

(١) عمارة النكت، ص ٣٢ - ٣٥؛ ابن خلكان: المصدر السابق، مج ٣ / ص ٤٣٢ - ٤٣٣.

(٢) عمارة المصدر نفسه، ص ٩١.

(٣) عمارة: المفيد، ص ٤٥؛ الجندي: السلوك، ج ١ / ص ٣٦٠ - ٣٦١.

(٤) عمارة: النكت، ص ٤٢.

(٥) ويقصد به الوزير الملك العادل رزيك بن طلائع (٥٥٦هـ / ١١٦١م - ٥٥٨هـ / ١١٦٣م)، وعلى الرغم من أن عمارة لم يذكر السنة التي تمت فيها تلك الغارة فإنه من المرجح أنها كانت غارة استطلاعية قام بها بلدين الثالث (٥٣٩هـ / ١١٤٣م - ٥٥٧هـ / ١١٦٢م) إثر استيلائه على عسقلان في (٥٤٨هـ / ١١٥٣م) ليمهد لغزو مصر؛ انظر: عاشور، الحركة الصليبية، ج ١ / ص ٥٣١.

أنت الذي يعقد الإسلام خنصره      عليه إن حل خطب أو طرا وطرُ  
متوج تشرف الدنيا بطلعته      وتنجل الشمس مهما لاح والقمرُ  
كأن أخلاقه من حسن خلقته      صيغت فقد وافقت الأفعال والصورُ  
إذا أقامت على ثغر صوارمه      فللنوائب عن سكانه سفرُ  
أغرّت قبل أبي الغارات مقتحمًا      للهول تستصغر الجلى وتحتقرُ  
فكان شمسًا وكنت الفجر يقدمها      والفجر في الجو قبل الشمس ينتشرُ  
ومنها وحين أبليت في اللحاق به      والنصر يقسم لا فاتوه والظفرُ

وفي سنة (٥٥٨هـ / ١١٦٣م) قاد الملك عموري الأول (٥٥٧هـ / ١١٦٢م -  
٥٦٩هـ / ١١٧٤م) حملة للاستيلاء على مصر، متذرعًا بعدم وفاء الحكومة  
الفاطمية بدفع الجزية السنوية المقررة عليها من أيام سلفه بلدوين الثالث، وكان  
الوزير في مصر آنذاك أبو الأشبال ضرغام الذي استغل فيضان النيل فأغرق أراضي  
الدلتا بالمياه، مما أجبر عموري الأول على الانسحاب إلى فلسطين<sup>(١)</sup>، وقد خلد  
عمارة ذلك النصر الذي حققه ضرغام في قصيدة جاء فيها<sup>(٢)</sup>:

أطفأت جمرتها بأخوتك الأولى      يتسنمون غوارب الأهوال  
لم أدر والتشبيه يقصر عنهم      أغيوث نُزل أم ليوث نزالُ

كما روى لنا عمارة بعض الأحداث التي عاشتها مصر في أثناء ما عرف  
بالسباق بين نور الدين زنكي وعموري الأول حول الاستيلاء على مصر،  
وقد امتدت أحداث ذلك السباق خلال المدة بين (٥٥٩هـ / ١١٦٤م -  
٥٦٤هـ / ١١٦٨م) مدح خلالها عمارة الوزير شاور بعددٍ من القصائد كان

(١) عاشور: الحركة الصليبية، ج ١/ ص ٥٣١.

(٢) عمارة: النكت، ص ٧٥.

من أبرزها قصيدته التي يقول في مطلعها: (أسمع بذا الفتح المبين وأبصر)،  
جاء فيها:

ضجر الحديد من الحديد وشاورٌ من نصر دين محمد لم يضجر<sup>(١)</sup>  
وعندما تولى الملك الناصر صلاح الدين الوزارة في مصر تمكن بفضل  
موهبته السياسية والعسكرية من صد هجوم الحلف (الصليبي - البيزنطي) على  
دمياط سنة (٥٦٥هـ / ١١٦٩م)، كما تمكن من استرداد ميناء أيلة سنة (٥٦٦هـ /  
١١٧٠م) مما كان له أكبر الأثر في تصاعد شعبية صلاح الدين في مصر،  
فتسابق الشعراء للتعبير عن تقديرهم لذلك البطل الذي قلب ميزان القوى  
السياسية والعسكرية في المنطقة، ومن هؤلاء الشعراء عمارة اليمني الذي قام  
مادحًا الوزير الملك الناصر صلاح الدين بقصيدته التي يقول في مطلعها:

فؤاد بنار الشوق والوجد يحرق أراق كرى الأجفان وهو مؤرقٌ  
ومنها:

تركت قلوب المشركين خوافًا وبات لواء النصر فوقك يخفقُ  
لئن سكن الإسلام جأشًا فإنه بما قد تركتم خاطر الكفر يقلقُ  
سمت بصلاح الدين ملة أحمد وطايرها فوق السماك محلق  
وفي مناسبة أخرى يقول عمارة في قصيدته: (لك الحسب الباقي على  
عقب الدهر)<sup>(٢)</sup>

حمى الله منكم عزيمة أسدية فككتم بها الإسلام من ربة الكفر

(١) عمارة: المصدر السابق، ص ٢٩٩ - ٣٠٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢ /  
ص ٢٧٢؛ بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص ١٦٨.

(٢) عمارة: النكت، ٢٧٠؛ أبو شامة: الروضتين، ج ٢ / ١٨٨ - ١٨٩.

لئن نصبوا في البر جسراً فإنكم عبرتم ببحر من الحديد على جسر  
 طريق تقارعتم عليها مع العدى ففزتم بها والضجر يقرع الضجر  
 أخذتم على الإفرنج كل ثنية وقلتم لأيدي الخيل مري علي مري  
 لقد عاصر عمارة معظم الأحداث التي عاشتها مصر خلال تلك الحقبة  
 وتفاعل معها بلسانه وما أوتي من موهبة شعرية جعلته " . . . لا يلحق شأوه  
 في هذا الشأن . . ." (١)، وعلى الرغم من أنه استخدم تلك الموهبة للتقرب  
 إلى رجال الدولة الفاطمية ليحني المزيد من عطاياهم؛ فإن ذلك لا يعني أن  
 ما قاله من شعر في مدح جهود المتصدين للهجمات الصليبية من الوزراء  
 والقادة ابتداءً بآل رزيق وانتهاءً بآل أيوب - خلال وزارتهم للخليفة الفاطمي  
 العاضد - لا يخلو من عاطفة صادقة، وإدراك للخطر الذي يتهدد الأمة من  
 الوجود الصليبي في المنطقة وأطماعهم في مصر، وأكبر دليل على ذلك تلك  
 الأبيات التي ابتهل بها إلى الله سائلاً إياه أن يحفظ الأمة من خطر الكفار  
 يقول فيها (٢):

يا رب إنني أرى مصرًا قد انتبهت لها عيون الأعداء بعد رقدتها  
 فاجعل بها ملة الإسلام باقيةً وأحرس عقود الهدى من حل عقدتها  
 وهب لنا منك عوناً نستجير به من فتنة يتلظى جمر رقدتها  
 ولا نعلم بالتحديد الظروف التي قال فيها عمارة تلك الأبيات، إلا أنه  
 من الواضح أن قصده من كلمة "فتنة" أن هناك عدم استقرار في الحكومة  
 الفاطمية، وصراعاً على السلطة أدى إلى طمع الأعداء (الصليبيين) في

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢ / ٢٩٣.

(٢) عمارة: النكت، ص ١٩٠.

البلاد، وهذا ينطبق بالفعل على المدة التي تولى فيها شاوور الوزارة وصراعه مع ضرغام عليها، ثم تعاونه مع الصليبيين ضد قوات نور الدين التي أعادته إلى الوزارة، وفي ذلك يقول عمارة "... ولم يُرَبَّ أحدٌ رجال الدولة مثل ما رباهم الصالح - رزيك - ولا أفنى أعيانهم مثل ضرغام، ولا أتلف أموالهم مثل آل شاوور، و شاوور هو الذي أطمع الإفرنج والعُز في الدولة..."<sup>(١)</sup>.

وقبل أن نختم حديثنا عن عمارة لا بد أن نتناول حادثة كانت السبب في اهتمام المؤرخين بعمارة أكثر من كونه فقيهاً وشاعراً، ألا وهي ما عرف في المصادر التاريخية بـ"المؤامرة على صلاح الدين"، التي عدت موقفاً سلبياً من الحروب الصليبية كادت تقضي على حلم الوحدة الإسلامية نهائياً، فقد ذكرت المصادر التاريخية أنه بعد أن قام صلاح الدين بالخطبة للخليفة العباسي بمصر معلناً انتهاء حكم الفاطميين ثارت ثائرة من بقي من رجال الدولة الفاطمية، الذين لم يكونوا ليسلموا لصلاح الدين ببساطة فيضيع منهم المجد والثراء الذي عاشوا في ظله والنفوذ والسلطة التي تمتعوا بها خلال حكم الفاطميين، إلا أنه نظراً للقوة العسكرية الضاربة التي كان يمتلكها صلاح الدين والتفاف إخوته من حوله يساندونه ويؤيدونه، صار من الضروري على هؤلاء أن يضمّنوا لأنفسهم سنداً عسكرياً يضمن لهم التغلب على صلاح الدين والقضاء على دولته النامية، وعلى الفور قام زعماء المؤامرة والمدبرون لها بالاتصال بكل الناقلين على حكم صلاح الدين والمتضررين منه، فأتسعت دائرة المؤامرة لتشمل شيعة الفاطميين ورجال دولتهم، وبقايا جندهم من المصريين والسودان الذين

(١) عمارة: المصدر السابق، ٨٨.

سبق لصالح الدين أن قضى على معظمهم، وحاشية القصر، بل حتى جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده اشتركوا في المؤامرة<sup>(١)</sup>، وعلى الرغم من كثرة الأطراف الذين اشتركوا في المؤامرة فإن الرؤوس المدبرة لها انحصرت في الأسماء الآتية:

١- أبو القاسم هبة الله بن عبدالله بن كامل المعروف بالفضل بن الكامل، قاضي الديار المصرية زمن الفاطميين، ويلقب بفخر الأمناء، وكان عالماً أديباً شاعراً.

٢- ابن عبدالقوي، وهو داعي الدعاة والمؤتمن على دفائن القصر الفاطمي.

٣- القاضي العويرس، ناظر الديوان وكاتب السر.

٤- عبدالصمد الكاتب، أحد أمراء المصريين.

٥- عمارة بن أبي الحسن علي بن زيدان الحكمي اليمني، الذي كان عضواً فاعلاً في ذلك المخطط حتى قيل إنه "... كان من أكابر الدعاة إليه والمحرضين عليه..."<sup>(٢)</sup>.

ففي نهاية سنة (٥٦٨هـ / ١١٧٢م) وبينما كان صلاح الدين غائباً عن مصر في حملة عسكرية على حصن الكرك الذي يهدد الطريق بين مصر والشام؛ شرع المتآمرون في تنفيذ خطتهم فأرسلوا إلى الإفرنج في فلسطين وصقلية يطلبون دعمهم العسكري للقضاء على صلاح الدين ودولته في مصر

(١) ابن الأثير: الكامل، مج٧/ ص٢٣٩-٢٤٠؛ أبو شامة: الروضتين، ج٢/ ص٢٨٢.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٩٢-٢٩٣.

لقاء "شيء بذلوه لهم من المال والبلاد"، كما أرسلوا إلى الحشاشين في بلاد الشام لينضموا إليهم في مؤامرتهم لا سيما أن الدعوة واحدة، إلا أن عودة صلاح الدين المفاجئة بسبب وفاة والده نجم الدين جعلت المتآمرين يدركون ضرورة حرمان صلاح الدين من قواته الضاربة<sup>(١)</sup>، وهنا جاء دور عمارة من خلال تشجيعه لتوران شاه أخي صلاح الدين وذراعه الأيمن على ضم اليمن إلى الدولة الأيوبية كما تناولنا في الفصل الثاني من هذا البحث، فجاءت أبيات عمارة ووصفه المملكة اليمنية لتقطع تردد توران شاه وتجعله يخرج على رأس جزء كبير من جيش صلاح الدين إلى اليمن، فخلا الجو للمتآمرين للقضاء عليه بفضل عمارة حتى قال الأخير: " وأنا قد أبعدت أخاه إلى اليمن خوفاً أن يسد مسده وتجتمع الكلمة عليه من بعده"<sup>(٢)</sup>.

وقد بلغ من ثقة المتآمرين بنجاح خطتهم أن شرعوا في توزيع المناصب فيما بينهم، فعينوا الخليفة والوزير والحاجب وداعي الدعاة وقاضي القضاة والأمراء، حتى أن بني رزيق وبني شاور اختلفوا حول من يتولى الوزارة من البيت<sup>(٣)</sup>، إلا أنهم وقعوا في خطأ قاتل على الرغم من دقة خطتهم، وهو إشراكهم بعض رجال صلاح الدين في مخططهم، ولم يضعوا في الحسبان احتمال أن يكون ولاء هؤلاء أو أحدهم أكثر رسوخاً من المكاسب التي سيجنونها في ظل الدولة الفاطمية الجديدة، وهو بالفعل ما حدث، إذ دخل

(١) ابن الأثير: المصدر السابق، مج٧/ ص٢٣٩؛ ابن كثير: المصدر نفسه، ج١٢/ ص٢٩٢.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه، مج٧/ ص٢٤٠.

(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه، مج٧/ ص٢٤٠؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج١٢/ ص٢٩٢.

في الأمر الشيخ زين الدين علي بن نجا المعروف بالواعظ<sup>(١)</sup>، الذي ما إن أحاط بتفاصيل المؤامرة وأطرافها حتى بادر على الفور إلى إبلاغ صلاح الدين الذي أمره بملازمتهم وإبلاغه بتحركاتهم أولاً بأول، وفرض عليهم رقابة وعلى كل من يتصل بهم من النصارى خاصة، حتى إذا تأكد بالدليل الواضح من خيانتهم أمر بالقبض على المقدمين في هذه المؤامرة، وأسفر التحقيق معهم عن اعترافهم بفعلتهم، فاستفتى العلماء في ذلك، فأفتوا بقتلهم جزاءً لخيانتهم وتآمرهم مع أعداء الأمة، فتم إعدام عمارة ورفاقه في ١٢ رمضان سنة (٥٦٩هـ / ١١٧٣م)<sup>(٢)</sup>.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا اشترك عمارة في تلك المؤامرة؟ وما الأسباب التي دفعته إلى ذلك؟ أهو الولاء للمذهب الشيعي، أم طمعاً في السلطة والنفوذ، أم هو الكره لصلاح الدين؟

لقد أثار موقف عمارة الأخير - الذي ختم به حياته - حيرة عدد من المؤرخين، فابن خلكان وابن كثير يعللان ذلك بولاء عمارة السياسي للفاطميين وإخلاصه لهم، كونهم أولياء نعمته ومن تولوه بالعطايا والإكرام على الرغم من أن عمارة ظل حتى وفاته سنياً شافعي المذهب<sup>(٣)</sup>. وأما الجندي فإنه يشير إلى اختلاف المصريين حول موقف عمارة من الفاطميين وهل دخل في

(١) الشيخ زين الدين علي بن إبراهيم بن نجا الواعظ، ولد بدمشق، ونشأ بها، وقدم بغداد مراراً، انتقل إلى مصر قبل وفاته، وحدث بها، توفي سنة (٥٩٩هـ / ١٢٠٢م)؛ انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٢/ ص ٥٣٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل، مج ٧/ ص ٢٣٩ - ٢٤٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢/ ص ٢٩٢ - ٢٩٣.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج ٣/ ص ٤٣٣؛ ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٢/ ص ٢٩٢ - ٢٩٣.

مذهبهم أم بقي على مذهبه ، ولكنه في النهاية أيد رأي أحد فضلاء المصريين - حسب وصفه - الذين التقى بهم بأن عمارة دخل في مذهب الفاطميين ومات عليه ، وأن أشعاره في رثائهم والدعاء على من أزال ملكهم بالهلاك ألّبت عليه صلاح الدين وعلماء مصر الذين اتهموه بالزندقة وأباحوا دمه لأبيات قالها<sup>(١)</sup> ، فأمر صلاح الدين بإعدامه<sup>(٢)</sup> ، وإلى ذلك الرأي يذهب بامخرمة أيضًا<sup>(٣)</sup> .

وقبل أن نأخذ بأحد الرأيين وجب علينا أن نستمع إلى ما ذكره عمارة في كتابه (النكت) الذي يعد أشبه بمذكرات شخصية له ، إذ يورد عمارة القصة الآتية<sup>(٤)</sup> : "... وكانت تجري بحضرته (الوزير طلائع بن رزيك) مسائل ومذاكرات ، ويأمرني بالخوض مع الجماعة فيها وأنا بمعزل عن ذلك لا أنطق بحرف واحد ، حتى جرى من بعض الأمراء الحاضرين في مجلس السمر من ذكر السلف ما اعتمدت عند ذكره وسماعه قول الله عز وجل ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾<sup>(٥)</sup> ، ونهضت ، فخرجت ، فأدركني الغلمان ، فقلت : حصة يعتادني وجعها ، فتركوني ، وانقطعت في منزلي أيامًا ثلاثة ، ورسوله في كل يوم والطبيب معه [كذا] ، ثم ركبت بالنهار ، فوجدته في البستان المعروف بالمختص في خلوة من الجلساء ، فاستوحش من غيبتني ، وقال : أخيرًا ؛ فقلت : إنني لم يكن بي وجع وإنما كرهت ما جرى في حق السلف وأنا حاضر فإن أمر السلطان بقطع ذلك حضرت وإلا فلا وكان لي في الأرض سعة وفي الملوك كثرة ، فعجب من هذا ، وقال : سألتك بالله ما الذي

(١) يقصد البيت الذي قال فيه :

وكان أول الأمر من رجل سعى إلى أن دعوه سيد الأمم

(٢) الجندي : السلوك ، ج ١ / ص ٣٦٢ . (٣) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ، ص ١٧٠ .

(٤) عمارة : النكت ، ص ٤٣ - ٤٦ . (٥) سورة النساء ، آية : ١٤٠ .

تعتقده في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فقلت: أعتقد أنه لولاهما لم يبق الإسلام علينا ولا عليكم، وأنه ما من مسلم إلا ومحبتهما واجبة عليه، ثم قرأت عليه قول الله تعالى ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾<sup>(١)</sup>، فضحك وكان مرتاضاً حصيماً قد لقي في ولاياته فقهاء السنة وسمع كلامهم، ومما يلحق بهذا الفصل أني لم أشعر في بعض الأيام حتى جاءني منه رقعة فيها أبيات بخطه ومعها ثلاثة أكياس ذهباً، والأبيات قوله:

قل للفقير عمارة يا خير من أضحى يؤلف خطبةً وخطاباً  
إقبل نصيحة من دعاك إلى الهدى قل حطةً وادخل إلينا البابا  
تلق الأئمة شافعين ولا تجد إلا لدينا سنةً وكتاباً  
وعلى أن يعلو محللك في الورى وإذا شفعت إلي كنت مجاباً  
وتعجل الآلاف وهي ثلاثة صلةً وحقك لا تعد ثواباً  
فأجبت مع رسوله بهذه الأبيات:

حاشاك من هذا الخطاب خطاباً يا خير أملاك الزمان نصاباً  
لكن إذا ما أفسدت علماءكم معمور معتقدي وصار خراباً  
ودعوتكم فكري إلى أقوالكم من بعد ذاك أطاعكم وأجاباً  
فاشدد يديك على صفاء محبتي وامنن علي وسد هذا الباباً  
وتقدم لنا هذه القصة دليلاً واضحاً على مدى صلابة عمارة وتمسكه  
بمذهبه، وصراحته في التعبير عن رأيه، وعدم استجابته للإغراءات المادية،  
وكان من الواضح أن رسالة الوزير لا تعدو مجرد حيلة وتجربة لكشف حقيقة  
رأي عمارة وتمسكه بمذهبه، أو أن كل ذلك نوعٌ من الدعاية لنيل المكاسب.

(١) سورة البقرة، آية: ١٣٠.

وبناءً على ذلك فإننا نخلص إلى أن السبب الرئيس لانضمام عمارة إلى صفوف المتآمرين هو ولاء عمارة السياسي للفاطميين، وانقطاع ما كان يصل إليه من عطايا وهبات في زمنهم، فقد كانت عطاياهم وهباتهم تجعله يعيش في رغدٍ من العيش، فضلاً عما فرضه له شاور من عطاء (راتب) على الرغم من اعتزاله عمل الشعر<sup>(١)</sup>، فلما تولى صلاح الدين الوزارة مدحه عمارة بغرر القصائد، مضمناً إياها شكواه من تغير حال الدنيا وقلة ذات اليد وأن عطايا الوزير نالت كل الناس إلا عمارة، مثل قوله:

حتى كأن بني أيوب ما علموا      بأنني في زماني أفصح العرب  
ضاقت علي ليااليهم وقد رحبت      للوافدين إلى الساحات والرحب<sup>(٢)</sup>  
ومن قصيدة عظيمة كتب بها إلى الملك الناصر صلاح الدين يحكي  
قصته وسوء حاله، سماها "شكاية المتظلم ونكاية المتألم"، نورد  
المقتطفات الآتية:

أيا أذن الأيام إن قلت فاسمعي	لنفثة مصدر وأنة موجع
تقاصر بي خطب الزمان وباعه	فقصّر عن ذرعي وقصّر أذرعي
وأخرجني من موضع كنت أهله	وأنزلني بالجود في غير موضع
بسيف ابن مهدي وأبناء فاتك	أقضّ من الأوطان جنبي ومضجعي
فيممت مصرًا أطلب الجاه والغنى	فنلتهما في ظل عيشٍ مُمنع
وفزت بألف من عطية فائز	مواهبه للصنع لا للتصنع
وكم طرقتني من يدٍ عاضدية	سرت بين يقظي من عيون وهجج
وجاد ابن رزيك من الجاه والغنى	بما زاد عن مرمي رجائي ومطمعي

(٢) عمارة: المصدر نفسه، ص ١٧٩.

(١) عمارة: النكت، ص ٨٦.

وليست أيادي شاور بدميمة ولا عهدا عندي بعهد مضيع  
مذاهبهم في الجود مذاهب سنة وإن خالفوني في اعتقاد التشيع  
فقل لصالح الدين والعدل شأنه من الحكم المصغي إلي فأدعي  
أقمت لكم ضيفاً ثلاثة أشهر أقول لصدري كلما ضاق وسَّع  
أعلل غلماني وخيلي ونسوتي بما صغت من عذر ضعيف مرقع  
وضايقني أهل الديون فلم يكن سوى بابكم منه ملاذي ومفزعني  
فإن كنت ترعى الناس للفقه وحده فمنه طرازي بل لثامي وبرقعي  
ألا ترعني للشافعي وأنتمُ أجل شفيح عند أعلى مشفَّع  
ونصري له في حيث لا أنت ناصرٌ بضرب صقيلات ولا طعن شرَّع  
وإني لما أوضحته من زعازع عصفن على ديني ولم أتزعزع  
وردي ألوف المال لم ألتفت لها بعيني ولم أحفل ولم أتطلع  
سألتك في دين لياليك سقنه وألزمه كارهاً غير طيع  
وهاجرت أرجو منك إطلاق راتب تقرر من أزمان كسرى وتبع  
وليتك فيمن أطلق الشرق مطلعي لتعلم نبعي إن عجمت وخروعي<sup>(١)</sup>  
لقد كشفت لنا هذه القصيدة التي تعد من أواخر ما نظمه عمارة من  
آيات الأشياء الآتية:

أ - الرفاهية التي كان يعيشها عمارة في ظل الخلفاء الفاطميين  
ووزرائهم، واستمرار العطاء عليه منهم.

ب - تدهور أحواله بعد تولي صلاح الدين الوزارة لأنه صرف أموال  
الدولة في بناء المدارس ومرتبات الفقهاء وفي ذلك يحتج عماره بأنه فقيه.

(١) عمارة: النكت، ص ٢٨٧ - ٢٩١.

ج - ثبات عمارة علي مذهب أهل السنة عمومًا والشافعي خصوصًا وعدم استجابته للمغريات المادية كافة التي قدمت له.

د - قطع صلاح الدين الراتب المقرر له من أيام شاور.

هـ - عدم إتاحة الفرصة له ليظهر مواهبه في دولة الوزير صلاح الدين وإيجاد مكان في مجلسه.

وهكذا ولت الأيام ظهرها لعمارة، وتدهورت بعد عزٍ وغنى إلى أن أطاح صلاح الدين بالحكم الفاطمي نهائيًا سنة (٥٦٧هـ / ١١٧١م)، الأمر الذي وضع عمارة وأمثاله من صنائع الفاطميين أمام الأمر الواقع، ودفعهم إلى العمل معًا ليقضوا على دولة صلاح الدين ويحيوا الدولة الفاطمية من جديد، فيستعيدوا أيام العز والنجاه والغنى حتى لو كلفهم ذلك مد أيديهم إلى الصليبيين - الذين كان عمارة يدعو عليهم - على أساس أنه نوع من السياسة وتبادل المصالح - في نظرهم - لا خيانة للأمة الإسلامية عبر التواطؤ مع عدوها.

**ثانيًا- الإمام القدوة العابد الواعظ أبو عبدالله محمد بن يحيى بن علي بن مسلم بن موسى بن عمران الزبيدي.**

اختلف حول تاريخ مولده بين سنة (٤٦٠هـ / ١٠٦٨م)<sup>(١)</sup>، وسنة (٤٨٠هـ / ١٠٨٧م)<sup>(٢)</sup>، قدم بغداد مع بداية القرن السادس الهجري فوعظ

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢٠ / ص ٣١٧.

(٢) ابن الجوزي (أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دار صادر - بيروت، ط ١- ١٣٥٨هـ، ج ١٠ / ص ١٩٧- ١٩٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢ / ص ٢٦٠.

بها، وكان ضليعاً في علوم اللغة والنحو خاصة، فاشتغل بالتدريس والتأليف حتى قيل إن مؤلفاته بلغت مائة مصنف في مختلف فنون العلم<sup>(١)</sup>، وقد تزامنت هجرته إلى العراق مع تزايد حدة الصراع في تهامة بين أبناء جيش بن نجاح والحرب الأهلية التي قامت بينهم، فوجد في بغداد الأمان والاستقرار النسبي الذي ينشده، وقد اشتهر بين الناس بصبره على الفقر وأنه كان لا يشكو حاله لأحد، فمن ذلك ما رواه الوزير ابن هبيرة<sup>(٢)</sup> وكان يتلمذ على يديه: "جلست معه [الزيدي] من بكرة إلى قريب الظهرية وهو يلوك شيئاً فسألته، فقال: نواة أتعلل بها لم أجد شيئاً"<sup>(٣)</sup>، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وكان يقول الحق ولو كان مرًا لا تأخذه في الله لومة لائم<sup>(٤)</sup>.

لعل هذا هو السبب في انتقاله من بغداد التي ذاع صيته بها إلى دمشق

- (١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢/ ص ٣١٧؛ السيوطي (جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر): بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية - بيروت، د.ط - د.ت، مج ١/ ص ٢٦٣ - ٢٦٤.
- (٢) الوزير يحيى بن محمد بن هبيرة: تولى الوزارة للمقتني ثم لابنه المستنجد، وكان قد قرأ القرآن وسمع الحديث، وله معرفة جيدة بالنحو واللغة والعروض، وتفقه على مذهب الإمام أحمد، وقد صنف كتباً جيدة مفيدة مثل: الإفصاح، وكان فقيراً لا مال له حتى دخل في خدمة الخلفاء العباسيين، فكان من أحسن وزراءهم سيرة وأبعدهم عن الظلم وأخلصهم لبني العباس، فقد ساندته في صراعه مع سلاطين السلاجقة حتى صفي العراق لبني العباس ليس للسلاجقة معهم فيه حكم، توفي سنة (٥٦٠هـ/ ١١٦٤م)؛ انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٦/ ص ٢٣٠ - ٢٤٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢/ ص ٢٦٧ - ٢٦٨.
- (٣) ياقوت: معجم الأدباء، ج ٦/ ص ٢٦٧٥.
- (٤) ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠/ ص ١٩٨؛ ياقوت: المصدر نفسه، ج ٦/ ص ٢٦٧٥؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢٠/ ص ٣١٧.

سنة (٥٠٦هـ / ١١١٠م) التي كانت آنذاك تحت حكم الأتابك ظهير الدين طغتكين (٤٩٧هـ / ١١٠٤م - ٥٢٢هـ / ١١٢٨م) الذي كان له دور بارز في التصدي للصليبيين والنهوض بحركة الجهاد ضدهم، ولكنه لم يكن يختلف عن حكام عصره في تقديمه لمصلحته على مصلحة الأمة، فانغمس مثل غيره من أمراء المسلمين في سلسلة من المؤامرات لأجل الحفاظ على سلطانه، وكانت أهم المآخذ على طغتكين أمران:

الأول - إيواؤه الإسماعيلية بعد أن كانوا متخفين في دمشق، فبالغ في إكرامهم اتقاء شرهم حتى أعطاهم قلعة بانياس ما زاد من نفوذهم وتسلطهم وأذاهم للناس<sup>(١)</sup>.

الثاني - شبهة اشتراكه في قتل الأمير مودود بن التونتكين صاحب الموصل والتآمر مع الحشاشين لقتله سنة (٥٠٧هـ / ١١١٣م)، وكان مودود قد قاد حملة بأمر السلطان السلجوقي للتصدي للصليبيين والقضاء عليهم، وقد طالب بقية أمراء المسلمين في إقليم الجزيرة وديار بكر وبلاد الشام بالانضمام إليه في حملته الكبيرة التي استمرت قرابة سبع سنين حقق خلالها كثيراً من الانتصارات على الصليبيين، وكان الأتابك ظهير الدين طغتكين من أكبر المساندين له في حملته تلك<sup>(٢)</sup>.

إلا أنه مع تنامي سمعة مودود وذيوع صيته سرت الإشاعات بأنه يريد ضم الشام كله إلى سلطانه، ما أثار مخاوف أمراء الشام منه وعلى رأسهم

(١) الذهبي: المصدر السابق، ج١٩/ ص٥٢٠؛ الصلابي: دولة السلاجقة، ص٦٣٤.  
 (٢) ابن كثير: المصدر السابق، ج١٢/ ص١٩٠؛ عاشور: الحركة الصليبية، ج١/ ص٣٦٠-٣٦٣.

طغتكين، الذي كان بجوار مودود في أثناء خروجهما من باب جامع دمشق بعد صلاة الجمعة عندما هاجم أحد الحشاشين مودود وقتله، في حين لم يصب طغتكين بأذى<sup>(١)</sup>.

ومهما تكن حقيقة التهمة الأخيرة الموجهة إلى طغتكين فإن شبهة اشتراكه في اغتيال بطل عظيم من أبطال الجهاد ضد الصليبيين، وأحد المؤسسين لفكرة الجبهة الإسلامية الموحدة، أثارت غضب قطاع واسع من الناس، من بينهم الإمام محمد بن يحيى الزبيدي الذي وقعت الحادثة بعد عام من انتقاله من بغداد إلى دمشق، فما كان من ذلك الشيخ الذي عرف بقول الحق وإن كان مرًا إلا أن وعظ طغتكين بما يمليه عليه النصح لله ورسوله ولأولي الأمر، فلم يحتمل طغتكين صراحته في وعظه، فضلاً عن خشيته أن يؤلب الناس عليه بفصاحته وقوة بيانه، فأمره بالخروج من دمشق<sup>(٢)</sup>.

ومع ذلك فإن علاقة طغتكين بالباطنية ظلت تؤرق مضجع الغيورين من أبناء الأمة الإسلامية من الأمراء والعلماء، الذين أوصلوا القضية إلى الخليفة العباسي المسترشد بالله، الذي بدوره أرسل رسولاً إلى طغتكين في أمر الباطنية وإيوائه إياهم، ولم يكن ذلك الرسول إلا الشيخ محمد بن يحيى

(١) ابن كثير: المصدر السابق، ج١٢/ ص١٩٠؛ وقد تناول الصلابي في "دولة السلاجقة" أقوال المؤرخين حول اتهام طغتكين بالتواطؤ مع الحشاشين لاغتيال مودود؛ انظر: الصلابي، دولة السلاجقة، ص٦٣٢ - ٦٣٤.

(٢) ابن منظور (الإمام محمد بن مكرم): مختصر تاريخ دمشق، تح: إبراهيم صالح، دار الفكر - دمشق، ط١ - ١٩٨٨م، ج٢٣/ ص٣٣٧ - ٣٣٨؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٠/ ص٣١٧.

الزبيدي<sup>(١)</sup>، الذي يبدو أن علاقته بالوزير ابن هبيرة كان لها دور في إثارة الخليفة العباسي وتكليف الشيخ محمد بن يحيى بحمل رسالة الخليفة إلى طغتكين، ولم تذكر المصادر التاريخية نتيجة تلك السفارة وتفاصيلها، ولكن المعروف أن الشيخ محمد بن يحيى عاد إلى بغداد وقضى فيها بقية حياته إلى أن توفي سنة (٥٥٥هـ / ١١٦٠م)<sup>(٢)</sup>.

### ثالثاً- الشيخ عبدالرحمن اليمني:

لم تذكر المصادر شيئاً عنه غير كونه من أهل اليمن، وأنه كان شيخاً جليلاً ورعاً فاضلاً منقطعاً عن الناس، وكان السلطان العادل أبو بكر بن أيوب يرسل إليه بالمال فلا يقبله<sup>(٣)</sup>، وكان الشيخ عبدالرحمن يقيم بالمنارة الشرقية بجامع دمشق، وأنه توفي سنة (٦٢٠هـ / ١٢٢٢م)، وكان معروفاً بقول الحق عند الملوك وغيرهم، فمن ذلك أنه ذهب مع جماعة من العلماء إلى السلطان العادل للإنكار عليه في عدم حفظ ثغور المسلمين إثر هجوم شنه الصليبيون على بعض بلاد المسلمين - لم يحدد المصدر السنة - وكان الشيخ عبدالرحمن أبلغ الجماعة كلاماً في ذلك<sup>(٤)</sup>.

(١) الذهبي: المصدر السابق، ج ٢٠ / ص ٣١٧؛ بامطرف (محمد عبدالقادر): جامع شمل أعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن وقبائلهم، الهيئة العامة للكتاب - صنعاء، د.ط - ١٩٩٨م، ص ٥٥٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل، مج ٧ / ص ١٥١؛ الذهبي: المصدر نفسه، ج ٢٠ / ص ٣١٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢ / ص ٢٦٠.

(٣) أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ١٣٦.

(٤) أبو شامة: المصدر نفسه، ص ١٣٦.

## المبحث الثاني

### نماذج محلية لمواقف أهل اليمن

تكاد مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي لا تقدم شيئاً عن الجهود الفردية لأهل اليمن في نصره إخوانهم المجاهدين في مصر وبلاد الشام، أو التفاعل الشعبي ضد ذلك الخطر الذي يهدد كيان الأمة الإسلامية كما حدث في عدد من الأمصار مثل بغداد ودمشق<sup>(١)</sup>، فبعد موقع اليمن الجغرافي عن مواطن تلك الأحداث، وعدم اطلاع اليمنيين على تفاصيل ما يجري في مصر وبلاد الشام، فضلاً عن انشغال اليمنيين بمشاكلهم الداخلية والصراع فيما بينهم؛ كل تلك الأسباب أدت إلى خفوت صوت اليمن خلال تلك المرحلة من تاريخ الأمة.

ومع ذلك فقد سجلت لنا بعض المصادر مواقف فردية ليمنيين تجاوزوا العراقيل السابقة، وقدموا إسهاماتهم في نصره إخوانهم المجاهدين كل حسب استطاعته، وفيما يلي سنتناول عدداً من تلك المواقف التي توفر لها من يدونها، والتي تعد بالتأكيد مثلاً على حالات أخرى لم يحالفها الحظ أن تدون.

#### أولاً- الشيخ الجليل أبو محمد سفيان بن عبدالله الأبيني:

لم تذكر المصادر شيئاً عن سنة ولادته ونشأته وتحصيله العلمي سوى أنه كان فقيهاً عالمًا فاضلاً عارفاً، اشتغل في بداية حياته بالعلم اشتغالاً

(١) ابن الأثير: الكامل، مج ١/ ص ٣٨٣-٣٨٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢/ ص ١٦٩-١٧٠؛ الصلابي: دولة السلاجقة، ص ٥٨٨-٥٩٨.

كليًا، ثم ترك ذلك واشتغل بالتصوف، وتناقل الناس قصصًا كثيرة عن كراماته وأخباره مع العلماء والأمراء<sup>(١)</sup>، وما يعيننا في هذا المقام هو رواية تفيد بأن الشيخ سفيان سافر إلى مصر ليحضر الجهاد بدمياط<sup>(٢)</sup>.

ولم تذكر لنا تلك الرواية سنة الذهاب إلى مصر أو حتى تاريخ وفاته في لحج، وإنما من الممكن أن نستنتج أن ذهابه إلى مصر كان في أثناء الحملة الصليبية الخامسة (٦١٥هـ / ١٢١٧م - ٦١٩هـ / ١٢٢٠م) أو الحملة السابعة (٦٤٦هـ / ١٢٤٨م - ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م)، وكلاهما استهدفت مصر واحتلت دمياط، وتعطينا تلك الرواية دلالة واضحة على حماسة أهل اليمن واستعدادهم للمشاركة مع إخوانهم المسلمين في جهادهم ضد الصليبيين، ويحتمل أن يكون هناك آخرون ممن تمكنوا من المشاركة بأنفسهم في الجهاد ضد الصليبيين، ولكن المصادر لم تسعفنا بذكرها.

### ثانيًا- الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة:

عاشت دولة الأئمة الزيديين طوال تاريخها في صراع ضد منافسيهم من القوى القبلية والسياسية المجاورة لهم، وضد بعض الفرق التي عدوها منشقة عنهم، وحتى بعضهم ضد بعض حين كان يظهر في وقت واحد أكثر من إمام، وقد عد أئمة الزيدية الحروب التي خاضوها ضد خصومهم ومنافسيهم نوعًا من الجهاد لترسيخ دعائم حكمهم<sup>(٣)</sup>، ويمكن القول إن

(١) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص ٩٣.

(٢) الشرجي (أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبداللطيف): طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص، الدار اليمنية للنشر والتوزيع - صنعاء، ط ١- ١٩٨٦م، ص ١٤٨.

(٣) زيد: تيارات، ص ١٥٦، ١٩٠- ١٩٧.

رسالة ابن النساخ إلى الخليفة العباسي يشكو فيها الإمام المنصور وفتكه بالمطرفية، تبين لنا مدى انشغال أطراف الصراع في اليمن بمشاكلهم عن الصراع الدائر في بلاد الشام ضد الصليبيين، إذ يقول ابن النساخ في جزء من قصيدته التي تضمنتها رسالته:

فدع عنك أرض الروم وانهض لمكة فسيفك فيه مضرب وذباب  
فما في قتال الروم وهذه بأظهركم ما في الكلام كذاب<sup>(١)</sup>  
وتخبرنا هذه الأبيات بمدى انغماس الزيدية في الصراع ضد منافسيهم ومخالفهم، حتى صار كل طرف يرى أن حربه تلك هي نوع من الجهاد لا يقل عن الجهاد الذي يخوضه المسلمون في مصر وبلاد الشام ضد الصليبيين، وبالنسبة إلى الإمام المنصور فقد سمع برسالة ابن النساخ، فأرسل بدوره رسالة إلى الخليفة العباسي تضمنت قصيدة قال فيها:

يا أهل بغداد إن الله سائلكم عن ملة الدين إذ أحدثم فيها  
أنتم عيون بني الأيام قاطبة في النايبات ولكن القذى فيها  
قد اشمتمت على عمياء مظلمة لا يهتدي لنجوم الحق هاديها  
إن الخلافة أمر هائل خطر صعب مسالكها صعب مراقبها  
لو كان ما أنتم عليه على سنين قام المريض إلى المرضى يداويها  
أيلزم الحد محدود بكم وإلـه الناس أم يرشد الضلال مغويها  
إن الخليفة من يهدي لسنته حتى تضيء له الظلماء ساريها  
ولا يميل إلى لهو ولا لعبٍ إلا باسم العوالي في مجاريها  
يجري الشريعة مجراها الذي وضعت عليه يحل الدار بانيها

(١) الخزرجي: العسجد، ص ١٣٥-١٣٦؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص ٢٦٦.

خليفة الله ترضي الله سيرته      وتطهر الأرض طراً من مخازيها  
ونحن في غمرات الشك فلك هدى      ينجي ويهلك عند الموج قاليها  
نحمي حمى الدين بالجرد العتاق وبال      بيض الرقاق روس الصد فيها  
وكم من فتى يلتقي الأبطال مبتسماً      منا ويطعنها شزراً ويرديها  
إن الإمام الذي يبدو لطالبه      كالشمس لا يستطيع الغيم يخفيها  
إذا دجت ظلمات الخطب قام لها      مشمراً ويجلي أو يجليها<sup>(١)</sup>

وقد أوضح الإمام المنصور من خلال هذه القصيدة وجهة نظره حول ما تواجهه الأمة من تحديات، إذ استفتح القصيدة بالعتاب والإنكار على أهل بغداد، والمقصود بهم (الخلافة العباسية) قلب بلاد الإسلام ورمز وحدته، واستغل الفرصة ليذكر العباسيين بواجبات الخليفة نحو الأمة والدين "إن الخلافة أمر هائلٌ خطر"، معرضاً بالوضع الذي آلت إليه الأمة بسبب ضعف الخلافة العباسية وتخاذلها عن القيام بواجبها تجاه رعاياها، مشيراً إلى تمرس آل البيت الزيدية في أمور الإمامة والذود عن حمى الدين.

وعلى الرغم من أن الغرض الأساسي من تلك القصيدة هو غرض سياسي بقصد إحراج الخلافة العباسية وصرفها عن التدخل في شئون اليمن؛ فإنها في نفس الوقت تدل على إمام الإمام المنصور واطلاعه على الأوضاع التي تعيشها الأمة، وهو ما استخدمه لبيان أحقيته بالخلافة - وهو الإمام العالم المجاهد - من العباسيين المنصرفين إلى اللهو والدعة، ليوصل رسالة واضحة إلى الناس بضرورة قيام خلافة قوية تستطيع الذود عن الإسلام والمسلمين.

(١) المحلي: الحقائق، ج ٢/ ص ١٧٤ - ١٧٥.

### ثالثاً: نموذج لدور المرأة في دعم الجهاد ضد الصليبيين:

على الرغم من شحة المعلومات التي تقدمها المصادر فإنه كان للمرأة في العصر الرسولي دورٌ في دعم الجهاد ضد الصليبيين، فقد ذكر أن والدة السلطان المظفر<sup>(١)</sup> قد تبرعت بكمية كبيرة من التوابل وأرسلتها إلى القاهرة إسهاماً منها في تمويل الجيش المملوكي في حربه ضد الصليبيين<sup>(٢)</sup>، وعلى الرغم من أن تلك المرأة لم تكن يمنية الأصل فإنها كانت زوجةً لسلطان اليمن نور الدين عمر بن علي بن رسول، وأمًّا للسلطان من بعده المظفر، فعاشت حياتها في اليمن، واختلطت بنساء اليمن، وإنه لمن حسن الحظ أن موقعها من رأس السلطة في الدولة الرسولية أتاح لها الإطلاع على الأحداث المحيطة في بلاد الإسلام، فتوفرت لها فرصة الإسهام في دعم جهاد المسلمين في مصر والشام ضد الصليبيين، ومن يدري لعلها أشركت في مبادرتها تلك بعض معارفها من النساء، سواء من البيت الرسولي أم من سواه.



(١) يذكر الجندي أن والدة كلاً من السلطان المظفر وشقيقته الدار الشمسي هي أم ولدٍ تركية كانت لأبيهما؛ انظر: الجندي، ج ٢/ ص ٥٤١.

(٢) صادق (نهى): صورة المرأة اليمنية في الدراسات اليمنية، تر: أحمد جرادات، المعهد الأمريكي للدراسات اليمنية - صنعاء، ط ١ - ١٩٩٧م، ص ١٩٦.

## الخاتمة

نخلص مما سبق إلى أن الأوضاع السياسية في اليمن خلال النصف الأول من القرن السادس الهجري لم تكن لتسمح لليمن بتقديم أية مساعدة لإخوانهم المسلمين في مصر وبلاد الشام، الذين كانوا يعانون من الفرقة والانقسام في ظل إمارات متعددة تتصارع فيما بينها، حتى قيّض الله للأمة من حمل على عاتقه مسؤولية توحيد طاقات الدول الإسلامية تحت راية خلافة وحكومة قوية قادرة على استثمار وتوظيف طاقات الأمة العسكرية والاقتصادية لتوجيه الضربة القاضية للعدو الصليبي، وقد كان لليمن موقعها الذي يليق بها في تلك الاستراتيجية حين تمكنت قوات الأيوبيين من ضم اليمن إلى دولة صلاح الدين الأيوبي، الذي أدرك ببعده نظره ما لليمن من أهمية كبرى في ضمان مواجهة الصليبيين بكل ما يمكن أن تقدمه للأمة من دعم سياسي وعسكري واقتصادي، ويمكن أن نلخص ذلك فيما يأتي:

### أولاً- سياسياً:

تمكن صلاح الدين بفضل الدعم السياسي الذي قدمته له فتوحات أخيه توران شاه في اليمن وغيرها من الأقاليم من كسب رضا الخلافة العباسية ودعمها له ضد منافسيه من الأمراء في الموصل وحلب، حيث إن فتح اليمن مكّن صلاح الدين الأيوبي من القضاء على القوى المتصارعة في ذلك الإقليم من جهة، والقضاء على آخر جيوب الفاطميين في المنطقة من جهة أخرى، فأعاد لذلك الإقليم وزنه وموضعه الذي يليق به في المنطقة، حتى

صارت الكتب تُرسل إلى حكام اليمن من الأيوبيين بالمستجدات كافة على جبهات القتال في بلاد الشام، ولا ننسى أن فتح اليمن جاء تأكيداً لوحدة الأمة الإسلامية تحت راية خلافة واحدة هي الخلافة العباسية.

وفي عصر الدولة الرسولية قدمت اليمن مختلف أشكال الدعم السياسي للمماليك في مصر وبلاد الشام، سواء أكان ذلك عن طريق المراسلات بين الطرفين، أم عن طريق إسهام اليمن الفعال في عزل الحبشة عن القوى الصليبية في بلاد الشام.

#### ثانياً - مالياً وعسكرياً :

تناولنا صوراً من الدعم المالي الذي قدمته اليمن لصالح الجهاد ضد الصليبيين، سواء أكان ذلك عن طريق الأموال التي كان القائمون على الإدارة الأيوبية في اليمن يرسلونها إلى القاهرة، أم عن طريق المساهمات المالية والهدايا التي كان سلاطين الدولة الرسولية يرسلونها إلى سلاطين الدولة المملوكية التي ورثت سلطان الأيوبيين.

أما بالنسبة إلى الدعم العسكري فالملاحظ أنه تفاوت بشكل كبير تبعاً لظروف الأيوبيين والرسوليين بين توفير كمية من الخيل والعتاد خلال الحكم الأيوبي، أو تفعيل تلك الإسهامات لتصل إلى إرسال جيش من اليمن للإسهام في جهاد الصليبيين تحت السلطان المملوكي.

#### ثالثاً - اقتصادياً :

من خلال تنمية اليمن الاقتصادية واستثمار موقعها التجاري المهم لضمان تدفق السلع الشرقية عبر البحر الأحمر إلى الموانئ المصرية،

فطورت الخدمات التجارية والملاحية في ميناء عدن، وتبعًا لذلك أقيمت الأسواق والمصانع، وحصّن ذلك الميناء المهم وقامت السفن الأيوبية في اليمن بتطهير مياه البحر الأحمر والمحيط الهندي من القراصنة، فضلاً عن تشجيع تجار الكارم الذين شكلوا قوة اقتصادية كان لها أثرها في ازدهار اقتصاديات الدول الإسلامية على حساب الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام.

رابعًا- على المستوى الشعبي:

سُجلت لبعض اليمنيين مواقف مشرفة في نصره إخوانهم المجاهدين في مصر وبلاد الشام، وكان معظمهم ممن أتيحت له فرصة الإقامة قرب مواطن الأحداث، فقدموا إسهاماتهم إما عن طريق الوعظ، أو إثارة حماس الناس عن طريق الشعر، وهناك من أهل اليمن من كان له إسهامات فاعلة سجلت عبر السفر لحضور الجهاد ضد الصليبيين والإسهام بنفسه في القتال.

ختامًا لا ننسى أن نشير مرة أخرى إلى أن ما تناولناه في هذا البحث هو ما جادت به المصادر المتوافرة بين أيدينا عن موقف اليمن من الجهاد ضد الصليبيين، رغم بعد المسافة بين اليمن ومواطن الجهاد في مصر وبلاد الشام، وصعوبة تناقل الأخبار عن جهاد المسلمين ضد عدوهم في تلك الأيام.

أسأل الله العليّ القدير أن يتقبل منا اليسير، ويسامحنا على التقصير، إنه على ما يشاء قدير.





الملاحق



### الملحق رقم (١) (\*)

وهو نسخة كتاب كتب به القاضي الفاضل، عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى أخيه سيف الإسلام طغتكين سلطان اليمن، يستقدمه إليه معاوناً له على قتال الفرنج خذلهم الله! ويبشره بفتح كوكب وصدف والكرك في سنة أربع وثمانين وخمسمائة، وهو:

«أصدر هذه المكاتبة إلى المجلس، ومما تجدد بحضرتنا فتوح كوكب: وهي كرسى الاستبارية<sup>(١)</sup> ودار كفرهم، ومستقر صاحب أمرهم، وموضع سلاحهم وذخرهم، وكان بمجمع الطرق قاعدًا، ولملتقي السبيل راصدًا، فتعلقت بفتحه بلاد الفتح وأستوطنت، وسُلبت الطرق فيها وأمنت، وعُمرت بلادها وسُكنت، ولم يبق في هذا الجانب إلا صور، ولولا أن البحر يُنجدها، والمراكب تَردها، لكان قيادها قد أمكن، وجماحها قد أذعن، وما هم بحمد الله في حصن يحميهم، بل في سجن يحويهم، بل هم أسارى وإن كانوا طلقاء، وأموات وإن كانوا أحياء، قال الله عز وجل ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ (٨٤) ، ولكل امرئ أجل لا بد أن يصدقه غائبه، وأملٌ لا بد أن يكذبه خائبه، وكان نزولنا على كوكب بعد أن فُتحت صدف بلدٌ الديوية ومعقلهم، ومشتغلهم وعملهم ومحلهم الأحصن ومنزلهم، وبعد أن فتحنا الكرك وحصونه، والمجلس السيفي<sup>(٢)</sup> أسماه الله أعلم بما كان على

(١) الأصوب "الإستبارية" Hospitalet، وهم فرنجة (كتالونية أو قطلونية)، وقد عرفوا بكونهم إحدى أهم المؤسسات العسكرية الدينية عند الصليبيين؛ انظر:

عاشور، الحركة الصليبية، ج١/ ص٣٨٢.

(٢) إشارة إلى أخيه سيف الإسلام.

(\*) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج٧/ ص٢٢-٢٧.

الإسلام من مؤونته المَثْقَلَة، وقضيته المشكّلة، وعلته المعضلة، وأن الفرنج - لعنهم الله - كانوا يقعدون منه مقاعد للسمع، ويتبوءون منه مواضع للنفع، ويحولون بين قات[كذا](؟) وراكبها فيذللون الأرض بما كانوا منه ثقلاً علي مناكبها.

والآن ما أمنُ بلاد الهرمين بأشد من أمن بلاد الحرمين، فكلها كان مشتركاً في نصرة المسلمين بهذه القلعة التي كانت تُرامي ولا تُرام، وتُسامي ولا تُسام، وطالما استفرغنا عليها بيوت الأموال، وأنفقنا فيها أعمار الرجال، وقرعنا الحديد بالحديد إلى أن ضجت النصال من النصال؛ والله المشكور على ما انطوى من كلمة الكفر وانتشر من كلمة الإسلام، وإن بلاد الشام اليوم لا تسمع فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قياًً سلاماً سلاماً.

وكان نزولنا على كوكب والشتاء في كوكبه، وقد طلع بيمين الأنواء في موكبه، والثلوج تنشر على البلاد مُلاءها القضيض، وتكسو الجبال عمائمها البيض، والأودية قد عجت بمائها، وفاضت عند امتلائها، وشمخت أنوفها سيولاً، فخرقت الأرض وبلغت الجبال طولاً، والأوحال قد اعتقلت الطرقات، ومشى المُطلق فيها مشية الأسير في الحلقات، فتجشمتنا العناء نحن ورجال العساكر، وكاثرنا العدو والزمان وقد يُحرز الحظ المكاثر، وعلم الله النية فأنجدنا بفضلها، وضمير الأمانة فأعان على حملها، ونزلنا من رؤوس الجبال بمنازل كان الاستقرار عليها أصعب من ثقلها، والوقوف بساحتها أهون من نقلها؛ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ﴿١١﴾ .

والحمد لله الذي ألهمنا بنعمته الحديث، ونصر بسيف الإسلام الذي هو سيفه وسيف الإسلام الذي هو أخونا الطيب على الخيث، فمدحُ السيفِ

ينقسم على حديه، ومدحُ الكريم يتعدى إلى يديه؛ والآن فالمجلس - أسماه الله - يعلم أن الفرنج لا يسلون عما فتحنا، ولا يصبرون على ما جرحنا؛ فإنهم - خذلهم الله - أممٌ لا تُحصى، وجيوشٌ لا تُستقصى؛ ووراءهم من ملوك البحر من يأخذ كل سفينةٍ غضبًا، ويطمع في كل مدينة كسبًا، ويد الله فوق أيديهم، والله محيط بأقربهم وأبعدهم ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾<sup>(١)</sup>، ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾<sup>(٢)</sup>.

وما هم إلا كلاب قد تعاوت، وشياطين قد تغاوت<sup>(٣)</sup>، وإن لم يُقذفوا من كل جانب دحورًا، ويُتبعوا بكل شهابٍ ثاقبٍ مدحورا، استأسدوا واستكلبوا، وتألّبوا وجلّبوا وأجلّبوا، وحاربوا وحزّبوا، وكانوا لباطلهم الداخض أنصر منا لحقنا الناهض؛ وفي ضلالهم الفاضح أبصر منا لهدانا الواضح، والله درُّ جرييرٍ حيث يقول:

إن الكريمة ينصرُ الكرمَ ابنُها وابن اللئيمة للئام نضُورُ  
فالبدار إلى النجدة البدار! والمسارة إلى الجنة فإنها لا تُنال إلا بإيقاد  
نار الحرب على أهل النار، والهمة الهمة! فإن البحار لا تُلقي إلا  
بالبحار، والملوك الكبار لا تقف في وجوهها إلا الملوك الكبار:

وما هي إلا نهضة تُورث العُلا ليومك ما حنت روازم نيب<sup>(٤)</sup>  
ونحن في هذه السنة - إن شاء الله تعالى - نزل على أنطاكية وينزل ولدنا

(١) سورة الطلاق: آية ٧.

(٢) سورة الطلاق: آية ١.

(٣) تغاوى القوم: أي تجمعوا وتعاونوا على الشر، أي على الغي والغواية؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ٦٦٧.

(٤) يقال: أرزمت الناقة أي حنت على ولدها أو صوتت حينئذ على ولدها. والروازم النيب هي النوق المسنة التي ليس لها ناب؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ٣٤٢.

الملك المظفر - أظفره الله - على طرابلس، ويستقر الركاب العادلي<sup>(١)</sup> - أعلاه الله - بمصر، فإنها مذكورة عند العدو - خذله الله - بأنها تُطرق، وأن الطلب على الشام ومصر تفرق، ولا غنى عن أن يكون المجلس السيفي - أسماه الله - بحرًا في بلاد الساحل يزخر سلاحًا، ويجرد سيفًا يكون على ما فتحناه قفلاً ولما لم يُفتح بعد مفتاحًا، فإنه ليس لأحد ما للأخ من سُمعة لها في كل مسمع سمعه<sup>(٢)</sup>، وفي كل رُوع رُوعه<sup>(٣)</sup>، وفي كل محضر محضر<sup>(٤)</sup>، وفي كل مسجد منبر، وفي كل مشهد منبر، فما يُدعى العظيم إلا للعظيم<sup>(٥)</sup>، ولا يُرجى لموقف الصبر الكريم إلا الكريم، هذا والأقدار ماضية، وبمشيئة الله جارية، فإن يشأ الله ينصر على العدو المضعف بالعدد الأضعف، ويوصل إلى الجوهر الأعلى بالعرض الأدنى، فإننا لا نرتاب بأن الله ما فتح علينا هذه الفتوح ليغلقها، ولا جمع علينا هذه الأمة ليفرقها، وأن العدو إن خرج من داره بطراً، ودخل إلى دارنا كان فيها جزراً<sup>(٦)</sup>، وما بقي إن شاء الله إلا أموالٌ تُساق إلى ناهبها، ورقابٌ تُقاد إلى ضاربها، وأسلحةٌ تُحمل إلى كاسبها، وإنما نُؤثر أن لا تنطوي صحائف الحمد خالية من اسمه، ومواقف الرشد خاوية من عزمه، ونؤثر أن يُسهّم آل أيوب في ميراثهم منه مواقع الصبر،

(١) نسبة إلى الملك العادل سيف الدين أبي بكر، أخي صلاح الدين الذي أخذ مصر عام (١١٩٩م)، توفي سنة (١٢١٨م).

(٢) السُمعة بالضم: الصيت، والسُمعة بالفتح: ما يُسمع به من صيت أو ذكرٍ حسن؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ٤٤٩.

(٣) الرُوع: القلب والذهن والعقل والنفس. يقال: أفرخ رُوعه؛ أي: خرج الفزع من قلبه. والرُوعة هنا: الفرعة؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ٣٨٢.

(٤) المحضر الثانية بمعنى الحضور. (٥) أي للعظيم من الأمور.

(٦) يقال: تركوهم جزراً للسياح أي قطعاً، ومنه قول عنترة: وتركته جزراً للسياح ينشئه؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ١٢٠.

ومطالع النصر؛ فوالله إنا على أن نعطيه عطايا الآخرة الفاخرة، أشد منا حرصًا على أن نعطيه عطايا الدنيا القاصرة، وإنا لا يسرنا أن ينقضي عمره في قتالٍ غير الكافر، ونزالٍ غير الكُفء المناظر، ولا شك أن سيفه لو اتصل بلسانٍ ناطقٍ وفم، لقال مادمت هناك فلست ثم<sup>(١)</sup>، وما هو محمول على خُطبةٍ يخافها، ولا متكلف قضية بحكمنا يعافها، والذي بيده لا نستكثره، بل نستقصره عن حقه ونستصغره، وما ناولناه لفتح أرضه السلاح، ولا أعرناه لمملك مركزه النجاح، إلا على سخاءٍ من النفس به وبأمثاله، على علم منا أنه لا يقعد عنا إذا قامت الحرب بنفسه وماله؛ فلا نكُنْ به ظنًّا أحسن منه فعلاً، ولا نرضى وقد جعلنا الله أهلاً أن لا نراه لنصرنا أهلاً، وليستشر أهل الرشاد فإنهم لا يألونه حقًا واستنهاضًا، وليعص أهل الغواية فإنهم إنما يتغالون<sup>(٢)</sup> به لمصالحهم أغراضًا؛ ومن بيته يظعن وإلى بيته يَقْفُل<sup>(٣)</sup>؛ وهو يجيبنا جواب مثله لمثلنا، وينوي في هذه الزيارة جمع شمل الإسلام قبل نية جمع شملنا، ولا تقعد به في الله نهضة قائم، ولا تخذله عزمة عازم، ولا يستفت فيها فوت طالبٍ ولا تأخذه في الله لومة لائم، وإنما هي سَفْرَةٌ قاصدة، وزجرةٌ واحدة؛ فإذا هو قد بيّض الصحيفة والوجه والذكر والسمعة، ودان الله أحسن دين فلا حرج عليه إن فاء إلى أرضه بالرجعة، وليتدبر ما كتبناه، وليتفهم ما أردناه، وليُقَدِّم الاستخارة، فإنها سراج الاستنارة، وليغضب لله ورسوله ولدينه ولأخيه فإنها مكان الإستغضاب والاستشارة، وليحضر حتى يشاهد أولادًا لأخيه

(١) أي: لست ببعيد.

(٢) يقال: تغالى القوم بالسهم: تراموا بها، والمراد أنهم يجعلونه غرضًا لنوال مصالحهم الذاتية؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ٦٦٠.

(٣) أي من بيته يرتحل وإليه يعود.

يستشعرون لفرقته غمًا، وقد عاشوا ما عاشوا لا يعرفون أن لهم مع عمهم  
عمًا، والله سبحانه يلهمه توفيقًا! ويسلك به إليه طريقًا، ويُنجِدنا به سيفًا لرقبة  
الكفر مَرَقًا<sup>(١)</sup>، ولدمه مُرِيَقًا، ويجعله في مضمار الطاعات سابقًا لا مسبوقًا.



---

(١) المَرَق: الطعن بالعجلة؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ٥٦٥.

### الملحق رقم ( ٢ ) (\*)

وهو نسخة كتاب من الملك المظفر قطز إلى صاحب اليمن بالبشارة بهزيمة التتار.

"أعز الله تعالى أنصار المقر الشريف العالي، المولوي، السلطاني، المليكي، المنصوري، وأعلى مناره، وضاعف اقتداره، تُعلمه أنه لما كان النصف من شهر رجب الفرد، فتح الله تعالى بنصر المسلمين على أعداء الدين:

من كل من لولا تسعر بأسه لاخضر جوذاً في يديه الأسمر  
فصدت هذه التهئة إليه راوية للصدق عن اليوم المحجل الأغر:

يوم غدا بالنفع فيه يهتدي من ضل فيه بأنجم المران<sup>(١)</sup>  
ففي أذن الدهر من وقعه صمم، وفي عرنين البدر من نقعه شمم، ترفعه  
رواة الأسل عن الأسنة، ويسنده مجر العوالي عن مجر الأعنة، أما النصر الذي  
شهد الضرب بصحته، والطنع بنصيحته، فهو أن التتر خذلهم الله تعالى استطالوا  
على الأيام، وخاضوا بلاد الشام، واستنجدوا بقبائلهم على الإسلام:

سعى الطمع المردي بهم لحتوفهم ومن يمسك ذيل المطامع يعطب  
فاعتاضوا عن الصحة بالمرض، وعن الجوهر بالعرض، وقد أرخت الغفلة  
زمامهم، وقاد الشيطان خطامهم<sup>(٢)</sup>، وعاد كيدهم في نحورهم: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ  
كَفَرُوا بِعَيْثِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا﴾<sup>(٣)</sup>.

(١) المران: الرماح الصلبة اللدنة. والنقع: الغبار؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ٥٦٥.

(٢) الخطام: الزمام؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ٢٤٥.

(٣) سورة الاحزاب: آية ٢٥.

(\*) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٧/ ص ٣٨٥ - ٣٨٨.

راموا الأمور فمذلاحت عواقبها بضد ما أملوا في الوِردِ والصدرِ  
 ظلوا حيارى وكأس الموت دائرةً عليهمُ شرعاً في الوِردِ والصدرِ  
 وأضعف الرعبُ أيديهم فطعنهمُ بالسهمرية<sup>(١)</sup> مثل الوخز بالإبر  
 لا جرم أنهم لسنّ الندم قارعون، وعلى مقابلة إحساننا بالإساءة نادمون.

تضرعوا بدروع البغي سابعةً والمرء يحصد من دنياه ما زرعاً  
 فأقلعت بهم طرائق الضلال، وسارت مراكب أمانهم في بحار الآمال؛  
 فتلك آمالٌ خائبة، ومراكب للظنون عاطبة، وأقلعوا في البحر بمراكبه، والبر  
 بمواكبه، وساروا وللشيطان فيهم وساوس، تغرهم أمانة الظنون الحوادم،  
 فما وسوس الشيطان كفرةً إلا وأحرقه الإيمان بكوكب... [كذا] هذا  
 وعساكر المسلمين مستوطنةً في مواطنها، جاذية<sup>(٢)</sup> عقبانها في وكور ظباها،  
 رابضةً آسادها في غيل<sup>(٣)</sup> أقناها<sup>(٤)</sup>، وما تزلزل لمؤمنٍ قدم إلا وقدم إيمانه  
 راسخة، ولا تثبت لأحدٍ حُجةٌ إلا وكانت الجمعة لها ناسخة، ولا عُقدت  
 بُرْجُمة<sup>(٥)</sup> ناقوس إلا وحلّها الأذان، ولا نطق كتاب إلا وأخرسه القرآن،

(١) السمهري والسمهريّة: الرمح الصليب العود. يقال: هو منسوب إلي "سَمَهَر": رجل كان يقوم الرماح. وامراته "رُدَيْنة" التي ينسب إليها الرماح أيضاً، ويقال: الردينية؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ٤٥٢.

(٢) جذا جذوا: ثبت قائماً؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ١١٣.

(٣) الغيل: موضع الأسد، والشجر الملتف الذي يستتر فيه؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ٦٦٩.

(٤) قنيت الشجرة: طالت فهو أقنى وهي قنواء. والقناء: العذق وهو من النخل كالعنقود من العنب. والجمع: أقناء. والمقناة: المرضع الظليل؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ٧٦٤.

(٥) البُرْجُمة: مفصل الإصبع، وبُرْجُمة الناقوس: مفصل الحديد التي تحمله؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ٤٧.

ولم تزل أخبار المسلمين تنتقل إلى الكفار، وأخبار الكفار تنتقل إلى المسلمين إلى أن خلط الصباح فضته بذهب الأصيل، وصار اليوم كأمس، ونُسخت آية الليل بسورة الشمس، واكتحلت الأعين بمِرْوَد السبات، وخاف كل من المسلمين إصدار البيات<sup>(١)</sup>

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي بأخرى الأعادي فهو يقظان نائم إلى أن تراءت العين بالعين، واضطرم نار الحرب بين الفريقين؛ فلم ترى إلا ضربًا يجعل البرق نضوءًا، ويترك في بطن كل من المشركين شلوعًا، حتى صارت المفاوضات دلاصًا، ومراتع الطُّبَا للطُّبَا عراصًا<sup>(٢)</sup>، واقتنصت آساد المسلمين المشركين اقتناصًا، ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مناصًا، فلا روضة إلا درع ولا جدول إلا حسام، ولا غمامة إلا نقع ولا وبل إلا سهام؛ ولا مدام إلا دماء ولا نغم إلا سهيل، ولا معربد إلا قاتل ولا سكران إلا قتيل، حتي صار كافور الدين شقيقًا، وتلون الحصباء من الدماء عقيقًا، وضرب النقع في السماء طريقًا، وازدحمت الجنائب في الفضاء فجعلته مضيئًا، وقُتل من المشركين كل جبارٍ عنيد، ذلك بما قدمت أيديهم... ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ «<sup>(٣)</sup>».



(١) البيات: المفاجأة. يقال: أتاها الأمر بياتا: فجأة في جوف الليل؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ٧٨.

(٢) العراص: جمع عرصة، وهي ساحة الدار والبقعة الواسعة؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ٥٩٣.

(٣) سورة فصلت: آية ٤٦.

## الملحق رقم ( ٣ ) (\*)

وهو نسخة كتاب كتب به إلى صاحب اليمن أيضاً، عن السلطان الظاهر بيبرس، مبشراً بفتوح صافيتا، وهو:

"أعز الله نصرة المقام العالي، المولوي، السلطاني، الملكي، المظفري، الشمسي؛ وأشركه في كل بشرى تشد الرحال لاستماعها وتحل الحُبي<sup>(١)</sup> لاستطلاعها، وتتهافت التواريخ والسير على استرفاعها، وتتنافس الأقلام والسيوف على الأفهام بأجناسها وأنواعها؛ ولا خلا موقف جهاد من اسمه، ولا مصرف أجر من قسّمه، ولا غرض هناء من سهمه، ولا أفق ابتهاج من بزوغ شمسه وطلوع نجمه.

سَطّر المملوك هذه البشرى والسيف والقلم يستمدان: هذا من دم وهذا من نقس<sup>(٢)</sup>، ويمضيان: هذا في رأس وهذا في طرس؛ ويتجاوبان: هذا بالصليل وهذا بالصرير، ويتناوبان: هذا يستميل وهذا يستمير<sup>(٣)</sup>؛ وكل منهما ينافس الآخر على المشافهة بخبر هذا الفتح الذي ما سمت إليه همم الملوك الأوائل، ولا وُسمت به سيرهم التي بدت أجيادها من حلاه عواطل؛ ولا دار في خلد أن مثله يتهيأ في المدد الطويلة، ولا تشكل في ذهن أنه سيُدرك بحول

(١) الحبي مفردتها الحبوة: يقال احتبى فلان الثوب: أداره على ساقيه وظهره وهو جالس. ويقال حل فلان حبوته: حل ثوبه وتهيأ للحركة؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ١٥٤.

(٢) النقس: المداد، جمعه أنقاس وأنقس؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ٩٤٦.

(٣) يستمير: يناظر ويجادل.

ولا حيلة؛ وهو النصر المرتب على حركتنا التي طوى الله لركابنا فيها المراحل، وألقى بدرر عساكرنا في بحر الحديد المالح إلى الساحل؛ وهجومنا على البلاد الفرنجية: وهي طرابلس وصافيتا وانطرسوس ومرقية والمرقب، كما يهجم الغيث؛ ومصادمتنا صدورها كما يصدم الليث، وسلوكنا منها حيث لم يبق حيث؛ وما جرى في هذه الوجهة من إغارات أحسنت متقلب الأعنة؛ ومتعلق السيوف ومخترق الأسنة، وما تهيأ منها من فتوح صافيتا التي هي أم البلاد، ومنتجع الحاضر والباد؛ وكونها قدمت نفسها في جملة ما يقرى به الضيف، وقالت: هذا فتوح حضر على هذا الفتوح لهذا السيف؛ وتلطفت في مسح أطراف الأمان، وطلبت شكرًا ومنا شكران؛ وأحضرت إلينا من أهلها الوقت وهدت السيوف في أعناقهم فتشبهت بها الأغلال، وأنفت أيمان أهل الإيمان من مصافحتهم لأنهم أصحاب الشمال؛ فأطلقهم سيفنا وأمله يمتد إلى من هو أعز منهم مالاً، وأكثر احتفالاً، وأبرز مالاً، وأهز سيوفًا قصارًا ورماحًا طوالاً؛ واستطار منها شرار نار الحرب الموقدة إلى غيرها من القلاع، واستطال إلى سواها من الحصون منه الباع؛ فلا حصن إلا وافترت ثنيته عن نصر مسهل، وفتح معجل ومؤجل.

فمن ذلك حصن الأكراد الذي تاه بعطفه على الممالك والحصون، وشمخ بأنفه عن أن تمتد إلى مثله يد الحرب الزبون<sup>(١)</sup>؛ وغدا جاذبًا بضبع<sup>(٢)</sup> الشام، وآخذًا بمخائق بلاد الإسلام؛ وشللاً في يد البلاد، وشجاً في صدر العباد، تنقض من عشه صقور الأعداء الكاسرة، وترتاع من

(١) يقال: الحرب تزبن الناس؛ أي: تصدمهم فهي زبون، على التشبيه؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ٣٨٨.

(٢) الضبع: ما بين الإبط إلى نصف العضد من أعلاها، وهما ضبعان، والاستعمال هنا على سبيل الاستعارة؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ٥٣٣.

سطوتها قلوب الجيوش الطائرة؛ وتربض بأرباضه آسادٌ تحمي تلك الآجام، وتفوق من قسيه سهام تُصمي مفوقات السهام؛ تعطيه الملوك الجزية عن يد وهم صاغرون، ويصطفي كرامٌ أموالهم وهم صابرون لا مصابرون؛ كم شكت منه حماة تثني بنكرها قلة الإنصاف، وكم خافته معرةٌ وما من معرةٌ خاف؛ ما زالت أيدي الممالك تمتد إلى الله بالدعاء عليه تشكو من جور جواره تلك الحصون والصياصي، وتبكي بمدمع نهرها من تأثير آثاره مع عصيانها وناهيك بمدمع العاصي؛ حتى نبه الله أَلحاظ سيوف الإسلام من جفونها، ووفى الثُصرة ما وجب من ديونها؛ وذاك بأنا قصدنا فسيح ربه، ونزلنا ونازلنا محمي صقععه، وختمنا بنصالنا على قلبه وسمععه؛ وله مدنٌ حوله خمسٌ هو كالراحة وهي كالأنامل، وتكاد بروجه تُرى كالمطايا المقطرة وهي منها بمنزلة الزوامل<sup>(١)</sup>؛ ما خيمنا به حتى استبحنا محمي تلك المدائن المكني عنها بالأرباض، وأسحنا بساحتها بحرًا من الحديد ما اندفع حتى فاض؛ وأخذنا الثقوب في أسوار لا تنقض ولا ينقض بنيانها المرصوص، ولا تقرأ المعاول ما لخواتم أبراجها من نقوش الفصوص؛ ونصبنا عليها عدة مجانيق حُملت في شواهد الجبال، على رؤوس الأبطال فتغيظت السمهرية أن الذي تقوم به هذه تلك به لا تقوم، وأن ما منها إلا له من الأيدي والرؤوس مقام معلوم؛ وصار يرمي بها كل كمي مختلس، وأروع منتهس<sup>(٢)</sup>، وكل ليث غابة يحميها وتحميه.

(١) الزوامل: جمع زامله وهي ما يحمل عليها من الإبل، والزامل من الدواب: الذي

كانه يطلع في سيره من نشاطه؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ٤٠١.

(٢) الأروع: المريع المخيف. والمنتَهس: الذي ينهس أو ينهش بأسنانه؛ انظر: المعجم

الوسيط، ص ٩٥٨.

فشكرًا لأسود حتى غاباتها تفترس؛ إلى أن جثت أسوارها على الركب، وكانت سهام مجانيقها تميل من العُجب فصارت تميد من العُجب، وكانت تطلب فصارت تهرب من الطلب؛ واشتد الأمر على الكفار فقاتلوا قتالاً أقض مضاجع الأسلحة، وأطار حجارة مجانيقهم بغير أجنحة، وأشجى بشجو النصول المترنمة على غصون السهام المترنحة؛ هذا وأهل الإيمان يتلقون ذلك كله بصبر يستطعمون منه شهداً، وإقدام يتلقى صدى الحديد بأكبادٍ ما زالت إلى موارد قَصداً؛ يقتحمون نار الحرب التي كلما أوقدوها أطفأها الله وقال يا نار كوني بردًا، والبلاد الفرنجية قد عُصت منها الأبصار وخشعت القلوب، واعتقد كل منها في نفسه أنه بعد هذا الحصن المطلوب؛ فهذه تود لو أكنّتها البحار تحت جناح أمواجها، وهذه لو أسبلت الرياح العواصف عليها ذبول عجاجها؛ وهذه لو أُجثت من فوق الأرض ما لها من قرار، وهذه لو خُسف بها الثرى وعَفت منها الآثار؛ وذلك لما بلغهم وشاهدوه من ويلٍ حل بأهل الحصن المنيع، ومن فتك أمحل ربه المريع، وضيق مجاله الوسيع؛ وقراع أضجر الحديد من الحديد والأبطال لم تضجر، ونضالٍ أسهر كل جفنٍ حتى جفون السيوف لأننا عودناها مثل جفوننا أن تسهر؛ فكم شكت النقوب من مناكبهم زحامًا، والشرفات من ترقبهم التزامًا، والرقاب من سيوفهم اقتسامًا؛ وكم حَمِدت التجارب من رأيهم شيخًا وحمد الإقدام من ثبوتهم غلامًا؛ قد دوخوا البلاد فلا موطن إلا لهم به معركة، وأرملوا الحلائل فلا مشرك إلا وقد أرمل من مشركة، وأزعجوا الكفر فلا قلب إلا به منهم خوفٌ ولا سمع إلا لهم به حركة، وملؤوا الأرض كثرةً وكيف لا يكثر الله جمعًا للإسلام جعل الله فيه بركة.

وكتابتنا هذا والمولى بحمد الله أحق من هُنِّيء بهذا الفتح الذي تُثْنِي على كتاب بشائره الحقائق، وتَجْري إلى سماع أخباره الركائب، وتتزاحم على المسير تحت البُرْد الواصلة به متون الصبا وظهور الجنائب، وإذا ذُكرت ملاحمه، قال كلُّ: هذا كتابٌ أم كتيبةٌ تلوح، وإذا شوهدت حُمْرة طرسه قيل: وهذا ما صبغته في اليد المعلّمة عليه دم الكفر المسفوح، وَيَنعَم - أعز الله نصره - بالإعلان بهذا النبأ الحسن الذي تستروح إليه الأسماع، وتسرع بالإفهام به أخوات هذا الحصن من مدنه ومن قلاع العظيمة الامتناع؛ فإنه ما برح الأخ يفرح بأخيه، وإذا كان الهناء عظيمًا اشترك كل شيءٍ فيه، إن شاء الله تعالى".



### الملحق رقم ( ٤ ) (\*)

وهو كتاب من (الأشرف خليل بن قلاوون) قرين كتاب أبيه المنصور قلاوون إلى صاحب اليمن، بالبشرى بفتح طرابلس. وهذه نسخته:

"أعز الله تعالى نصره المقام! وأوفد عليه كل بشرى أحسن من أختها، وكل تهنية لا يجليها إلا هو لوقتها؛ وكل مبهجة يعجز البنان والبيان عن ثبتها ونعته، وتبلى فتودُّ الدرر والدراري لو رقت هذه إلى ترقبها وسمت هذه إلى سمتها.

وصبَّحه منها بكل هاتفة أسمع من هواتف الحمائم، وبكل عارفة أسرع من عوارف الزهر عند عزائم النسائم؛ وبكل عاطفة أعنة الإتحاف بالإلحاف الذي شكرت الصفاح منه أعظم قادرٍ والصحائف أكرم قادم؛ والغزو الذي لا يخص تهامة ببشراه بل جميع النجود والتهائم، وذوي الصوارم والصرائم<sup>(١)</sup>، وأولي القوى والقوائم، وكل ثغر عن ابتهاج الإسلام باسم، وكل برٍ بتوصيل ما ترتب عليه من ملاحم؛ وكل بحرٍ عذبٍ يمون كل غازٍ لا يحبس عن جهاد الكفار في عُقر الدار الشكائم، وكل بحرٍ ملحٍ كم تغيظ من مجاورة أخيه لأهل الشرك ومشاركتهم فيه فراح وموجه المتلاطم.

المملوك يخدم خدمة يقتني فيها أثر والده، ويجري في تجميلها على أجمل عوائده، ويستفتح فيها استفتاحًا تحف به من هنا ومن هنا محامده،

(١) الصوارم: السيوف، جمع صارم. والصرائم: العزائم، جمع صريمة وهي العزيمة والعزم؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ٥١٣-٥١٤.

(\*) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٧/ ص ٣٩٢-٣٩٦.

ويصف ولاءً قد جعله الله أجمل عقوده وأكمل عقائده؛ ويشفعها بإخلاص قد جعله ميله أحسن وسائله وقلبه أزين وسائله؛ ويُطلع علمه على أن من سجايا المتعرضين إلى الإعلان بشكر الله تعالى في كل ما يعرضُ للمسلمين من نصر، ويُفترض لهم من أجر غزوٍ كم قعد عنه ملك فيما مضى من عصر؛ أن يقدرُوا هذه النعمة حق قدرها من التحدث بنعمتها، والتنبيه بسماع نعمتها، وإرسال أئنة الأعلام بها في ميادين الطروس، وإدارة حرباء وصفِ حرِّ حرب إلى مواجهة خير الشمس.

ولما كانت غزوات مولانا السلطان ملك البسيطة الوالد - خلد الله سلطانه - قد أصبحت ذكرى للبشر، ومواقفه للنصر كم جاءت هي والقدرُ على قدر، وقد صارت سيرها وسيرها هذه شدو في الأسمار، وهذه جادة تستطيب منها حُسنَ الحدو السُقار؛ فكم قاتلت من يليها من الكفار، وكم جعلت من يواليها وهو منصورها منصورًا بالمهاجرين والأنصار.

ولما أذل الله ببأسها طوائف التتار في أقاصي بلاد العجم، وجعل حظ قلوبهم الوجد من الخوف ونصيب وجوههم الوجد؛ وأخلى الله من نسورهم الأوكار ومن أسودهم الأجم، وقصرت بهم هممهم حتى صاروا يخافون الصبح إذا هجم، والظن إذا رجم؛ وصارت رؤية الدماء تُفزعهم فلو احتاج أحدهم لتتقيص دم لمرضٍ لأجنح من خوفه وما احتجم.

وأباد الله الأرمن فحل بالنبيل منهم الويل، وما شمّر أحد من الجنود الإسلامية عن ساعد إلا وشمّر هو من الذل الذيل؛ ولا أثارت الجياد من الخيل عثيرًا منعقدًا إلا وظنوه مساءً قد أقبل أو ليل، وانتهت نوبة القتل

بهم والإسار إلى التكفور ليفون<sup>(١)</sup> ملك الأرمن الذي كان يحمي سرحهم، ويُمرد سرحهم، ويستنطق هَتَفَ التتار ويسترجع صدحهم؛ وتعزز طرابلس الشام بانه خال أبرنساها<sup>(٢)</sup> الكافر، ولسان شُورته السفير ووجه تدبيره السافر.

وطالما غرّ وأغرى، وأجرّ وأجرى وضرّ وأضرى؛ فلما توكل مولانا السلطان وعزم فتوكل، وتحقق أن البلاء به قد نزل وما تشكك أن ذلك في ذهن القدر قد تصور و تشكل؛ وأن يومه في الفتك سيكون أعظم من أمنيته، وأعظم منهما مُعاداة غده، وأن نصر الله لن يُخلفه صادقٌ وعده؛ أكل يده ندامةً على ما فرط في جنب الله وساق الحتف لنفسه بيده، فعمر الله بروحه الخبيثة الدرك الأسفل من النار، وسقاه الحتف كأسًا بعد كأس لم يكن لهما غير المَلِك من خمّار، وكانت طرابلس هي ضالّة الإسلام الشريدة، وإحدى آبقاته<sup>(٣)</sup> من الأعوام العديدة؛ وكلما مرت شمخت بأنفها، و تأنقت في تحسين منازة منازلها وتزيين ريحانها وعصفها<sup>(٤)</sup>، ومرت وهي لا تغازل ملكًا بطرفها، وكلما تقادم عهدا تكثرت بالأفواج والأمواج من بين يديها ومن خلفها إذ البحر لها جلاب والسحاب لها خمّار، وليس لها من البر إلا بمقدار ساحة الباب من الدار؛ كأنها في

(١) التكفور: من ألقاب ملوك الأرمن، والمقصود هنا هو ليفون (ليون) بن التكفور هيثوم بن قسطنطين بن باسال، واسمه لما ملك ليون الثالث (Leon III)، وقد امتد حكمه من (٦٦٩هـ / ١٢٧٠م - ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م).

(٢) إبرنس = Prince؛ أي: الأمير.

(٣) الآبقة: الهاربة؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ٣.

(٤) العصف: ورق الزرع، والورق الذي يفتح عن الثمرة، والعصف والعاصفة، وأيضًا حطام التبن ودقاقه؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ٦٠٥.

سيف ذلك البحر جبل قد انحط، أو ميل استواء قد خرج عن الخط، وما قصد أحد شطها بنكاية إلا شط واشتط.

قدّر الله تعالى أن صرف مولانا السلطان إليها العنان، وسبق جيشه إليها كل خبر و"ليس الخبر كالعيان"، وجاءها بنفسه النفيسة والسعادة قد حرصته عيونها وتلك المخاوف كلها آمان، وقد اتخذ من إقدامه عليها خير حبال ومن مفاجأته لها أمد عنان؛ وفي خدمته جنود لا تستبعد مفازة، وكم راحت وغدت وفي نفسها للأعداء حزازه؛ فامتطوا بخيولهم من جبال لبنان تيجاناً لها صاعغتها الثلوج، ومعارج لا مرافق بها غير الرياح الهوج؛ وانحطت تلك الجيوش من تلك الجنادل، انحطاط الأجادل؛ واندفعوا في تلك الأوعار، اندفاع الأوعال؛ ولم يحفل أحد منهم بسرّب لاصق، ولا جبل شاهق؛ فقال: أهذا منخفضٌ أو عال، وشرعوا في التحصيل لما يوهي ذلك التحصين، وابتني كل سور أمام أسوارها من التدبير الحسن والرأي الرصين فما لبثوا إلا بمقدار ما قيل لهم دونكم والأخطاب، ونقل المجانيق على الخيل وعلى الرقاب؛ حتى جرّوها بأسرع من جرّ النفس، وأجروها على الأرض سفائنَ وكم قالوا: السفينة لا تجري على ييس؛ وفي الحال نقلت إليها فرأوا من متوقّلها من يمشي بها على رجلين ومنهم من يمشي على أربع، ووجهت سهامها وجوهها إلى منافذها فما شوهدت منها عينٌ إلا وكان قدامها منها أصبع؛ وألقيت العداوة بين الحجارة من المجانيق والحجارة من الأسوار، فكم ثقت وثقت عن فلذة كبدها، عن وأوقدت نيران المكاييد ثم فكم حولها من صافن ومن صافر، وكم رمتهم بشرر كالقصر فوق الحافر كما يُقال على الحافر؛ وما برحت سوق أهل الإيمان

في نفاق، على أهل النفاق، وأكابرهم تُساق، أرواحهم الخبيثة إلى الساق.  
 وكان أهل عكا قد أنجدوهم من البحر بكل برّ، ورموا الإسلام بكل شر وبكل شر؛ فصار السهم الذي يخرج بها لا يخرج إلا مقترناً بسهام، وشُرُفات ذلك الثغر كالثنايا ولكنها لكثرة من بها لا تفتقر عن ابتسام.  
 وما زالت جنود الإسلام كذلك، ومولانا السلطان لا تُرى جماعة مقدمة ولا متقدمة إلا وهو يُرى بين أولئك، واستمر ذلك من مستهل ربيع الأول إلى رابع ربيع الآخر فزحف إليها في بكرة ذلك النهار وهو الثلاثاء زحفًا يقتحم كل هضبة ووهدة، وكل صلبة وصلدة؛ حتى أنجز الله وعده وفتحها المسلمون مجازًا وفي الحقيقة فتحها وحده؛ وطلعت سناجق الإسلام الصُفر على أسوارها، ودخلت عليهم من أقطارها، وجاست الكسابة إلى ديارها، فاحتازها مولانا السلطان لنفسه ملكًا، وما كان يكون له في فتحها شريك وقد نفى عنها شرًا؛ وكلما قيل هذه طرابلس فتحت قال النصر لمن قُتل فيها من النَّجد الواصلة: وأكثر عكا وأهل عكا؛ وأعاد الله تعالى بها قوة الكفر أنكاثًا، فكان أخذها من مائة سنةٍ وثمانين سنةً في يومٍ ثلاثًا، وأُستردت في يومٍ ثلاثًا.

ولما عمت هذه البشائر، وكَلَّ بها مولانا السلطان إلى من يستجلى حسان هذه العرائس، ويستحلى نفيس هذه النفائس.

سير مولانا السلطان إلى المولى كل بشرى تقعقع بها البريد، لتُتلى بأمره على كل من ألقى السمع وهو شهيد؛ وكما عم السرور بذلك كل قريب قصد أن يعمَّ الهناء كل بعيد.

وأصدر المملوك هذه الخدمة يتجرب بين يديه نجواها، ويتوثب بعد هذه الفاتحة المباركة لكل سانحة يحسن لدى المولى مستقرها ومثاها؛ لا بَرِحَ المقام العالي يستبشر لكماة الإسلام بكل فضل وبكل نُعمى، ويفرح بِسَرَحِ الكُفْرِ إذا أنتهك وبسَفْحِ المُلْكِ إذا يُحمى، وبسَمْعِ الشُّرْكِ إذا يُصمُّ وبقَلْبِهِ إذا يصمى؛ والله الموفق".



### الملحق رقم ( ٥ ) (\*)

وهو نسخة كتاب كُتب عن الملك الناصر محمد بن قلاوون جواب كتاب ورد من صاحب اليمن في مقابلة البشرى بدخول العساكر المنصورة إلى بلاد الأرمن.

"أدام الله تعالى نعمة الأيام المقام العالي! وأنهضه بفرض الجهاد الذي بمثله يُنتهج، وأيقظه لمتعين الغزو الذي ما له تدرك الرتب وترتفع الدرج؛ وأشهده في سبيل الله مواقف النصر التي إذا أودعنا نشر بشرها الطروس عبقت بما فيها من الأرج؛ وأراه مشاهد فتوحنا التي إذا حدثت الأحلام عن عجائبها حدثت عن البحر ولا حرج؛ وصان مجده عن إضاعة الوقت في غير حديث الجهاد الذي هو أولى ما بُذلت له الذخائر وابتذلت فيه المُهَج.

صدرت هذه المكاتبة تخضُّه بتحية تتصوُّع نَشْرًا، وتتحفه من متجددات الظفر بشرًا، يملأ الوجود مسرَّةً وبشرى، وتقص عليه من متجددات فتح يأتي على ما أتعبت فيه الأفكار قرائحها من مشتهى التهاني فلا يدع له ذكرا؛ وتتلو على من ضمن بعد ما سمع من البلاغ بلاغ العدا أن إزالة وإل عن مركزه فتح كبير: لقد جئت شيئًا نُكْرًا. وتوضَّح لعلمه الكريم أن مكاتبته الكريمة وردت مقصورةً على نبي لا يُعتدّ بذكره، محصورةً على خبر ولا ينبغي لمثل مجده أن يُمرَّه على فكره، مطلقةً عنان القلم فيما كان ينبغي طي خبره وتعقُّ أثره، وإخفاء سببه وتركه نسيًا منسيًا فضلاً عن التبجح بذكره، والتهنئة به، إذ في ذلك مقابلة البحر بالثَّماد<sup>(١)</sup>، والروح بالجماد؛ والشمس

(١) الشمذ: الماء القليل الذي ليس له مدد، والجمع أثماد وثماد؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ١٠٠.

(\*) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٧ / ص ٣٦٩ - ٣٧٧.

بالذُّبال، والهدي بالضلال؛ فلم يكمل له في ذلك المراد، وأتى بما قالت له التهاني: (نحن في واد وأنت في واد)؛ وقابلها مع ذلك بالقبول الذي اجتلى عُمرها، وأحمدت لديه وردها وصدورها، فأحطنا علمًا بما تضمنته من الأحوال التي أبدأها، والمتجددات التي أعظم موقع نشرها عنده فأهداها.

وأما ما ذكره من أمر القلعة التي كان [النائب بها] لوالده شخصًا اعتمد عليه، وولاه متحفظًا ظنّه مع تغاير الأحوال مؤتمنًا على ما في يديه؛ وأن ذلك الشخص بعد انتقال والده رحمه الله طمع فيما استُودع فجحد الودعة والموادعة، ورام المنازعة والمقاطعة، وخالف وحالف، وقارب العصيان وقارف<sup>(١)</sup>؛ وأنه في هذا الوقت قلع ذلك النائب من تلك القلعة المغتصبة، وأراح من همه الناصب، وأفكاره ووصبه<sup>(٢)</sup> إلى غير ذلك مما أورده على وجه البشرى لهذا السبب الضعيف، وأبرزه في معرض التهئة من هذا الأمر الطفيف؛ وأراد أن يتكسر فيه بما لا مدخل له في كُثرة وقلة، فذكر بروزه بجمعه إلى شخص واحد في قبالة ما اتصل به من نبي كل موطن برز فيه الإسلام كله إلى الشرك كله؛ وظاهر الأمر أن ذلك الشخص ما عصى بالمكان الذي كان فيه إلا لما رأى بالمملكة اليمنية من اضطراب الأحوال، وأسباب الاختلاف والاختلال، والوهن الذي حسن له الاحتراز والاختزال، والخلوة التي حملته على أن (طلب الطعن وحده والنزال)، وامتداد الأيدي العادية بكل جهة إلى ما يليها، وضياع رعايا كل ناحية بالاشتغال عن افتقاد أحوال من

(١) قارف: وقارب بمعنى واحد؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ٧٢٩.

(٢) الوصب: الوجد والمرض والتعب والفتور في البدن؛ انظر: المعجم الوسيط،

يباشر وانتقاد تصرف من يليها؛ فهو الذي أوجب طمعه، وقوى ضلعه<sup>(١)</sup>، وحمله من مركب العناد، وأراه نظراء بتلك الجهة ممن سلك الفساد.

وهذا الأمر ما خفي علينا خبره، ولا توارى عنا ورده ولا صدره؛ فإن أخبار مملكة اليمن ما زالت متواصلة إلينا بما هي عليه من اضطرابٍ واف، واختلاط غير خاف، وهيج لا يرجع الأمر فيه إلى كافٍ كافٍ؛ وما أخرجنا لحق جيوشنا المنصورة، وعساكرنا التي ممالك العدى بمهابتها محصورة، عن الوصول إلى المملكة اليمنية لتقويم أودها، وتمكين شدها؛ وإقامة أمر الملك فيها، وحسم مادة الفساد عن نواحيها، وتطمين البلاد، وإنامة الرعايا من الأمن في أوطان مهاده، والاحتراز على الخزائن والأموال، وصونها عن الإنفاق في غير جُند الله الذين منعوا دعوة الشرك أن تُقام وكلمة الكفر أن تُقال؛ إلا لأن عساكرنا كانت الآن في الممالك و الأقاليم التي بيد الكفر: من التتار المخدولين، ومن يقول بقولهم من أعداء الدين، تقتل وتأسر، وتلقى الجيوش الكافرة فتكسب وتكسر، وتصحبهم حيث حلوا طلائع رعبها، وتصحبهم منها أين ظلوا ريح عاد التي تدمر كل شيءٍ بأمر ربها.

وما سطرنا هذه المكاتبه إلا وجيوشنا المنصورة قد وطئت عقر بلادهم فأذلتها وأذلتها، وغيرت أحوالها وحالتها؛ وقاسمتهم شر قسمة فلها منها الحصون والمصون، والجنات الوارفة الغصون، ولهم منها الخراب والتباب، والدارس الذي لا يحصل بكف دارس بيته إلا التراب؛ وهاهي قادمة إلينا يقدمها النصر، ويتقدمها من أسر العدا وغنائمهم ما يُربي عن

(١) يقال: الضَّلَع والضَّلَع بالتسكين والتحريك، وهما واحد؛ انظر: المعجم الوسيط،

الحصر؛ وما بينها وبين ركوب هذا البحر لمُلكٍ تمهده، وعدلٍ تجدده، وبغاةٍ تكفَ غَرْبَهَا، ورعاةٍ تؤمن بالمهابة سربها، وتُصَفِّي من أكَدارِ الفتن شَرْبَهَا؛ وخزائن لها عن غير الإنفاق في سبيل الله تصونها إلا بمقدار ما تستقر بها المنازل استقرار السَّنة<sup>(١)</sup> بالجفون لا النوم، وأضرمت نواحيها، واستاقت أهلها ومواشيها، وجعلت قصورها صعيداً<sup>(٢)</sup>، وزرعها حصيداً، وعقائلها<sup>(٣)</sup> إماء، ومعاقلها هباء؛ وابتذلت مصونها الذي جعله الله لها أثقالاً؛ واختارت من حصونها لمُلكنا ما كانت سيوفنا له مفاتيح فلما فتح عُذْن له أقفالاً؛ واقتلعت من القلاع التي كانت بيد الكفر كل معقل أشب<sup>(٤)</sup>، وحصن شابت نواصي الليل وهم لم يشب، قد صفح بالصفاح، وشُرف بأسنة الرماح، واستدار بَقْنَّةٍ قلةٍ ينهب التراقي إليها هوج الرياح، فطهرته من النجس، وعوضته بصوت الأذان عن صوت الجرس، وأخرست الناقوس بسورة الفتح الذي عودته نُوبُ الدهر بآيات الحرس؛ مع ما أضيف إلى تلك من بلادٍ وتلاد، وأغوارٍ ونجاد، وجناتٍ وعيون، وأموالٍ ارتجع بها ما كان للإسلام في ذمة الكفر من بقايا الديون، وكل تلك الغنائم منحناها جيوشنا المنصورة وأبحناها، وقويناهم على أمثالها من الفتوح برفع العوائق التي أزلناها، وبالقناطر المقنطرة من الذهب والفضة وأزحناها؛ و ما

(١) السَّنة بكسر السين: النعاس، وهو مبدأ النوم. من فعل: وسن؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ١٠٣٣.

(٢) الصعيد: وجه الأرض والتراب؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ٥١٤.

(٣) العقائل: جمع عقيلة، وهي السيدة المخدرة والزوجة الكريمة؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ٦١٧.

(٤) أشب الشجر أشباً: اشتد التفافه وكثر حتى لا مجاز فيه فهو أشب. ويقال: مكان أشب، وبلده أشبة؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ١٩.

وصل الآن فُصَّاده إلى أبوابنا العالية إلا والبشائر تنطق بألسنة التهاني، وتخفق بمجددات هذه الفتوح في الأقصي من ممالكنا والأداني؛ وقد شاهدوا ذلك وشهدوه، ورأوا ما رأى غيرهم من نوادر الفتوح التي أربت علي ما ألفوه من قبل وعاهدوه. هذا وما وضعت الحرب إلى الآن أوزارها، ولا خمدت نار الوغى التي أعدت جيوشنا المنصورة للأعداء أوارها؛ وما يمضي وقتٌ إلا والبشائر متواردة علينا بفتح جديد، ونصر له في كل يوم مُخَلَّقٌ تَخَلَّقُ وفي كل برٍّ بريد، وقصارى أمر العدو الآن انهم ليس لهم بلد، إلا وقد (أخنى عليه الذي أخنى على لُبْد<sup>(١)</sup>)، ولا دارٌ إلا وقد أضحت كدار ميَّة التي (أقوت وطال عليها سالف الأمد)؛ ولأجيش إلا وقد فر وأين يفر وهو يطوي في قبضتنا المراحل؟ ولا طرائد بحرٍ إلا وهي مطرودة في اللجج لتيقنهم أن العطب لا السلامة في الساحل.

فمن أجل ذلك رأينا إن اشتغال جيش الإسلام بجانب الكفر هو المهم المقدم على ما سواه، والغرض الذي نيتنا فيه إنقاذ أهل الإسلام من كلمة الكفر وتحكيمه (ولكل امرئ ما نواه)، ورأينا أن أمر هذه الجهة ما يفوت بمشيئة الله وعونه وتمكينه، وإذا كان الله قد أقام بقدرته منا ملكا لنصرة دينه فإن اليمن وغيره في يمينه؛ وهي محسوبة من أعداد ممالكنا المحروسة، ومعدودة من أقسام بلادنا التي بوفود الفتوح مأنوسة؛ ولا بد من النظر في أمرها، وإعمال الفكر في إزاحة ضُرِّها، وتجريد العساكر المنصورة إليها، وإقدام الجيوش التي عادت الإقدام في الوغى عليها؛ ليكون العمل في

(١) إشارة إلى بيت النابغة الذبياني:

أضحت خلاءً وأضحت أهلها احتُمَلوا      أخنى عليها الذي أخنى على لُبْدِ

أمرها بما يرضي الله ورسوله، ويُلغ من كان بتلك الجهات يروم الجهاد ولا يطيقه صولة؛ فإن المملكة المذكورة توالى عليها المُدد، ومضى عليها الأبد؛ وهمة من فيها إلى الله مصروفة، وعلى اللذات موقوفة؛ وأحكام الجهاد عندهم مرفوضة حتى كأن الجهاد لم يبلغهم وغره حلمه، ولا أحاطت أفكارهم بشيء من علمه؛ بل كأنه على غيرهم وجب، وكان ما أعد الله من الأجر عليه إنما أريد به الذين يكتزون الذهب؛ وتمادت الأيام وليس في نكاية أعداء الله منهم مُصيب، وتفرقت الأموال وما لجند الله فيما احتوا عليه من ذلك سهمٌ ولا نصيب؛ وأي عذرٍ عند الله لمن جعله مؤتمناً على ماله فلم يكن له في سبيل الله إنفاق؟ أي حجة لمن [لم] يقف موقف الجهاد وقد قال رسول الله ﷺ: (من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات علي شعبة من النفاق).

والآن فإن الله سبحانه وتعالى قد أقامنا لنصرة الإسلام ورفع كلمة الإيمان وتمهيد البلاد، وإجراء الأحوال في القريب منها والبعيد على ما يُرضي الله تعالى ويُرضي رسوله ﷺ من السداد؛ وأهم الأمور عندنا أمر الغزاة والمجاهدين الذين ما منهم إلا ممسك بعنان فرسه، مكتحل بسهاد حرسه؛ لا يأمن العدو مهاجمة خيله في سراه، ولا مفاجأة خياله في كراه، حصنه ظهر حصانه، وجوابه على لسان سنانه، كلما سمع هيعة<sup>(١)</sup> أو وقعة طار على متن فرسه يلتمس الموت والقتل في مظانه؛ وهؤلاء هم جيوشنا الذين دوخوا البلاد، وأذلوا أهل العناد، وطهروا السواحل وأجروا في كل المواطن من أنهار الدماء ما يروي البلد الماحل، وهزموا جيوش التتار وهم

(١) الهيعة والهائعة: الصوت المفزع؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ٩٩٩.

في أعداد الكواكب، وحصدوهم بسيوفهم عرورة(؟) وهم في نحو المائة إلف راكب؛ حتى إن ملوك التتار الآن ليتمنون إرضاءنا وإغضاءنا، ويستدعون ويدعون للآباد ولاءنا، ويطلبون المسالمة منا، ويودون نسمة قبول تصدر إليهم عنا؛ والطويل العمر منهم وممن والاهم هو الذي يهرب من بين يدي جيوشنا المنصورة ليسلم بنفسه، وإن أسلم ما يعز عليه من ماله وولده وعرسه، فمثل هؤلاء الذين يستحقون أموال الممالك الإسلامية ليستعينوا بها في جهازهم لجهادهم، وينفقوها في إعدادهم لأعدائهم؛ ويصرفوها في ذبهم عن دين ربهم.

وهذه المملكة اليمنية قد اجتمع فيها الأموال ما يُربي عن الحصر والحد، ويزيد عن الإحصاء والعد، لا يُنْفَق منها شيء في الجهاد ولا يعد منها مصروف إلا بما لا تحمد عاقبته في المعاد؛ وقد صد عنا جند الله الذين ينفقونها سرًا وجهراً، ويستنزلون بها أرواح أعداء الله علي حكم سيوفهم قسرًا وقهرًا؛ وأبيحت لمن تأبى الجهاد جانبًا، ورضي باللهو صاحبًا، واقتنى السلاح لغير يوم البأس، واعتنى بارتباط الجياد بطرًا ورتاء الناس.

وكان كتابنا قد تقدم في أمر المجاهدين وما يحتاجونه من الإعانة بما يُحمل إليهم من الأموال بالمملكة اليمنية: ليصرف ذلك في حقه، ويصل إلى مستحقه؛ ويكون قد أعد منها للإنفاق في سبيل الله جانب بحيث لا يُضاع، ووصل إلى مجاهدي الأمة نصيبٌ من مال الله الذي هو في يد من ولاه شيئًا من أمور عباده على حكم الإيداع؛ ويدخل ذلك في زمرة الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها؛ فحصلت المكابرة في الجواب عن ذلك، وأي

عذرٍ في المكابرة عن مثل هذا الأمر وشغل الوقت بذكره؟ ونحن عندنا في كل وقتٍ من البشائر بمواهب الفتح، وغرائب المنح، ومتجددات الظفر والنصر، ومتحليات التأييد التي قَسَمَت أعداء الله بين الحصد والحصر، ما يَهْبُ نُشْرُهُ هبوب الرياح في البر والبحار، ويود الدهر لو رَقَمَهُ بذهب الأصيل على صفحات النهار، وكل ذلك في أشد أعداء الله تعالى: من التتار، الذين عُرف عددهم وجَلَدَهُم، والفرنجة الذين طال وكثر في عداوة الإسلام أبدهم ومددهم، والأرمن الذين هم أكثر الطائفتين في الظاهر وفاقاً، وأشد الفئتين في الباطن نفراً ونفاقاً؛ وهم لهؤلاء وهؤلاء مادة تمير وتمير، وتغريهم وتغريهم فتصير بهم من نار الحرب المضرسة لسيوفنا إلى جهنم وبئس المصير؛ وأي شيء من ذلك يُذكر عند مواقف جيوشنا المنصورة، وظفر عساكرنا المؤيَّدة؟ لو كان حصل عنده الفكر الصائب ما وردت مكاتبته إلا وهي مقترنة بما يُرضي الله ورسوله وأهل الإسلام: من إمداد الغزاة بالأموال، وإعانتهم على الكُلف التي كلما أُعد لها مال [بدت] حال بلائمها الإنفاق في سبيل الله و يسألونك عن الجبال؛ وها هي قادمة إلينا يقدمها النصر، ويتقدمها من أسرى العدا وغنائمهم ما يُربي عن الحصر؛ وما بينها وبين ركوب ثبج<sup>(١)</sup> هذا البحر لملك تمهده، وعدل تجده، وبغاة تكف غربها، ورعايا تؤمن بالمهابة سربها، وتصفي من أقدار الفتن شربها، وأموال تصونها، وخزائن ينزه عن غير الإنفاق في سبيل الله مصونها، إلا بمقدار ما تستقر بها المنازل استقرار السنّة بالجفون لا النوم، وتأخذ أهبةً لذلك المهم في يوم أو بعض يوم.

(١) ثبج الشيء: وسطه؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ٩٣.

اللهم إلا أن تُلبّي دعوة الجهاد من تلك الجهة بألسنة النفير، وتُعبّي صفوف الجلاّد في الجوّاري<sup>(١)</sup> التي تكاد بأجنحة القلوع تطير؛ أو تنوب عنها خزائن الأموال التي تُنفق في سبيل الله تعالى، أو تقوم مقامها النفقات التي تُصرف إلى جنود الله التي تنفر في سبيل الله تعالى خفاً و ثقلاً، ليكون قد استدر ببركة ذلك الظل أخلاف الوابل، وأنفق ما اختزنه في سبيل الله الذي مثل ما ينفق فيه كمثل حبة أنبتت سبع سنابل؛ تستعد الجيوش المنصورة إلي طودٍ يصون برأيه مُلكه ويصول، ويستطيل على الوجود ولو أن البر سيوفٌ والبحر نصول؛ والله تعالى يرشده إلى ما هو أقرب للتقوى، ويُمسكُه من طاعته بالسبيل الأقوام والسبب الأقوى؛ إن شاء الله تعالى".



(١) الجوّاري: السفن؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ١١٩.

### الملحق رقم (٦) (\*)

الكتاب الوارد عن ملوك الحبشة. ورد على السلطان الظاهر بيبرس، ضمن كتابٍ إلى صاحب اليمن، وصاحب اليمن أرسله إلى القاهرة، وهو:

"أقل الممالك يقبل الأرض، ويُنهى بين يدي السلطان الملك الظاهر - خلد الله ملكه - أن رسولاً وصل إلي من والي قوص، بسبب الراهب الذي جاءنا، فنحن ما جاءنا مطران مولانا السلطان ونحن عبيده، فيرسم مولانا السلطان للبطريك [أن] يجهز لنا مطرانا يكون رجلاً جيداً عالمًا، لا يجني ذهبًا ولا فضة، ويرسله إلى مدينة عون. وأقل الممالك يُسير إلى نواب مولانا الملك المظفر صاحب اليمن ما يلزمه، وهو يُسيره إلى نواب مولانا السلطان، وما كان سبب تأخير الرسل عن الحضور إلى [ما] بين يدي مولانا السلطان، إلا أنني كنت في سكار (؟) والملك داود قد تُوفي، وقد مُلك موضعه ولده، وعندي في عسكري مائة ألف فارس مسلمين، و أما النصارى فكثير لا يُحصون، والكل غلمانك وتحت أمرك، والمطران الكبير يدعو لك والخلق كلهم يقولون آمين، و كل من يصل من المسلمين نكون له أقل الممالك، ونحفظهم ونسفرهم كما يحبون ويختارون، وأما الرسول الذي سَفَره فهو مريض، وبلادنا وخيمة، أي من مَرَض لا يقدر أحدٌ يدخل إليه، وأي من شم رائحته فيمرض فيموت. ونحن نحفظ كل من يأتي من بلاد المسلمين، فسيروا مطراناً يحفظهم.

(\*) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٨ / ص ١٢٣ - ١٢٤.

قلت: وقد تقدم الجواب عن هذا الكتاب من كلام القاضي محيي الدين ابن عبدالظاهر، في الكلام على الكتب الصادرة عن الأبواب السلطانية إلى أهل الجانب الجنوبي من أهل الكفر، ولكن الكتاب المذكور يخالف ما تقدم هناك من ادعائه العظمة، وأنه لولا اضطراره إلى أخذ المطران من بطريك الديار المصرية لكان يشمخ بنفسه عن المكاتبه، ولعل ذلك كان في الزمن المتقدم".



### الملحق رقم ( ٧ ) (\*)

وهو نسخة كتاب كُتِبَ به عن الإمام المستكفي بالله "أبي الربيع سليمان ابن الحاكم بأمر الله أحمد" إلى الملك المؤيد هزبر الدين داود بن الملك المظفر يوسف بن عمر بن رسول في دولة الناصر محمد بن قلاوون في سنة سبع وسبعمائة، حين منع صاحب اليمن الهدية التي جرت العادة بإرسالها إلى الأبواب الشريفة في الديار المصرية، وقد افتتح الكتاب بآية من القرآن هي قوله تعالى:

"﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾" (١) من عبدالله ووليه أبي الربيع سليمان: أما بعد حمد الله مانح القلوب السليمة هداها، ومرشد العقول إلى أمر معادها ومبداها، وموفق من اختاره إلى محجة صواب لا يضل سالكها، ولا تُظلم عند إخلاف الأمور العظام مسالكها، وملهم من اصطفاها لاقتفاء آثار السنن النبوية والعمل بموجبات القواعد الشرعية، والانتظام في سلك من طوقته الخلافة عقودها وأفضت على سدته الجليلة برودها، ومملكته أقاصي البلاد، وأناطت بأحكامه السديدة أمور العباد، وسارت تحت خوافق أعلامه أعلام الملوك الأكاسرة، وشيدت بأحكامه مناجح الدنيا ومصالح الآخرة، وتبختر كل منبر من ذكره في ثوب السيادة مُعَلِّم، وتهللت من ألقابه الشريفة أسارير كل دينار ودرهم.

(١) سورة النساء: آية ٥٩.

(\*) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٦/ ص ٤١٠ - ٤١٥.

يحمده أمير المؤمنين على أن أجعل أمور الخلافة بيني العباس منوطة، وجعلها كلمة باقية في عقبه إلى يوم القيامة محوطة، ويصلي على ابن عمه محمد الذي أحمد الله بمبعثه ما ثار من الفتن، وأطفأ برسالته ما اضطرم من نار الإحن، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والذين حموا حمى الخلافة وذاودا عن مواردنا، وعمدوا إلى تمهيد المعالم الدينية فأقاموها، صلاةً دائمة الغدو والرواح، متصلًا أولها بطرّة الليل وآخرها بجبين الصباح.

هذا وأن الدين الذي فرض الله على الكافة الانضمام إلى شعبه، وأطلع فيه شمس هداية تُشرق من مشرقه ولا تغرب في غربه، جعل الله حكمه بأمرنا منوطًا، وفي سلك أحكامنا مخروطًا، وقلدنا في أمر الخلافة المعظمة سيفًا طال نجاده، وكثر أعوانه وأنجاده، وفوض إلينا أمر الممالك الإسلامية وإلى حرماننا تجبى ثمراتها، ويرفع إلى ديواننا العزيز نفيها وإثباتها، يخلف الأسد إن مضى في غابه شبلة، ويُلقي في الحُبْر والحَبْر مثله.

ولما أفاض الله علينا حلة الخلافة، وجعل محلنا الشريف محل الرحمة والرافة، وأقعدنا على سدة خلافةٍ أشرقت بالخلائق من آبائنا، وابتهجت بالسادة الغطاريف من أسلافنا، وألبسنا خلعةً هي من سواد السؤدد مصبوغة، ومن سواد العيون وسوداوات القلوب مصبوغة، وأمضينا على سُدتنا الشريفة أمر الخاص والعام، وقلدنا كلَّ إقليمٍ من أعمالنا من يُصلح سياستها على الدوام، واستكفينا بالكُفاة من عمالنا على أعمالنا، واتخذنا مصر دار مُقامنا وبها سُدّة مَقامنا؛ لِمَا كانت في هذا العصر قبة الإسلام، وفيئة الإمام، وثانية دار السلام، تعيّن علينا أن نتصفح جرائد عمالنا، ونتأمل نظام أعمالنا، مكانًا فمكانًا، وزمانًا فزمانًا، فتصفحناها فوجدنا قطر اليمن خاليًا

من ولايتنا في هذا الزمن. عرّفنا هذا الأمر من اتخذناه للمالك الإسلامية عيناً وقلباً، وصدراً ولباً، وفوضنا إليه أمر الممالك الإسلامية فقام فيها مقاماً أقعد الأضداد، وأحسن في ترتيب ممالكها نهاية الإصدار وغاية الإيراد، وهو السلطان الأجل، السيد الملك الناصر المبجل، لا زالت أسباب المصالح على يديه جارية، وسحابة الإحسان من أفق راحته سارية، فلم يُعد جواباً لما ذكرناه، ولا عُذراً عما أبديناه، إلا بتجهيز شذمة من جحافل المشهورة، وتعيين أناسٍ من فوارسه المذكورة، يقتحمون الأهوال، ولا يعبؤون بتغيرات الأحوال، يرون الموت مغنماً إن صادفوه، وشبا المرهف مكسباً إن صافحوه، لا يشربون سوى المدام<sup>(١)</sup> مدامة، ولا يلبسون غير الترانك<sup>(٢)</sup> عمامة، ولا يعرفون طرباً إلا ما أصدره صليل الحسام من غنا، ولا ينزلون قفراً إلا ونبت ساعة نزولهم من قنا. ولما وثقنا منه بإنفاذهم راجعنا رأينا الشريف، فأقتضى أن يكاتب من بسط يده في ممالكها، واحتاط على جميع مسالكها، واتخذ أهلها خولاً<sup>(٣)</sup>، وأبدى في خلال ديارها من عدم سياسته خللاً.

برز مرسومنا الشريف النبوي أن يكاتب من قعد على تخت مملكتها، وتصرف في جميع أمور دولها، وطُولع بانه ولد السلطان الملك المظفر

(١) المدام: المطر الدائم، والمدام الثانية: دم الأعداء التي شبهها بالخمير؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ٣٠٥.

(٢) في الأصل (الترانك) بالنون - والأصح: (الترانك) بالهمزة وهي جمع تريكة، وهي بيضة الحديد للرأس تشببها بالتريكة التي هي البيضة؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ٨٤.

(٣) الخول، بالفتح: العبيد والإماء، تستعمل للواحد والجمع المذكر والمؤنث؛ انظر: المعجم الوسيط، ص ٢٦٣.

يوسف بن عمر الذي له شبهة تمسك بأذيال المواقف المستعصمية وهو مستصحب الحال علي زعمه، أو ما علم الفرق بين الأحياء والأموات؟ أو ما تحقق الحال التي بين النفي والإثبات؟ أصدرناها إلى الرحاب التعزية، والمعالم اليمينية تُشعر من تولى عنها فاستبد، وتولى كبره فلم يعرج علاّ أحد، أن أمر اليمن ما برحت نوابنا تحكم فيه بالآية الصحيحة، والتفويضات التي هي غير جريحة، وما زالت تحمل إلى بيت المال المعمور وما تمشي به الجمال مشياً وثيداً، وتقذفه بطون الجوارى إلى ظهور اليعملات<sup>(١)</sup> وليدًا، ويطالعنا بأمر مصالحة ومفاسده، وبحال دياره ومعاهده. ولك أسوة بوالدك فلان، هلا اقتفيت ما سنه من آثاره ونقلت ما دونته أيدي الزمن من أخباره؟

واتصل بمواقفنا الشريفة أمور صدرت منك، منها - وهي العظمى التي ترتب عليها ما ترتب - قطع الميرة<sup>(٢)</sup> عن البيت الحرام، وقد علمت أنه وادٍ غير ذي زرع، ولا يحل لأحد أن يتطرق إليه بمنع.

ومنها - انصبابك إلى تفريغ مال بيت المال في شراء لهو الحديث، ونقض العهود القديمة بما تبديه من حديث.

ومنها - تعطيل أجياد المنابر من عقود اسمنا، وخلو تلك الأماكن من أمور عقدنا وحلّنا. ولو أوضحنا لك ما اتصل بنا من أمرك لطلال، ولا تسعت

(١) اليعملات: ج يعملة، وهي الناقة النجيبة المعتملة المطبوعة أو الجمل الذي يعمل؛

انظر: المعجم الوسيط، ص ٦٢٨.

(٢) الميرة: الطعام الذي يدخره الإنسان، جمعها مير. والمقصود هنا المساعدة الغذائية؛

انظر: المعجم الوسيط، ص ٨٩٣.

فيه دائرة المقال، رسمنا بها والسيف يودُّ لو سبق القلم حده، والعلم المنصور يودُّ لو فات العلم واهتز بتلك الروابي قدّه، والكتائب المنصورة تختار لو بدرت عنوان الكتاب، وأهل العزم والحزم يودون إليك أعمال الركاب، والجواري المنشآت قد تكونت من ليلٍ ونهار، وبرزت كصور الأفيلة لكنها على وجه الماء كالأطيّار، وما عمدنا إلى مكانتك إلا للإنذار، ولا احتجنا إلى مخاطبتك إلا للإعذار، فأقلع عما أنت بصدده من الخيلاء والإعجاب، وانتظم في سلك من استخلفناه فأخذ بيمينه ما أعطي من كتاب، وضمن بالطاعة من زعمت أنهم مقيمون تحت لواء علمك، ومنتظمون في سلك أوامر كلمك، وداخلون تحت طاعة قلمك. فلسنا نشن الغارات على من نطق بالشهادتين لسانه وقلبه، وامثل أوامر الله المطاعة عقله ولبه، ودان بما يجب من الديانة، وتقلد عقود الصلاح والتحف مطارف الأمانة. ولسنا ممن يأمر بتجريد سيفٍ إلا على من علمنا أنه خرج عن طاعتنا، ورفض كتاب الله ونزع عن مبايعتنا. فأصدرنا مرسومنا هذا إليه نقص عليه من أبناء حلمنا ما أطال مدة دولته، وشيد قواعد صولته، ونستدعي منه رسولاً إلى مواقفنا الشريفة، ورحاب ممالكنا المنيفة؛ لينوب عنه في قبول الولاية مناب نفسه، وليجني بعد ذلك ثمار شفقاتنا إن غرس شجر طاعتها. ومن سعادة المرء أن يجني ثمار غرسه، بعد أن يُصحبه من ذخائر الأموال ما كثر قيمة وخف حملاً، وتعالى رتبة وحسن مثلاً، واشترط على نفسك في كل سنة قطيعة ترفعها إلى بيت المال، وإياك ثم إياك! أن تكون على هذا الأمر ممن مال، ورتب جيشاً مقيماً تحت علم السلطان الأجل الملك الناصر للقاء العدو المخذول التتار، ألحق الله أولهم بالهلاك وآخرهم بالبورار. وقد علمت

تفاصيل أحوالهم المشهورة، وتواريخ سيرهم المنكورة، فاحرص على أن يخلصك من هذا المشرب السائغ أوفر نصيب، وأن تكون ممن جهز جيشاً في سبيل الله فرمى بسهم فله أجر كان مصيباً أو [غير] مصيب، ليعود رسولك من دار الخلافة بتقاليدها وتشاريفها حاملاً أهلة أعلامنا المنصورة، شاكراً برّ مواقفنا المبرورة.

وإن أبى حالك إلا أن استمرت على غيك، واستمرت مرعى بغيك، فقد منعناك التصرف في البلاد، والنظر في أحكام العباد، حتى تطأ خيلنا العتاق مشمخرات حصونك، وتعجل حينئذ ساعة منونك. وما علّمناك غير ما علمه قلبك، ولا فهّمناك غير ما حدسه لبك، ولا تكن كالصغير يزيده كثرة التحريك نومًا، ولا ممن غره الإمهال يومًا فيومًا.

أعلمناك ذلك فاعمل بمقتضاه، موفقًا إن شاء الله تعالى.





## قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر المخطوطة :-

\* الجنداري: أحمد بن عبدالله (ت ١٣٣٧هـ/ ١٩١٧م).

١- الجامع الوجيز في وفيات العلماء أولي التبريز، مخطوطة بدار المخطوطات اليمنية بصنعاء، رقم (٣٢) تاريخ.

\* المعلم وطبوط: الحسين بن إسماعيل البجلي (ت ٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م).

٢- تاريخ المعلم وطبوط، نسخة مصورة من المخطوط، مكتبة الاستاذ/ عبدالودود المقشر.

\* الناطق بالحق يحيى بن الحسين بن هارون البطحان (ت ٤٢٤هـ/ ١٠٣٢م).

٣- الإفادة في تاريخ الأئمة السادة، نسخة مصورة من المخطوط في قرص صلب، بحوزة الدكتور/ رعد الموسوي.

\* يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي (ت ١١٠٠هـ/ ١٦٨٨م).

٤- أنباء الزمن في تاريخ اليمن، نسخة مصورة من المخطوط، يمتلك الدكتور: عبدالرحمن الشجاع نسخة منه.

ثانياً: المصادر المطبوعة:

\* إبراهيم بن القاسم (ت ١١٥٢هـ/ ١٧٤٠م).

٥- طبقات الزيدية الكبرى المسمى (بلوغ المراد إلى معرفة الإسناد)، تح: عبدالسلام بن عباس الوجيه، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية - عمان، ط ١- ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

\* ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م).

٦- الكامل في التاريخ، تح: مكتب التراث بمؤسسة التاريخ العربي، مؤسسة التاريخ العربي للنشر- بيروت، ط ٤- ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

\* الأفضل الملك الرسولي: العباس بن علي بن داود بن يوسف (ت ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م).

٧- العطايا السنوية والموهب الهنية في المناقب اليمنية، تح: عبدالواحد عبدالله أحمد الخامري، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

\* الأهدل: بدر الدين أبو عبدالله الحسين بن عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م).

- ٨- تحفة الزمن في تاريخ اليمن، تح: عبدالله محمد الحبشي، شركة دارالتنوير - بيروت، ط١-١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.
- \* ابن إياس: محمد بن أحمد بن إياس الحنفي (ت٩٣٠هـ/١٥٢٤م).
- ٩- بدائع الزهور في وقائع الدهور، تح: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، د.ط - ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- \* ابن بطوطة: محمد بن عبدالله اللواتي (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م).
- ١٠- رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تح: علي منتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط٤- ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- \* البنداري: الفتح بن علي (من مؤرخي القرن الثالث عشر الميلادي).
- ١١- سنا البرق الشامي (٥٦٢هـ-٥٨٣هـ)، تح: فتحية عبدالفتاح النبراي، دار اللواء - الرياض، ط٢- ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- \* ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م).
- ١٢- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تح: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، د.ط - ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- ١٣- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تقديم وتعليق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١- ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- \* ابن تيمية: شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني (ت٧٢٨هـ/١٣٢٥م).
- ١٤- مجموعة الفتاوى، تخريج: عامر الجزار وأنور الباز، مكتبة العبيكان - الرياض، ط١- ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- \* ابن جبير: أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي (ت٦١٤هـ/١٢١٧م).
- ١٥- رحلة ابن جبير، ذاكرة الكتابة للنشر - القاهرة، ط٢- ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- \* الجندي: بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م).
- ١٦- السلوك في طبقات العلماء والملوك، تح: محمد بن علي الأكوغ، مكتبة الإرشاد - صنعاء، ط١-١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- \* ابن الجوزي: أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م).
- ١٧- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دراسة وتح: محمد عبدالقادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط٢- ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- \* ابن الجوزي: شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي (ت٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م).

- ١٨- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تح: سعد بن سالم الغامدي، مركز إحياء التراث الإسلامي - مكة المكرمة، د.ط - ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- \* ابن حاتم: الأمير بدر الدين محمد بن حاتم بن أحمد بن عمران بن حاتم اليامي (توفي بعد سنة ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م).
- ١٩- السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن، تح: ركس سميث، لندن، د.ط - ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.
- \* ابن حبيب: الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م).
- ٢٠- تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تح: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، د.ط - ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.
- \* ابن خرداذبة: أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله (ت ٣٠٠هـ / ٩١٢م).
- ٢١- المسالك والممالك، تح: محمد محرم، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط١ - ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
- \* الخزرجي: موفق الدين أبو الحسن علي بن الحسن (ت ٨١٢هـ / ١٤٠٩م).
- ٢٢- العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تصحيح وتقييم: الشيخ محمد بسيوني عسل، دار صادر- بيروت، مطبعة الهلال - القاهرة، د.ط - ١٣٢٩هـ / ١٩١١م.
- ٢٣- العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك، مخطوط نشر وزارة الإعلام والثقافة - صنعاء، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
- \* ابن خلدون: عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م).
- ٢٤- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار القلم - بيروت، ط ٥ - ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- \* ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٣م).
- ٢٥- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، د.ط - د.ت.
- \* ابن دعثم: أبو فراس فاضل بن عباس (توفي في القرن السابع الهجري).
- ٢٦- السيرة المنصورية سيرة الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة، تح: عبدالغني محمود عبدالعاطي، دار الفكر المعاصر- بيروت، ط ١ - ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.
- \* ابن الدبيع: وجيه الدين عبدالرحمن بن علي (ت ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م).

- ٢٧- الفضل المزيدي على بغية المستفيد في أخبار مدينة زيد، تح: يوسف شلحد، مركز الدراسات والبحوث اليمني - صنعاء، د.ط - ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- ٢٨- قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تح: محمد بن علي الأكوغ، داربساط للنشر- بيروت، ط٢- ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨ م.
- \* الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ / ١٣٧٤م) .
- ٢٩- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر عبدالسلام تدمري، دارالكتاب العربي - بيروت، ط٢- ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م .
- ٣٠- دول الإسلام، تح: فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، د.ط - ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.
- ٣١- سير أعلام النبلاء، أشرف على التحقيق والتخريج: شعيب الارنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط٨ - ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.
- ٣٢- العبر في خبر من غبر، تح: أبو هاجر محمد سعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط - د.ت.
- \* الرازي: أحمد بن عبدالله بن محمد الصنعاني (ت٤٦٠هـ / ١٠٦٨م) .
- ٣٣- تاريخ مدينة صنعاء، تح: د. حسين العمري، صنعاء، ط٢- ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
- \* ابن رسته: أبو علي أحمد بن عمر (ت٢٩٥هـ / ٨٩٠م).
- ٣٤- الأعلام النفيسة، مطبعة بريل - ليدن، د.ط - ١٣٠٨هـ / ١٨٩١م.
- \* السخاوي: الإمام شمس الدين محمد بن عبدالرحمن (ت٩٠٢هـ / ١٤٩٨م) .
- ٣٥- التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١- ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.
- \* ابن سمرة: عمر بن علي بن سمرة الجعدي (ت٥٨٦هـ / ١١٩٠م) .
- ٣٦- طبقات فقهاء اليمن، تح: فؤاد سيد، دار القلم - بيروت، د.ط - د.ت.
- \* السيوطي: عبدالرحمن بن أبي بكر (ت٩١١هـ / ١٥٠٥م) .
- ٣٧- تاريخ الخلفاء، تح: محمد محي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة - القاهرة، ط١- ١٣٧١هـ / ١٩٥١م.
- \* أبو شامة: شهاب الدين أبو محمد عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت٦٦٥هـ / ١٢٦٧م).

- ٣٨- تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، تصحيح: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، دار الجبل - بيروت، ط ٢- ١٣٩٣هـ / ١٩٧٤م .
- ٣٩- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح: إبراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ١- ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
- \* ابن شداد: بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم (ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٩م).
- ٤٠- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تح: د. جمال الدين الشيال، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأبناء والنشر- القاهرة، ط ١- ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م.
- \* الشرجي: أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبداللطيف (ت ٨٩٣هـ / ١٤٨٨م) .
- ٤١- طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص، تح: عبدالله الحبشي، الدار اليمنية للنشر والتوزيع - صنعاء، ط ١- ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- \* الطبري: محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م).
- ٤٢- تاريخ الرسل والملوك، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف - القاهرة، ط ٥- د. ت .
- \* العاصمي: عبدالملك بن حسين بن عبدالملك (ت ١١١١هـ / ١٦٩٩م).
- ٤٣- سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، المكتبة السلفية - القاهرة، د. ط - ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م.
- \* العامري: يحيى بن أبي بكر (ت ٨٩٣هـ / ١٤٨٨م) .
- ٤٤- غربال الزمان في وفيات الأعيان، تح: محمد ناجي زغبى العمر، مطبعة زيد بن ثابت - دمشق، د. ط - ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- \* ابن عبدالمجيد: تاج الدين عبدالباقي بن عبدالمجيد اليماني (ت ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م).
- ٤٥- تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تح: مصطفى حجازي، دار الكلمة - صنعاء، ط ٢- ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- \* ابن العبري: غريغوريوس الملطي (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م).
- ٤٦- تاريخ مختصر الدول، دار الآفاق العربية - القاهرة، ط ١- ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.
- \* ابن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١هـ / ١١٧٥م) .
- ٤٧- تاريخ مدينة دمشق، تح: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، دار الفكر- بيروت، د. ط - ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.

- \* العماد الكاتب: القاضي عماد الدين الأصفهاني (ت٥٩٧هـ / ١٢٠٠م).  
 ٤٨- البرق الشامي، تح: فالح صالح حسين، مؤسسة عبدالحميد شومان - عمان،  
 ط١- ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- ٤٩- الفتح القسي في الفتح القدسي، تح: محمد محمود صبح، الشركة الدولية للطباعة  
 - القاهرة، د.ط - د.ت.
- \* ابن العماد: شمس الدين أبو الفلاح عبدالحي بن أحمد بن محمد الحنبلي  
 (ت١٠٨٩هـ / ١٦٧٧م).  
 ٥٠- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دراسة وتح: مصطفى عبدالقادر عطا، دار  
 القلم - بيروت، د.ط - د.ت .
- \* عمارة: نجم الدين عمارة بن علي بن محمد بن زيدان الحكمي (ت٥٦٩هـ/  
 ١١٧٣م).
- ٥١- تاريخ اليمن المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها وأعيانها  
 وأدبائها، تح: محمد بن علي الاكوع، المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع - صنعاء،  
 ط٣- ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- ٥٢- النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية، تصحيح هرتيوغ درنبرغ، مكتبة مدبولي  
 - القاهرة، ط٢- ١٤١١هـ / ١٩٩١م.
- \* العيني: بدر الدين محمود (ت٨٥٥هـ / ١٤٥١م).  
 ٥٣- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تح: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية  
 العامة للكتاب - القاهرة، د.ط - ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.
- \* الفاسي: الإمام أبو الطيب محمد بن أحمد بن علي (ت٨٣٢هـ / ١٤٢٩م).  
 ٥٤- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تح: لجنة من كبار العلماء والأدباء، دار الكتب  
 العلمية - بيروت، د.ط - د.ت.
- \* ابن الفرات: محمد بن عبدالرحيم بن علي بن محمد (ت٨٠٧هـ / ١٤٠٤م)  
 ٥٥- تاريخ ابن الفرات، تح: قسطنطين زريق، نجلاء عز الدين، بيروت، د.ط -  
 ١٣٥٧هـ / ١٩٣٩م.
- \* ابن فضل الله العمري: شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله بن المجلي بن  
 دعجان (ت٧٤٩هـ / ١٣٤٧م).  
 ٥٦- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (القسم الخاص بمملكة اليمن)، تح: أيمن

- فؤاد سيد، دار الاعتصام - القاهرة، د.ط - د.ت.
- \* ابن الفقيه الهمداني: أبوبكر أحمد بن إبراهيم (توفي في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي).
- ٥٧- مختصر كتاب البلدان، تح: دي جويه، ليدن، د.ط - ١٣٠١هـ / ١٨٨٤م.
- \* ابن أبي القبائل: أبو عبدالله محمد بن محمد بن مالك بن أبي القبائل الحمادي (ت ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م).
- ٥٨- كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، تح: محمد بن علي الأكوغ، مركز الدراسات والبحوث اليمني - صنعاء، ط١ - ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.
- \* القرشي: عز الدين عبدالعزيز بن عمر بن محمد (ت ٩٢٢هـ / ١٥٢٧م).
- ٥٩- غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تح: فهيم محمد شلتوت، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي - جامعة أم القرى، ط١ - ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- \* القلقشندي: أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م).
- ٦٠- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرح وتعليق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١ - ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- \* الكبسي: محمد بن إسماعيل (ت ١٣٠٨هـ / ١٣٧٢م).
- ٦١- اللطائف السنوية في أخبار الممالك اليمنية، تح: خالد أبا زيد الازدعي، مكتبة الجيل الجديد - صنعاء، ط١ - ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م.
- \* ابن كثير: الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م).
- ٦٢- البداية والنهاية، تح: لجنة تحقيق التراث بمؤسسة الهدى، دار التقوى - القاهرة، ط١ - ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.
- \* الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠هـ / ١٠٨٥م).
- ٦٣- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تح: عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية - القاهرة، د.ط - د.ت.
- \* ابن المجاور: جمال الدين يوسف بن يعقوب بن محمد الشيباني الدمشقي (ت ٦٩٠هـ / ١٢٩١م).
- ٦٤- صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسمى تاريخ المستبصر، عناية وتصحيح: أوسكار لوفجرين، شركة دار التنوير - بيروت، ط٢ - ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

- \* مجهول: مؤلف مجهول عاش في القرن التاسع الهجري.
- ٦٥- تاريخ الدولة الرسولية في اليمن، تح: عبدالله محمد الحبشي، دار الجيل الجديد - صنعاء، د.ط - ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- \* مجهول: مؤلف إنجليزي معاصر للحملة الصليبية الثالثة .
- ٦٦- الحرب الصليبية الثالثة، ترجمة وتعليق: د. حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، د.ط - ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م .
- \* مجهول: مؤلف مجهول معاصر للحروب الصليبية .
- ٦٧- ذيل وليم الصوري، تح: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، د.ط - ٢٠٠٢م.
- \* المحلي: حسام الدين حميد بن أحمد (ت٦٥٢هـ / ١٢٥٤م) .
- ٦٨ - الحدائق الوردية في مناقب أئمة الزيدية، مخطوطة مصورة، توزيع السيد حسين السياني الحسيني - صنعاء جوار جامع النهرين، مكتبة الدكتور/ عبدالرحمن الشجاع.
- \* بامخرمة: أبو محمد عبدالله الطيب بن عبدالله بن أحمد (ت٩٤٧هـ / ١٥٤٠م) .
- ٦٩ - تاريخ ثغر عدن، شركة دار التنوير - بيروت، ط٢ - ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.
- \* المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن الحسين (ت٣٤٥هـ / ٩٥٦م) .
- ٧٠- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تصحيح: يوسف البقاعي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط١ - ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.
- \* المقدسي: شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت٣٨٠هـ / ٩٩٠م)
- ٧١- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تح: غازي ظليمات، وزارة الثقافة - دمشق، د.ط - ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.
- \* المقرئزي: تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت٨٥٤هـ / ١٤٤١م).
- ٧٢- السلوك لمعرفة دول المملوك، تصحيح وتعليق: محمد مصطفى زيادة، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، ط٢ - ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م.
- ٧٣- كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار(الخطط المقرئزية)، دار صادر- بيروت، د.ط - د.ت.
- \* المنصوري: بيبرس نائب السلطنة في مصر (ت٧٢٥هـ / ١٣٢٢م).
- ٧٤- التحفة الملوكية في الدولة التركية، نشر وتقديم: د. عبدالحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية - القاهرة، ط١ - ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- \* ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت٦٣٠هـ / ١٢٣٢م)

- ٧٥- لسان العرب، دار صادر- بيروت، د.ط - د.ت.
- ٧٦- مختصر تاريخ دمشق، تح: إبراهيم صالح، دار الفكر- دمشق، ط١- ١٤٠٨هـ/  
١٩٨٨م.
- \* الهمداني: أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (توفي بين ٣٥٠هـ/ ٩٦١م  
و٣٦٠هـ/ ٩٧٠م).
- ٧٧- الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير، تح: محمد بن علي الأكوغ، وزارة  
الثقافة والسياحة - صنعاء، د.ط - ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.
- ٧٨- الجوهرتين العتيقتين المائعتين من الصفراء والبيضاء، تح: د. كريستوفر تول،  
ترجمة: د. يوسف محمد عبدالله، وزارة الإعلام والثقافة - صنعاء، ط٢- ١٤٠٥هـ/  
١٩٨٥م.
- ٧٩- صفة جزيرة العرب، تح: محمد بن علي الأكوغ، مركز الدراسات والبحوث  
اليمنية - صنعاء، ط٢- ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- \* ابن واصل: أبو عبدالله محمد بن سالم بن نصرالله المازني الحموي (ت٦٩٦هـ/  
١٢٩٨م).
- ٨٠- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تح: عمر عبدالسلام تدمري، المكتبة  
العصرية - بيروت، ط١- ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.
- \* الوصابي: وجيه الدين عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن بن عمر الحبشي  
(ت٧٨٣هـ/ ١٣٨٠م).
- ٨١- تاريخ وصاب المسمى الاعتبار في التواريخ والآثار، تح: عبدالله محمد الحبشي،  
مركز الدراسات والبحوث اليمني - صنعاء، ط١- ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- \* اليافعي: الإمام أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان (ت٧٦٨هـ/  
١٣٦٦م).
- ٨٢- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، دار الكتاب  
الإسلامي - القاهرة، ط٢- ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- \* ياقوت: ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)
- ٨٣- معجم البلدان، دار الفكر- بيروت، د.ط - د.ت.
- \* يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي (ت١١٠٠هـ/ ١٦٨٨م).

- ٨٤- غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى، تح: سعيد عبدالفتاح عاشور، دار الكاتب العربى - القاهرة، د.ط - ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م.
- \* اليونانى: الشيخ قطب الدين موسى بن محمد (ت٧٢٦هـ / ١٣٢٦م).
- ٨٥- ذيل مرآة الزمان من وقائع سنة ٦٥٤هـ إلى سنة ٦٦٢هـ، صحح بعناية وزارة التحات الحكيمية والأمر الثقافى للحكومة الهندية، دار الكتاب الإسلامى - القاهرة، ط٢- ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.

ثالثا: المراجع العربية والمعربة:

- \* إبراهيم حسن سعيد .
- ٨٦- البحرية فى عصر سلاطين الممالىك، دار المعارف - القاهرة، د.ط - د.ت.
- \* إبراهيم رزق الله أيوب.
- ٨٧- التاريخ السياسى الفاطمى، منشورات جامعة سبها، ط١- ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.
- \* أحمد شلى.
- ٨٨- موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامىة، مكتبة النهضة المصرىة - القاهرة، ط١١- ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .
- \* أحمد صادق سعد .
- ٨٩- تاريخ مصر الاجتماعى - الاقتصادى، دار ابن خلدون - بيروت، ط١-
- ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.
- \* أحمد فخرى .
- ٩٠- اليمن ما ضيها وحاضرها، المكتبة اليمنىة للنشر والتوزىع - صنعاء، ط٢-
- ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
- \* أسامة أحمد حماد.
- ٩١- مظاهر الحضارة الإسلامىة فى اليمن فى العصر الإسلامى (عصر دولتى بنى أيوب وبنى رسول) مركز الإسكندرىة للكتاب - الإسكندرىة، د. ط - د.ت .
- \* الأشقر: محمد عبدالغنى .
- ٩٢- تجار التوابل فى مصر فى العصر المملوكى، الهيئة المصرىة العامة للكتاب - القاهرة، د.ط - ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.

- \* الأكوع: محمد بن علي .  
٩٣- الوثائق السياسية اليمنية من قبيل الإسلام إلى سنة ٣٣٢هـ، دار الحرية - بغداد، ط١ - ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.
- \* أويان: جان .  
٩٤- مملكة هرمز، ترجمة: نادية عمر صبري، مركز الوثائق والبحوث - أبوظبي، ط١ - ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.
- \* أيمن فؤاد سيد .  
٩٥- تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجري، الدار المصرية اللبنانية - القاهرة، ط١ - ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- \* البرغوثي: عمر صالح، طوطح: خليل .  
٩٦- تاريخ فلسطين، دار المعارف - القاهرة، د.ط - د.ت.  
\* بروي: إدوارد وآخرون.
- ٩٧- تاريخ الحضارات العام (القرون الوسطي) نقله إلى العربية: يوسف أسعد داغر، فريد م. داغر، عويدات للنشر والطباعة - بيروت، د.ط - ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م.
- \* بعكر: عبدالرحمن طيب .  
٩٨- كواكب يمنية في سماء الإسلام، دار الفكر - دمشق، د.ط - د.ت.  
\* البيومي إسماعيل .
- ٩٩- النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، د.ط - ١٤٢٨هـ / ١٩٩٨م .  
\* ترسيبي: عرفات.
- ١٠٠- بلاد سبأ وحضارات العرب الأولى اليمن (العربية السعيدة)، دار الفكر المعاصر - بيروت، ط٢ - ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.
- \* جب: سير هاملتون أ. ر .  
١٠١- صلاح الدين الأيوبي، حررها: يوسف إبيش، بيسان للنشر - بيروت، ط٢ - ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.
- \* جرادات: وليد محمد.  
١٠٢- الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر بين الماضي والحاضر، دار الثقافة -

- الدوحة، ط١-١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- \* الجرافي: القاضي عبدالله عبدالكريم .
- ١٠٣- المقتطف من تاريخ اليمن، تقديم: إلياس عبود، مؤسسة دار الكتاب الحديث - بيروت، ط٢- ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- \* الجرو: أسهان سعيد .
- ١٠٤- التاريخ السياسي لجنوب شبه الجزيرة العربية (اليمن القديم)، مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعية - إربد، د.ط - ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.
- \* الجمل: شوقي .
- ١٠٥- المغرب العربي الكبير، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات - القاهرة، ط٢- ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
- \* جميل حرب محمد .
- ١٠٦- الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، تهامة للنشر - جدة، ط١- ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- \* الجنزوري: علي عبدالسميع .
- ١٠٧- الحروب الصليبية (المقدمات السياسية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، د.ط - ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.
- \* حاطوم: نور الدين .
- ١٠٨- تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، دار الفكر- دمشق، د.ط - ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
- \* الحبشي: حسين علي .
- ١٠٩- اليمن والبحر الأحمر الوضع والموقع، دار الفكر المعاصر- بيروت، ط١- ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.
- \* الحججي: حياة ناصر .
- ١١٠- أحوال العامة في حكم المماليك (٦٧٨هـ / ١٢٧٩م - ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م)، شركة كاظمه للنشر والتوزيع - الكويت، ط١- ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- \* حتي: فيليب وآخرون .
- ١١١- تاريخ العرب، دار غندور- بيروت، ط٧- ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- \* الحداد: حمزة إسماعيل.

- ١١٢- السلطان المنصور قلاوون، مكتبة مدبولي - القاهرة، ط٢- ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.  
\* الحداد: عبدالله عبدالسلام صالح .
- ١١٣- الاستحكامات الحربية لمدينة زبيد منذ نشأتها وحتى نهاية الدولة الطاهرية، وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء، د.ط - ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م.  
\* الحداد: محمد يحيى .
- ١١٤- التاريخ العام لليمن، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء، د.ط - ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م.  
\* حردان: طاهر حيدر .
- ١١٥- مبادئ الاقتصاد، دار المستقبل - عمان، ط١- ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.  
\* حسن سليمان محمود .
- ١١٦- تاريخ اليمن السياسي في العصر الإسلامي، المجمع العلمي العراقي - بغداد، ط١- ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م.  
\* الحقييل: عبدالكريم بن محمد بن إبراهيم .
- ١١٧- من أحداث وأخبار الجزيرة العربية من عام ٥٠٠هـ الي عام ١٤١٦هـ، مطابع الفرزدق - الرياض، ط١- ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.  
\* حلمي عبدالمنعم .
- ١١٨- المغول والمماليك السياسية والصراع العربي للنشر والتوزيع - القاهرة، ط١- ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.  
\* الحميدة: سالم محمد .
- ١١٩- الحروب الصليبية، دار الشؤون الثقافية - بغداد، ط١- ١٤٢٠هـ / ١٩٩٠م.  
\* حوات: محمد علي .
- ١٢٠- مضيق باب المندب أهميته الاستراتيجية وتأثيرها على الأمن القومي العربي، مكتبة مدبولي - القاهرة، د.ط - د.ت .  
\* الخطيب: إبراهيم سليمان .
- ١٢١- القدس بين أطماع الصليبيين وتفريط الملك الكامل، دار المناهج - عمان، ط١- ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.  
\* الدجيلي: محمد رضا حسن .
- ١٢٢- الحياة الفكرية في اليمن في القرن السادس الهجري، مركز دراسات الخليج

- العربي - جامعة البصرة، د.ط - ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.  
\* رابوروف: ميخائيل .
- ١٢٣- الصليبيون في الشرق، ترجمة: إلياس شاهين، دار التقدم - موسكو، د.ط -  
١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.  
\* ربيع: حسين محمد .
- ١٢٤- البحر الأحمر في العصر الأيوبي، سمنار الدراسات العليا والبحث العلمي -  
جامعة عين شمس حول البحر الأحمر في التاريخ والسياسية الدولية المعاصرة،  
إشراف: أحمد عزت عبدالكريم - القاهرة، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.  
\* رستون: جيمس الابن .
- ١٢٥- مقاتلون في سبيل الله (صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد والحملة  
الصليبية الثالثة)، نقله إلى العربية: رضوان السيد، مكتبة العبيكان - الرياض، ط١-  
١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م .  
\* رنسيما: ستيفن .
- ١٢٦- تاريخ الحروب الصليبية، نقله إلى العربية: السيد الباز العريني، دار الثقافة -  
بيروت، د.ط - ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .
- ١٢٧- الحضارة البيزنطية، ترجمة: عبدالعزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة  
للكتاب - القاهرة، ط٢- ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .
- ١٢٨- الحملات الصليبية من كليرمونت إلى أورشليم، ترجمة: نور الدين خليل، الهيئة  
المصرية العامة للكتاب - القاهرة، د.ط - ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .  
\* زكار: سهيل .
- ١٢٩- الحروب الصليبية، دار حسان للطباعة والنشر- دمشق، ط١- ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.  
\* زيد علي محمد .
- ١٣٠- تيارات معتزلة اليمن في القرن السادس الهجري، المركز الفرنسي للدراسات  
اليمنية - صنعاء، ط١- ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .  
\* الساداتي: أحمد محمود .
- ١٣١- تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، مكتبة الآداب - القاهرة،  
د.ط - د.ت.  
\* سانوتو: مارينو .

- ١٣٢- كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها، نقله إلى العربية الأب سليم رزق الله، دار الريحاني للطباعة والنشر- بيروت، ط١- ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- \* سرور: جمال الدين .
- ١٣٣- مصر في عصر الدولة الفاطمية، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة، د.ط - ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م.
- \* السروري: محمد عبده .
- ١٣٤- الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن عهد الدويلات المستقلة، وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء، د.ط - ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.
- \* سلامة: جلال حسن .
- ١٣٥- عكا أثناء الحملة الصليبية الثالثة، دار الفاروق - نابلس، ط١- ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- \* السلطان: عبدالله عبدالمحسن.
- ١٣٦- البحر الأحمر والصراع العربي - الإسرائيلي التنافس بين استراتيجيتين، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٣- ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- \* السيد عبدالعزيز سالم .
- ١٣٧- البحر الأحمر في التاريخ الاسلامي، مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية، د.ط - ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- ١٣٨- تاريخ الدولة العربية، مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية، د.ط - ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
- \* السيد عبدالعزيز سالم وسحر السيد عبدالعزيز
- ١٣٩- دراسة في تاريخ الأيوبيين والمماليك، مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية، د.ط - د.ت.
- ١٤٠- معالم التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية، د.ط - ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.
- \* الشجاع: عبدالرحمن عبدالواحد .
- ١٤١- تاريخ اليمن في الإسلام في القرون الأربعة الهجرية الأولى، مكتبة الإحسان -

- صنعاء، ط ٥ - ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م.
- ١٤٢- اليمن في عيون الرحالة، دار الفكر- دمشق، ط١- ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.
- ١٤٣- اليمن في صدر الإسلام، دار الفكر- دمشق، ط١- ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- \* الشمري: محمد كريم إبراهيم .
- ١٤٤- زهور السوسن في تاريخ عدن - اليمن، إصدارات جامعة عدن، ط١- ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م.
- ١٤٥- عدن دراسة في أحوالها السياسية والاقتصادية (٤٧٦ - ٦٢٧هـ / ١٠٨٣ - ١٢٢٩م)، إصدارات جامعة عدن، ط١- ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م.
- \* الشميري: فؤاد عبدالغني محمد .
- ١٤٦- تاريخ اليمن سياسياً وإعلامياً من خلال النقود العربية الإسلامية للفترة ما بين القرنين (الثالث والتاسع الهجريين)، وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء، د.ط - ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م.
- \* شهاب: حسن صالح.
- ١٤٧- عدن فرضة اليمن، مركز الدراسات والبحوث اليمني - صنعاء، ط١- ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.
- \* الشيال: جمال الدين .
- ١٤٨- تاريخ دولة أباطرة المغول الإسلامية في الهند، مكتبة الثقافة الدينية - الإسكندرية، ط١- ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.
- ١٤٩- تاريخ مصر الإسلامية، دار المعارف - القاهرة، د.ط - د.ت .
- \* الشيبة: عبدالله حسن .
- ١٥٠- دراسات في تاريخ اليمن القديم، مكتبة الوعي الثوري - تعز، ط١- ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.
- \* صادق عبده علي.
- ١٥١- التطور التاريخي للهوية الوطنية اليمنية، وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء، د.ط - ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م.
- ١٥٢- الهوية السياسية والحضارية لليمن في التاريخ القديم والإسلامي، وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء، د.ط - ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م.

- \* الصلابي: علي محمد .  
 ١٥٣- دولة السلاجقة، دار المعرفة - بيروت، ط١- ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٦م.  
 ١٥٤- عصر الدولة الزنكية، مؤسسة اقرأ - القاهرة، ط١- ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٧م.  
 \* ضومط: أنطوان خليل .  
 ١٥٥- الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري، دار الحداثة - بيروت، د.ط - ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.  
 \* الطحاوي: حاتم عبدالرحمن.  
 ١٥٦- الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية - القاهرة، ط١- ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.  
 \* طقوش: محمد سهيل .  
 ١٥٧- تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقيا ومصر وبلاد الشام، دار النفائس - بيروت، ط١- ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.  
 \* طلّس: محمد أسعد .  
 ١٥٨- تاريخ العرب، دار الأندلس - بيروت، ط٣- ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.  
 \* عاشور: سعيد عبدالفتاح .  
 ١٥٩- الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة، ط٤- ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.  
 ١٦٠- العصر المماليكي في مصر وبلاد الشام، ط١- ١٣٨٤هـ / ١٩٦٥م.  
 \* عاشور: قايد حماد محمد .  
 ١٦١- جهاد المسلمين في الحروب الصليبية (العصر الفاطمي والسلجوقي والزنكي)، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.  
 \* العبادي: أحمد صالح محمد.  
 ١٦٢- اليمن في المصادر القديمة اليونانية والرومانية، وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م.  
 \* العبادي: أحمد مختار .  
 ١٦٣- في التاريخ العباسي والفاطمي، مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية.  
 ١٦٤- قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية.

- ١٦٥- في التاريخ الأيوبي والمملوكي، مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية.  
\* العبادي: أحمد مختار وسالم: السيد عبدالعزيز .
- ١٦٦- تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، دار النهضة العربية - بيروت،  
١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- \* العرشي: القاضي حسين بن محمد .
- ١٦٧- بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولى ملك اليمن من ملك وإمام، عني  
بنشره الأب أنستاس الكرملي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٣٥٨هـ/  
١٩٣٩م.
- \* العريني: السيد الباز .
- ١٦٨- المغول، دار النهضة العربية - بيروت، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- ١٦٩- الممالك، دار النهضة العربية - بيروت.
- \* العسيري: محمد بن علي .
- ١٧٠- الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن في العصر الأيوبي، دار المدني -  
جدة، ط١- ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .
- \* عماد الدين خليل وفايز الربيع .
- ١٧١- الوسيط في الحضارة الإسلامية، دار الحامد للنشر- عمان، ط١- ١٤٢٢هـ/  
٢٠٠٢م.
- \* عمر كمال توفيق.
- ١٧٢- الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين، مؤسسة شباب الجامعة  
- الإسكندرية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- \* عوض: محمد مؤنس .
- ١٧٣- الحروب الصليبية والعلاقات بين الشرق والغرب، عين للدراسات والبحوث  
الإنسانية والاجتماعية - القاهرة، ط١- ١٩٩٩م - ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م .
- ١٧٤- الحروب الصليبية (السياسية، الحياة، العقيدة)، عين للدراسات والبحوث  
الإنسانية والاجتماعية، ط١- ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
- ١٧٥- الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩م - ١١٨٧م، مكتبة  
مدبولي - القاهرة، ط١- ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

- \* ابن فيض الله: حسين بن فيض الله الهمداني .  
 ١٧٦- الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن من سنة (٢٧٨هـ إلى سنة ٦٢٦هـ)،  
 إصدارات وزارة الثقافة والسياحة- صنعاء، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م.
- \* قاسم عبده قاسم.  
 ١٧٧- في تاريخ الأيوبيين والمماليك، عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية -  
 القاهرة، ط١- ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.
- ١٧٨- ماهية الحروب الصليبية، سلسلة عالم المعرفة الصادرة عن المجلس الوطني  
 للثقافة والفنون والآداب - الكويت، العدد (١٤٩)، شوال ١٤١٠هـ / مايو ١٩٩٠م.
- \* قاسم عبده قاسم وعلي السيد.  
 ١٧٩- الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري، عين للدراسات والبحوث  
 الإنسانية والاجتماعية - القاهرة، ط٢- ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م .
- \* كانتور: نورمان، ف .  
 ١٨٠- التاريخ الوسيط، ترجمة: قاسم عبده قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية  
 والاجتماعية - القاهرة، ط٦- ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.
- \* لقمان: حمزة علي .  
 ١٨١- تاريخ عدن وجنوب شبه الجزيرة العربية، ط٢- ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م .
- \* ماركو بولو.  
 ١٨٢- رحلة ماركو بولو، ترجمة: عبدالعزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب -  
 القاهرة، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.
- \* محمد حلمي أحمد .  
 ١٨٣- مصر والشام والصليبيون، ط٢- ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
- \* محمد عبدالعال .  
 ١٨٤- بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما، الهيئة المصرية  
 العامة للكتاب - فرع الإسكندرية، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.
- ١٨٥- الأيوبيون في اليمن، الهيئة المصرية العامة للكتاب - فرع الإسكندرية،  
 ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
- \* محمد ماهر حمادة .  
 ١٨٦- وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الاسلامي، مؤسسة الرسالة -

- بيروت، ط٣- ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .
- \* المطاع: أحمد بن أحمد بن محمد .
- ١٨٧- تاريخ اليمن الإسلامي من سنة ٢٠٤هـ إلى سنة ١٠٠٦هـ، تح: عبدالله محمد الحبشي، دار التنوير- بيروت، ط١- ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- \* بامطرف: محمد عبدالقادر .
- ١٨٨- جامع شمل أعلام المهاجرين المنتمين إلى اليمن وقبائلهم، الهيئة العامة للكتاب - صنعاء، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.
- \* المعاضيدي: خاشع وزملاؤه .
- ١٨٩- الوطن العربي والغزو الصليبي، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي - بغداد.
- \* معلوف: أمين .
- ١٩٠- الحروب الصليبية كما رآها العرب، ترجمة: عفيف دمشقية، دار الفارابي - بيروت، ط٢- ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.
- \* الناصر: محمد حامد .
- ١٩١- الجهاد والتجديد في القرن السادس الهجري عهد نور الدين وصلاح الدين، مكتبة الكوثر- الرياض، ط١- ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.
- \* هامرتون: السير. جون .
- ١٩٢- تاريخ العالم، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة، ط٢.
- \* الواسعي: عبدالواسع بن يحيى .
- ١٩٣- تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، دار اليمن الكبرى - صنعاء، ط٢- ١٤١١هـ / ١٩٩١م.
- \* الوجيه: عبدالسلام بن عباس .
- ١٩٤- أعلام المؤلفين الزيدية، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية - عمان، ط١- ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.
- \* ولز: ه. ج.
- ١٩٥- معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة: عبدالعزيز توفيق جاويد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة، ط٣- ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .
- \* يوسف: جوزيف نسيم.
- ١٩٦- تاريخ العصور الوسطى الأوربية وحضارتها، دار النهضة العربية - بيروت، ط٢-

١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

- ١٩٧- العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- ١٩٨- العدوان الصليبي على بلاد الشام هزيمة لوسي التاسع في الأراضي المقدسة، مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية .

رابعًا: الدوريات:

\* بيضاني: إيمان محمد .

- ١٩٩- عدن في مصنف ابن المجاور وابن بطوطة، مجلة اليمن الصادرة عن مركز البحوث والدراسات اليمنية - جامعة عدن، العدد (٢٣)، جمادى الأولى ١٤٢٧هـ / مايو ٢٠٠٦م.

\* حطيط: محمد.

- ٢٠٠- الكارمية وتجارة الكارم في عصر المماليك، مجلة الفكر العربي - العدد (٥٤)، ديسمبر - ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

\* السروري: محمد عبده .

- ٢٠١- عوامل ازدهار النشاط التجاري بين مدن بحر القلزم في العصر الإسلامي من القرن الثالث الهجري وحتى القرن السابع الهجري، مجلة الإكليل الصادرة عن وزارة الإعلام والثقافة - صنعاء، العدد (٢٧)، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.

\* شائف عبده سعيد .

- ٢٠٢- الحياة الاقتصادية في اليمن لدى الجغرافيين العرب في العصور الوسطى، مجلة دراسات يمنية الصادرة عن مركز الدراسات والبحوث اليمني - صنعاء، العدد (٤١)، ذو الحجة - ١٤١٠هـ / يوليو - ١٩٩٠م.

\* قائد حميد عثمان .

- ٢٠٣- تجارة الكارم... ودور مدينة عدن في النشاط التجاري الدولي منذ عهد الزريعيين حتى نهاية حكم بني رسول، مجلة اليمن الصادرة عن مركز البحوث والدراسات اليمنية - جامعة عدن، العدد (٢٣)، جمادى الأولى ١٤٢٧هـ / مايو ٢٠٠٦م.

خامسًا: الموسوعات والمعاجم:

\* رزق: عاصم.

- ٢٠٤- معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي - القاهرة، ط١-

- ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.
- ٢٠٥- المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية - إستانبول، ط٢- ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.
- \* إبراهيم: مصطفى وآخرون .
- ٢٠٦- الموسوعة العربية الميسرة، الجمعية المصرية لنشر المعرفة، دار الجبل - القاهرة، ط٢- ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.
- ٢٠٧- الموسوعة اليمنية، مؤسسة العفيف الثقافية، ط٢- ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م.
- \* المقحفي: إبراهيم أحمد .
- ٢٠٨- معجم البلدان والقبائل اليمنية، دار الكلمة - صنعاء، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.
- سادساً: الرسائل الجامعية غير المنشورة:
- \* العراشي: عبدالحكيم محمد ثابت .
- ٢٠٩- الدولة الرسولية في عهد السلطان المظفر الأول يوسف بن عمر (٦٤٧هـ/ ٦٩٤هـ)، رسالة ماجستير بكلية الآداب - جامعة عدن، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.
- \* عليان: محمد عبدالفتاح.
- ٢١٠- الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في عهد دولة بني رسول باليمن، رسالة دكتوراه بكلية الآداب - جامعة القاهرة، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.
- \* غزالي: نصاري فهمي.
- ٢١١- العلاقات المصرية اليمنية على عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية وتأثيرها السياسي والحضاري في اليمن، رسالة دكتوراه بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- \* المندعي: داود داود عبدالهادي.
- ٢١٢- تاريخ اليمن الاقتصادي من القرن الرابع الهجري إلى القرن السادس الهجري، رسالة دكتوراه بكلية الدراسات العليا - الجامعة الأردنية، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
- سابعاً: المراجع الأجنبية:

\* Bryer.

213- Cultural relations between east and west in the twelfth century, Edinburge - 1973.

\* Cipolla.

214- Money, Prices and civilization in the Mediterranean world, Princeton -1950.

\* Fishel.

215- Jews in the economic and political life of the medieval Islam, London - 1937.

\* Gibb. H. A. R.

- 216- "The Arabic sources for the life of Saladin" in *speculum*, (25) - 1950.  
 \* Gilchrist, J.
- 217- *The church and Economic activity in the middle ages*, New York - 1969.  
 \* Heyd, W.
- 218- *Histoire du commerce de Levant* (trans. Furcy raynaud, 2<sup>nd</sup> reimp), 2<sup>nd</sup> vol,  
 Leipzig - 1936.  
 \* Howorth, H. H.
- 219- *History of the Mongols*, 5<sup>th</sup> vol, London - 1876.  
 \* Munro, D. C.
- 220- *The kingdom of the Crusaders*, New York - 1936.  
 \* Peters, Ed.
- 221- *The first Crusade - the chronicle of fulcher of charters and other source materi-  
 als*, Univ of Pennsylvania press - 1971.  
 \* Phroop, P.A.
- 222- *Criticism of the Crusade, A study of public opinion and Crusade propaganda*,  
 Philadelphia - 1975.  
 \* Pirenn, H.
- 223- *Economic and Social history of medieval Europe*, Trans. By L.E cloggy. Lon-  
 don - 1978.  
 \* Robert, S. Lopez.
- 224- *The commercial revolution of the middle ages 950 - 1350*, Cambridge Univ. -  
 1974.  
 \* Setton, K. M.
- 225- *History of the Crusades*, philadelphia - 1953.  
 \* Smai, R. C.
- 226- *The Crusaders in Syria and the holy land*, Southampton - 1973.  
 \* Unger, R.
- 227- *The ship in Medieval Ecomomic (1000 - 1600)*, London - 1980.





## الفهرس

العنوان	الصفحة
إهداء	٧.....
شكر وتقدير	٩.....
تقديم	١١.....
المقدمة	١٧.....
التمهيد	٢٧.....
الفصل الأول: الأوضاع السياسية في اليمن وأهميتها في المنطقة	٤٩.....
المبحث الأول: القوى السياسية في اليمن خلال القرنين السادس والسابع الهجريين	٥١.....
أولاً: القوى السياسية في اليمن قبيل الحكم الأيوبي	٥٢.....
١- الزيدية	٥٢.....
٢- الإسماعيلية	٦١.....
أ- الدولة الصليحية	٦٢.....
ب- دولة بني حاتم	٦٦.....
ج- دولة بني زريع	٦٨.....
٣- دولة بني نجاح	٧٠.....
٤- دولة بني مهدي	٧٣.....
ثانياً: دولة بني أيوب في اليمن	٧٦.....

- ثالثاً: الدولة الرسولية ..... ٨٠.....
- المبحث الثاني: اليمن وأهميتها السياسية والاقتصادية في المنطقة ..... ٨٦.....
- أولاً: أهمية اليمن السياسية في المنطقة ..... ٨٦.....
- ١- أهمية موقع اليمن وأثر ذلك في علاقتها بدول الجوار ..... ٨٦.....
- ٢- اليمن ودورها في الملاحة البحرية ..... ٨٩.....
- ٣- اليمن والحجاز ..... ٩٢.....
- ثانياً: أهمية اليمن الاقتصادية ..... ٩٤.....
- ١- الزراعة ..... ٩٥.....
- ٢- الثروة الحيوانية البرية والبحرية ..... ٩٧.....
- ٣- الصناعة والتعدين ..... ٩٩.....
- ٤- التجارة ..... ١٠٢.....
- الفصل الثاني: الموقف السياسي (الرسمي) ..... ١١١.....
- المبحث الأول: موقف اليمن قبيل الحكم الأيوبي ..... ١١٨.....
- أولاً: موقف القوى السياسية في اليمن قبيل الحكم الأيوبي ..... ١١٨.....
- ١- الزيدية ..... ١١٨.....
- ٢- الإسماعيلية ..... ١٢٣.....
- ٣- النجاشيون ..... ١٢٥.....
- ثانياً: تداعيات الأوضاع في اليمن وانعكاساتها على أمن المنطقة... ١٢٧.....
- ١- دولة بني مهدي ونشاطها العسكري ..... ١٢٧.....
- ٢- القرصنة البحرية وتهديدها للملاحة في المنطقة ..... ١٣٠.....
- ٣- محاولات الصليبيين النفاذ إلى البحر الأحمر والحجاز ..... ١٣٢.....

- المبحث الثاني: موقف اليمن السياسي تحت الإدارة الأيوبية ..... ١٣٩
- أولاً: أسباب اهتمام الأيوبيين باليمن ..... ١٤٠
- ١- روايات المؤرخين حول أسباب حملة توران شاه على اليمن ..... ١٤٠
- ٢- استقراء الأسباب التي جعلت صلاح الدين يعمل على ضم اليمن إلى سلطانه ..... ١٤٥
- أ- الأسباب السياسية ..... ١٤٦
- ب- الأسباب العسكرية ..... ١٤٧
- ج- الأسباب الاقتصادية ..... ١٤٧
- ثانياً: النتائج السياسية لتولي الأيوبيين زمام الإدارة في اليمن ..... ١٤٧
- ١- القضاء على الكيانات السياسية المتنازعة في اليمن ..... ١٥٠
- ٢- توطيد سلطة الخلافة العباسية ..... ١٥٢
- ٣- القضاء على بقايا الفاطميين في المنطقة ..... ١٦٢
- ٤- إحكام السيطرة الأيوبية على البحر الأحمر ..... ١٦٩
- المبحث الثالث: موقف اليمن السياسي خلال الحكم الرسولي ..... ١٧٥
- أولاً: علاقة بني رسول السياسية بمصر وبغداد ..... ١٧٦
- ١- علاقة بني رسول بمصر ..... ١٧٦
- ٢- علاقة بني رسول ببغداد ..... ١٨١
- ثانياً: المراسلات ..... ١٨٥
- ١- السلطان المظفر سيف الدين قطز (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) ..... ١٨٨
- ٢- السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) -

- ١٨٩..... (١٢٧٨هـ/م) ١٨٩.....
- ٣- السلطان المنصور قلاوون (٦٧٧هـ/١٢٧٩م)-
- ١٩٢..... (١٢٩٠هـ/م) ١٩٢.....
- ١٩٥..... ثالثاً: دور اليمن في عزل الحبشة عن القوى الصليبية ١٩٥.....
- ١- أهمية التحالف مع الحبشة بالنسبة للصليبيين ١٩٦.....
- ٢- سياسة اليمن ودورها في عزل الحبشة عن الصليبيين ١٩٩.....
- ٢٠٥..... الفصل الثالث: الدعم اليمني المالي والعسكري ٢٠٥.....
- ٢١١..... المبحث الأول: الدعم المالي. ٢١١.....
- أولاً: الدعم المالي من اليمن خلال الحكم الأيوبي ٢١٣.....
- ثانياً: الدعم المالي من اليمن خلال الحكم الرسولي ٢٢٢.....
- ٢٣١..... المبحث الثاني: الدعم العسكري ٢٣١.....
- أولاً: العتاد والخيول ٢٣٢.....
- ثانياً: المقاتلون ٢٣٦.....
- ٢٤٤..... المبحث الثالث: دور اليمن في حفظ أمن المنطقة ٢٤٤.....
- أولاً: اليمن ودورها في ضمان استقرار الحجاز وأمنه ٢٤٦.....
- ثانياً: اليمن ودورها في تأمين الحركة الملاحية في البحر الأحمر... ٢٥٥.....
- ٢٦٧..... الفصل الرابع: دور اليمن الاقتصادي ٢٦٧.....
- المبحث الأول: الانعكاسات الاقتصادية للوجود الصليبي
- في المنطقة ٢٧٣.....
- أولاً: المقومات الاقتصادية للقوى الصليبية في الشرق ٢٧٦.....
- ١- السيطرة على المعابر التجارية الشرقية والتحكم بمنافذها ٢٧٧.....

## ٢- إحتكار التجارة مع أوروبا عبر السيطرة على

- الموانئ الإسلامية ..... ٢٧٩
- ثانياً: انعكاسات السياسة الاقتصادية للصليبيين على اليمن ..... ٢٨٦
- المبحث الثاني: موقف اليمن الاقتصادي من الحروب الصليبية ..... ٢٩١
- أولاً: موقف اليمن الاقتصادي قبيل الحكم الأيوبي ..... ٢٩١
- ١- تشتت موارد اليمن بسبب الصراعات والحروب ..... ٢٩١
- ٢- تدهور الحركة التجارية في البحر الأحمر ..... ٢٩٣
- ثانياً: موقف اليمن الاقتصادي خلال الحكم الأيوبي والرسولي ..... ٢٩٣
- ١- استثمار موارد اليمن الاقتصادية ..... ٢٩٥
- ٢- دعم الحركة التجارية في البحر الأحمر وتنشيطها ..... ٢٩٨
- ٣- دعم التجارة الكارمية ..... ٣٠٣
- الفصل الخامس: موقف اليمن الشعبي ..... ٣٠٩

## المبحث الأول: نماذج من مواقف اليمنيين المقيمين في مصر

- وبلاد الشام ..... ٣١٧
- أولاً: نجم الدين عمارة اليمني ..... ٣١٧
- ثانياً: الإمام محمد بن يحيى الزبيدي ..... ٣٣١
- ثالثاً: الشيخ عبدالرحمن اليمني ..... ٣٣٥
- المبحث الثاني: نماذج محلية لمواقف أهل اليمن ..... ٣٣٦
- أولاً: الشيخ الجليل أبو محمد سفيان بن عبدالله الأيبي ..... ٣٣٦
- ثانياً: الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة ..... ٣٣٧
- ثالثاً: نموذج لدور المرأة في دعم الجهاد ضد الصليبيين ..... ٣٤٠

٣٤١.....	الخاتمة
٣٤٥.....	الملاحق
٣٨٥.....	قائمة المصادر والمراجع
٤٠٩.....	الفهرس

